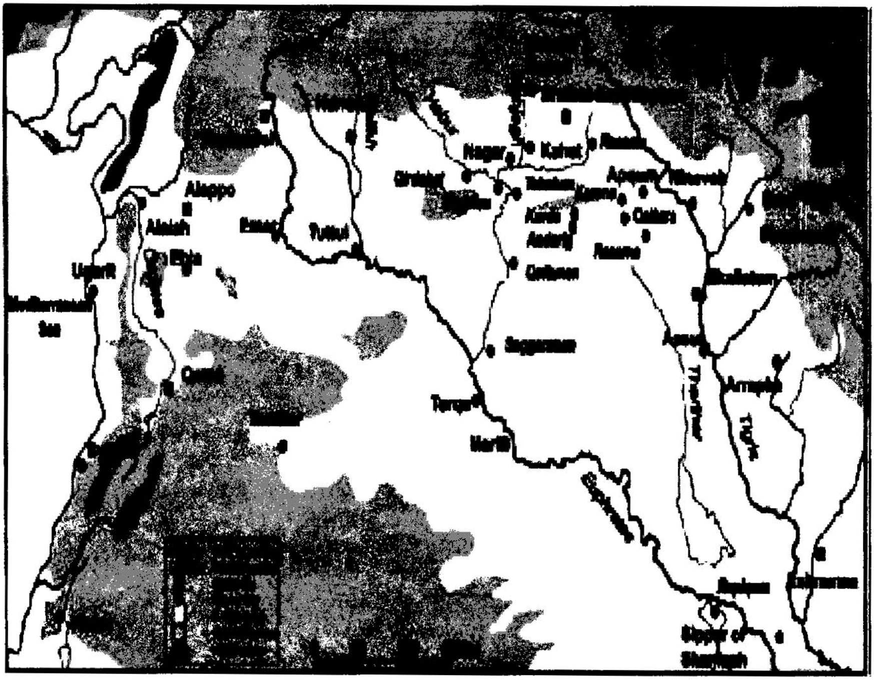
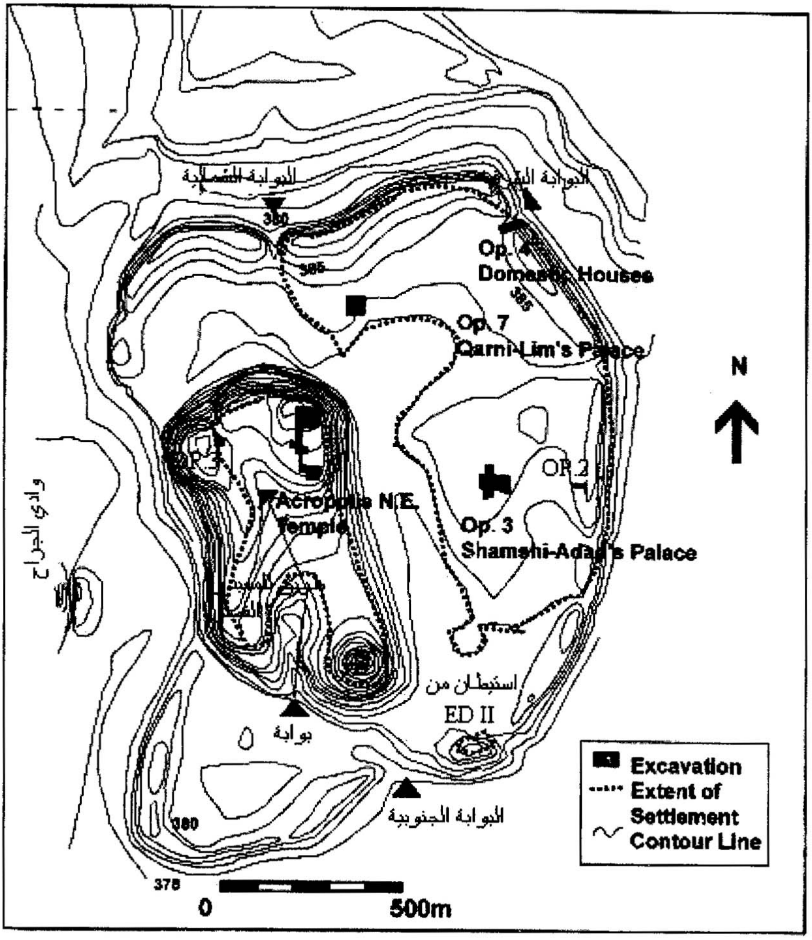
تل ليلان
المدينة -الدولة في الجزيرة السورية

الدكتور عمار عبد الرحمن
قسم التاريخ
جامعة دمشق

يعدّ تل ليلان من أهم التلال في منطقة الخابور شمال شرقي سورية، ويبعد نحو ١٢٠ كم إلى الشمال الشرقي من مدينة الحسكة، ويقع على الضفة اليسرى لوادي الجراح عند التقائه بنهر القطراني. كما أنه يتوسط المسافة بين سفوح طور عابدين شمالاً ووادي الرد جنوباً (عند خط العرض ٣٦ درجة و٥٧ دقيقة و٤١,٨ ثانية شمالاً، وخط الطول ٤١ درجة و٣٠ دقيقة و٣٥,٦ ثانية شرقاً). (الشكل ١)



يأخذ التل شكلاً شبه بيضوي. قطره ١ كم شمال جنوب، و٩٠٠ م شرق- غرب. ويغطي مساحة ٩٠ هكتاراً. وبهذا يكون من أكبر التلال في منطقة الشرق الأدنى، فهو أكبر من إيبلا (٥٦هكتاراً) وآشور (٥٠هكتاراً)، وتل براك (٤٣هكتاراً).[1] ويحيط به سور ارتفاعه ١٥متراً عن السهل المحيط به. تتخلله ثلاث بوابات في الشمال والجنوب والشرق. أما من جهة الغرب حيث النهر فقد كان وادي الجراح الشديد الانحدار يشكل منطقة حماية طبيعية للموقع. ويبرز مرتفع التل في وسط المنطقة المسورة وباتجاه الغرب بمحاذاة التحصين الطبيعي لوادي الجراح. وبلغت مساحته ١٥ كم مربع (الشكل رقم ٢). وتتركز معظم الأبنية الإدارية المهمة فيه.



الشكل (٢) تل ليلان

مخطط كونتوري للتل وعليه مناطق التحري الأثري والبوابات

نظراً لضخامة التل وارتفاع سوره فقد كان محط اهتمام المنقبين الرواد في أواخر القرن التاسع عشر مثل هرمز رسام Hermuz Rassam ولايرد Layard. ولكن لم

تؤخذ خطوات مهمة في الميدان إلا في عام ١٩٧٨م عندما بدأت جامعة يال Yale بإدارة هارفي وايس Harvy Weiss أعمال التنقيب والتحري الأثري، وما زالت مستمرة حتى تاريخه.

تركزت أعمال التنقيب على المرتفع المركزي والمدينة السفلى في ستة قطاعات موجودة في المرتفع الشمالي الشرقي، وقطاع التنقيب (١) (operation 1) الواقع إلى الغرب. وقد أُجري في هذا الأخير سبر عميق جداً يهدف لمعرفة تسلسل الطبقات الأثرية. أما في المدينة السفلى فقد تركزت ست مناطق تحرٍ الأولى هي سبر عميق (operation 2) بجانب السور من جهة الشرق لمعرفة تركيبة السور الذي بلغت سماكته ١م. وإلى الغرب منها قطاع التنقيب (٣). وهي منطقة تحريات واسعة تبين لاحقاً أنها قصر شمشي- أدد. وفي الشمال من المدينة السفلى توجد منطقتا التحري (٤) و(٧). الأولى منها للبيوت العامة، والثانية هي قصر قارنِ - ليم Qarni-Lim (الشكل ٢).

يمكن عرض تاريخ الاستيطان في تل ليلان والطبقات الأثرية التي تم الوصول إليها من خلال السبر العميق في القسم الشمالي- الغربي من المرتفع، وفق الأدوار التالية:

ليلان ١: ويغطي الفترة التاريخية الممتدة من ١٩٠٠ وحتى ١٦٠٠ ق.م ويضم ثلاث طبقات استيطان

ليلان ٢: ويغطي الفترة الممتدة من ٢٥٠٠ وحتى ١٩٠٠ ق.م، وهي مقسمة إلى ليلان (أ) و (ب).

ليلان٣: ويغطي الفترة الممتدة من ٣٢٠٠ وحتى ٢٥٠٠ ق.م، وتقسم إلى إلى خمس مراحل.

ليلان ٤: ويغطي الفترة الممتدة من ٣٥٠٠ وحتى ٣٢٠٠ق.م.

ليلان ٥: ويغطي الفترة الممتدة من ٤١٠٠ وحتى ٣٥٠٠ ق.م. ويعاصر عصر أوروك الباكر

ليلان ٦: ويغطي الفترة الممتدة من ٥٠٠٠ وحتى ٤١٠٠ ق.م ويقسم إلى مرحلتين (أ) و(ب) ويعاصر مرحلتي عبيد ٣-٤

ليلان ٧: ويغطي الفترة الممتدة من ٥٥٠٠ وحتى ٥٠٠٠ ق.م وهي حلفية وتعاصر فترتي عبيد ١-٢ في جنوبي بلاد الرافدين.

أما مناطق الاستيطان التي كشف عنها، والتي وثقت جيداً، فهي تعود إلى ثلاثة أدوار توزعت كالآتي على المخطط الطبوغرافي. وهي من الأقدم:

الدور الأول: ويغطي الفترات من IIId وحتى IIa. ويعاصر السلالات الباكرة الثالث من ٢٦٠٠ وحتى ٢٣٠٠ق.م . وتتوضع في شمال- غربي المرتفع، وفي جنوبي المدينة السفلى بجانب البوابة الجنوبية.

الدور الثاني: ويغطي الفترة IIb ، ويعاصر الفترة الأكادية وما بعدها من ٢٣٠٠ وحتى ٢٢٠٠ ق.م. وتتوضع آثاره في شمال- غربي المرتفع.

الدور الثالث: ويأتي بعد فترة هجران للموقع امتدت من ٢٢٠٠ ق.م وحتى ١٩٠٠ق.م[٢] ويغطي الفترة الآشورية الوسطى أو العصر البابلي القديم من ١٩٠٠ وحتى ١٧٠٠ ق.م وهي الفترة المعاصرة لحكم شمشي أدد الأول وخلفائه. وتتوضع آثاره في شمال- شرقي المرتفع والقطاعان, (٣) و(٧) operation (انظر المخطط الطبوغرافي).

تميز الدور الأول بالكشف عن منطقة واسعة في الجزء الشمالي الغربي من المرتفع بلغت مساحتها ٢٤٠٠ متر مربع. وتبيّن أنها تعود إلى منتصف الألف الثالث ق.م، وهي بيوت سكنية للعامة[٣]. ويحيط بالمرتفع من جهتي الشمال والغرب سور، وهو

يعود لفترة أقدم من فترة البيوت السكنية (٢٦٠٠ق.م)، وهو يرتبط ببناء مصطبة مربعة لغايات طقسية مساحتها ١٥٠ متر مربع وفيها مذبح[٤]. وفي هذه المرحلة بدأت المدينة الصغيرة بالتوسع وبلغ حجم تل ليلان نحو ٩٠ هكتاراً وأصبحت على الصعيدين الاقتصادي والسياسي على مستوى المدينة الدولة. ارتبطت بهذه المصطبة المقدسة من جهة الشرق عدة غرف عليها طبقة كلس سميكة. كما عثر من جهة الغرب على خمس غرف مساحتها ٣٠٠ متر مربع لتخزين الحبوب. وقد انتهت هذه المخازن بحريق سمح بمعاينة الحبوب المحفوظة بدقة. وكان أغلبها من الشعير والحنطة والشوفان emmer[٥].

الاستيطان المعاصر لهذا الدور كما سلف ذكره، يقع في جنوبي المدينة السفلى بالقرب من البوابة الجنوبية للموقع، ويشغل مساحة ٦٠٠ متر مربع على طول شارع عرضه ٤,٥م، يتجه نحو المرتفع [٦]. وتشير العمائر المكتشفة إلى كثافة استيطان. كما أن التحاليل العضوية للعظام المكتشفة أشارت لوجود حيوان الخنزير والخيل المدجن. ويعد تدجين النوع الأخير أقدم دليل معروف في بلاد الرافدين.

يحيط بالمدينة السفلى سور تتخلله ثلاث بوابات جنوبية وشرقية وشمالية (انظر المخطط الطبوغرافي). كما أن له ثلاثة ملاجئ مسقوفة جدرانها بعرض ٨م. وقد أنشئ هذا السور في بداية هذا الدور واستمر تحصينه في العصر الأكادي اللاحق.

الدور الثاني: وهو المعاصر للاستيطان الأكادي (من ٢٣٠٠ ق.م وحتى ٢٢٠٠ق.م) في الطبقة IIa، جاء من دون انقطاع بعد استيطان السلالات الباكرة الثالث (الدور الأول)، في الجهة الغربية من المرتفع. وتم تجديد المصطبة الطقسية وأعيد بناء الواجهة التي استخدم في بنائها اللبن المربع الشكل بدلاً من المستطيل الشكل من الدور الأول. وقد توضع المذبح على أرضية كلسية وعليها عظام للغزلان مما يشير إلى إقامة الشعائر[٧].

ارتبطت بهذه المصطبة ذات الوظيفة الدينية عدة عمائر. فقد كشف شمالها وشرقها على طول الشارع الذي يتجه من الشرق إلى الغرب، عن أربعة عمائر أقدمها مدرسة (الطبقة ١١، الفترة IIb3). وهو البناء الأول في سهل الخابور من هذه الفترة الذي يضم نصوصاً مدرسية، عثر عليها في علبة من اللبن في الزاوية الشمالية- الغربية وبداخلها ١٥ نصاً وكسرة نص[٨]، ست منها لها شكل مدور.

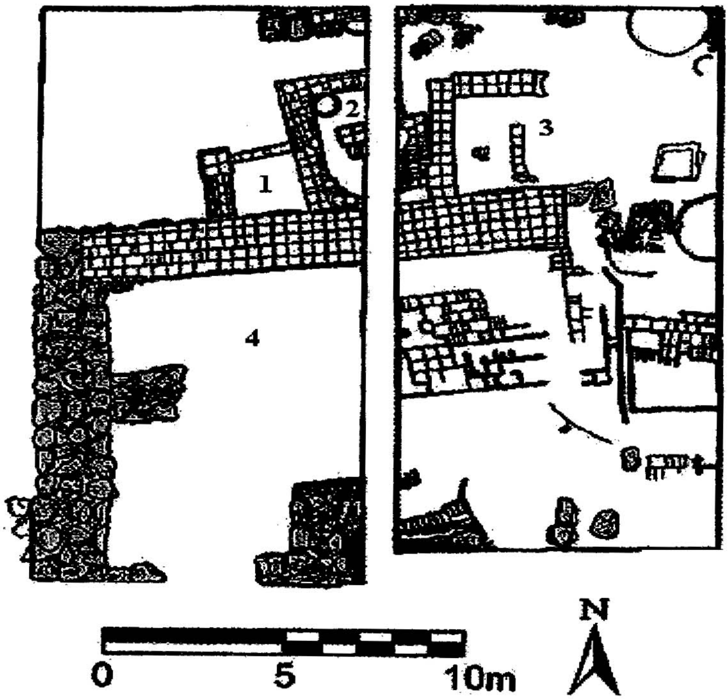
في الطبقة اللاحقة ١٠، الفترة IIb2 عثر على بيت من الفترة الأكادية مشاد فوق بناء المدرسة، ومساحته ١٥٠ متر مربع. مؤلف من ثلاث غرف أرضيته من الأحجار المرصوفة، وجدرانه من اللبن المشوي. اثنتان من الغرف تطلان على ساحة كبيرة فيها مخازن حبوب ومواقد أحجار طحن وجرار للتخزين. وكشف في هذا البيت على كسرة نص، و ٢٠ حصية صلصالية.

وإلى الجنوب من البيت الأكادي يقع آخر استيطان للفترة الأكادية في الطبقة ٩، الفترة IIb1. إذ كشف عن جزء من بناء يمتد أكثر من ١٠X١٤م وجدرانه سميكة أكثر من ٢م ومرتفعة لنحو ٤م، مبنية من الحجر البازلت. إن موجودات ولقى هذا البناء تظهر مدى أهمية المشروع الاقتصادي الواسع الأبعاد. فقد كشف عن كسر لرقم وحصيات طينية للعد مغروسة في الأرض، وجزء من ختم اسطواني عليه كتابة أكادية هي "Hayabum the Sabra"[٩].

البناء الأكبر من هذه الفترة هو القصر الذي بلغت مساحته ١٠٠٠متر مربع، ومؤلف من ثمان عشرة غرفة. وهي محفوظة جيداً وجدرانه ما زالت قائمة حتى ارتفاع ٢م، ومحصنة جيداً. وبلغت سماكة جدرانها ٦,٦م. ويوجد أربعة ممرات باتجاه جنوب- شمال تؤدي إلى قطاع الخدمات الذي يضم ١٤ تنوراً. قطر كل منها من ١ حتى ٣م. وإلى الغرب من هذه الغرف يوجد مخزن رئيس للحبوب تحفظ الحبوب فيه جدرانه مبنية من اللبن المشوي. وشرقي قطاع الخدمات توجد غرفة الرقم التي تضم جرة

فخارية كبيرة، وحصيات للعد ورقم كبيرة. وعثر على رقم غير مكتوب عليها، ومكيال لوزن الحبوب من البازلت[10].

إن تبدل المناخ الحاصل أدى إلى هجران معظم مواقع الفترة الأكادية بشكل كامل أو جزئي [11]. وفي ليلان تم هجران القصر في السوية ٩.حتى أنهم لم يكملوا البناء الذي شرعوا في بنائه بالقرب من البيت الأكادي (الشكل ٣).



الشكل (٣) تل ليلان، البيت الأكادي

١-٢ غرف

٣ مخازن

٤ البناء غير المكتمل

استقر المناخ نحو ١٩٠٠ ق.م ما أتاح الفرصة لإعادة الاستيطان في حوض الخابور. وأعيد استيطان تل ليلان من خلال التوسع الآشوري وتأسيس شمشي-أدد لكثير من المراكز التابعة له، والواقعة على الطريق المتجه إلى الأناضول[١٢].

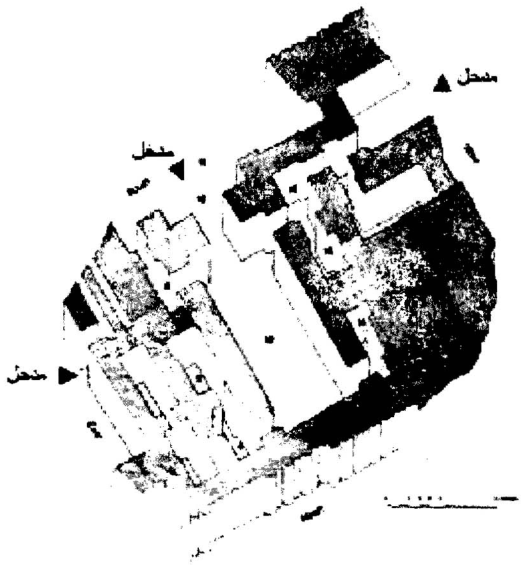
بيّنت التحريات الأثرية أن الاستيطان الآشوري الوسيط (البابلي القديم) قد اتخذ منطقتين في تل ليلان، الأولى وتضم المعابد في الجهة الشمالية- الشرقية من المرتفع، والقصور في المدينة السفلى.

أقدم معبد يعود إلى طبقة البناء ٣ والتي أشرت وفقاً للمنقبين ب (BLIII) وتبلغ مساحة ما تم الكشف عنه نحو ٥٠٠ متر مربع. ومن ثم عثر على معبد آخر من طبقة البناء الثانية BLII ومساحة ما تم الكشف عنه تبلغ ١٣٠٠ متر مربع[١٣]. وهو مبني بأسلوب مشابه لحد كبير معبد السوية السابقة. ويبدو أن التحريات لم تكشف عن المعبد كاملاً، ويرجح أن المعبد الموجود إلى جهة الجنوب، والذي كشف عن ٥٠٠ متر مربع منه، والمؤشر بمعبد الطبقة العاشرة BLX هو الجزء الجنوبي من المعبد الكبير ويهذا يمكن أن تصل مساحة هذا المعبد إذا تم حساب مساحة المعبدين BLII و BLX إلى ٦٠٠٠ متر مربع[١٤]. وهذا يعد من أكبر المعابد في الألف الثاني قبل الميلاد، حتى أنه أكبر من معبد سين-شمش في آشور، ومعبد تل الرماح[١٥].

إن واجهة الجدار الشرقي- الغربي الداخلية من جهة الشمال للمعبد BLIII كانت مزينة بكوى وأعمدة حلزونية، وتأخذ شكل سعف شجر النخيل[١٦]. وقد كشف عن جعران من الذهب، وأحجار كريمة في ساحته.

إن بناء المعبد BLII لم يختلف عن سابقه في المخطط العام. إذ يوجد مدخل رئيس من جهة الجنوب يؤدي إلى غرفة ما قبل الدخول إلى غرفة العبادة (anti cella)، ومن ثم غرفة العبادة هي أكبر غرفة وأبعادها ١٨,٢٥مX٨م[١٧]. وتسبقها غرفة مخصصة لما قبل الدخول. ويمكن الدخول من مدخلين جانبيين إلى المعبد من جهتي الشرق والغرب (الشكل ٤). تحيط بغرفة العبادة ست غرف صغيرة هي ذات الأرقام ٤-٥-٨-١٤-

١٥-١٦، ويحيط بها غرف أخرى. ويرجح أن المعبد لم يكتمل الكشف عنه بل مازال ممتداً من جهة الجنوب والشرق ويعد المعبد في الطبقة X (BLX) الحد الجنوبي له. وبهذا تكون مساحة المعبد نحو ٦٠٠٠ متر مربع كما ذكر آنفاً. وقد وصفه البعض بأنه ذو المحور المنحني كون الجزء الشمالي منه على شكل قوس (الشكل ٤). يتميز المعبد بواجهتين مزينتين من جهتي الشمال والجنوب. يبلغ طول الشمالية منها نحو خمسين متراً. وما زال جزءٌ منها قائماً حتى ارتفاع ٣م[١٨]. أما الجنوبية فلها عدة محاريب وأعمدة، ونُقِّب نحو ٩ أمتار منها. بأنصاف أعمدة من اللبن، وهي بشكل حلزوني وباتجاهات متعاكسة مع بعضها. والبعض الآخر على هيئة سعفة النخل[١٩]. وتتشابه هذه الزخرفة بالأعمدة الطينية مع مواقع من بلاد الرافدين مثل تل الرماح ولارسا، ومعبد سين في موقع خفاجة[٢٠].

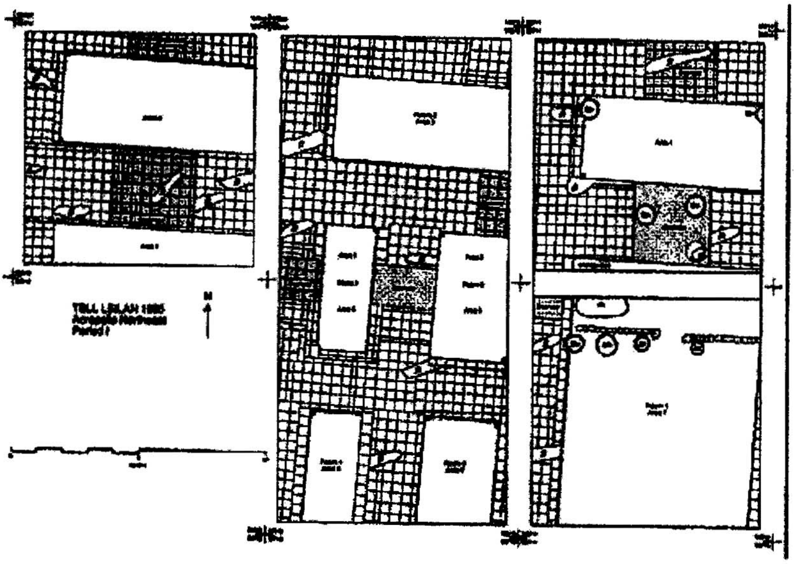


الشكل (٤) : تل ليلان ، مخطط المعبد في المرتفع الشمالي الشرقي معبد BL II

12: غرفة عبادة - 10: غرفة مالحق العبادة

عثر في المعبد على ختم عليه كتابة تشير إلى ارتباط المعبد بشمشي -أدد، ومن المرجح أيضاً مع توروم -نتكي Turum-NatkiK/ وهيا - آبوم Haya-abum. كما ظهرت العديد من الرقم المسمارية ذات المواضيع الإدارية.، ومكيال للحبوب وفقاً لمقياس عصر شمشي- أدد، شا كيناتيم Sa kinattim [٢١] وطبعات أختام أسطوانية الشكل[٢٢]، لـ "صوري -أدد بن زيدريا" "طادم شمشي أدد". وكانت الغرفة رقم ٨ (الشكل ٤) كافية من خلال ٢٢٧ ختم وكسرة أن تؤكد للمرة الأولى أن الاسم القديم لتل ليلان هو شوبات إنليل Subat Enlil[٢٣]، كما ذكرت أن بيلِ - أيموكِ Beli-emuqi خادم خايا- آبوم Haya-abum خادم الإله أدد. وجميعها تحمل رمز الإله مع صولجانه يقابله عدة آلهة يتضرعون[٢٤] . كما ضم المعبد جزءاً من مسلة بازلتية نقش عليها بالخط البابلي القديم.

جنوبي المرتفع كشف عن المعبد المرتبط بالطبقة عشرة BLX ومساحة ما كشف عنه نحو ٥٠٠ متر مربع وهو مؤلف من عدة غرف أكبرها في الزاوية الجنوبية-الشرقية (الشكل٥). وتوجد ثمانية غرف صغيرة موزعة. ومن المرجح أن يكون هذا المعبد جزءاً من المعبد الكبير الذي يضم المعبد السابق BLII. وهذا كما أشرنا سابقاً سيجعل هذا المعبد أكبر بمرتين من معبد سين-شمش في أشور، ومعبد تل الرماح وبهذا يكون من أكبر معابد الألف الثاني ق.م[٢٥]. وعثر في ركام المعبد على جزء من أرشيف مكتوب بالمسمارية، وهو وثائق إدارية مؤرخة بالاسم "ليموس" من منطقة شمشي- أدد.



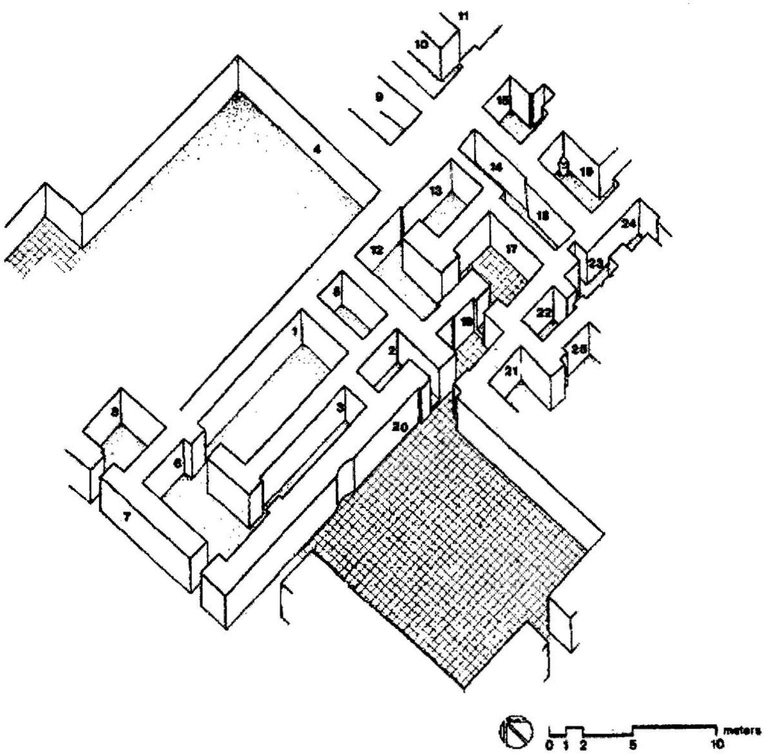
الشكل (٥) : تل ليلان، المعبد في المرتفع الشمالي الشرقي BLX

قصر شمشي أدد (القصر الشرقي):

يقع قصر شمشي –أدد في المدينة المنخفضة شرقي المرتفع وفي قطاع التنقيب ٣. ويشغل القصر منطقة واسعة تبلغ على الأقل هكتاراً وربع[٢٦]. وبلغت مساحة المنطقة المنقبة منه نحو ١٠%. ويصف المنقبون هذا البناء بأنه قصر من خلال التخطيط الجيد والجدارن الحجرية والأرضيات الآجرية، وعدد الغرف الكبير، والساحتين الكبيرتين وبعض النصوص الكتابية.

أنشئ هذا القصر وعدل على مراحل متعددة،. وأفادت طبعات أختام إلى أن القصر أنشئ في عهد شمشي- أدد[٢٧]. وفي حالته النهائية بلغ عدد غرفه ٢٥غرفة. فمثلاً الغرف ٩-١٠-١١، في الزاوية الشمالية- الشرقية (الشكل ٦) تظهر حالة البناء في الطبقة الرابعة BLIV وهي السوية التي أنشئ فيها القصر. وأعيد بناء أجزاء جديدة

منه قبل عهدالملك خمديا himdiya.[٢٨] خلال الطبقة الثالثة BLIII امتد هذا القصر إلى منطقة مفتوحة في الجنوب والغرب. إذ عُدَّ منطقة استقبال تتضمن باحتين كبيرتين (٤، ٢٠). إحداهما (رقم ٢٠) مرصوفة بلبن مشوي[٢٩]، وتتوزع بينهما مجموعة من الغرف. أكبرها الغرف ١-٢/٣-٥-٦. أما الغرف الصغيرة فتتوزع شمال–شرقي القصر. فقد عثر في الغرف ١٣-١٢-١٧ على آوان فخارية من نموذج الخابور ورماد وبقايا عظام حيوانية. مما يدل على أنها كانت تستخدم كمطبخ للقصر[٣٠]. وبالقرب منها (من جهتي الجنوب والشرق) كانت غرف التخزين والخدمات.



الشكل (٦) : تل ليلان ، قصر شمشين - أدد (القصر الشرقي)

وخلال الطبقة الثانية BLII عندما قام خِمديا حاكم أنداريق Andariq (وتقع حالياً في منطقة سنجار) بإعادة بناء القصر، تم تعديل وظائف بعض فراغات القصر. وعثر على الكثير من اللقى مثل المحفوظات في الغرفة رقم ٢٢، وهي السجلات الرسمية للملوك خمديا وموتيا وتيل- أبنو Till-abnu (ملوك منطقة أبوم). وتعد هذه المحفوظات من أكبر محفوظات حوض الخابور(٣١)، إذ بلغ عددها أكثر من ستمائة رقيم وثلاثمائة كسرة رقيم وختم، وتتناول مواضيعها رسائل ملكية، ومعاهدات.[٣٢]

وفي الطبقة الأولى BLI عثر على سجلات خاصة بالملك ياكون-أشار Yakun-Ashar في الغرفة رقم ٢(٣٣) وتتعلق بإدارة توزيع النبيذ(٣٤). أما على صعيد العمارة لم تحصل تعديلات واضحة. ولكن يمكن ملاحظة الرماد الكثيف الموجود في أرضية القصر على نهاية عنيفة له، يرجح البعض أنها من جراء قيام أتامر Atamrum حاكم أنداريج باستعادة السيطرة عليها بعد أن ضمها العيلاميون لهم بعد موت شمشي-أدد بعقد من الزمن(٣٥).

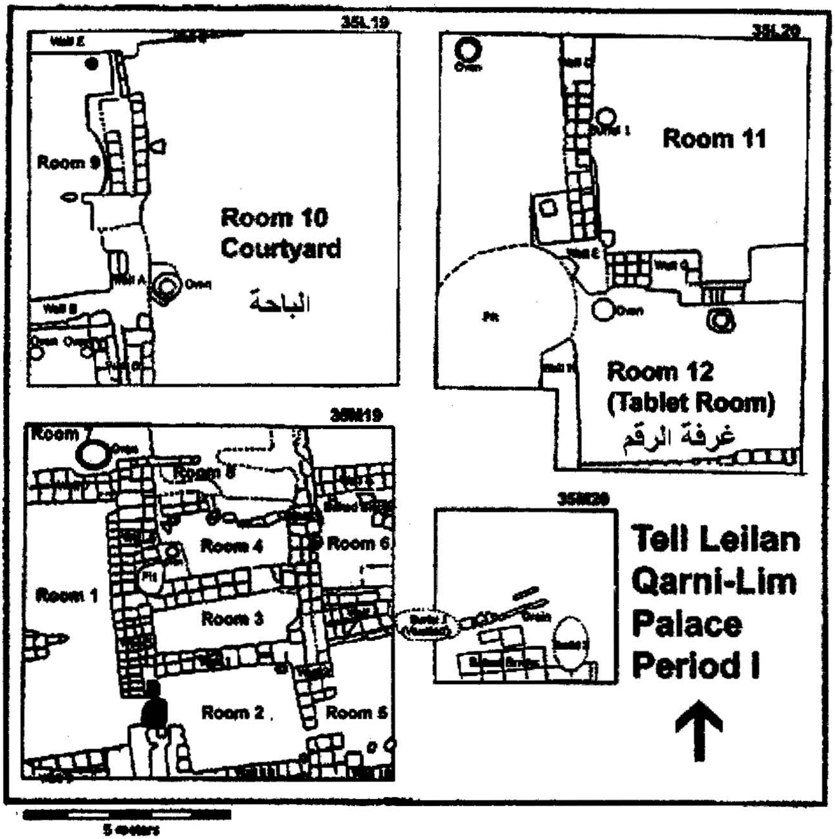
إن ما كشف حتى الآن من مخطط قصر شمشي -أدد، يمكن مقارنته مع قصور معاصرة له مثل قصر ماري، وخاصة في الممرات الضيقة والغرف الصغيرة في الشمال- الشرقي من القصر.

قصر قارني- ليم (القصر الشمالي):

يقع هذا القصر شمالي المدينة السفلى في منطقة التنقيب ٧، ولهذا دعي بالقصر الشمالي. وهو يعود إلى حاكم أنداريج قارني -ليم Qarni-Lim، والذي يعاصر فترة ما بعد شمشي-أدد بوقت قصير(٣٦).

يتألف البناء من اثنتي عشر غرفة، وله باحة شمالي القصر هي ذات الرقم ١٠ وأبعادها ١٠X١٠,٤م (الشكل ٧). وعثر فيها على رقيم وسبعة كسر تتناول توزيع حصص الشعير للقصر. وجنوبي الباحة توجد ثمان غرف صغيرة للتخزين

ومطبخ(٣٧). أما الغرفة التي كشف فيها عن ٦٤٧ رقيماً (٣٨) فهي ذات الرقم ١٢ جنوب- شرقي الباحة. وكانت مخزنة في ٤ جرار صغيرة. وهي تتناول حصص توزيع البيرة ل شمش- ديان Samas-dayyan خادم قارني- ليم.



الشكل(٧) : تل ليلان ، قصر قارني - ليم (القصر الشمالي)

النصوص المكتشفة والاسم القديم لتل ليلان:

تعدّ النصوص والكسر المكتشفة في تل ليلان من أكبر المحفوظات، التي يعود تاريخها إلى الألف الثاني أو البابلي القديم. وقد كانت الاقتراحات كثيرة بإشارتها إلى مطابقة اسم تل ليلان مع الاسم القديم شوبات إنليل وأول من اقترح المطابقة هو ر.م . وايتينغ R. M. Whiting[٣٩]. وقد تأكد هذا الأمر من مكتشفات الغرفة رقم ٨ في معبد المرتفع، بأن الاسم القديم لتل ليلان هو شوبات إنليل Subat Enlil[٤٠].

ولا بدّ من الإشارة إلى أن الاسم القديم للموقع هو شخنا. لكن شمش –أدد الأول (١٩٨٣-١٩٨١ق.م) غير اسم المدينة إلى شوبات إنليل[٤١] عندما جعل منها عاصمة للملكة الآشورية القديمة التي قام بتأسيسها. ولكن سرعان ما استعادت المدينة اسمها بعد فترة شمشي–أدد وخلفائه[٤٢]. وأشار د. شاربان D. Charpin إلى أن المنطقة المحيطة بشخنا كانت تدعى أبوم، معتمداً على وثيقة من عصر الملك البابلي سمسو–إيلونا والتي يرد فيها "شخنا عاصمة بلاد "أبوم"[٤٣]. وأبوم كلمة أكادية تعني القصب، وربما أطلقت هذه التسمية على هذه المنطقة لمناخها المناسب لنمو القصب.

إن نصوص قصر شمشي –أدد، والبالغ عددها نحو ٦٥٠ رقيماً مكتوبة بالمسمارية وباللهجة البابلية القديمة، واختلفت مواضيعها من إدارية واقتصادية ورسائل سياسية ومعاهدات أفادت في معرفة تفاصيل تاريخ منطقة الخابور بعد سقوط ماري[٤٤]. فهي تغطي فترة حكم الملوك موتيا وتيل أبنو وياكون أشار[٤٥]. فمن خلال ٢٠٠ رسالة أرسلت إلى موتيا أو خليفته في الفترة بين ١٧٥٠ و١٧٢٨ قبل الميلاد[٤٦]، يرد أن سورية كانت تحت سيطرة حلب، وأنه كان لها من الوصاية على منطقة أعالي الخابور. وهذا ما تبوح به رسالة[٤٧] من حمورابي اليمحاضي المرسلة إلى تيل –أبنو ملك أبوم . ومن أجل مواجهة الخطر المشترك المتمثل ببابل تم حشد عشرة آلاف

جندي قرب سنجار. ويبدو أن هذه الاجراءات من قبل يمحاض وأبوم لم تقف في وجه سمسو إيلونا البابلي الذي سيطر بعد سنة على شوبات إنليل.

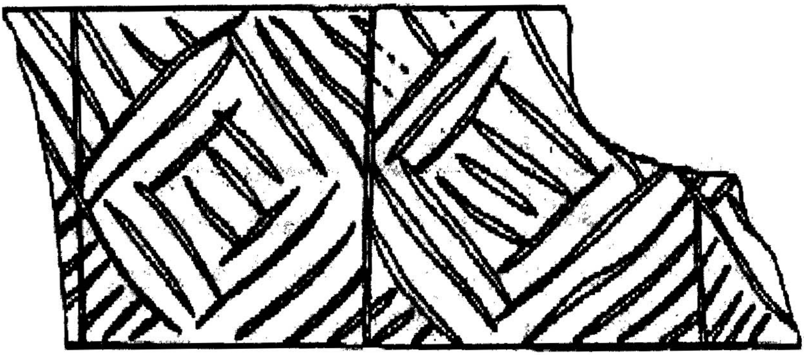
وتوضح هذه النصوص في معاهداتها[٤٨] كثيراً من العلاقات مع الممالك المجاورة. فالمعاهدة بين شوبات إنليل وكحت (تل بري حالياً) متمثلة بالملكين تيل- أبنو ويمصي هتنو، والتي يصل عدد أسطرها إلى ٥٠٠ سطر[٤٩]. وهناك نصان مهمان وكبيرا الحجم يتناولان معاهدة عقدت بين تجار مدينة آشور وملك تل ليلان تيل- أبنو . كما ضمت المحفوظات ألواحاً كبيرة لنسخ من قوائم الملوك باللغة السومرية.

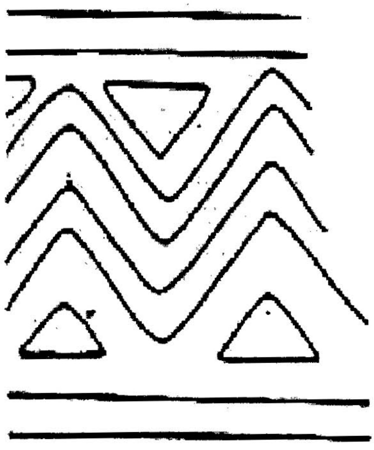
أما محفوظات قصر قارني- ليم فقد قاربت ٦٥١ رقيماً مسمارياً باللغة البابلية القديمة، وكما ذكر سابقاً فهي تتناول توزيع البيرة من قبل موت -رام Mut-rame حتى إدارة شمش- دايان Samas-dayyan خادم قارني- ليم ملك انداريق. وهي مؤرخة على السنة الثامنة وحتى الحادية عشرة لحكم زمري ليم ملك ماري[٥٠]. ومن المعلومات التي قدمتها النصوص يمكن استخلاص أن قصر قارني- ليم كان كمقر سفارة ويتابع منه الشؤون المختلفة.

كما دلت كسرة من إناء حجري تحمل كتابة هيروغليفية تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد[٥١] على علاقات مع الجنوب تصل حتى مصر.

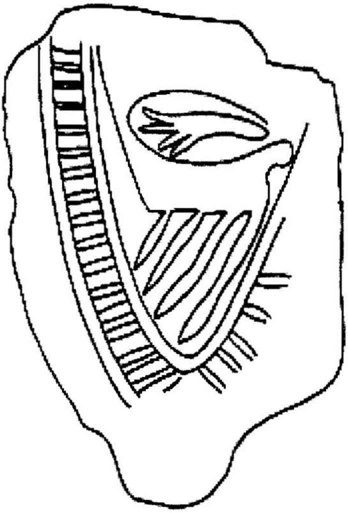
الأختام وطبعاتها:

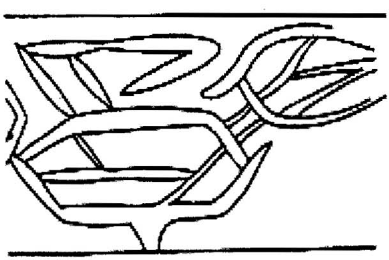
عثر على القسم الشمالي- الغربي من المرتفع على نحو ٣٠٠ طبعة ختم تعود إلى بداية فترة السلالات الباكرة الثالثة وما يقابله في ليلان الدور IIId. ويمكن وصف نصف طبعات الأختام على أنها من الطراز الهندسي[٥٢]، مثل الحزوز والخطوط التي تأخذ هيئة مثلثات متعاكسة وخط منكسر ومعينات (الشكل ٨).

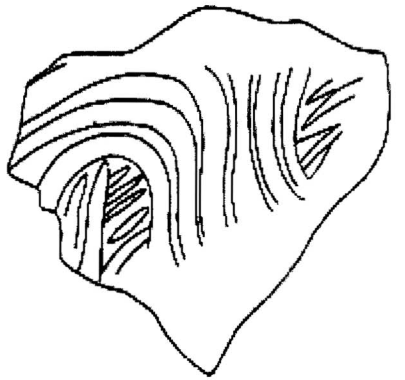




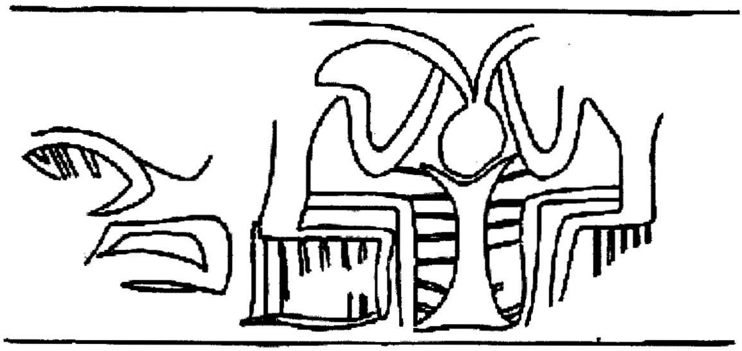
أما باقي الطبعات فهي متطورة أكثر وتعود لطبقات أحدث من نفس الدور، ويصفها دومينيك باريري Dominique Parayre بأنها مقتبسة من جنوبي بلاد الرافدين ومستوحاة من خلال القصص الحيوانية (٥٣) (الشكل ٩).

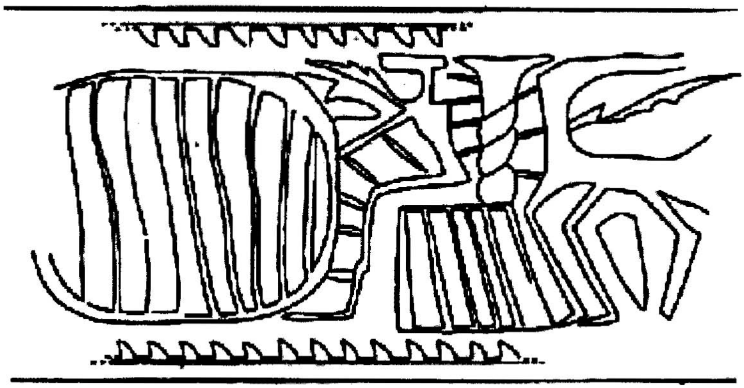


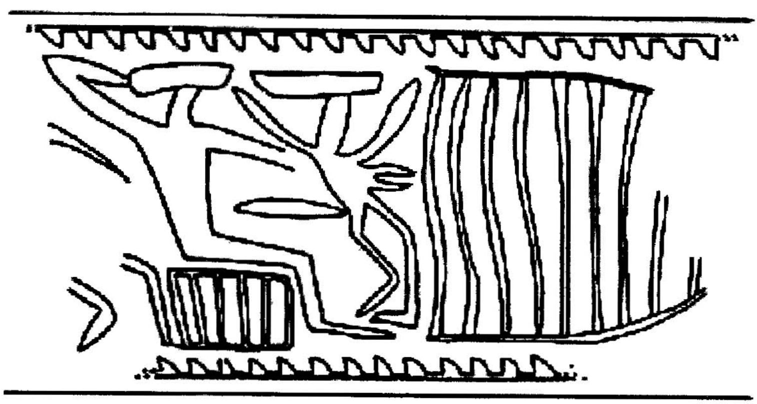




وتظهر أيضاً طبعات أختام تمثل مشاهد الوليمة للشرب بالقصب، أو مشاهد العزف وهي متشابهة في تصنيفها العام مع بلاد الرافدين إلا أنها تحمل لمسات محلية خالصة (الشكل ١٠).







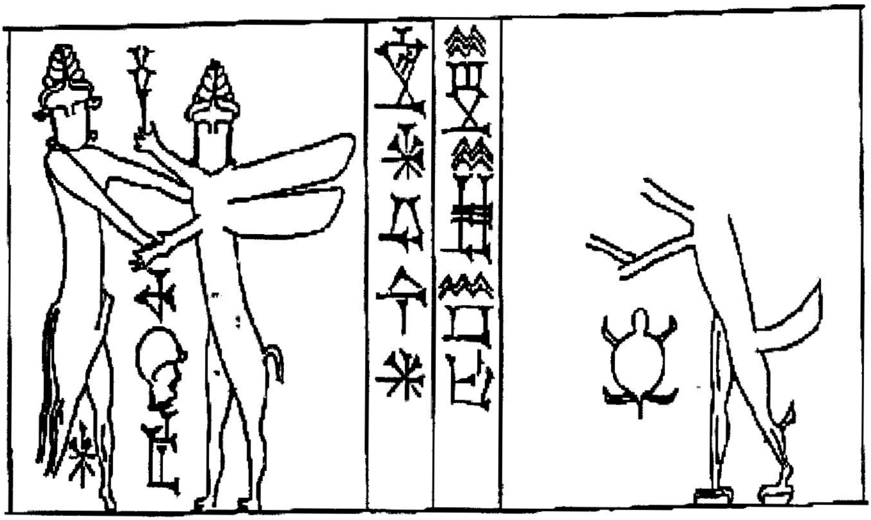
وأظهرت ستون طبعة ختم علاوة على ختمان اسطوانيان في القسم الشمالي –الغربي من المرتفع تعود إلى الدور الثاني أ في ليلان (العصر الأكادي)، أن نماذجها متقاربة مع نماذج جنوبي الرافدين. مما يدل على وجود اتصال مباشر، مع التأكيد على وجود صبغة محلية تؤكد وجود ثقافة واحدة تمتد من غربي سورية حتى منطقة دجلة(٥٤).

أما طبعات الأختام المكتشفة في قصر شمشي–أدد في المدينة السفلى والبالغ عددها ١٣٧، فتعود للعصر الآشوري. وكثير منها يتعلق بالضباط ويظهر فيها شخص معه عصا الدبسة (الشكل ١١).

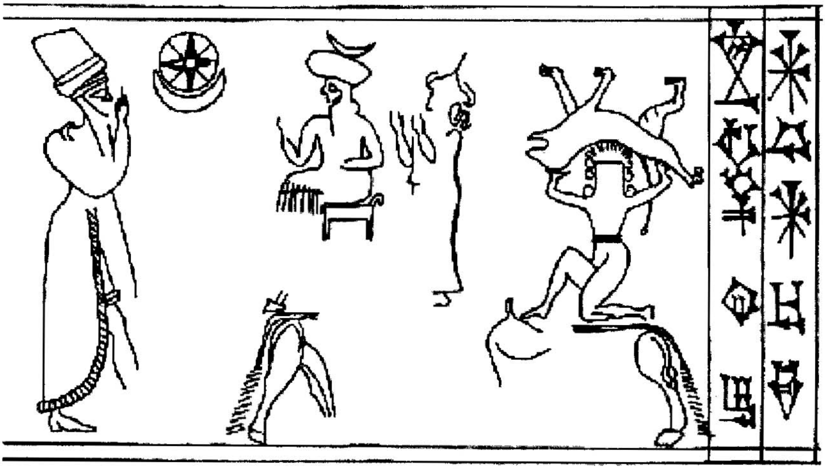




كما تظهر بعض المشاهد تقدمة الجدي، وعبادة الإله أدد (الشكل ١٢)،



وعبادة الإله سين[٥٥] (الشكل ١٣).



ويظهر كذلك البطل المجنح (الشكل ١٤).



البيئة القديمة وأثرها على الاستيطان في منطقة الخابور:

زودت دراسات البيئة القديمة في منطقة الخابور بمعلومات مهمة ساعدت في سد فجوات كثيرة لم تكن التنقيبات وحدها قادرة على تغطيتها. وقد بدأت هذه الدراسات بإجراء مسح أثري يغطي مساحة ١٦٥٠ كم مربع، وبعرض ٣٠ كم من الحدود التركية باتجاه الحدود العراقية. تتميز هذه المنطقة بهطول مطري جيد بمعدل من ٢٥٠ وحتى ٥٠٠ مم سنوياً.

وتمَّ كشف العديد من المواقع من العصور ما قبل التاريخية والتاريخية، وأبكر ما وثق مواقع من العصر الحجري الحديث PPNB. كما وثق العديد من مواقع العصر الحجري النحاسي من عصري حلف وعبيد، مع تزايد واضح من عصر عبيد إذ تم إحصاء ١٢٦ موقعاً وما مساحته ٤٠٠ هكتاراً[٥٦]، وهي ضعف مساحة استيطان عصر حلف، وهذا يتطابق مع العصر الجاف الموثق سنة ٥٢٠٠ ق.م من خلال الدراسات البيئية القديمة.

طبيعة استيطان المواقع في هذه الفترة متدرجة بحيث توجد قرى صغيرة مساحتها أقل من ١ هكتار، وتتمركز حول مواقع أكبر منها مساحتها من ٣ وحتى ٥هكتار. وبدورها تتجمع حول مدن رئيسة مساحتها من ١٠ وحتى ١٥ هكتار ومن ضمنها شوبات إنليل[٥٧].

خلال الألف الرابع مع حدوث تقلب مناخي مفاجئ انخفض الاستيطان مساحة وأعداداً. وهذا ما نجده من خلال أسبار في ثمانية مواقع مثل شوبات إنليل وبراك، وفي طبقات عصري أوروك الوسيط والمتأخر.

مع بداية فترة نينوى V بلغت مساحة وعدد المواقع المستوطنة حدها الأدنى. فقد حدث انهيار في نسبة شبيهة بالجفاف الحاصل سنة ٥٢٠٠ ق.م. ولاحقاً مع بداية التحسن المناخي كان حجم ليلان نحو ١٥ هكتاراً[٥٨]. وكشف عن سبع مواقع مساحتها

٣١هكتار. وخلال الفترة من ٢٨٠٠-٢٦٠٠ ق.م ارتفع عدد المواقع إلى ٣٨ موقعا وما مساحته ١٣٥هكتاراً.[٥٩]

ومع فترة التحسن المناخي ازدادت مساحة بعض المواقع ومن ضمنها شوبات إنليل وبلغ حجمها تسعون هكتاراً[٦٠] وذلك خلال الفترة الممتدة من ٢٦٠٠-٢٥٠٠ ق.م (دور IIId)، وأصبحت المركز الرئيس في المنطقة، مع ملاحظة أن معظم المواقع أصبحت كبيرة وعلى مستوى مدينة ولم يبق إلا ٣١% استيطان قروي.

استمر هذا التحسن حتى ٢٢٠٠ ق.م. إذ هجرت معظم المواقع نتيجة التغير المناخي ليس في منطقة الخابور فحسب بل في منطقة الشرق الأدنى، وبلغت نسبة الهجران للمواقع ٨٠%[٦١]، وهذا يظهر في مواقع مثل حموكار وتل خويرة التي هجرت بالكامل، بينما استمر جزء من تل براك[٦٢] آهلاً بالسكان.

مع انتهاء الخلل المناخي نحو ١٩٠٠ق.م أصبح وادي الخابور خصباً، وارتفع عدد المستوطنات إلى ١٥٧ موقعاً وما مساحته ٧٦٧ هكتاراً. وهو أكبر بعشر مرات من الاسيتطان الأعظمي الأخير. وأعيد اسيتطان شوبات إنليل[٦٣]. وتُلاحظ عودة إلى استيطان القرى إذ سكن نصف السكان فيها.

وبعد ١٧٠٠ ق.م هُجر تل ليلان وانتقل ثقل الاستيطان إلى تل بالقرب منه هو تل فرفاره.

الهوامش

(1) L. Ristve t& H. Weiss, Subat- Enlil, in Reallexikon der Assyriologie und vorderasiatischen Archaologie, Band 13 (2012), p229
(2) H. Weiss et al, Revising the Contours of History at Tell Leilan, in: Annales archéologiques arabessyriennes, Cinquantenaire, 2002, p.36
(3) L. Ristvet&H.Weiss, ibid, p.13
(4) H. Weiss et al, ibid,p1
(5) L. Ristvet&H.Weiss,Op.Cit, p.230
(6) ibid, p.233
(7) Ibid, p.230
(8) Loc.Cit
(9) ibid
(10) Ibid,p.231
(11) H. Weiss et al, Op.Cit, p.17

(١٢) عبد المسيح بغدو، **مائة وخمسون عاماً من التنقيب الأثري في الجزيرة السورية**، المديرية العامة للآثار والمتاحف، مركز الباسل للبحث والتدريب الأثري، ٢٠٠٩ ص.٩٧.

(13) Harvey Weiss, Tell Leilan on the Habur Plains of Syria,The Biblical Archaeologist, Vol. 48, No, The American Schools of Oriental Research, (Mar., 1985), p9
(14) L. Ristvet&H.Weiss,Op.Cit, p.232
(15) Ibid
(16) P Calmeyer, RIA VI, p.594

(١٧) عبد المسيح بغدو، المرجع نفسه.

(18) H Weiss, ASOR, p.9
(19) Akkremance P.M.M. G &Schwartz G, ibid, p.311
(20) H Weiss, ASOR, p.18
(21) L. Ristvet&H.Weis,Op.Cit, p.231

(٢٢) عبد المسيح بغدو، المرجع نفسه

(23) L. Ristvet&H.Weiss,Op.Cit, p.232
(24) ibid

(25) ibid

(٢٦) بيتر أكرمنس ، هارفي وايس، **تل ليلان ١٩٨٧**، تقرير أولي حول قصر المدينة السفلى، في الحوليات الأثرية العربية السورية مجلد ٣٨/٣٩، (١٩٨٨-١٩٨٩م)، ص.١٩٥

(27) L. Ristvet & H. Weiss,Loc.Cit.

(٢٨) بيتر أكرمنس، المرجع السابق، ص.١٩٤

(29) P. Akkermance, Op. Cit, p.312

(٣٠) بيتر أكرمنس، المرجع نفسه، ص.١٩١

(31) L. Ristvet&H.Weiss, Loc. Cit.

(32) Akkremance P.M.M. G &Schwartz G, ibid, p.31٢

(٣٣) بيتر أكرمنس، المرجع نفسه، ص.١٩٥

(34) Akkremance P.M.M. G &Schwartz G, ibid, p.312

(35) L. Ristvet&H.Weiss, Loc. Cit.

(36) Akkremance P.M.M. G &Schwartz G, ibid

(37) L. Ristvet&H.Weiss, ibid, p.233

(38) 38Loc.Cit

(٣٩) جيسبر أيدم، **الرقم المسمارية المكتشفة في تل ليلان عام ١٩٨٧م**، في الحوليات الأثرية العربية السورية مجلد ٣٨/٣٩، (١٩٨٨-١٩٨٩م)،ص١٩٧.

(40) L. Ristvet&H.Weiss,Op.Cit, p.232

(٤١) دومينيك بوناتز، **الأنهار والبوادي**، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، ١٩٩٩م، ص.٨٨

(٤٢) جيسبر أيدم، المرجع السابق، ص.١٩٨

(٤٣) المرجع نفسه

(٤٤) عبد المسيح بغدو، المرجع السابق، ص.٩٦-٩٧

(45) H. Weiss et al,AAASvol 50, p.18

(46) ibid

(٤٧) جيسبر أيدم، المرجع السابق، ص.٢٠٣

(48) Ibid, وذلك في المعاهدة رقم L.87- ١٣٦٣

(٤٩) جيسبر أيدم، المرجع السابق، ص.٢٠٥
(50) J Eidem, SubatEnlil in RIA band 13, p.229
(51) Ibid

(٥٢) دومينيك باريري، **تل ليلان ١٩٨٧م الأختام وطبعات الأختام**، في الحوليات الأثرية العربية السورية المجلد ٣٨/٣٩ (١٩٨٨-١٩٨٩م)، ترجمة بشير زهدي، ص٢٠٩.

(٥٣) المرجع نفسه، ص.٢١٠
(54) .H. Weiss et al,AAASvol 50, p2.

(٥٥) المرجع نفسه، ص.٢١١
(56) L. Ristvet&H.Weiss,Op.Cit, p.233
(57) ibid

(٥٨) وبيتر أكرمنس، **تل ليلان ١٩٨٧**، تقرير أولي حول قصر المدينة السفلى، في الحوليات الأثرية العربية السورية مجلد ٣٨/٣٩، (١٩٨٨-١٩٨٩م)، ص١٦٣.
(59) L. Ristvet&H.Weiss,Op.Cit, p.234

(٦٠) بيتر أكرمنس، المرجع السابق، ص.١٦٣.
(61) L. Ristvet&H.Weiss,Op.Cit, p.235.
(62) .H. Weiss et al, AAAS vol 50, p17.
(63) Ibid, p.18

قائمة المراجع والمصادر

Ristvet & H.Weiss, Subat- Enlil, in Reallexikon der Assyriologie und vorderasiatischenArchaologie, Band 13 (2012)
Harvey Weiss et al, Revising the Contours of History at Tell Leilan, in: Annalesarchéologiquesarabessyriennes, Cinquantenaire, 2002.
Harvey Weiss, Tell Leilan on the Habur Plains of Syria,The Biblical Archaeologist, Vol. 48, No, The American Schools of Oriental Research, (Mar., 1985).
Harvey Weiss et al , AAAS vol 50, p.18
Jespir Eidem, Subat Enlil in RIA band 13.

عبد المسيح بغدو، مائة وخمسون عاماً من التنقيب الأثري في الجزيرة السورية، المديرية العامة للآثار والمتاحف، مركز الباسل للبحث والتدريب الأثري، ٢٠٠٩.

بيتر أكرمنس ، هارفي وايس، تل ليلان ١٩٨٧، تقرير أولي حول قصر المدينة السفلى، في الحوليات الأثرية العربية السورية مجلد ٣٨/٣٩، (١٩٨٨-١٩٨٩م).

جيسبر أيدم، الرقم المسمارية المكتشفة في تل ليلان عام ١٩٨٧م،في الحوليات الأثرية العربية السورية مجلد ٣٨/٣٩، (١٩٨٨-١٩٨٩م).

دومينيك بوناتز، الأنهار والبوادي، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، ١٩٩٩م.

دومينيك باريري، تل ليلان ١٩٨٧م الأختام وطبعات الأختام، في الحوليات الأثرية العربية السورية المجلد ٣٨/٣٩ (١٩٨٨-١٩٨٩م)، ترجمة بشير زهدي.

دراسات أثرية حول تطور موقع البارة في جبل الزاوية

الأستاذ الدكتور مأمون عبد الكريم

قسم الآثار

جامعة دمشق

البارة:

تعدُّ البارة من أكبر المواقع الأثرية في المدن الميتة (القرى الأثرية في شمال سورية)[١]، حيث تغطي مساحة تُقدَّر بحوالي ٢ كم من الشمال إلى الجنوب، و١ كم من الشرق إلى الغرب. تقع هذه القرية في جبل الزاوية في منطقة خصبة بالمياه والأراضي الزراعية وتحيط بها أكثر من عشرين قرية أثرية تعود إلى العصرين الروماني والبيزنطي. (الشكل ١-٢).

يتميز هذا الموقع بعدة خصائص:

الخاصية الأولى: تتميز عن غيرها من القرى الواقعة في الكتلة الكلسية (شمال سورية)، يكبر حجمها، إذ تعدّ من أكبر المواقع في المنطقة، تظهر فيها ملامح مدينة، على الرغم من أنها تملك تنظيماً متشابهاً مع تنظيم القرى الأخرى، التي

تفتقد إلى التخطيط العمراني كما تتميز بعدم وجود للمباني الرسمية أو الإدارية التي تتميز بها المدن باستثناء الكنائس والحمامات (الشكل ٣).

الخاصية الثانية: يختلف هذا الموقع عن باقي المواقع في تاريخ الاستيطان. فمن خلال دراسة العناصر المعمارية والزخرفية لم نتوصل حتى الآن إلى دليل على استيطان يعود إلى ما قبل القرن الرابع الميلادي في الموقع بالرغم من وقوعه بجوار وادٍ غنيٍ بالتربة الزراعية الصالحة لزراعة الزيتون والفواكه. إضافة إلى ذلك تتوفر المياه في هذه المنطقة على خلاف المناطق الأخرى، لذا فإنه يبدو من غير الطبيعي أن تبقى هذه المنطقة غير مسكونةٍ حتى نهاية القرن الرابع الميلادي. بالمقابل فإن القرى الأخرى المحيطة بها بشكل مباشر والتي تقدر بحوالي عشرين قرية، مثل: سرجيلا، بعودة، وادي مرتاحون، شنشراح، ربيعة، مجليا، بترسا..إلخ، كان الاستيطان بها قد بدأ منذ العصر الروماني. دلّت على ذلك التنقيبات التي أجريت في سرجيلا على بعد ثلاثة كيلومترات من البارة(٢).

الخاصية الثالثة: تتمثل في تطور البارة بعد الفتح الإسلامي حيث عَرِفَ هذا الموقع ازدهاراً مهماً منذ بدايات العصور الإسلامية، دلّ على ذلك وجود مسجد كبير يتمتع بغنى عناصره المعمارية والزخرفية. على خلاف القرى الأخرى المحيطة التي هجرت تدريجياً في الفترة الممتدة بين القرنين الثامن والعاشر الميلاديين. وتم احتلال البارة من قبل الصليبيين حيث أصبحت مقراً للأسقفية في القرن الثاني عشر الميلادي، لذلك يفيدنا تاريخ تطور الموقع في الحصول على معلوماتٍ هامة حول الكتلة الكلسية خلال العصور البيزنطية والإسلامية المختلفة.

وكانت بعض الفرضيات تنفي وجود استيطان بمنطقة البارة قبل القرن الرابع الميلادي، معتمدة على الدراسات المعمارية للمباني الموجودة على سطح الأرض. برأينا فإنه من غير الممكن أن تكون البارة غير موجودة في الوقت الذي كانت فيه المواقع الأخرى مأهولة منذ فترةٍ طويلةٍ لأكثر من قرنين من الزمن، لذلك لا بدَّ من إجراء أسبارٍ أثريةٍ للحصول على معطياتٍ جديدةٍ غير معروفة سابقاً أو طرح تساؤلات عن أسباب هذا التطور المدهش والمتأخر زمنياً.

طبيعة العصر البيزنطي في البارة:

تسمح لنا دراسة العناصر المعمارية المحافظة على حالتها بشكل ممتاز بإكمال وتدقيق معرفتنا بالعمارة بكافة أنواعها في جبل الزاوية[٣]. لكن أحد أهم الأهداف هو البحث عن تفسيرات حول أهمية البارة بالنسبة للقرى المحيطة بها في شمال سورية، وحيث ورد في نصوص المؤرخ البيزنطي ليبانيوس وجود أقضية وهي عبارة عن مدن صغيرة لا تحمل صفات المدن الكبيرة Cité، كانت تلعب على المستوى المحلي كل الوظائف التي تلعبها المدن الكبيرة على المستوى الإقليمي. كانت الأقضية بمثابة مراكز إدارية واقتصادية للمناطق المحيطة بها يقصدها سكان الأرياف لإجراء التبادلات التجارية من خلال بيع المنتجات الزراعية وشراء منتجات حرفية لازمة لهم[٤].

يبدو أنه كان يوجد تسلسل تراتبي في الأهمية لهذه التجمعات القروية والمدينية حيث تحتل المدن القمة في الأهمية ثم تأتي الأقضية بعدها وأخيراً القرى، وكانت البارة بمثابة مدينة صغيرة أو قضاء، لذلك لا يمكننا الاعتماد فقط على نتائج الدراسات القائمة على المباني الظاهرة على سطح الأرض، بل نحتاج

إلى تنقيبات بهدف الكشف عن سويات أو معطيات أثرية تفيد في فهم تطور الاستيطان في هذا الموقع خلال العصور المختلفة.

التنقيبات الأثرية الحديثة:

في إطار الاتفاقية الموقعة بين المديرية العامة للآثار والمتاحف وجامعة دمشق وجامعة فرساي في فرنسا، المتضمنة القيام بالأعمال الأثرية في الكتلة الكلسية، قامت البعثة الأثرية المشتركة بأعمالها التنقيبية في هذا الموقع لثلاثة مواسم خلال السنوات ٢٠٠٦-٢٠٠٨م.

تركزت الأعمال خلال ثلاثة مواسم في قطاعين هامين، وهما: قطاع الحمام، وقطاع المسجد، حيث توصلت البعثة خلالها إلى طروحات هامة حول حالة الاستيطان في القطاعين في العصور البيزنطية والإسلامية. (الشكل ٤).

أولاً- قطاع الحمام:

يعدُّ حمام البارة أكبر حمامات الكتلة الكلسية مساحةً ٢٩٨متر مربع، يقع وسط القرية. يتميز بمخطط بسيط مؤلف من قسمين، القسم الشمالي عبارة عن صالة كبيرة II والقسم الجنوبي يتألف من خمس صالات قائمة على محور واحد، وهي: III- VI – IV—VII . دلّت الدراسات المعمارية على التشابه بين مخطط حمام البارة والحمامات الأخرى في جبل الزاوية (سرجيلا، شنشراح، مجيلا)[٦]. (الشكل ٥-٦).

الصالة الكبرى:

عبارة عن قاعة كبيرة مستطيلة الشكل ١٨,٣٥م×٨,٢٥م، كانت تستخدم كقاعة رئيسة لتغيير الملابس ويفترض أنها قاعة اجتماعات أيضاً على الرغم من

غياب لأي عنصر ديكور أو إطار باب وكذلك عدم وجود منصة كغيرها من الحمامات الأخرى، سرجيلا مثلاً.

يتم الدخول إلى الحمام من الجهة الشمالية، أمّا في الجهة الغربية من الصالة الكبرى فتوجد فتحة قد تكون باباً يؤدي إلى الفراغ الذي يمكن أن تميز فيه وجود ثلاثة أعمدة مواجهة للجدار حيث يفترض وجود سقف مائل يعتقد أنه كان مدخلاً آخر للحمام مخصصاً لدخول الخدم، وكما في حمام مجليا وفريكيا.

الصالات الساخنة:

تتواجد الصالات الساخنة IV-V-VI القائمة على أعمدة التسخين كغيرها من الحمامات الأخرى. ويتم الدخول إليها عبر الصالة III (الصالة الباردة) في الجهة الشرقية وفي جهة الغرب توجد القاعة VII (قاعة التسخين) ولكل من هذه الصالات الثلاث مساحة تقدر بحوالي ٢,٤٨ متر مربع، تم تزويدها بفتحات للإضاءة والتهوية خاصة في الجدار المشترك للصالتين V-IV مع الصالة II. تؤدي الصالة II (الصالة الباردة) إلى الصالة الدافئة ومنها يتم الدخول إلى العراق V، ثم إلى القاعة الساخنة VI وهذه الأخيرة زودت بحوض للماء الساخن وجد تحت الركام، ومن الملاحظ عدم تواجد المراحيض في الحمام(٧).

أشارت الدراسات المعمارية والأسبار الأثرية الكبرى للحمام إلى وجود تغير في وظيفة المبنى خلال العصور الإسلامية وتحوله إلى منزل خلال العصر المملوكي حيث نلاحظ تغيرات واضحة في تقسيم الفراغات وإغلاق عدد من الفتحات التي تعود للمبنى الأساسي وإحداث فتحات جديدة بما يتلاءم مع الاحتياجات الوظيفية الجديدة للمبنى وأكدت الدراسات، التي تمت على الكسر

الفخارية الموجودة ضمن السويات الأثرية هذه الفرضية. لكن لدينا إشكالية مطروحة حول معرفة التقنية المتبعة في عملية التسخين والبحث عن معطيات جديدة لتأريخ آخر عملية تسخين تمت في الحمام.

تمَّ في المواسم الثلاثة فتح بعض الأسبار في عدة أقسام من هذا الحمام وتركزت بشكل خاص في منطقة تسخين المياه (الأفران) حيث أشارت النتائج الأولية إلى وجود مرحلة استخدام متوسطة بين الحمام العائد للعصر البيزنطي واستخدام المبنى للسكن في العصر المملوكي. دلّت المكتشفات الأثرية على استخدام المبنى خلال العصور الإسلامية المبكرة كحمام قبل تحوله إلى منزل ريفي (رعوي مؤلف من بيت للسكن وحظيرة للمواشي "ماعز، غنم،..")،

وتمَّ الكشف عن بنى معمارية خاصة بالتسخين وهي بحالة حفظ جيدة وتماثل البنى التي نجدها في الحمامات التي تعود للقرنين السابع والثامن الميلاديين، كما نلاحظ التبدلات التي تمّت في أماكن التسخين خلال الفترات اللاحقة (الفترات الإسلامية)، لتتلاءم مع وظيفة المبنى الجديدة، التي تختلف في طريقة الاستخدام من حيث استعمال البخار في الفترة الإسلامية وطريقة التخديم.

كما تمَّ اكتشاف كمية كبيرة من الفحم الخشبي ونوى الزيتون المتفحمة وكميات قليلة من الكسر الفخارية في السويات الأثرية، حيث أمكن تحديد آخر استخدام للمبنى حمام بواسطة التحليل المخبري (بطريقة الكربون المشع ١٤) لهذه المواد، يعود إلى بداية القرن الحادي عشر الميلادي.

قسم التسخين في الحمام الإسلامي:

بناءً على المكتشفات الأخيرة يمكننا التحدث عن ثلاث مراحل من الإشغال في الحمام وهي:

١- حمام يعود إلى الفترة الإسلامية المبكرة: تمّت إعادة تهيئة الحمام لتتناسب مع وظائفه الجديدة على الشكل التالي:

- الغرفة الباردة: تمَّ استخدامها كغرفة خدمة خلال العصور الإسلامية.
- الغرفة الدافئة: تمَّ إنقاص مساحتها من ٢٥م٢ إلى ٨م٢، وذلك بإقامة حائط مزدوج. وجد الفرن بحالة حفظ جيدة سمحت بالتعرف على جرن التسخين (الكلاسيكي النمط)، المستخدم في الحمامات الإسلامية. كما تمَّ العثور على كميات كبيرة من الفحم الخشبي في قعر الفرن؛ مما سمح بإعطاء معلومات هامة عن آخر عملية توظيف للحمام، وذلك عن طريق تحليل الفحم الخشبي بطريقة الكربون (الشكل ٧-٨).
- الغرفة الحارة: لا نملك الكثير من العناصر التي تعود للفترة الإسلامية في هذه القاعة. ويبدو أنه تمَّت إعادة استخدام العناصر ذاتها التي تعود للفترة البيزنطية مع توسيع لحركة مرور الهواء خلال الفترة الإسلامية.
- خارج مبنى الحمام: لا يمكن ملاحظة أي من التحولات ولا نملك خصوصيات الحمام الإسلامي ومن المهم معرفة طريقة حفظ المياه في الخزان ونقلها لداخل الحمام وعلى الأغلب كان يتم نقل المياه إلى داخل الخزان ونقلها عبر قناة من الزاوية الجنوبية الشرقية للبناء حتى الغرفة الدافئة.

٢- منزل ريفي رعوي من العصر المملوكي.

٣- كما تمَّت خلال المواسم الماضية إزالة الأنقاض وتهيئة جزء من المنزل والحظيرة التي تشغل الغرفة المتوسطة من الحمام العائد للعصر البيزنطي.

ثانياً- قطاع المسجد:

دلَّت الدراسات السابقة للمباني الدينية في موقع البارة، من كنائس وأديرة، على استمرار استخدامها لوظائفها الأصلية بعد الفتح الإسلامي للمنطقة، ودلَّ وجود المسجد الكبير (حيث تتمّ الأعمال الأثرية فيه) والمساجد الخمسة الصغيرة الأخرى الموزعة في الموقع على انتشار الإسلام في الموقع منذ الفترات الإسلامية المبكرة، وفيما يتعلق بالمعطيات الأثرية المحيطة حول انتشار الإسلام بعد الفتح مباشرة، فهي غائبة أو بسيطة جداً بالرغم من أنه لا يمكن من الناحية التاريخية إنكار ذلك (الشكل ٩).

المسجد:

تركّزت الأعمال في المواسم السابقة على الدراسات المعمارية للبنى الظاهرة من بقايا الجدران والزخارف والمخطط لمبنى المسجد الكبير، حيث نجد حفظاً جيداً للجدار الجنوبي للمسجد والمحراب البارز نحو الخارج، على الرغم من تهدم الجدران في الجهات الأخرى حيث عثر على منسوب مدماك واحد في محيط وداخل المسجد، وعدد من الأقواس المزخرفة بنقوش إسلامية نباتية مميّزة يماثل بعضها تلك التي نجدها في العصر الأيوبي، كذلك بعض التيجان التي أعيد استخدامها في الفترة الإسلامية(٧).

يتألف المسجد من المبنى الأساسي المخصص للصلاة، يتقدمه رواق بالإضافة إلى وجود ساحة في وسطها بئر للماء. يشغل المسجد مساحة تقدر بحوالي ٧٠٠ متر مربع، وعلى الرغم من وجود انحناء في الجدار الغربي فإن المخطط العام يبدو مستطيل الشكل بأبعاد ٢٠م×٣٥م.

تمَّ رفع مخطط هذا المسجد بعد إجراء أعمال التنظيف على كامل المساحة، وقد وضَّح لنا مسقط السقوط لحالة المسجد أن الكثير من المداميك قد تمَّ إبعادها عن مكانها الأصلي باتجاه الشمال أو الشرق خلال مرحلة متأخرة من تاريخ هذا المبنى، وأشارت الدراسات السابقة إلى وجود شارع ضيق أو زقاق في موقع البارة مرصوف بالمداميك الحجرية يحاذي المسجد من الجهة الشرقية، لكن تَبيّن لنا أن هذه الفكرة غير دقيقة، وأن هذا المكان المرصوف والمزوّد بالمقاعد الحجرية مرتبط بالمسجد وظيفياً ويبدو أن هذا القسم كان المصطبة. لذا بناءً على ما سبق نجد أنه كان للمسجد رواقان: الأول يقع في جهة الشرق من جهة الممر أو المصطبة، أمَّا الثاني: فكان في الجهة الشمالية من قاعة الصلاة (الشكل ١٠-١١).

إشكالية تأريخ مراحل بناء المسجد:

تشير نتائج التنقيبات التي تمَّت في المواسم السابقة إلى وجود مرحلتين لاستخدام المبنى كمسجد:

- المرحلة الأولى: تاريخها غير واضح (أموي أو أيوبي).
- المرحلة الثانية: ربما تعود إلى العصر المملوكي، حيث حدث نوع من التدمير لبنى المسجد الأول وأُحدثت تغييرات في مخطط المبنى، مما يدلّ على فقدان المبنى لأهميته في هذا العصر وهذا واضح من الطريقة التي تمَّ فيها استخدام العناصر المعمارية السابقة بطريقة عشوائية، مثل إعادة استخدام الأقواس المزخرفة كحواجز لتصغير مساحة القسم المخصص للصلاة.

أدّت الأسبار التي تمّت في المواسم السابقة إلى إجراء تعديلات في الأفكار والرؤى المطروحة حول مخطط المسجد وعلاقته مع المباني الموجودة سابقاً قبل بنائه.

كشفت الأعمال خلال المواسم السابقة ٢٠٠٦-٢٠٠٧ عن مبنى مهم من العصر البيزنطي، ويبدو ذلك واضحاً من خلال وجود الجدران وأساساتها ذات النوعية العالية والدقة ووجود أرضية مرصوفة بلوحة فسيفساء ذات أشكال هندسية ونباتية وحيوانية في القسم الذي يقع غربي المحراب (قسم من اللوحة بحالة حفظ متوسطة، وقسم آخر تعرض للتخريب، وقسم أخير مفقود، لكن سمح لنا القسم المحفوظ بتأريخ اللوحة إلى الفترة البيزنطية وذلك من خلال العناصر الزخرفية فيها).

تمَّ فتح سبر في الموسم ٢٠٠٨، في القسم الذي يقع شرقي المحراب وكشفت الأعمال عن اختلاف السويات الأثرية فيه عن القسم الغربي (حيث توجد لوحة الفسيفساء)، فتمّ الكشف أولاً عن أرضية المسجد الأول ومن ثم طبقة من الرماد، كبيرة نسبياً، يبدو أنها غير عائدة للفترة البيزنطية لكن لم يتمّ تفسير وجود هذه الكمية الكبيرة من الرماد، وبناءً على التباين في السويات الأثرية بين القسمين الشرقي والغربي في قاعة الصلاة طُرحت تساؤلات حول عمليات إنشاء القاعة الرئيسة والمخصصة للصلاة في المسجد وكيفية الاستفادة من:

١- الجزء الواقع غرب المحراب مباشرة مع المبنى البيزنطي.

٢- الجزء الواقع شرق المحراب حيث تدلّ المكتشفات والسويات الأثرية فيه على طبقات تعود إلى العصور الإسلامية.

يبدو أنه تمّت الاستفادة من وجود بعض أجزاء المبنى البيزنطي في الجهة الغربية مع إضافة أجزاء جديدة له وإجراء تعديلات في طبيعة المخطط، وبناء جدران جديدة تتلاءم مع المسجد من خلال بناء محراب واضح المعالم حتى الآن وتدلّ العناصر الزخرفية والمعمارية على وجود تقنية عالية في بناء المسجد.

تمَّ فتح سير أثري في الجهة الشرقية للمحراب في القاعة المخصصة للصلاة، امتد جنوباً ليشمل الرواق، وكان الهدف من إجراء الأعمال الأثرية في هذه المنطقة هو معرفة المخطط الخاص بقاعة الصلاة وعلاقة هذه الأخيرة بالبناء البيزنطي، وربطها ببقية أجزاء المسجد.

بيَّنت الأعمال الأثرية استمرار السويات الأثرية في أرضية المسجد حيث تمَّ الكشف عن كامل الجدار (باتجاه شرق- غرب)، الذي يقسم جزءاً من قاعة الصلاة إلى قسمين، وهو أمر غير مألوف نسبياً في قاعات الصلاة، التي تكون مفتوحة بالكامل. كما تمَّ الكشف عن حائط يعود للفترات السابقة لبناء المسجد (باتجاه شمال – جنوب) فوق طبقة كبيرة من الردميات تفصله عن المقلع الحجري، الذي تمَّ الكشف عنه في القسم الشرقي منه، والذي يعود للفترة الأولى لهذا البناء (بيزنطية أو رومانية).

يفترض وجود علاقة بين المقلع الحجري واستخدام الحجارة المستخرجة منه في البناء المشيَّد فوقه (ربما بيوت....؟)، وأزيلت في فترات زمنية لاحقة وتدميرها وطمرها بالردميات لتتناسب مع الوظائف الجديدة للبناء.

تمَّ إجراء سبر في ساحة المسجد في الجهة الملاصقة للرواق وتبلغ المساحة المدروسة ٦م×٨م، بعد أن دلّت أعمال ٢٠٠٧ على وجود بقايا لجدران مبنية

فوق فتحة بئر، غير مفهومة الوظيفة حتى الآن، وقد بيّنت التنقيبات الحديثة خلال أعمال الموسم ٢٠٠٨ البنى التالية:

البئر المركزي:

يقوم في وسط ساحة المسجد وعلى محور المحراب، وفوق القاعة الموجودة تحت الأرض، التي من المحتمل أنها تحولت إلى خزان ماء في مرحلة لاحقة، حيث تمَّت تغطية فوهة البئر بحجر كلسي.

كشفت الأعمال التنقيبية في البئر في ساحة المسجد عن وجود عدة قاعات محفورة في الصخر (صخر صلصالي) أسفله وقد سويَّت التضاريس الطبيعية بما يتناسب مع الوظيفة الجديدة للمكان وهو أمر شائع في المنطقة، وكذلك تمَّ اكتشاف أجزاء من قناة ذات علاقة بالتجمع الموجود، إذ من الواضح استمرار القاعات مع القناة تحت رواق المسجد مباشرة[٩].

والإشكالية المطروحة هي معرفة تاريخ بناء القاعات في أسفل البئر وفهم وظيفتها وعلاقاتها مع المباني السطحية إضافة إلى معرفة استمرارية استخدامها في فترات زمنية لاحقة.

يبدو أننا أمام بُنى خدمية تعود للعصر الروماني تمَّ استخدامها بوظائف متعددة خلال العصور البيزنطية والإسلامية، تشير إلى ذلك ظاهرة تأسيس واضحة لبنى حول مركز البئر في القطاع السطحي. بالتالي لدينا إشكالية حول علاقتها ببناء المسجد في الفترة الإسلامية، وهل تطور البناء بدءاً من المركز (فتحة

في حال إثبات هذه الطروحات فإننا أمام دلائل أولية هامة عن إمكانية وجود سكن للموقع في العصر الروماني، نظراً لوجود دلائل أثرية لحالة استيطان تسبق القرن الرابع الميلادي (علماً أن الدراسات المعمارية التي تمَّت في موقع البارة سابقاً دلّت على عدم إمكانية وجود دلائل أثرية قبل القرن الرابع الميلادي على عكس القرى المحيطة بالبارة)، لذلك نقترح استمرار الأعمال خلال المواسم الأخرى لاستكمال التنقيبات اللازمة بهدف الحصول على معطيات جديدة (فخار، لقى أثرية ومعمارية أخرى...)، وكذلك الكشف عن بُنى معمارية غير ظاهرة حالياً.

القبور الإسلامية:

تقع في الجهة الجنوبية الشرقية من السبر السابق، الذي تمَّ في الرواق حيث وُجد عددٌ كبير من العظام البشرية داخل حفرة مشركة مع بعض الكسر الفخارية الإسلامية، تشهد على إقامة لحود في ساحة المسجد وتحتها، وتمَّ العثور على شاهدة قبر تحمل نقشاً باللغة العربية ومجزأة لقطعتين طول إحداهما ٥٠ سم.

بيَّنت الأعمال الأثرية التي تمَّت في الجزء الشمالي من الرواق، استخدام هذا المكان كمقبرة خلال الفترات الإسلامية المتأخرة نتيجة اكتشاف عدد كبير من العظام البشرية وكذلك عثر على قبرٍ إسلاميٍ كامل مع حجارة الزوايا التي تحدد القبر وهيكلٍ عظميٍ داخله "الجمجمة شبه كاملة مع جزء من لوح الكتف" تمَّ استخراجها بعد تصويرها. تتداخل هذه السويات مع السويات الأقدم بسبب أعمال الحفر لتجهيز القبر. تمَّ فتح سبر في الزاوية الشمالية الغربية، مما أظهر وجودَ حفرةٍ كبيرةٍ من الردميات تصل إلى المقلع الحجري الذي يمتد إلى هذا الجزء كما تمَّ الكشف في الزاوية الشمالية الشرقية من المقلع عن

فتحة تمَّ إحداثها في فترات لاحقة لتـصل إلـى الأقبيـة الموجـود تحـت الأرض. بالتالي ستمكننا الأعمال التي يمكن إجراؤهـا مـستقبلاً مـن تكـوين صـورة عـن طبيعة الإشغال في هذه المنطقة.

الساحة المركزية للمسجد:

تمَّ فتح سبر في وسط الجدار الغربي من الخارج لفهم طبيعـة مـسار الجـدار بعـد إزالة الأتربة عنه، من أجل فهم أسباب وجود أساسات لبنـاء مبنيـة مـن مـداميك حجرية لمصطبة مربعة الـشكل (طـول الـضلع حـوالي ٣,٢٥م)، ومؤلفـة مـن ثلاث درجات، وكان يوجد في الوسـط (المركـز) ثـلاث طبقـات مـن المـداميك بشكل متصالب، دفعتنا إلى الاعتقاد في البدايـة باحتمـال وجـود قبـر فـي هـذا المكان عائد إلى العصر البيزنطي أو لعصرٍ أقـدم. وبعـد إتمـام عمليـات الكـشف لم يتم العثور على أي دليلٍ هام أو على أيـة لقـى أثريـة تـدلّ علـى الوظيفـة أو التاريخ الخاص بهذه المصطبة أو الكتلة.

والتفسير المبدئي هو أن هذه الكتلة لم تكن سوى مـصطبة تـشكّل أساسـاً لنـصب معماري معين ربما خلال العصر البيزنطي، خاصة أنها تقـع فـي وسـط الـساحة المربعة التي كانت تستخدم في ذلك العـصر كـساحة عامـة للتبـادلات التجاريـة، حيث تمَّ إلحاقها بالمسجد بعد بنائـه، وهـذا واضـح مـن خـلال الانكـسار الـذي حدث في جداره الغربـي، ويعتقـد أن الكتلـة اسـتخدمت كمكـانٍ مرتفـع للنـداء للصلاة في الفترة الإسلامية المبكرة.

تمَّ فتح سبر أثري آخر في وسط سـاحة المـسجد بجـوار الـسبر الـسابق بهـدف ربطها بالطبقات الموجودة في سـاحة المـسجد والتأكـد مـن رصـف أرضـيات المسجد على غرار ما هو موجود في الممر الـذي يطـل عليـه المـدخل الـرئيس للمسجد. بيّنت الأعمال عدم وجود أي رصف حجـري مـنظم، إنمـا تـمَّ الكـشف

عن أساسات جدران حجرية غير منظمة توحي بوجود كتلة في المكان قبل بناء المسجد، كما تمَّ التأكد من طبيعة العلاقة بين الطبقات الأرضية للمسجد والجدار الغربي حيث تشير أساسات الجدران في هذه المنطقة إلى أنها تعود للعصر البيزنطي.

تمَّ فتح سبر في الجهة الشرقية من وسط ساحة المسجد بجوار الجدار الشرقي للساحة، للكشف عن قبر يتجه شرق – غرب (كبقية المقابر التي تمَّ الكشف عنها في الموقع)، يتوضع على الجدار الشرقي لساحة المسجد، وهو أحد القبور التي تتكون منها المقبرة العائدة لفترات إسلامية متأخرة.

كما تمَّ فتح سبرٍ أثري فيٍ الزاوية الشمالية الغربية من ساحة المسجد بمساحة تقدر بـ ٤,٥م×٢,٥م، بهدف فهم طبيعة الجدار الشمالي للمسجد وقد تبيّن وجود أساس لجدار مكون من ثلاث بلوكات حجرية بشكل مناظر من الداخل للجدار ربما تعود للعصر البيزنطي. أما الجدار الشمالي الخارجي فقد تمَّ الكشف فيه عن امتداد أساس بلوكات حجرية غير متجانسة مع بقية البلوكات التي تشكل جزءاً من الجدار الشمالي.

وكمحاولة لفهم وظيفة الكتلة والتأكد من تاريخ وجودها تمَّت إزالة الأنقاض والأتربة في الجهة الشمالية الشرقية من ساحة المسجد، فتبيّن مبنى مربع الشكل طول ضلعه حوالي ٣ متر، ومن خلال الدراسات الأولية يفترض أننا أمام كتلة خدمية لوظيفة ما في المسجد(حمامات، موضئة)، وهذا واضح من خلال وجود فراغات تقدر بحوالي (أقل من ١ م) بين الجدار الخارجي للمسجد والجدار الداخلي للبناء.

تمَّ القيام بأعمال تنقيبية أيضاً في الزاوية الشمالية الشرقية من ساحة المسجد من الخارج وذلك لفهم طبيعة الرصيف الحجري للممر الملاصق للمسجد وفهم أسباب انكسار الممر واستمراريته باتجاه الشمال بشكل زاوية قائمة.

بيّنت الأعمال التنقيبية في السبر وجودَ طبقاتٍ سابقة للعصر البيزنطي تعود للعصر الروماني ويبدو أن هذا الممر القروي المستخدم للعبور يعود إلى العصر الروماني، أعيد استخدامه ورصفه في العصر البيزنطي لتخديم الأماكن الموجودة في هذه المنطقة من الموقع، واستمر استخدامه حتى فترة بناء المسجد وذلك بوضع بعض المداميك الحجرية التي استخدمت كمقاعد في مواجهة المدخل الرئيس للمسجد.

بيّنت الكسر الفخارية المكتشفة في الزاوية الشمالية الشرقية من المسجد احتمال وجود سويات متلاحقة (روماني، بيزنطي، إسلامي)، كما ظهرت أيضاً مجموعة من المسكوكات غير الواضحة وهي بحاجة للتنظيف للتأكد بشكل واضح من طبيعة السويات في هذا الجزء من المسجد.

أعطت الأعمال الأثرية خلال المواسم ٢٠٠٦-٢٠٠٨ صورة شبه واضحة عن المراحل التاريخية في هذا المسجد:

١- المرحلة الأولى: من الاستيطان يمثلها المقلع الذي تمَّ الوصول إلى نهايته عند ٥,٩م، متصل بطريقة ما مع القاعة التي تحت الأرض.

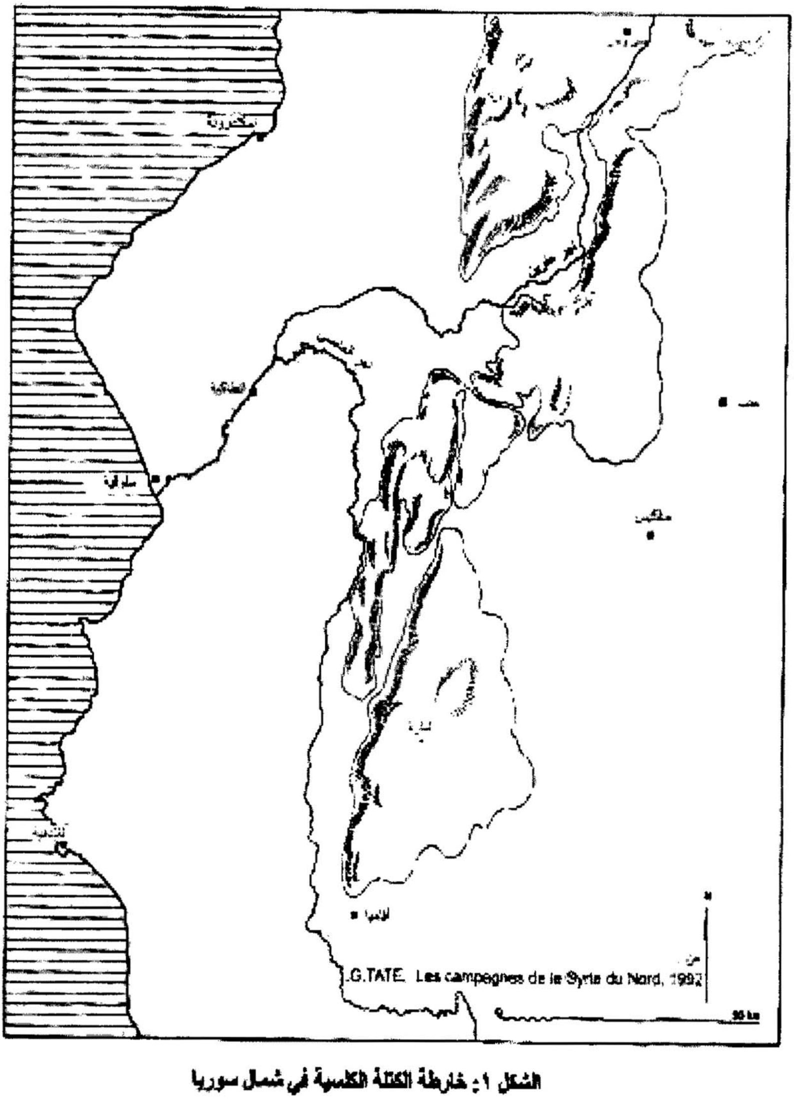
٢- المرحلة الثانية: تتوافق مع المداميك الموجودة فوق المقلع ذات المقاسات المتوسطة والمختلطة مع الصلصال ومن الممكن اشتراكها مع البناء الأساسي والبئر في الفترة التاريخية نفسها.

٣- المرحلة الثالثة: تقع في الجزء الغربي من المسجد وتعود إلى العصر البيزنطي، تمثلها القاعة التي وجدت فيها بقايا لوحة من الفسيفساء.

٤- المرحلة الرابعة: يمثلها المسجد الأول.

٥- المرحلة الأخيرة: تتمثل بالمسجد الثاني حيث تمَّ هدم الجزء الداخلي من رواق المسجد السابق وهنا توضَّع عددٌ من القبور من الفترة الإسلامية.

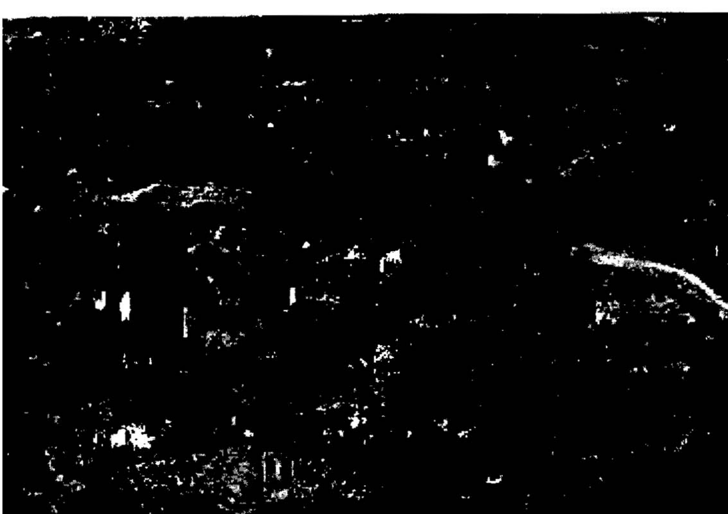
دلّت الأعمال الأثرية التي تمَّت خلال أعوام ٢٠٠٦، ٢٠٠٧، ٢٠٠٨، في موقع البارة وبشكل خاص في المسجد والحمام، على وجود معطيات ساعدت في الحصول على أفكار واضحة وجديدة حول تطور هذا الموقع خلال العصور المختلفة من خلال دراسة مسجد البارة الكبير والحمام المجاور له.



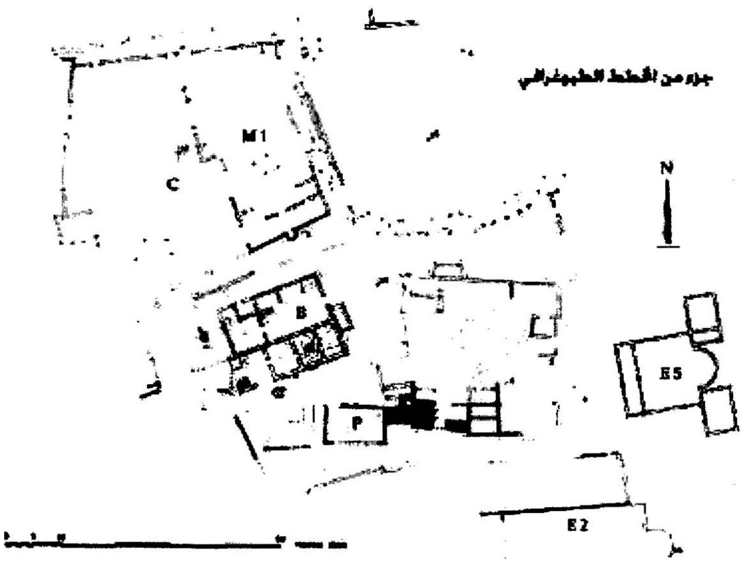
الشكل ١: خارطة الكتلة الكلسية في شمال سوريا



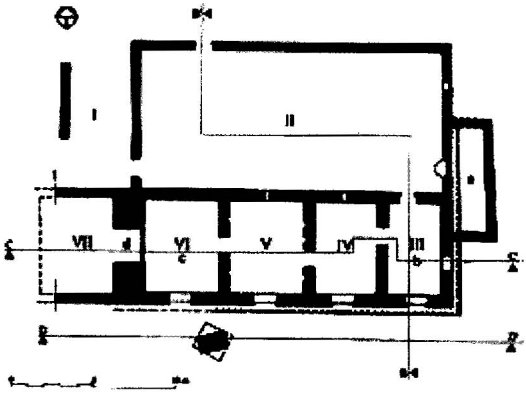
الشكل ٢: منطقة البارة



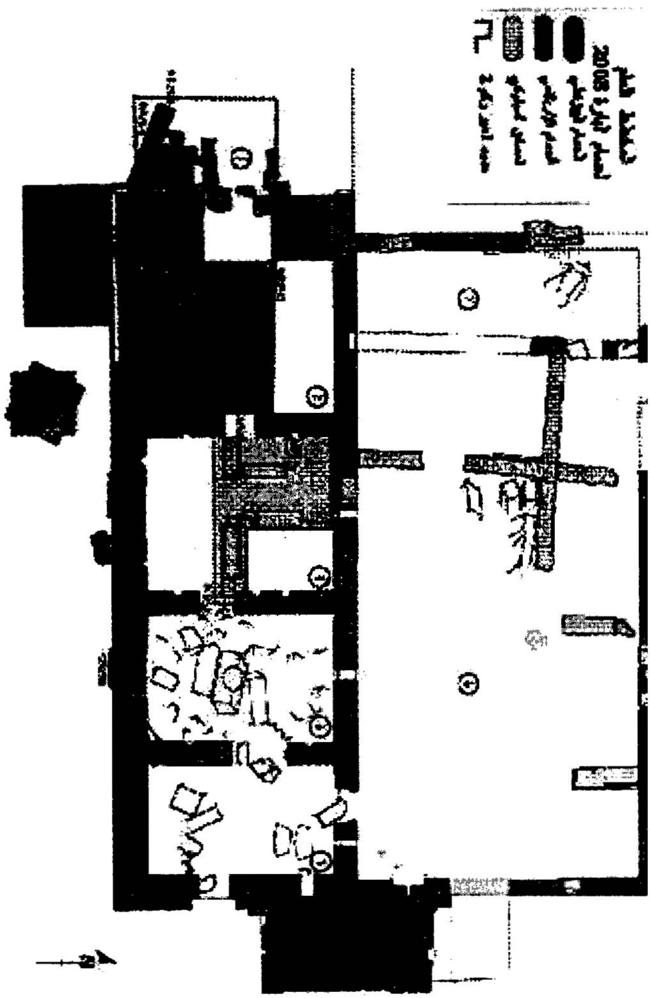
الشكل ٣: موقع البارة



الشكل ٤ : منطقة المسجد والحمام



الشكل ٥ : مخطط حمام البارة عن: G.CHARPENTIER, 1999



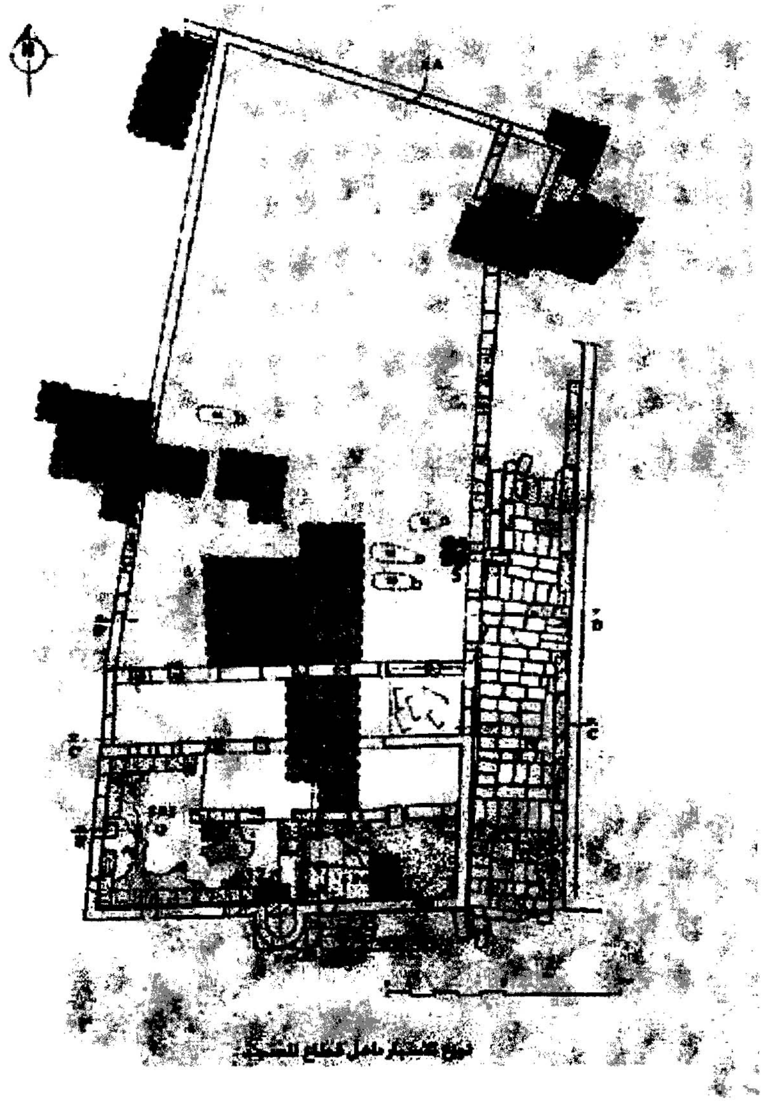
الشكل٦ : مخطط التنقيبات التي أجريت في الحمام



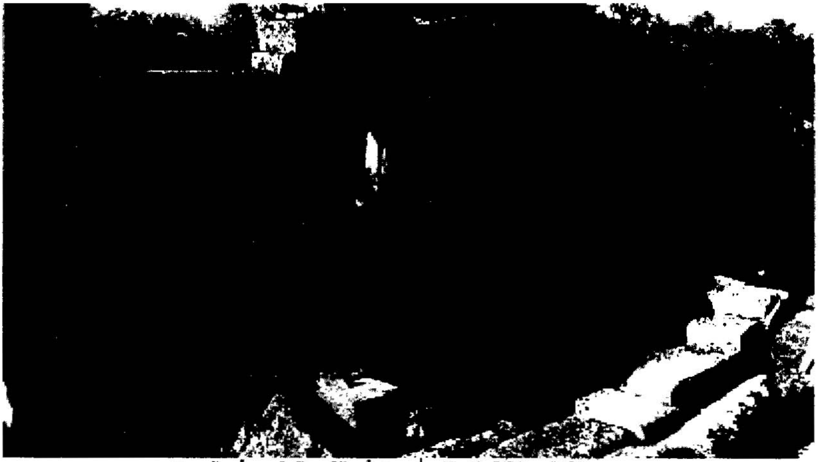
الشكل٧ : التنقيبات في الحمام



الشكل٨ : قسم التسخين في الحمام العائد إلى العصر الإسلامي



الشكل ٩ : توزع الأسبار الأثرية في المسجد



الشكل ١٠ التنقيبات التي أجريت في القسم الجنوبي في المسجد



الشكل ١١ التنقيبات التي أجريت في القسم الشرقي من المسجد

الهوامش

(١) يقصد بمصطلح المدن الميتة القرى الأثرية المهجورة التي تنتشر في الكتلة الكلسية الممتدة من حدود تركيا حالياً في الشمال حتى منطقة أفاميا جنوباً، ومن سهل الغاب غرباً حتى سهول حلب وقنسرين شرقاً، بطول ١٥٠ كم وعرض ٧٠ كم تقريباً. وهي عبارة عن سلسلة من القرى التي يتجاوز عددها السبعمائة، موزعة على جبال سمعان، الحلقة، باريشا، الأعلى، الوسطاني، الدويلي، الزاوية، تتميز هذه القرى بأنها ما تزال تحتفظ بحالتها المعمارية الممتازة التي قاومت عوامل الطبيعة والتخريب حتى الآن.

(٢) شهدت هذه القرى مرحلتين هامتين من التطور: المرحلة الأولى: تمتد من القرن الأول حتى منتصف القرن الثالث الميلادي، والمرحلة الثانية: تقع ما بين القرن الرابع وحتى القرن السابع الميلادي وفيها شهدت هذه القرى تزايداً كبيراً في عدد السكان وازدادت ثرواتهم في إطار توسعهم العمراني حيث تكاملت المدن والأرياف في الثروة.

(٣) قام العديد من الباحثين بدراسة بعض الجوانب المعمارية في هذا الموقع مثل:

M.VOGÜÉ, *Syrie centrale, architecture civile et religieuse du Ier au VIIe siècle,* Paris,1865-1877, p. 84, 93-94 et pl. 35-36, 50-53, 60.
H.C.BUTLER, *PAES II, Architecture and other arts,* New-York ,1899-1900, p. 97-99, p. 243-245.
J.MATTERN., *À travers les villes mortes de Haute Syrie,* MUSJ, 17, fasc. 1, Beyrouth , 1933, p. 32-34.
G.TCHALENKO, *Les villages antiques de la Syrie du Nord, Le massif du Bélus à l'époque romaine,* t. 2, Paris,1953, pl. 137-139.
G.TATE, *Les campagnes de la Syrie du Nord,* Paris, 1992.
J-P.FOURDRIN., « Les églises à nef transversale d'Apamène et du Tûr 'Abdin », *Syria* 62, 1985, p. 320-323.
Idem, La fortification de la seigneurie épiscopale latine d'El Bâra dans le patriarcat d'Antioche (1098-1148), dans *Pèlerinages et Croisades,* Actes du 118e congrès national des sociétés historiques et scientifiques, Paris, 1995, p. 351-406. - *Idem,* Église E5 d'El Bàra , *Syria,* 69,1992, p.171-201.

4) G.TATE, *Les campagnes de la Syrie du Nord,* Paris, 1992. G.TCHALENKO, 1953,p 430

(٥) شارك في الأعمال الميدانية من الجانب السوري بإدارة د. مأمون عبد الكريم، كل من م. نسرين بوظة، فاديا أبو سكة، محمد يونس، ومن الجانب الفرنسي بإدارة د. جيرار شاربانتييه G Charpentier، وفيدريك ميرسييه F. Mercier، ومراد العموري.

(6) G.CHARPENTIER, *Les petits bains protobyzantins de la Syrie du Nord*, thèse de Doctorat, Université de Versailles- Saint -Quentin en Yvelines, 2000, inédite.

(7) G.TCHALENKO, 1953, t. II, pl.138. G.CHARPENTIER, 2000, p.126-136.

(8) G.Charpentier et M.Abdulkarim, Une première campagne d'étude sur la mosquée d'*El Bâra* ?, *Colloquium on late Antique and Early Islamic Archaeology in Bilad al-Sham*, DAI, Damas, 2006.

(٩) حول منظومة المياه في قرى شمال سورية انظر:

M.ABDULKARIM M, P&A. BILDGEN et J-P. GAUBERT, Les systèmes d'alimentation en eau au voisinage et dans les terroirs des villages du Gebel zawiyé, *AAAS*, 45-46, Damas, 2002-2003, p.359-379.

M.ABDULKARIM, P&A. BILDGEN et J-P. GILG., Comparaison des pontenialités naturelles d'accueil des Gebels siman et zawiyé, vis-à-vis des choix d'implantation des sites antiques romano-byzantins de Syrie du Nord, *Photo-interprétation*, volume.40, Paris, 2004, p.27-35.

المراجع

ABDULKARIM M, BILDGEN P&A et GAUBERT J-P., Les systèmes d'alimentation en eau au voisinage et dans les terroirs des villages du Gebel zawiyé, *AAAS*, 45-46, Damas, 2002-2003, p.359-379.

ABDULKARIM M, BILDGEN P&A et GILG J-P., Comparaison des pontenialités naturelles d'accueil des Gebels siman et zawiyé, vis-à-vis des choix d'implantation des sites antiques romano-byzantins de Syrie du Nord, *Photo-interprétation*, volume.40, Paris, 2004, p.27-35.

BUTLER H. C., *Architecture and other arts, PAES II*, New-York (1899-1900).

CHARPENTIER G, *Les petits bains protobyzantins de la Syrie du Nord*, thèse de Doctorat, Université de Versailles- Saint -Quentin en Yvelines, 2000, inédite.

CHARPENTIER G et ABDULKARIM M, Une première campagne d'étude sur la mosquée d'*El Bâra ?, Colloquium on late Antique and Early Islamic Archaeology in Bilad al-Sham*, DAI, Damas, 2006.

FOURDRIN J.-P., « Les églises à nef transversale d'Apamène et du Tûr 'Abdin », *Syria* 62,1985, p. 320-323.

Idem, « Église E5 d'El Bâra », *Syria*, 69, Paris,1992, p.171-201.

Idem, « La fortification de la seigneurie épiscopale latine d'El Bâra dans le patriarcat d'Antioche (1098-1148) », dans : *Pèlerinages et Croisades*, Actes du 118[e] congrès national des sociétés historiques et scientifiques, Paris, 1995, p. 351-406.

MATTERN J., *À travers les villes mortes de Haute Syrie*, MUSJ, 17, fasc. 1, Beyrouth,1933.

TATE G., *Les campagnes de la Syrie du Nord*, Paris, 1992.

TCHALENKO G., *Les villages antiques de la Syrie du Nord, Le massif du Bélus à l'époque romaine*, t. 2, Paris,1953.

VOGÜÉ M., *Syrie centrale, architecture civile et religieuse du Ier au VIIe siècle*, Paris,1865-1877.

أفكار حول شبح لغوي

أ. د. جان ماري ديوران – كوليج دوفرانس

Reflexions sur un fantôme linguistique
Prof. Jean-Marie Durand

تعريب من الفرنسية : أ. د. فيصل عبد الله

الدكتور فيصل عبد الله

أستاذ التاريخ واللغات القديمة

قسم التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة دمشق

مقدمة المترجم:

إن مؤلف هذا البحث الأستاذ الدكتور جان ماري ديوران هو أكثر من كتب عن تاريخ سورية القديم في عالمنا الحديث. وتجاوزت صفحاته المائتي ألف! وهو يركن في مركز الدراسات المسمارية في الكوليج دوفراس منذ السبعينات من القرن الماضي. ويتربع منذ عقدين على رأس هذا المعهد العلمي الراقي والعالمي. وعمل في سورية لأربعة عقود دارساً ومفككاً لرموز الكتابات المسمارية التي اكتشفت في ماري. وما من نص أو رقيم مسماري آخر في سورية إلا وقرأه ونقده. إنه الأكثر قدرة في العالم على فك رموز أي نص مسماري غيباً وآنياً أي لحظة خروجه من التراب. وقد أقمنا معه ومع فريق المختصين في ماري ومنهم الأستاذ الدكتور دومنيك شاربان، ندوات

ومحاضرات دورية ومتقطعة واختلط فريقه مع دارسي ومدرسي المسماريات في جامعة دمشق... وأفدنا من أعماله ومحاضراته خلال تلك السنين الطويلة. وقامت بيننا صداقة وعلاقات علمية وطيدة أثمرت عن تقدم في الدراسات المسمارية في جامعة دمشق وجامعة حلب وغيرها. وصار طلابنا في الدراسات العليا على صلة واهتمام بهذا الميدان العلمي من خلال ما ذكرنا من أنشطة وصلت حتى إقامة ندوات تلفزيونية عدة.

ولطالما وجد الطلاب صعوبة بالغة في ترجمة وفهم أبحاث هذا العالم وكذلك فريق دراسات ماري الفرنسي نظراً لعقبات متعددة أولها جدة هذا الميدان في جامعاتنا، وتعدد لغات البحث،. بحيث يتوجب على القارئ التمكن من لغات قديمة وحديثة كي يصل إلى الاستفادة ونقل هذه المعرفة المهمة من تاريخنا إلى اللغة العربية. ومن البديهي أن ترجمة غير متخصصة قد تبوء بالفشل الكامل، وتدفع إلى اليأس والابتعاد عن هذا الميدان. ولذا كان وما يزال معظم عملنا يستهلك أوقاتاً طويلة في الترجمة إلى العربية وتأليف نصوص جديدة ومقنعة. ولا يمكن من جهة أخرى، التساؤل عن إمكانية ترجمة أو تعريب منظم ودائم، نظراً للكلفة وعدم الشعور بالضرورة العامة لهذا الميدان المسماري! ورغم معرفتي الكاملة بمعظم مؤلفات الأستاذ الدكتور ديوران وفريقه، إلا أنني لم أعرِّب أو أترجم أعمالاً كاملة نظراً لما يتطلبه ذلك من ضياع للوقت وفقدان إمكانية البقاء على صلة بسيل غزير من التأليف والنشر. ووجدت أن من الأفضل هو القراءة والإطلاع وتكوين ذخيرة تتيح متابعة الجديد الذي لا يتوقف، وتأليف نص جديد بالعربية.

هنا وبعد الشعور بحاجة الطلاب إلى بعض البحوث المترجمة أو المعرَّبة حرفياً (!)، هدفها استعراض منهجية البحث في ميدان المسماريات، والتعرف على تقنية التأليف والإسناد والنقد بالإضافة إلى الاتصال المباشر مع كبار المؤلفين في هذا الميدان اخترت بحثاً جديداً، يمثل مشكلة أو إشكالية مهمة تتعلق بوجود أو عدم وجود لغة

أمورية /عمورية. وما هي علاقتها بالأكادية أقدم لغات أسلافنا القدماء المعروفة بالساميات (المترجم).

أفكار حول شبح لغوي / جان ماري ديوران – كوليج دوفرانس

Reflexions sur un fantôme linguistique/ Prof. Jean Marie Durand

(١٦٥) النص الفرنسي: غالباً ما تُقدَّم اللغة الأمورية/ العمورية على أنها لغة سامية موجودة ولكن يجب اكتشافها وإن هذا في واقع الأمر، ليس إلا فرضية معاصرة، انطلاقاً من تعدد الاختلافات اللهجية لحقيقة سامية واحدة. تلك التي تتبدل فيها الصوتيات عبر الزمن من مثل: يا./ي. (Ya-/i-). وقد قام اللغويون المؤرخون بالتعرف على شكل لغوي أكادي، في العصر الأموري. وهو لهجة مدينة اشنونا Ešnunna شمال بابل. واعتبرها هؤلاء، لهجة أو لغة أكادية فصحى، ولكن هذا التصنيف قد لا يكون إلا مجازفة خطرة. وإنها ليست إلا محاولة مصطنعة تطبيعية تسمح بإمكانية المقارنة وفهم لهجات متقاربة ولكنها مختلفة ومتباعدة.

هذا وتمثل الأمورية شعباً[١] أو لغة إحدى الأسئلة القديمة في حقل الدراسات الأشورية. حيث أن البحث الحالي، ورغم كثير من المعطيات الجديدة، لم يجب عليها. (١٦٦) وما يزال هناك إرث غزير من المؤلفات التي تسبق المشكلة! وقد أغنت وثائق ماري الكتابية المعطيات المتوفرة كثيراً. وأرغب اليوم أن أراجع المشكلة الأمورية، وخاصة من وجهة النظر اللغوية، لأن ذلك قد أعددته كمساهمة في تكريم باسكال أتينجر P. Attinger أحد أساتذة علم لغات Philologie المشرق القديم[٢].

وإن المقطع الأكثر وضوحاً عن وجود اللغة الأمورية هو عبارة لـ: شولجي Šulgi الذي يُستشهد بها دائماً. وآخر مَنْ فعل ذلك هو ج. روبيو G. Rubio في «مجموعة أبحاث»، فانستيفوت[٣] Mélanges Vanstiphout إذ يقول شولجي بالسومرية وهي لغته الأم والقومية:

[eme mar]-tu nig eme-gi-ra-gin_7 hé-[en-ga-zu-àm]

«أنا أتكلم لغة مارتو / الأموريين كما أتكلم السومرية»

ثم يضيف شولجي:

eme mar -tu - a inim hu –mu-ne-ni-[gi_4]

«وقد أجبتهم بلغة مارتو / الأمورية».

ومن الجدير بالملاحظة أن هذا الإمبراطور كان يتكلم أو يعرف اللغة العيلامية: «كما يعرف السومرية» ويفهمها[٤]، ويستخدمها عند اللزوم؛ إلا أن النص المسماري مهشم عند هذه العبارة (šulgiC) ولا يسمح بمعرفة امتداد هذه التعددية اللغوية على مستوى الإمبراطورية.

ولكن يمكن أن نلاحظ هذا مجدداً بفضل نص ثان يحمل الرمز šulgiB الذي يذكر، إلى جانب معرفة الإمبراطور بالأمورية، اللغة العيلامية، «لغة الجبال السود»[٥]. كما يسميها وكذلك «لغة سبارتو» التي تعرف اليوم باللغة «الحورية».

يؤكد هذا النص إذَن أن ملك أور، أي شولجي متعدد اللغات ومولع بها كما يقول ج. روبيو. وهنا تبدو براعة شولجي اللغوية، بالمقارنة مع رؤساء الدول المعاصرة، الذين يواجهون مواقف بلغات متعددة. ومثال ذلك ملكة انجلترا، تقتصر معرفتها على الفرنسية بسبب استخدامها من قبل جزء من سكان كندا، ذات الغالبية الإنجليزية. كما نجد أن البابا ينطق مباركة الميلاد والفصح بعدة لغات. ولا يحتاج مثل هذا الخطاب الرسمي إلى معرفة معمقة باللغات بعكس شولجي الذي يجيد فهمها وتكلمها[٦].

(١٦٧) من الملاحظ أن اللغة الأكادية غير مذكورة هنا ولكن لغة شولجي[٧] الأم هي السومرية وتبدو هنا – حسب «روبيو» كلغة مرجعية له. ومن هنا يترسخ لدينا انطباع أن اللغة الأمورية هنا تعني اللغة المحكية: «sémitique Vernaculaire» أو أنها لغة

«سامية» عامة قريبة من الأكادية لدرجة أنها ليست سوى تنوعاً لهجوياً[٨]. ومن وجهة نظر متحدثي السومرية أي شولجي هنا فإن الأمورية بالنسبة له لا تمثل سوى اللغة الدارجة لجزء من سكان مملكته واللغة الأكادية هنا ليست سوى لهجة من بين لهجات أخرى[٩].

(١٦٨) ومهما يكن، فإن المدى السياسي لمعرفة اللغة الأمورية يبدو واضحاً في رسالة سمسي أدو Samsî-Addu إلى ابنه يسمخ أدو[١٠] Yasmah-Adda، حيث يثنيه عن (متحدثاً بالأكادية) الذهاب إلى البدو الخانيين (han-um) لإحصائهم لأنه لن يستطيع التحدث إليهم بالأمورية[١١].

إذا ما صدقنا سمسي أدّو، فإن الناس الذين يستخدمون، في هذه الحالة، هذه اللغة لم يدعوا أو يسموا بـ: «الأموريين»، بل خانم hanûm. وبالتحديد فإنهم، ومن خلال المضمون أو السياق الجغرافي المحدد في الوثائق، هم من بني شمال mâr sim'al. فهؤلاء الناس هم والحال هذا، غير حضريين «non sedentaire». إن حقيقة أن يسمخ أدو لا يتكلم لغتهم يدل على أنه لا يوجد وسيلة اتصال بينهم وبينه (وهو من عائلة تضم عدداً ممن يحملون أسماءً سامية غربية كما يقال، ما عدا اشمي دجن في اكلاتوم (Ekallâtum). فملك ماري لا يعبر إذاً، رغم صيغة اسمه، يسمخ أدو، بالأمورية[١٢]. وهذا أقرب إلى الحقيقة نظراً لأصل عائلة سمسي أدّو الذي، يبدو أنه آتٍ من مزدرع اشنوني. ونستطيع أن نتساءل فيما إذا كانت كلمة: «الأموريون» هنا مجرد تحقير أو حاط، وأنه يجب أن نفهم من ذلك مجرد لهجة إقليمية أو مناطقية «Patois local». إن واقع لغات المشرق، قد تبدل كثيراً منذ عهد شولجي. فمنذ الآن، وبعد قرنين، فإن اللغة في منطقة أكاد، وبصورة خاصة المنطقة الشرقية، هي اللغة المستخدمة في المشرق، وليست اللغة السومرية. من جهة أخرى، فنحن لم نعد في جنوب بلاد ما بين

النهرين وإنما في أعلى الجزيرة حيث تتنافس لهجات سامية متنوعة وتتكامل مع أخرى مختلفة أو من عائلة لغوية أخرى مثل اللغة الحورية.

إن هذه «اللغة الأمورية» التي ورد ذكرها مرات عدة في وثائق ماري[١٣]، (١٦٩) ليست في النهاية بداهة متوقعة، لأن أموروم amurrum يمثل واقعاً محدوداً جداً في نصوص ماري: من مثل عشيرة ثانوية من بني شمال mâr simàl[١٤]. ولا تُذكر لهم آلهة إلا نادراً[١٥]، أو منطقة واقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط غير مذكورة إلا مصادفة[١٦]. فضلاً عن ذلك، لا أعرف أي خانوم hanûm يتقول أنه «أموري» وأقل من ذلك وجود تعريف كـ: مار سمأل mâr sim'al أو مار يمينا mâr yamina ما عدا إشارات إلى عشيرة محددة. أما ما يخص الملوك من أصول مار سمأل فيقال لنا أنهم ملوك بدو أيضاً: وهكذا بالنسبة إلى زمري ليم مثلاً، فهل نعلم أنه ملك الأكاديين والبدو؟[١٧] هذا ولا نجد في أي مكان عبارة تؤكد أن ماري تقع في منطقة أمورية، وإن تحدثنا، عادياً، عن أكادوم akkadûm، فهذا قبل كل شيء يدل على اشنونا أكثر منه على سكان بابل.

١ – ماذا كان الواقع من وجهة النظر اللغوية؟

١ – ١ – لغة اشنونا الأكادية:

(١٧٠) كانت اللغة الأكادية في اشنونا Ešnunna في عصر ماري اللغة الفصحى في الشرق الأدنى عامة؛ ويبدو أن هذا كان واقعاً جديداً ويُفسّرُ بطريقة عادية بالموقف الخاص الذي كانت عليه إمبراطورية التوسع الاشنونية وخليفتها القوة الصاعدة لـ: سمسي – أدُو[١٨] ويمكن أن نجد هنا ظاهرة معروفة جداً في مجرى التاريخ الإنساني: إن الصدى اللغوي للتوسع الإمبراطوري؛ وهذه الطريقة بالتعبير على الأقل بوساطة الكتابة، تؤثر وتسمح بالتخاطب في الشرق الأدنى، ومن الواضح أن وضع خارطة

عملية لاستخدام كتابة بلاد الرافدين، يشير إلى منطقة انتشار تلك الثقافة. من جهة أخرى فإن التعبير بالكتابة المسمارية ليس له قيمة سياسية بسيطة(١٩). ولا يفهم منه سوى معرفة مدى انتشار ثقافة الشرق نحو الغرب. ولا يبدو أن تحقيق هذا قد تم بإلغاء لغات قومية أخرى وريثة الألف الثالث ق.م: ومن أمثلة ذلك ما حُفِظَ لنا في وادي الفرات في ماري وترقا وتوتول وكذلك في إيلا وحاصور أخيراً(٢٠).

(١٧١) ويجب من الآن فصاعداً الاعتقاد أن لهجة اشنونا لم تؤد إلى اختفاء لهجات الحديث المحلية المتنوعة، بل يجب افتراض الاستمرارية، حتى في الوثائق التي بحوزتنا اليوم، فإن الالتجاء العام إلى الأنموذج الاشنوني قد سوّى وسهّل التنوعات المناطقية، وحمل على الاعتقاد بوحدة لغوية محكية في الشرق الأدنى. وإننا لا نستطيع في الواقع ببساطة الاستنتاج مما يكتب أو يدون في مكان ما عن ممارسته اللغوية.

١ – ٢ – بقاء لغة الحديث المحلية:

توجد إشارات عدة على وجود وبقاء لهجات محلية، حتى إن لم تكن مفهومة، لا بَلْ كانت مترجمة خطأً. وهكذا فقد تابع الماريون في عهد زمري ليم(٢١) كتابة رقم على نمط شَكَّنكّو šakkanakku. وبالعكس من ذلك، فإن الرسائل الموجهة دولياً من مراكز تقليدية محلية قوية مثل أشور Aššur وكولتب Kültepe فهي بالأكادية الأنموذجية(٢٢) Standard.

١ – ٣ – التعبيرات المحلية:

نلاحظ أيضاً أنه، عندما يدوّن مُرسل حديثه مباشرة ومن قبل آخر، وخاصة إذا لم يكن هناك مشكلة، فإنه يفعل ذلك حرفياً Verbatim؛. وهكذا نستطيع أن نرى ظهور خطاب أكادي عميق وأنموذجي، ولكنه يتضمن أنماطاً أخرى من التعابير، سواء أكانت تتعلق بالقواعد الإعرابية أو الكلمات. وما يمكن أن نجده مفهوماً من خلال نصوص

مكررة Corpus، هو أننا نلمس التزاماً بالتقليد العادي للأكادية. وهنا يمكن أن نعثر على تعابير محلية، لا بل صيغٍ مجهولة سواء بالنسبة للقواعد والإعراب أو للكلمات.

١ – ٤ – كُتَّابْ خارج المعايير:

كذلك فالأمر صحيح، عندما نرى – بصورة عامة ووفق خاصية ومواصفات الموضوع الحميمية أو السرية – إن المُصدّرِ للمعلومة قد أخذ بنفسه القلم أو القصبة Calam وراح يسطر رسالته: ونلاحظ عندئذن كثيراً من الخاصيات، سواء في الإخراج أو الإملاء[٢٣] أو التعابير. وهذا يتجاوز عدم مهارة التحرير للنص بالمقارنة مع مهارة كاتب (١٧٢) متخصص[٢٤].غالباً ما نلاحظ أن المندوب الرسمي «يكتب كما يتحدث». وهذا يعطي قيمة للرسائل القادمة من أطراف استخدام الأكادية مثل كركميش Karkamiš وذلك بفضل مراسلات صدقوم لاناسي Sidqum-Lanasi (الذي سيذكر أدناه).

هذا يُري، في كل حال، من هو قادر وإلى أي درجة أن يكتب وثيقة، وبخاصة، ضد أو بعكس دور المحرر الذي يقوم به الكتاب المهنيون الذين لا يتواجدون دائماً في مقر الإدارة الملكية كمجرد نساخ سلبيين، ولكن، وبالتأكيد قد تلقوا تدريباً وتعليماً لمهنة «كاتب رسائل» (وتدريب إملائي، وتعبيري، وإخراجي)، ولهذا، ومن جهة أخرى، قد حافظنا على الأنماط التي استعملوها.

٢ – الرسائل العجمية العامية بلا إملاء:

أمام غياب وثائق محلية تسمح بجمع نصوص محلية، يمكن لنا أن نفكر أن الأكادية كانت قد حُرِّفت محلياً باستعمالات سمحت، بصورة عكسية، بتكوين لمحة حول قواعد أساسية أو جوهرية. وتشكل هذه القاعدة، وبهذا المعنى، ما يمكن تسميته بالرسائل العجمية العامية بلا إملاء «Lettres barbares». ونستطيع أن نراجع حول موضوعها دراسة أساسية لـ: دومنيك شاربان[٢٥] D. Charpin. وإن الطابع المميز لهذه

النصوص الأكثر بروزا يكمن في استخدام مقاطع محيرة في قراءتها؛ وبمعنى آخر يمكن اعتبارها أكادية بلا قواعد إملائية akkadien non ortographique. إن الناس الذين كانوا يكتبون رسائل عامية في إلان – صورا Ilân-şûrâ كانوا يبعثون برسائل عادية، تفتقر إلى طريقة تعبير في بعض الحالات. ويجب أن نستوعب أن قائداً أو أميرة أو غير ذلك، لا يأتمنون الإدارة الملكية لأسباب سرية، فيلجأون إلى مصادرهم الخاصة، وتكييف الإشارات المسمارية بطريقة أو بأخرى (١٧٣) لتوصيل المعلومات[٢٦].

وهكذا نرى الناسخ يستخدم (HI) TA_8 أو (HI) A_{10} من أجل الدلالة على لفظ الإشارة[٢٧] da ويجب أن يدل هذا على توجه لفقد المفخمات على ضفاف الفرات[٢٨]، ذلك أن الإشارة HI تحولت بصورة مبدئية لتدوين المفخم /tà/ طا وأنه، إذا كان فقدان الدمج (وهو ظاهرة معروفة) لا يُبدِّل كثيراً الفهم والمعنى، فإن التضخيم لا يدل إلا على التردي في معرفة الإملاء في استخدام الإشارات؛ وبنفس الطريقة أيضاً استخدام الإشارة GU من أجل الحصول على الصوت /qù/ في الكتابة الأنموذجية. في ماري (dù-ra-du) يمكن أن تسجل تراجع وتخفيف وأسلوب أو نظام التفخيم[٢٩].

٣ – اللغة الأمورية غير معروفة إلا من خلال أسماء العلم:

منذ بدء البحث عن اللغة الأمورية، ونظراً لفقدان ونقص النصوص الخاصة، فقد توجه الاهتمام، بصورة خاصة، نحو الإسميات أي أسماء العلم والأماكن onomastique التي تظهر من خلال صيغة قاعدية (أفعال أسماء العلم هي بالبدء -ya وليس -i) أو من خلال كلمات (ذات معنى) مثل هموم hammum بمعنى جَدّ و[= عموم âmmim/ وليس «العامة» أو عموم أو عم المشتق من الأسماء الأكادية التي تقدم أمثلة بذات المعنى عند مقارنتها بلغات سامية أخرى مثل العبرية والعربية. وهكذا نجد (١٧٤) أنها طريقة بحث غير تاريخية، إذ بقيت مواظبة على حواشي جذور لغوية

سامية، ذلك أن هناك أكثر من ألف سنة تفصل حمورابي البابلي عن نصوص «الكتاب اليهودي»«la Bible» الأكثر قدماً، وكذلك الأمر قرابة ألفين وخمسمائة سنة تفصل بين هذا الملك عن النص القرآني. وقد يستطيع الصرف morphologique التقليدي أن يوحي بثبات وركود دلالة الألفاظ sémantique. إلا أن الأولى تمتلك فرصاً واسعة لتطوير استخدام جذر لغوي، إن لم يبدل بأخر من أجل تحديد واقعة أو بنية مماثلة.

بعض الشواهد:

إن أسماء العلم لا تمثل معياراً صالحاً لكل حالة، لأنها يمكن أن تحور وتستغل ذاتها، فسلسلة الأسماء الدينية نير Nir-ND (نير – اسم إله) تظهر في فئة أسماء النساء في حين أن سلسلة نور – اسم إله Nûr-ND (وهي شكل أو صفة نور nûr ونير Nêr) تحصي أسماء مذكرة: فالصورة أو المظهر اللغوي لـ î، û، يعكس في النتيجة البعد أو القرب من السلطة[٣٠]. فالتنوع اللغوي الجدلي هو هنا، ترقين اجتماعي وليس عرقي[٣١].

إن كل دراسة لا تهتم بمسألة التنوع هذا باطلة منذ البدء؛ فعندما ننظر إلى قوائم تذكر أسماء الأفراد (عسكر، أو عمال، إلخ)، تُطرح مباشرة مسألة النطق الحقيقي لأسماء العلم أو الأفراد هؤلاء.

وهكذا فإن اسم الحاكم نفسه اتور – أسدو Itûr- Asdû قد يكتب بصور يتور – أسدو yatûr-Asdû وكذلك يتار أسدو Yatar-Asdû (والحال هذه فإن اسم فرد بسابقه يتار yatar- يمثل لهجوية من وتار watar–). فكيف كان يدعى في حقيقة الأمر. إن إتور Itûr مصنفة كنهاية تدل على انتقال اللهجة الإيقاعية: ويصبح اسم الفرد ذاته هجيناً.

إن وجود البدائل والمتغيرات تطرح مشاكل مختلفة مثل:

وتنطق بـ: خ H: أو لا[٣٢]؟ ha-at-ri-ia-an at-ri-a-du

ونجد أن ši-in-tab-šar لها بديل ši-tab-šar-ri.

ونجد أن bi-na-an-ti-El وبديل آخر bi-na-ti-El وإدغام حرف الـ n قبل حرف ساكن؛ وكذلك qa-hi-la وبدلها qi-hi-la. وهو تبدل صوتي متكرر مثل: -Ilî gumlâya وبدلها Ilî-gumlîya وكذلك Itti-ša-milku وبدلها Itti-ša-malku، إلخ. ونجد أن هذه الأسماء متطابقة

(١٧٥) وليس موضوع نقاش هنا أن نبحث عن المعنى، والتصريف أو أصول اللهجات المتنوعة.

وينعكس التعارض اللغوي أيضاً في صيغة التثنية مثل: $\c{s}$í-is-sú-na-am$_1$-ra-at تتقلب إلى sí-sú-nu-ra-at والمعني هنا هو ذات الاسم. كما أن التعارض بين الساكن والمتحرك أو الصامت، والصائت يظهر في الرسائل العجمية في: sa-tu-qí-èl وتنقلب إلى sa-du-qí-el (حيث أن المتتالية ṣ-q يمكن أن تبدل إلى s-q). إن اسم العلم هذا، هو مثال جيد لكتابة sandhi التي تقرأ saduqel («El هي صحيحة») مثل التعارض بين ab-du-ia-an-du و ab-di-ia-an-du

وهي من أصول كتابية هي âbdu-yaadu وتلفظ/sandhi /âbdiyandu.

إن لوائح أسماء العلم التي دونت دون تنوعاتها اللفظية والكتابية قد تعطي مظهراً لوحدة أو اتساق عام[٣٣]. ولهذا السبب فإن مؤلفات H. B. Huffmon هوفمان[٣٤] وستريك[٣٥] M. P. Streck. حيث نجد قوائم طويلة خالصة ومعطيات قد جمعها جلب[٣٦] IJ. Gelb، تعطي الانطباع أن هناك لغة أمورية واحدة، وأن هناك لغة سامية مفقودة يلزم البحث عنها.

إذن خلف هذه الصيغة الأمورية. حيث لم يختر منها للبحاثة إلا جانباً ظاهراً ولحداً، في حين أن هناك تعدد لهجوي[٣٧]؛ فهؤلاء الناس الغارقين في كومة من أسماء العلم التي تبدو اليوم

(١٧٦) نسبياً موحدة يستخدمون في النهاية وكل منهم، لهجات ذات خاصيات مذهلة، حتى إذا لم نكن قادرين إلا على وضع فرضيات جزئية فيما يخص نظامهم أو أسلوبهم العام systémes-généraux. ومن السهل، في الواقع أنه ما إن نهتم بتفاصيل النصوص المذكورة في محفوظات ماري، حتى نجد ما يكفي من الفروقات اللهجوية بين المناطق الكبرى المختلفة.

٤ – اللهجات المختلفة:

وها هنا نقطة أساسية ألا وهي أن المراسلات التي عُثِرَ عليها في ماري لا توثق لغة ماري بأي وجه من الوجوه بل مراسلات ملوكها[٣٨] وكذلك إحصاءاتهم التي تعدد السكان من أصول مختلفة جداً، أي محليون وأجانب وأسرى ومسبيون إلخ. إن غنى هذه النصوص يبرز بطريقة معاصرة، وتوثيقها النوعي الأولي، طرق أو وجوه القول أو تسمية الشرق الأدنى برمته[٣٩].

إذن، فإن علامات اللهجوية dialectalismes هنا عديدة[٤٠]. إن أبرز برهان فيما يخص ماري هو لغة وكتابة نصوص شكنكو šakkanakkum الأكادية المزدوجة اللغة التي شهدناها من خلال قلب ونقل نظام كتابي محلي الذي سيصبح لغة تعبير عالمية[٤١]، وإن مقياس أو معيار التبدل والتغيير هو طريق أو مسرب لهجوي.

والبرهان الثاني (دون الملاحظة المذكورة أعلاه لـ: سمسي أدُّو) ينطوي في الواقع على أن مندوبي كوردا Kurdâ كانوا مرافقين بمترجمين[٤٢] مَبَلُّومْ[٤٣] mappalum، مماثل إذاً لـ: إمي – بال eme-bal في الألف الثالث. وهكذا لا يوجد (١٧٧) تفاهم بين سكان ماري وسكان كوردا، ولكن وعلى الرغم من ذلك، فهم أقرباء لدرجة أنهم أقاموا بينهم عهداً قبلياً، خبشوم hipšum طبقاً للأصول.

٤ – ١ – خاصية الكلمات:

إن الكلمات هي، كما يبدو، الأكثر سهولة للدراسة من أجل تحديد اللهجات.

آ – في الواقع، إن استخدام اللغة الأكادية ذاته يرتبط بوثائق متوفرة: وهكذا هل تتلاقى الوثائق الخاصة جداً في ماري مع نظيرتها في أوروك Uruk، عندما نستحوذ على نصوص متماثلة(٤٤). إن الكلمات الخاصة جداً لواقع ماري المعرَّض أن لا يكون سوى وثائق ظرفية أو عابرة بالصدفة.

ب – ويمكن تسمية حقائق متماثلة واقعية وبطرق مختلفة: رابيتوم (آن) - rabiânum ân يقابلها سوجاجم sugâgum (بصيغة بُراس PuRās. ويبقى أن تُثبت الاختلافات المحلية لهذه السلطة المحلية!

ت – إن كلمات متطابقة ومتماثلة قد تكون ذات معانٍ مختلفة: رجموم ragâmum (اشتكى للقضاء) بالبابلية يقابلها ragamûm («استدعى»، في ماري)(٤٥)؛ بكوم bakum «بكى» بالبابلية بلهجة ماري «صرخ».

ث – ووقائع مماثلة ظاهرة من خلال تنوع التعابير: دموم dadmum في يمحاض(٤٦) yamhad وأوجارم(٤٧) ugârum وكذلك ما تُم mâtum؛ ملكمُ malikum ويقابلها šarrum.

(١٧٨) ج – إن بعض العبارات والأسماء onomastique المختلفة قد تذكر في المراسلات الإدارية مثل Lûmum أو بالأحرى لئموم(٤٨) li'mum وتعني قبيلة «tribu» أو أسدوم: محارب «guerrier» المذكور في ماري وليس في بابل. حيث نجد اسم علم مثل أتور – أسدو Itûr-Asdu: ترى هل تعني أسدوم حقاً الأسد كما يدل على ذلك مقارنة بالعربية أسد asad؟ أو أنها لم تكن تعني في ذلك الزمن سوى

«محارب»، «وأن أسد – lion» هي بالتحديد ليست إلا كناية(٤٩) عابرة بين الكلمات؟. ونلاحظ، في الواقع، كلمة أكادية أخرى هي نيشم ne-šum وتوجد كلمة أخرى في ماري هي لبئوم(٥٠) lab'um التي تدل على حيوان محلي في «باب لبئي» bâb lab'i، وهو بلا شك «مورد ماء الأسود(٥١) l'oiguade aux lions، في حين أن الآلهة لبا(٥٢) Laba مذكورة بين أسماء العلم. ويبدو أن لبئوم Lab'um كانت التعبير المحلي الحقيقي للدلالة على هذا الوحش الخاص.

د – وبدل الكلمة المعروفة شامم(٥٣) šâmum، يظهر في وثائق ماري الكلمة أو الفعل باعوم baûm وبصيغة N (TV)، وهو مواز للفعل العربي باع bāa «أجرى عقداً مع آخر... إلخ» «passer contrat avec quelqu'un, etc».

ح – وقد يصدف أن تظهر في وثائق ماري التي تعود للقرن الثامن عشر ق. م كلمات مصنفة في القاموس على أنها من عصر حديث. ولهذا يجب الأخذ بالحسبان من الآن فصاعداً هذه الأقدمية عند دراسة قوائم العبارات. ولكن هل هي مجرد غربنة و«أرَامَ aramaïsmes» الذي أدخل في الوثائق الكتابية المتأخرة عبارات مفقودة منذ العصر الأموري أم يجب بالأحرى، أن نفكر أن الشرق قد حفظها لمستوى من «المعرفة اللغوية Connaissance lexical» التي لم يكن لها استخدام وبالتالي لم تذكر في نص مكتوب؟.

خ – وبالعكس هل إن منطقة الشرق تجهل فعلاً، وفي العصر الأموري، عبارات مثل الميثاق Pacte hipšum والنصب أو الصنم، Betyle، sikkanum أو النصب التذكاري؟

(١٧٩) خمسوم المذكورين في نصوص ماري فقط وفي جهة الغرب(٥٤)، أو هل يجب أن نفكر ببساطة أنهم لم يذكروا في الرافدين المركزية أو في الجنوب، كما لو أنه لا

يوجد هملت hamlet في أمريكا، وأن هذا الاسم الانجليزي هو بلا شك غير مجهول هناك.

إن التعبير المكتوب الأكادي ذاته، المنظور هكذا، يمثل إذن وبالتوازي خياراً لهجوياً choix dialectal بين كل التعابير Wortschotz المتوفرة لدى الكاتب.

٤ – ٢ – خاصية التصريف والإعراب والصياغة الاسمية

Les particularismes de morphologie nominale

تتأتى صعوبة إعراب الاسم من أن المفردات مجزأة ومن الصعب وضع جدول تصريف كامل.

(أ) إن الحالات الأكثر وضوحاً في لهجة ماري هو استعمال التنوين nonatiom الذي كان قد تعمم في عصر شكنكو القديم ومن ثم اختفى تدريجياً مع تبني لهجة تستخدم التمويم[٥٥]. هذا وتسجل نصوص شكنكو حالات مختلطة غالباً؛ وما من شك أن التمويم والتنوين لهما نفس القيمة اللاتعريفية. إن هذا التلاقي واضح بين لهجة ماري الخاصة واللغة العربية.

(ب) حياد وتحيّد المؤنث: لقد سُجِّلتْ هذه الظّاهرة بوضوح في سلسلة كاشيرو – جاشيرا[٥٦] /Kašeru-Gašera/ التي تُردد ذكر نفس الامرأة الملكية، التي يجب أن تدعى بالأكادية جاشرتوم Gašertum. هذا وتدوَّن أسماء العلم، بصورة عامة، وبغزارة أسماء مزدوجة النهايات التأنيثية بـ آ–آت – أوم a, -at – um– وهذا يرينا أن المؤنث المفرد في هذه الدلالة قد كان منتهياً بـ آ[٥٧]، a كما هو في العربية والعبرية حيث أن الكتابة تستخدم

(١٨٠) بقياس التمثيل analogie بالمفرد تاء -t– غير الموجودة أصلاً. ولذلك، نستطيع أن نتساءل حول أهمية التأنيث الذي يجب أن يكون منذ عهد قريب (-âm تعمل كمقطع لاحق مزدوج – مخنث؛ فنحصل بذلك على Gašeran وجشيران بذات

الوقت، وإن a– للتأنيث يمكن أن تحذف في هذه الصيغة، إلا إذا لم يُضف حرف ذو مخرج أنفي إلى صيغة التأنيث المفرد المنتهي بـ آ a–).

وقد أورد شاربان Charpin 1989: 36 b الاستخدام الدوري (حديثاً!) إلى مذكّر ما تُم mâtum في الرسائل العامية أو المعجمة «letter barbares».

وتذكر الرسالة ARM 26, 549 مثالاً واضحاً على تحيِّد المؤنث هذا في كركَميش، فطبقاً لـ:

L.4'-7' (ú-ta-ah-hu-ú) a*- ⌈di⌉* -[ni lu-bu-uš-tam], šu-ba-ri-a-am ú-ul l[a-ab-ša-ku], lu-bu-⌈uš⌉* -tam ak-ka-di-a-a[m-ma], [l] a-ab-ša-ku.

... «حتى الآن، لم ألبس لباساً سوبرياً؛ إنه لباس اكادي ما لبسته».

(ت) المثنى، duel: استخدم المثنى على ضفاف الفرات في ماري وفي عصر ايمار بصورة أوسع كثيراً من «المثنى العادي» الوحيد في الأكادية المكتوبة.

(ث) الجمع في وسط الكلمة Pluriel internes!: هذا النوع من الجمع ليس موثقاً إلا في مجموعة كلمات دلالية محددة جداً، وهي أسماء الأشجار؛ وتتميز بوجود مصوت مزدوج أو إدغام حرفين مثل: YA/WA في المقطع الأول: ka-ma-šu-ra-tim أو şí-ia-ar-da, bi-a-ni.

إن صيغة الجمع في ARM26, 541:5618 (كركميش Karkamiš و Şidqum-Lanasi، اسم شجرة bînum هو bi-a-ni؛ هذا الإدغام لحرفين صوتيين ليس صيغة بدائية، حيث أن bînum تصبح صيغة مشددة. وهذا يذكرنا بصيغة şí-ia-ar-da وهو اسم مدينة سردا serda على نهر البليخ وهو اسم شجر الزيتون، (انظر، ARM 23, 625): حيث الصيغ الاسمية Halabît Tuttul, şiyarda التي نجدها في هذه الوثيقة، دون أسماء جغرافية أخرى. والمعنى هنا، دون شك، أصل مفرد خاص بصيغة مستخدمة للجمع. وهذا يذكرنا باسم إلهة مارية تدعى kamašurâtum = [...] kûša

مع دلالة جمع مؤنث بالنسبة إلى kôšarôt الاوجارينية. وهنا يمكن لهـذا الاسم أن يكون اسم شجرة في الأصل[٥٨]. وهكذا فقد وثقنا وللمرة الأولى مجالين جغرافيين للجمع بدغم حرفين صوتيين وسط الكلمة! الأول بـ: -ya في منطقة بني يمين والثاني –wa->-ma- في منطقة بني سمأل. ونصنف اسم مدينة karkamiš في منطقة بني يمين.

(١٨١) (ج) حالات المصدر Les-états construits: ترينا هذه الحالات الفروق بالنسبة للقياس البابلي: وهكذا لدينا في بعض الحالات إمكانية الإشارة إلى علامة الحالة مباشرة[٥٩]؛ وندون بالمقابل تضميناً محتملاً في حالة المصدر.

(ح) صياغة اسم الفاعل Les procédés de formation nominale: لنترك جانباً الصيغ المذكورة للأسماء الجغرافية والعَلَمِية التي لم تؤد إلا إلى سيل من الحجج المتعاكسة. وسنقتصر هنا على تبدل -ma + جذر بحرف شفوي ←na المذكور أعلاه الخاص بكلمة: mappalum مبلُمْ[٦٠]؛ وهي قاعدية بالنسبة لمنطقة ماري ولكن ليس كذلك بالنسبة إلى منطقة كُردا kurdâ إلا إذا فكرنا أن هذه الكلمة لا تمثل واقعاً محلياً التي استخدمها حاكم قَطْنان Qattunân وقد كتب إلى ملك ماري الذي بدا فجأة وسط خطابه الأكادي الحريص عليه.

٤-٣ – خاصيات الصياغات الفعلية:

إن الصيغ الفعلية تبدو الأكثر اختزالاً وتجنساً من وجهة نظر اللغة المحكية اللهجوية:

أ) إن أسماء الأفراد في غرب بلاد أكاد توثق صيغاً فعلية تبدأ بـ: يا، ya وليس بـ: ي -i وبالمناسبة فإن تلك الصيغ قد ظهرت في النصوص الأكادية منذ عهد يخدون – ليم[٦١] Yahdun-Lim: ... še-a-am ša a- [ba] – [tim^ki], ia – aq- [//iq-lu-ú; ú- qa-tu-ú).

وهذا هو الأكثر أهمية حيث أن الصيغ الفعلية لنصوص شكنكو مكتوبة بـ A, i- وليس -ia. فهل يجب أن نتخيل أن وصول بني سمأل mar Sim'al إلى ماري قد سبب اختفاء لهجة شكنكو؟ هذا الاحتمال ضعيف لأننا نرى يخدون ليم قد استخدمها خلال فترة زمنية قبل اختيار الكتابة البابلية.

ب) هذا وتتميز اللهجات بطابع بادئة Préfix صوتية بصيغة D و Š: -u في الشرق و-i في الغرب[٦٢]. وقد كنا نعلم قبلاً بصورة معزولة الأسماء الفردية iš-taš-ni بدل -Uštašni واسم الفرد ibassir في حين أن الفعل هو بشكل معلوم، bussurum بُسُرُم

(١٨٢) وتعني «بَشَّرَ بنباً جيد»[٦٣] أو بالمقابل العربي «بُشْرٌ»، «بنطق صوتي واحد مع تبدل السيد شيئاً والتمويم تنوناً – المترجم».

وبهذا الأسلوب يجب شرح صيغة الناقص «inaccomplis». لأسماء الأفراد، pB[٦٤]: وبذلك فإن ia-ba-an-ni لا تصاغ من banum «عمل، Faire»، وإنما من bunnu «to treat kindly» CAD «أي بنو[٦٥]، أحسن المعاملة كابن – المترجم». ويقدم لنا نص شكنكو[٦٦] عبارة ti-še-zi-ba-nim (مثنى من صيغة š من ezêbum). وهذا تقارب مع الأوجاريتية التي تصوت بصورة أخرى عن -u في المقطع البادئة[٦٧]. وبنفس الطريقة نجد في هذه اللغة بادئة -ti لجمع الغائب.

وفي المجلد ARM 26, 548، فإن الصيغة WA-ah-hi-ru-nim قد أربكت المؤلف الذي اقترح تصحيحها[٦٨] بـ: <ú>-wa-ah-hi-ru-nim؛ ولكن يجب قراءتها بـ: ya-ah-hi-ru-nim وليس[٦٩] yuhhirûnim. إن الإشارتين AH وYA لهما بالأكادية صوتيات غير واضحة أو مبتوت بها، ولهما أيضاً قيمتان YU, YI مثل IH وUH.

وإذا كان لفظ المقطع الأول هو /Yuh/. فالأكادية لديها الوسيلة للجوء إلى مقطع من مثل: /YA-ú-AH/. يجب أن نقرأ إذن Yahhirunim من صيغة D التي تقابل uhhirûnim بالأكادية.

وهذا يفسر ما يقال أنه «اهمال» كُتّاب ايمار الذين يستخدمون «صيغ G» مثل ilemmin بدل ulemmin. وهذا يعني واقعياً استخدام نظام من صيغ D بـ: -a-/ta-/i /ni- بدل u-/tu-/u-/nu وهذا يؤدي إلى افتراض أن التصريف من G قد استخدم خلافاً للتصريف iparras الأكادي أي iparas* أو آخر[٧٠].

(١٨٣) وبنفس الأسلوب التصريفي لاسم الفاعل Participe D، حيث أن ebbûm تحولت إلى ebbum بالبابلية ويقابلها بالأكادية mubbibum، وقد دُونت في ماري في كتابة أكادية، ولكن الجذور الصامتة أو الصماء يمكن أن تصرف بصورة خاصة وتقودنا أمثلة بنفس التصريف إلى هذا التسلسل.

ث) تذكر رسالة شُدُخُم šuduhum، ARM 28, 113 أيضاً الحرف الصوتي -i- وليس -u- لبادئة التصريف، وتقدم صيغاً مفردة للفاعل المسبب المعلول Causatif بـ: SA وليس بـ: ŠA: إذ نقرأ في السطر ١٦:

[pí-i ma-ti]m an-né-ke-e° ni-[٧١] sa-aš-hi-ir; L.23. [pi-i ma-tim i]-sa- áš-ha-ru

يجب، وبدون شك، وكما فعل الناسخ الاقتراح هنا لتبديل /-šas-/→/-saš-/ métathése.

ويتكرر نفس تصريف اسم المفول/ الفاعل في... ARM28,113:17. التي تنص: ...i-s]a* -ah –di- ru؛ مثل نفس مدينة شدخم، ARM 28, 111:6 التي تنص: i-na šu-ul –hi –i[a، بدل، i-na sú-ul -hi –i[a، حيث ينتظر[٧٢] الـ: -s- لاسم

المفعول حيث يمكن أن تتبدل(٧٣) إلى š*. ويبدو أن هذه الظّاهرة قد تعممت في منطقة الشمال – الشرقي. وهكذا نجد أن mušaskirum تصبح (mu-sa-áš-ki-ri) وتعني مُذَكِرٌ «Pensonne qui fait prêter serment» كما جاء في رسالة(٧٤) من Talhâyum. إن الفعل الأكادي ذَكَرُ (م) Zakârum يتحول إلى صيغة «شكرُم» šakarum في نصوص الفرات: إن نسخ «musazkiru» وتسجيلها كـ: «mušazkiru» (CAD M/2 s.v.) ليس مستخدماً، وزيادة على ذلك، فلا الواقع، ولا التعبير موجودان في نص آخر. إن ظاهرة الاسم فاعل / المفعول بمقطع /sa/ تتكرر في نفس البيئة اللفظية محتفظاً بحاله: الرسالة ARM 28:17 (المهشمة، في الواقع).

د) ومنذ الآن فصاعداً فإننا، وانطلاقاً من نصوص ماري الأكادية نوثق صيغة hiphil من خلال نص قضائي(٧٥)،حيث يضاف إلى مدخل اسم الفاعل / المفعول البادئة me من أجل

(١٨٤) الدلالة sémantisme، كما في «merhûm» التي تعني بوضوح مرعى(٧٦) faisant paitre وهكذا بالنسبة لمعظم أسماء العلم(٧٧) بالعبرية فإن اسم الفاعل hiphil هو بصيغة مَقّتل maqtil وبالعربية مَفْعَلْ – المترجم، وهو ما يفسر الصيغة الجذرية لـ: مِرْخُوم merhûm مرِعيئوم(٧٨) mer(ʔ)ʔum ولكن ليس المتحرك /e/ للبادئة التي لا يجب أن تفسر بالتسلسل -maH-→mé ذلك(٧٩) أن H تُعَدُّ ساكنة «quiescent» في اسم الفاعل /المفعول وهذا، بقول صائب، تفسير «اثبات، أو ملاحظة «constatation أكثر منه سَنَدٌ لغوي، ذلك أن H ليست ساكنة بالعبرية(٨٠).

ح) إن أحد الاختلافات اللهجية بين البابلية والآشورية هو التعارض بين PaRRus وPuRRus. فالظاهرة هي في الواقع أكثر اتساعاً، لا بل إن التناوب لصيغة Qattunân (صيغة سائدة، لا تُفسر «بالآشورية») بالنسبة إلى Quttunân (صيغة استثنائية، «بابلية»)؛ وبناء على ذلك فإن صيغة PaRRuS هي على ما يبدو ظاهرة

«شمالية، وبانتشار أو توسع أكثر من لهجة أشور بالذات. إن حركة a في أول الساكن لصيغة ما تبدو في عدد من الأمثلة. إن القصة الفريدة لحياة خاصة التي تبدأ بها رسالة Sidqum-Lanasi صدِقوم لَنَسي في ARM 26, 547 يمكن أن تنير الأمر بفضل إعادة تنظيف وقراءة الرقيم:

1 [gem]e i-na ir- di- ia ša re-du ša-qa-am- [m]- [iš]

[i-n]a é-ti-šu i-šu ù a-na si-in-ni-i[š – tim]

[le-qé]-e-em ù-ul i-le-i-ma ma-ra-am i-[šu]
(185)

[te-e]š-te-né-em-ma ša- <qa> - am – mu –um –ša ti –d [i]

الترجمة الفرنسية:

«(celle) qu' un soldat héberge chez lui incognita (est) une servante (qui fait partie de mes serviteurs: dès lors,il ne peut (la) prendre pout femme, alors qu'il (en) a eu un fils; tu en as entendu souvent parler et tu es au courant de son incognita».

الترجمة العربية:

«إن جندياً يخفي لديه سرية، وهي لي من سراياي!

فهو لا يستطيع أن يتخذها زوجة. لاسيما ولها ولد.

لعلك سمعت الحديث عن هذا وأنت على علم بسريته».

هذه الرسالة سيئة الحفظ وتتحدث عن مشكلة؛ ألا وهي أن جندياً مارياً أو مقيم في ثكنة مارية، وأن خادمة أو سارية لاجئة أو مسبية من أصل قصر كركميش. يتحدث النص عن أن الجندي لا يستطيع أن يتخذ من الامرأة محظية sinništum) «مؤنث» وليس aššatum «زوجة»)؛ إذن فإنه «بالكتمان» «sileneicusement» دون شك «دون أن يكون لها موقف أو حالة موصوفة» فإنها تتابع حياتها مع الجندي. إن استحالة إعلان

الاستسرار concubinage، هو أن ذلك يحتاج إلى موافقة السيد أو المالك الأصلي للسرية»: ولهذا يطلب صدقي لاناسي Sidqam-lanasi من زمري ليم أن يعيد الامرأة السرية إلى كركميش، لاسيما وأن لها طفل.

تظهر هنا صيغتان من ŠQMM الذي يمكن اعتباره حديثاً أو قولاً كركميشياً: šaqammiš «بالكتمان» «silencieusemt» = šaqummiš و šaqammumum ويبدو أنه مصدر لـ: šaqammumum في حالة نصب وبناء.

٤ – ٤ – ملاحظات نحوية Points de syntaxe:

إن المظهر النحوي والتركيبي الأصعب للكشف عنه هو صعوبة تطبيق كثير من قواعد البابلية في نصوص ماري:

آ) غياب أو وجود صيغة الفعل المنصوب للربط أو للتنبي Subjonctif هي حالة مسجلة على الأكثر.

ب) يقدم لنا القَسَمْ كتعبير خاص بكركميش بفضل صدقي لاناسي الذي يستخدم، لا، La+ الفعل المنصوب (للربط أو للتبني) مضافاً إليه معنى «أقسم أن... je jure que» وهذا عكس ما هو مستخدم في ماري : ARM 26, 530: 19.

NP a-na NP2 a-bi NP, Kù –babar La hu-bu-lu, la-i-du-u la še-mé-e-ku

(١٨٦) أقسم أن + اسم علم، مُدان بالفضة إلى – اسم علم والد + اسم علم، حيث أعلم ذلك مباشرة (idum) وسمعت الحديث عن ذلك[٨١] šem ûm!

يجب أن نعود إلى LAPO 18, 2000, 487 حيث أن استخدام، لا، La + منصوب للربط أو للتبني وبمعنى معادل لما هو حاصل في النص الآنف الذكر، هو أيضاً، مدون أو مستخدم، على ما يبدو، في رسالة قادمة من الغرب. والواقع، أننا يمكن أن نتساءل أن

ذلك لا يعني – أي ما جاء في الرسالين –، لا، La، للتوكيد affirmative المذكورة بكثرة في أسماء العلم omomastique، وهذا عكس ما كان معتقداً حتى الآن[٨٢].

٥ – وحدة هذه اللهجات السامية Unité de ces dialectes sémitiques:

إنه لمن الممكن أن نميز بعض المناطق التي تشترك في نفس المميزات. ولكن لا يوجد في الواقع، إلا ميزة أو معيار critère واحد ومُوَحِّد بين هذه اللهجات ألا وهو صيغة يبرس /إبرس yaprus/iprus التي تدون لنا أقدم «ماضٍ»، كما هو بالأكادية، ومن ثم يظهر الماضي الناقص Inaccomplie في اللهجات اللاحقة: إن هذه الصفة المميزة الرئيسة تعنى أن ما هو سامي في بداية الألف الثانية في الشرق الأدنى يجب أن يكون معتبراً كظواهر محكية للغة وحالة واحدة لا يجب فصلها إلى عائلات أكادية مختلفة، أو أشورية أو ما نعرفه وسندعوه الأمورية.

٦ – نتائج

بالنتيجة، يجب القول: إن هناك لغة وتعبيراً سامياً في مطلع الألف الثاني، وكذلك قبله في الألف الثالث بدون شك حيث، ورغم جميع الاختلافات، التي لا نستطيع تمييزها ككل بسبب نقص المعلومات عن أمثلة من جميع التصريفات Paradigmes المستخدمة آنذاك، تبقى الحقيقة الأساسية المشتركة ألا وهي صيغة يبرسو yaprus الماضي. ونستطيع الاقتصار على لغة أمورية، إن لم يكن أكثر.

إن الاحتمال البسيط – المستند على بينة ما يحدث بين اللغة الإغريقية والإيطالية القديمتين، دون أن نتحدث عن بلدان أوروبا الحالية حيث تتبوأ لغة أدبية كبيرة ومحدودة الإدراك والتفاهم في الفضاء الأوروبي، وتمتلك تقارباً لغوياً كبيراً يسمح بالتفاهم بين المتحدثين الذين تجمعهم فوائد ثقافية وسياسية – فإن هذا يطرح مسلمة تخص الشرق الأدنى القديم وهي ازدهار مماثل للهجات (ليس في الغرب والشمال

(١٨٧) وحسب ولكن أيضاً في مختلف الدول الرافدية في الشرق والجنـوب) حيـث كانت أكادية اشنونا تفيد كلغة وكتابة فصحى Standašd ونظراً لاستخدامها هذا، فقـد حجبت عنا بقية اللهجات. (كما في العربية الفصحى التي تكتب وتقـرأ بـين جميـع الناطقين بها وبالتالي تبقى اللهجات محجوبة عن معرفة كنهها – المترجم/.

إن الفرصة أو الحظ الذي قدمته نصوص ماري هي أن مراسلي الملك قـد Hمـسكوا بالقلم وكتبوا بأنفسهم: وبسبب نقص خبرتهم فقد ظهرت طريقة حديثهم العادي – كمـا يحدث اليوم في الإعلام وانتشار الاتصالات الخاصة – المترجم – . وكذلك اهتمـامهم وحرصهم على التعبير حرفياً عما يريده الآخر، مما أوصلنا إلى تعابير من مـستويات متنوعة، لم تكن لتذكر في الكتابة المسمارية الأنموذجية.

إن نظام نسخ الكتابة المسمارية الذي وضعه ف. تورو دنجن F. Thureuu – Dangin وحرصه على أصول الكلمات واشتقاقاتها étymologie قد سهل فك رموز وقراءة اللغة، ولكن أثره الشاذ قد سَوّى وعَدّل الاختلافات اللهجية، التي يُخشى أن تختفي إلا بدلالاتها Sémantique (حيث يمكن أن تغرق بسهولة بأهلية المترجم) أو بالنحو وتركيب الجمل Syntaxe.

والمدهش هو خلل الإنجازات التي يقدمها مجموع النصوص، وهو الأمر الطبيعي، ولكنه مليئ «بالفجوات». وكما يذكر دومنيك شاربان(٨٣) D. Charpin: «إن مراسلات يمصوم Yamşûm كمـا نظيرهـا كيـرو Kirû تقتـصر علـى هـذه الرسـال المعجمـة: «letters barbars»، إنها تحتوي أيضاً على ثلاثين رسالة «تقليديـة» «Classique»».

والواقع أن المرسل نفسه يقع في أخطاء مدهشة في بعض رسائله، في حين تغيب تمامـاً في أخرى. وهكذا فلدينا صيغة الأمر والإيعاز injonctif «التقليدية» مثـل ni-id-di-i-ma i (ARM 28, 112: 41)؛ i ni-iş-ba-at (112:51) . في حين تـذكر ni-iš-hi-it (ARM, 28, 113: 14) مستخدمة فعلاً بدونi. وكذلك، نذكر الاستعانة بـ: š وليس بـ: s للعلة أو

المسبب Causatif ‏(112:31 šu-ri-ba-[...]‏) «أَدْخِلْ، قرِّبْ» «قرب» وكذلك uš-te-ri-ib ‏(112:142) (أَدْخلتُ، اقتربت). وهكذا يجب الاستنتاج أن ARM 28, 113 مكتوبة بأكادية أكثر تأثراً باللهجة المحلية من ARM 28,112.

وبنفس الوقت فإن النصوص المارية تذكر الإشارة us وقيمة مضافة is_x، ‏($ni\text{-}š_x$-te-né-em-me ‏28, 112:15)، وهذا ما يمكن تفسيره بتحييد إشارة مفضلة لاستخدام علة تتبدل بين دمغة بـ /u/ وأخرى بـ /i/.

إن لهجة اشنونا التي دشنت كلغة فصحى (من قبل الباحثين – المترجم) المكتوبة في ذلك العصر تبدو مختلفة جداً عن مسألة اللغة الإيطالية التي ابتدعها دانتي، Danti Allighieri في مهزلته Comedia. إذ يستعير لغة أدبية دعاها إيطالية، ولكنها تمثل واقعاً مؤسساً على التوسكانية Toscan، وحقيقية من بيزا Pise وسيين Sienne؟ وقد فرضت، ليس لأسباب سياسية، بل لسبب إعجاب أدبي أو ثقافي سائد آنذاك.

إن سقوط أشنونا – على يد حمورابي– وحلول بابل مكانها، قد جعل منها مصدر نماذج لغوية انتشرت في جميع أنحاء المشرق القديم في العصر الكاشي اللاحق. في حين كانت مدينة (١٨٨) ديالى الكبرى في حالة ضعف وخور، وبالتالي لا يجب الخلط بين الوسائط اللغوية للتعبير وبين المفاهيم أو المعارف؛ إذ لدينا في ماري تقليد محلي للنبوءة والعرافة وُجِدَ في نصوص ايمار أيضاً وهو مواز لنظيره البابلي الأصل[٨٤].

وهناك نص رسالة معروفة تستحق الاهتمام، من سمسي أدوُّ إلى ابنه كي يقرأها على شيخ بدوي يدعى زِمْرانُم Zimranwm ‏(ARM1,91).

«باستثناء التمهيد (L. 5-9) والنهاية الخاتمة (L. 16"-22")، فإن الرسالة ليست سوى خطاب سمسي أدو الذي أراد إسماعه لشيخ الرابو Rabbu زمرانم وعشيرته. وإن هذا الخطاب مليئ بالتعابير الأمورية. وهذه حالة فريدة في مراسلات سمسي أدو. ومن ذلك ذكر الفعل qahâlum... ونجد أيضاً تعابير أمورية أخرى معروفة جيداً مثل

نأو(م) nawûm وسكنو(م) Sakânum ونخلاتم nihlatûm أيضاً ونخلوم nahâlum وربما نظر (م) nazârum. إن هذه المجموعة من الكلمات لم تكتب صدفة بالتأكيد. ذلك أن سمسي أدو كان يرغب أن يُقرأ كتابه – رقيمه من قبل ابنه يسمح أدو Yasmah – Addu (أو من قبل شمش تِلاسو šamaš-tillassu) أمام زمرانوم zimrânum: إن خطابه ملئ بالأمورية، وبدون شك، فإن الفكرة هي أن يكون مفهوماً، وبالتالي مطاعاً من قبل زمرانوم. إن الملاحظ هو طريقة الإدخال المدهش للتعابير الأمورية في إطار أكادي للرسالة، وكذلك من حيث ضبط التركيب والتعبير ونحوه وصرفه»(٨٥).

هذا ما يجب أن نتعلمه من هذه الممارسة اللغوية في العصر البابلي القديم. فإذا كانت السومرية هي اللغة المرجعية في عصر شلجي، فجميع التعابير السامية المستعملة ذات دور هامشي، أما في عصر سمسي أدو فإن إحدى اللهجات السامية الأكادية قد حلت محلها (أي محلّ السومرية). وهذه اللهجة ستخدم كمرجع «قياس كتابي»؛ «أموري» (وفق طريقتنا الحديثة للتعبير بعكس القدماء) وستكون معادلة للمحكية «vernaculaire»، وسيكون هذا صالحاً في الشرق كما في الغرب. والواقع أن جميع اللهجات المحكية غير معروفة لدينا، في كل الشعاب، ورغم ذلك نستطيع أن نفترض أن الطبقة العليا من الحكام كانت مشرَّبة بهذه الثقافة الأكادية: فأعضاء العائلة الملكية في مملكة أعالي الرافدين كان يجب، وبالتأكيد، أن يتكلموا فيما بينهم صيغة اشنونية، حتى لو أن عاهلاً زائد الطموح كسمسي أدو، كان عليه أيضاً أن يستمع إلى عدة لهجات محكية، مثل شولجي، ولو أن بقية أمراء الفرات الأعلى أو الغرب قد توجب عليهم تعلم ما يكفي من الأكادية من أجل التحدث فيما بينهم، وحسب متطلبات «اجتماعات القمة».

إن ثقافة الوثائق التي عثر عليها في ماري، ترينا أن معظم الرسائل ما أن تكون من تسطير حاكم، حتى لو كانوا زعماء بني يمين yamêna mar، فإنهم يتحدثون صيغة أكادية

صحيحة في ذلك العصر. (ما عدا الخصوصيات التي كان يجب ذكرها بوضوح مع وسائط المكان المقررة:

(١٨٩) مثل اجتماع شيوخ أعالي الجزيرة، فهو ليس اجتماع مجلس جدي -Pal tahtamum على ضفاف الفرات، ولا أحاديث بني يمين، ولا، بالحري اجتماع Puhurum أكادي)، ولكن مجموعة كبيرة من الخصوصيات اللهجية التي لم تكن في الواقع، أخطاءً لغوية. إن مختلف اللهجات المحلية الأمورية، هي في الواقع، قريبة من اللغة الأكادية لدرجة أنها لا تستحق أو تستأهل أن نطلق عليها اليوم مصطلح nomenclature «لغة مفقودة langue perdue» يجب البحث عنها، حتى ولو كانت الخصوصيات – وبالذات النطق واللفظ أو النبرة والشكلة لجملة تتضمن مقاطع نهاية «مُشددّة» تجعلنا نتخيلها بوضوح(٨٦) – يمكن أن تؤثر على الفهم المباشر؛ وأنها سهلة على الفهم لدرجة تدعونا للقول أن مثل هذا الواقع هو مثلُ مثقف معاصرٍ ناطق بالعربية يستطيع أن يمخر بين مختلف اللهجات المحكية العربية. إن أكادية رقمنا هي نتيجة اختيار واعٍ لطبقة أو شعبة اجتماعية متعلمة كتبت وغذت صيغاً عامية جمهورية للصلة بين لغة مكتوبة ووجوه نطقها؛ ولم تكن المسألة هي تدوين الأمورية. وإذا لم يكن الأمر هو التخلي عن العادات اليومية المحكية، فهو ليس إلا كالكتابة بالعربية العامية، إلا بعض الاستثناءات، في حين أن علينا أن نحوله إلى العربية الفصحى، الدقيقة أو إلى نوع من اللغة السائدة المستعملة في التلفزيون(٨٧).

ونستطيع أن نذهب أبعد من ذلك؛ فنحن نرغب أن نسمع الأحاديث في ضواحي وشوارع بابل... فلغة الجمهور كانت تختلف بالتأكيد كثيراً عن لغة الطبقة العليا. وكما كان الحال في فرنسا القديمة فإن «لغة النبلاء أو البورجوازية» (المكتوبة أو المرسلة) تختلف كثيراً عن اللغة المحكية، حتى في العاصمة نفسها، ودون أن نكون بحاجة للذهاب والبحث عن لهجة بعيدة المكان. فالمقصود هنا المستويات اللغوية مثل تلك الموجودة بين التعبير

المعياري الفكري وطرق تعبير اللهجات المحلية. وقد كُتبت الأكادية كواسطة اتصال بين جميع المجتمعات السامية وتلك المتعاملة معها، وبالتالي يجب أن لا تمثل التعبير الشعبي لبابل أو لاشنونا، بل تكويناً جديداً واختياراً بين كل الإمكانيات اللغوية المطروحة أمام الناطقين بالساميات، فالأكادية قد فرضت نفسها بدقتها ووضوحها كلغة عامة، بهذا المعنى فإنها تمثل تبسيطاً ومنهجاً للكلام أو الحديث.

إن لغة بعض الوثائق المعروضة أمامنا الآن، ليست بلغة أكادية ذات أخطاء[٨٨] أو بالأحرى ذات خصوصية، بل هي كتوليد حقيقي من هذه الأكادية المكتوبة.

(١٩٠) إن حالة التعبير المختلط حيث تقرن الصيغ الفعلية الشعبية والمفاهيم المحلية[٨٩] للتسميات قد كان لها صبغتها، ومبسطة جداً بدون شك، في الاتصالات الشفوية؛ وكانت بدون أدنى شك تلك الرطانة التي كانت تسمح بالتفاهم بين مجموعات التجار والرحالة، فهو عالم لم يترك لنا آثاراً مكتوبة بالتأكيد[٩٠].

Bibliographie : بعض المراجع

Bonnechi,M.
1998 On the name of the Aleppo Kingdom at Ugarit, NABU 1998/80.
Charpin, D.
1989 L'akkadien des lettres d'1lân-Surâ, dans: M. Lebeau / Ph. Talon (ed.), Reflets des deux fleuves: volume de mélanges offerts á André Finet (= Akkadica Suppl. 6) 31 -40. Leuven.
Charpin, D. / Durand, J.-M.
1986 «Fils de sim'al»: les origines tribales des rois de Mari, RA 80, 141-183.

1993 Notes de lecture: Texte aus dem Sînkāšid-Palast, MARl 7, 367-375.

Durand, J.-M.
1991 L'onomastique d'époque amorrite : les noms en Mut-, SEL 8, 81-97.
1993 Notes de lecture : Old Sumerian and Old Akkadian texts in Philadelphia, MARl 7, 377-3 82.
Finet, A.
1956 L'accadien des lettres de Mari, Bruxelles.
Gelb, I.J.
1980 Computer-aided analysis of Amorite (=AS 21). Chicago.
Heimpel, W.
2003 Letters to the King of Mari ~ MC 12). Winona Lake.
Huffmon, H.B.
1965 Arnorite personal names in the Mari texts: A structural and lexical study. Baltimore.
Lambert, WG.L.
(191)
1967 The language of Marl, in : J.-R. Kupper (ed.), La civilisation de Mari. XV^{e} Rcncontrc Assyriologique Internationale, 29-38. Liége.
Michalowski, P.
2011 The correspondence of the kings of Ur (= MC 1 5). Winona Lake.
Rubio, G.
2006 šulgi and the death of Sumerian, dans : P. Michalowski / N. Veidhuis (ed.), Approaches to Sumerian literature : Studies in honour of Stip (H.L.J. Vanstiphout) (CM 35) 167-176. Leiden

Streck, M.P.
2000 Das amurritische Onomastikon der altbabylonischen Zeit (= AOAT 27 1/1). Münster.
Veenhof, K.R.
1982 Observations on some letters from Mari with a note on tillatum, RA 76, 119-124.
Ziegler, N. / Charpin, D.
2007 Amurritisch lernen, dans: Festschrift für Hermann hunger zum 65. Geburtstag gewidmet von seinem Freund, Kollegen und Schüler (= WZKM 97) 55-77.

الهوامش

(١) نشر جان ماري ديوران هذا البحث في الدورية الألمانية: Orbis Biblicus et Orientalis 256, Altorientalische Studien كمشاركة في هذا المجلد التي يضم بحوثاً «مسمارية» لأشهر علماء هذا الميدان وذلك هدية وذكرى للمرحوم باسكال أتينجر Pascal Attinger أحد أشهر هؤلاء العلماء. وقد منحني أستاذنا ديوران حرية ترجمة هذا البحث وغيره دون أية حقوق. فيمكن مراجعة الصفحات المخصصة للأموريين في الألف الثالث لـ: ب. ميخائيلوفسكي P. Michalowski في الطبعة الجديدة من مراسلات ملوك أور (٢٠١١)، حيث أن قسماً هاماً منها، جاء بأسلوب متشدد أو عصبي لا فائدة منه في الواقع. فمن الواضح أنه لا يجب المطابقة أو المماثلة بين : البدوية «namdisme» والقبلية «tribalité» إطلاقاً.

كما يجب الابتعاد ورفض الصلات الموضوعة (سابقاً) بين سمة أو أدب لغوي ظاهري étiquette lingustique وواقع réalité أثري Archeologique أو إنساني (أنسن)، Anthropologique. من جهة أخرى، من الواضح أنه، حتى إذا لم يكن ميخائيلوفسكي، على ما يبدو، أقل اهتماماً بموضوع أن عالم المدن الكبرى (في الغرب أو في الشرق، أيضاً) سوف لن تعود أو تُرد إلى مدن صغيرة ومهملة أو كقرى ريف المنطقة الوسطى الموثق في نصوص ماري حيث أنه من المؤكد وجود أعداد من البدو، ولكنهم لم يعبروا صراحة أو يسموا أنفسهم بالأموريين!.

في حين أنه ليس عدم وجوب مطابقة «القبلية» و«البدوية» أنه لا يناسب الإقرار بالبعد القبلي للمستقرين من سكان القرى والمدن، وهذا الأمر هو موضوع بحثنا

المشترك مع د. شاربان D. Charpin/ J. M.Darand P. 986. وليس «الأصول البدوية لملوك ماري» Les origines momaedes des rois de Mari.

إن زمري ليم هو ابن سمأل Mâr Sim'al ولكنه في الوقت نفسه زعيم مدينة رئيسة من مدن العصر. ومن الثابت أنه حتى في ايامنا هذه، وفي القرى العربية في الجزيرة العليا، فإن القرويين المستقرين (ونحن نحبذ ذلك) يستشعرون أو هم واعون لقبيلتهم وتلك المختلفة لجيرانهم، وكذلك الأمر بالنسبة لاسم وإقامة زعيم القبيلة الحالي.

(٢) شكري الجميل إلى د. شاربان وم. جيشار M. Guichard اللذين قرأا هذه الصفحات ووضعا ملاحظاتهما عليها.

(٣)Rubio 2006.

(٤) تساق نكتة يذكرها شولجي بخصوص العيلاميين «عند الاستيلاء على حصن عيلامي، عندما يقول لقد فهمت ما كان يأمرهم به زعيمهم» وهذا مانلاحظه أيضاً في موقف مماثل عند حصار الآشوريين لـ: «أورشليم» – القدس (cf.IIxviii 28 sq.).

(٥) اعتبرها ج. روبيو لغة ملوخا/ Meluhha.

(٦) Cf. Rubio 2006: 173: «يدل وجود المترجمين واللغويين على الحاجة العملية والسياسية لمعرفة لغة الآخرين في بلاد الرافدين القديمة». من جهة أخرى كم من الوقت قد وجب الانتظار حتى اكتشاف أن كلمة «ترجمان» targumannum المذكورة في نصوص ماري بخصوص الكريتين ARM,3,556 أنها ليست مستعارة من اللغة الحثية من صيغة تركماي Tarkumai، وأنها ليست إلا كلمة سومرية – أكادية.

(٧) يقول روبيو (Rubio 2006: 174-175) بالإنجليزية ما معناه: «من الطبيعي أن لا يتبجح المرء بمعرفة لغته الأم. من ناحية ثانية، يبدو أن اللغة السومرية قد جُدولت أو ذكرت، ولكن الاحتمال بعيد أن تكون اللغة السومرية هي لغة مولد شولجي»(Cf. L. Vacin. NABV 2009/45). ويذكر هذا المرجع السابق أي: ل. فاسين، إن المظهر قد يجبر الملك في بلاد سومر أن يكون من أصل سومري. وهناك مثال مهم ومشابه وهو اشمي Išme-Dagan ملك اسين Isin. من جهة أخرى لا نفهم لماذا عندما يصدر الملك حكماً قضائياً يتقيد باللغات الخمس التي يقول أنه يتكلمها: وهنا يأتي السؤال ألم يكن للناطقين بالأكادية قضية قط أم أنهم كانوا يستخدمون اللغة السومرية إنه في نهاية نص شولجي (šulgi B) نلاحظ أن التعارض بين /أكادي/ سومري/ «جوتي guti» قد اتخذ شكل أموري /سومري/ سوبري. هذا ويمكن الرجوع إلى آخر دراسة لـ: ج. كتمان J. Keetman في (ZA 100/1, 2010, 30) حيث يؤكد على نوعية مميزة للغة السومرية لدى شولجي إذ يقول:

«šulge Spricht die Sprachen Ferner Länder ebenso gut wie seine Muttersprach Sumerisch.»

«يتكلم شولجي لغات البلدان البعيدة جيداً كما يتكلم لغته الأم السومرية».

(٨) يبقى السؤال فيما إذا كان شولجي يتقن كل هذه اللغات الخمسة أي أنه Polyglotte؟ ففي الوثيقة (cf. ZA 100, 2010, 28) Šulgi B نجد أن المقطع المتعلق بالأموريين، يأتي: «في المرتبة الرابعة، الأموريون، الجبليون... حيث يوجد مترجم إلى جانب شولجي، إلا أن حديثه مفهوم بصورة عامة لي بسبب معرفة لغته». والأمر نفسه بالنسبة للغة الحورية فالكلمة inim-kar تدل غالباً أن شولجي «يدرك» (أو «يجمع») ما يكفي لفهم خطاب بلغات أجنبية عدة.

وبدل التركيز على معرفته العالمية، فالأمر، يعني هنا إدارة المملكة، ومراقبة المعلومات من قبل الملك، حتى لا يقال أمامه ما لا يقال، في وقت لا وجود فيه لما يسمى «ترجمان محلّف». أما اللغة الخامسة التي يتحدث بها شولجي هي الأكادية التي تسمح له بفهم الأمورية،. أما اللغة السومرية التي يعرفها بطبيعة الحال فهي لغة المتعلمين. وقد تكون لديه صعوبة بمعرفة لهجة مستخدمة في الشارع.

(٩) إن إعطاء مكان مُفضّل للغة الأكادية بسبب قيام إمبراطورية أكادية النطق هو بلا شك، صنع المختصين الحديثين، الذي يجيب على القلق من عدم إمكانية إيجاد مصطلحات أو مدونات مهمة في أيامنا. فالأكادية تتعارض بوضوح مع السومرية في وثائقنا. إن ما تقدم مكان لذكرى سياسية لمدينة أجاد Agadé التي تشمل واقعاً مختلفاً ولا يجب المطابقة بين «سومر وأكاد» مع «اللغة السومرية واللغة الأكادية». إن التمييز الذي تقدم من قبل ابال – أدو [Ibâl][-Addu] في (A.109) المذكور أدناه بين اللغة الأكادية واللغة الأمورية، يتعلق بمستوى تاريخي آخر، حيث أنه يجب فهم «اللغة الأكادية» كلغة تعبير كتابي وأن الأمورية لهجة محكية متنوعة.

(١٠) وفق الرقيم A3823 ووفق زيجلر / شاربان ٢٠٠٧ نلاحظ أن شخصيات ثلاث قادرة على ما يبدو على التحدث بالأمورية وهم موت بيسير Mut-Bisir ولاؤم La'ûm وماشوم Mašum فالأولان من مار يمينا mar yamina والثالث، من الواضح أنه «ناسخ/ كاتب بالأمورية، وهو منصب عسكري دون سياق محدد. ولكن يجب أن يدل على كاتب قادر على الاهتمام بالجنود الأموريين، الذين «لا يتقنون» الأكادية الرسمية «بالخط المسماري»؛ وفق Zigler/ Charpin 2007: 73 m. 40 et 41.

(١١) «لا تستطيع التحدث بالأكادية معهم» «Reu.6-7» amuré itti- šunu dababam .ûl tele»

(12) C. f zigler/ Charpin 2007: 7-2 «der akkadischsprachigl yasmah-Addu in einem amurritisch-sprachigen Umfeld».

(١٣)انظر شروح زيجلر وشاربان ٢٠٠٧: ٧٧-٥٥. حيث أن الأكاديــة والأموريــة متمايزتان بوضوح في الرقيم A.109 وهي رسالة من عهد زمــري لــيم الــذي سيكون، في هذه الأثناء، ووفق جيشارد Guichrd، BBVO 20, 2009, 81 m. 606 وليس merhûm إبال – إل Ibal-El، كما كنت أعتقد بذكر مقطع مطول في وثيقة في 121-120 ,Amurru3, 2004 بل إبال أدو [Addu] – Ibal ملك أشلاكا Ašlakka: وهو شخصية «قادرة» أو عارفة بالأكادية والأمورية والسوبرية. وقد طلب الملك أن يعين بوظيفة خازن hazanmum لــ: أخي مــرص Ahi-maras الذي يتمكن من عدة لغات مستخدمة في المنطقة. هذه الإشارات تطــرح واقعــة واضحة وهي قدرة أو أهلية رجل على مخاطبة عرقيات متنوعة محلية؛ إن معنى شبروم šapârum هو «أرسل» معلومات سواء مكتوبة علــى رقــيم أو منقولــة شفوياً من قبل مراسل. ونحن نعرف مَثَلَ ذلك العصر (A.4350) الذي يفيــد أن: «مراسل فَطِنْ (hakkamum) يقيم علاقــات حســنة (salimam išakkan) بــين الملوك (cf. JA 294, 2006, 28). وهذا يعني أن المراسل أو المنــدوب لــيس مجرد ناقل للمعلومات «حامل الرقيم» ولكن يعرف كيفية التواصل عند الاقتضاء «تدبير الأمور»: سواء بإضافة تعابير مكتوبة للشرح أو بمهارته فــي توصــيل رسالة شفوية. فالنص المكتوب الذي نتقيد به اليوم لا يجب أن يكون إلا نوعاً من المعلومات.

وكان ب فوستر B. Foster قد قدم ملاحظات مهمة خلال محاضراته في الكوليج دوفرانس في حزيران ٢٠١٠ وهي أن المراسلات الكتابية الجافة جداً والفقيرة (في عصر أكاد) ليست إلا طارة تطريز (Canevas) يطرزها الكاتب الرسمي المكلف بما يراد إيصاله للملك. كما يجب أن يكون المندوب، بلا شك، متعدد اللغات أيضاً كي يذهب بمهمة إلى الخارج، فهو عارف بالنصوص الكتابية الأكادية واللهجات الأخرى. وهذا يتوافق مع ملاحظة تم التنويه إليها في عصرنا أن بعض مندوبي ماري كانوا متخصصين بمناطق جغرافية محددة. وهذا يدل بوضوح أنهم كانوا يعرفون لغة المنطقة التي يُبعثون إليها أيضاً.

(14) Durand, OLA 1621, 2008, 188; 195.

(15) CF. Ammurr 3, 2004, 182.

(16) CF. A; 2760 = LAPO 16, 375; A. 275; A. 2730: 33-34.

«وبنفس الطريقة، فإن بلاد يمحاض وقطنة وأموروم (حيث يجب أن يفهم هنا كمنطقة الساحل) هي «نجهوم مار يمينا«nighum yamîna»: علماً بأن (nig, um=) mighum هي كلمة تعني في ذلك العصر مسير البدو التقليدي (حيث يوجد لهم نخلة تذكارية!) ولهم الحق أن يذهبوا إليه مع قطعانهم. من جهة أخرى نجد في نصوص حاصور Haşor تصنيف مغنين أموريين (FM3, 143) إلخ... علماً بأن «نجهوم» يمكن أن تقرب من العربية «نجعة» أي طلب الكلأ كما أفاد زميلنا د. عيد مرعي.

(١٧) وفقاً لـ: ن زيجلر N. Zigler ترى أن هذا ليس بدايات العهد ولكن فتح مشلان Mišlân على يد mâr yamêna. وكذلك Durand, F S. V. Ponbaz, 2010, 109-114 .

(١٨) من أجل هذا الجانب انظر قبله المجلد الحالي بحث ساهم به د. شاربان وميكالوفسكي: D. Charpin. Michalowski: 20011: 82 اللذان يعتبران ودون نقاش أن الأمر منته أي (النص بالإنجليزية) كما يذكر: «إن كتّاب أو نساخ ماري يكتبون بالبابلية السامية». بيد أنه يبدو أن سمسي أدّو قد كان مستثنى للحكم عليه من خلال ما قاله عن ذلك ملك حلب، ٨، FM7 وأبيلوم – الإله أدّو âpilum في A. 968 (=LAPO18,934).

(١٩) لم تدم مملكة سمسي أدّو خلال حياته كمؤسس، كما لم يدم طويلاً تأثير ثقافة اشنونا لأنها استبدلت بثقافة بابل وبسرعة، وهي مدينة شقيقة. إلا أن مجالها الخاص هو باتجاه الغرب، وليس في شرق بلاد أكاد. كما يجب قبل ذلك أن نتحدث في هذا العصر عن ضرب من «ثقافة تقليدية عفوية» سهلة الانتقال نحو الغرب، ذلك أن بابل لم تدفع بقواتها بعيداً أبداً وكان الفرات يمثل بالنسبة لها حدوداً حقيقية للتوسع، في حين أن حلب قد ذهبت عسكرياً بعيداً أكثر نحو الشرق ولكن، على ما يبدو، لمدة محدودة أيضاً. فقد أدت ماري، بصورة جيدة، دور محطة ترحيل لثقافة الشرق نحو مناطق الغرب، في حين أن قواتها لم تعمل إلا في نطاق عمليات محدودة. ويبقى أيضاً تمييز، فيما إذا كانت ترقا قد أدت أيضاً دور محطة لبث اللغة البابلية بعد زوال ماري. يضاف إلى هذا الرسالة غير المنشورة التي عثر عليها في تل سكا قرب دمشق التي تدفعنا إلى التفكير بجغرافية ثقافية جديدة من الآن فصاعداً.

(٢٠) إن نصوص إيلا التي أعرفها بفضل طلب باولو ماتييه P. Matthiae هي غير منشورة. أما بالنسبة لنصوص حاصور فانظر: Durand, N A B U 2006, 86 المذكور أعلاه.

(٢١) إن مجموعة نصوص مميزة يمكن العثور عليها في نصوص سـجلات اللحـوم التي نشرها ل. مارتي L. Marti (FM تحت الطبع). وهي نصوص بلا تـأريخ إلا أن ذكر أسماء الإداريين لا يدع مجالاً للشك بمعرفة زمن تحريرها.

(٢٢) انظر أعلاه من أجل أشور: A. 1248, MARI, 4, 1985, 410 M. 155. ومن أجل كلتب Kültep، انظـر Durand, Fs. K. R. Veehhof (= PIHANS 89, 119-132 .

(٢٣) نرى هنا إتور – أسدو Itur-Asdu ولمرتين، يستخدم الإشارة NI كي يدل على صيغة التمني: انظر أعلاه. A. 776: 21: هذا ولا تعادل NI لـ: LÍ إلا في اسم العلم. حيث نرى هنا Li-dan-ni-in-ma خطأً إملائياً، كما هو الحال بالفرنـسية حيث يوجد أيضاً أكثر من حرف أو شكل خطي للمصوت الواحد مثل é=ai.

(٢٤) هناك حالة خاصة تطرحها الرسائل الملكية حيث يبدو أن الكاتب يدون حرفياً ما يُملي عليه وهذا ما يبدو واضحاً في رسائل سمسي – أدّو وكذلك رسائل مرخوم merhûm.

(٢٥) شاربان، Charpin 1989. إن البحث مهم وكامل، وخاصة في حال إحصاء عام لتلك الرسائل. إن بعض الخطوط لإشارات مميزة من قبله مثل التوافق في الأول من الفعل (§ 26)، ومضاعفة الصائت للدلالة على المد (§ 3)، وتدوين المد (فـي نهاية الكلمة، الذي يدل على مكان إشارات الحركـة الـصونية!) (§ 4)، وحالـة الجماد غير المنتظمة (§ 13)، والمصوتات الأساسية الشاذة (§ 14) إلخ، كل هـذا يكشف بوضوح التباين في اللهجات السامية. ج. ر. كوبر J. R. Kupper نـشر فيRA 95, 2001, 155-173، سلسلة ملاحظات مهمة حـول: «الأكاديـة فـي رسائل شمشارة»:

L'Akkadien des lettres de Shamshàra.

(٢٦) نعلم الحكايات الشهيرة عن الوالي الامبريالي رامبوتو Rambuteau الذي كتب على بطاقة الزيارة «لقد جئت شخصياً -I» «Je suis oenus en-personne» I'm Venus herself/ went Personally أو مثل: «Votre gorge est admirable» والكلام موجه إلى امرأة غائبة من قبل شخص لم يقابل سوى الابن المسمى (gorge= beast, Georges = George)؛ إن ضم s-- غير المناسب أو إهمال e يبدل الـ G إلى J وهذا يدل على المستوى الإملائي وحسب.

(٢٧) من الواضح أن وضع قراءات ta8 أو da10 da8 هو غير مفيد لوضع أسلوب فك رموز وثيقة ويكشف عن «فلسفة» تدوين اشتقاقية كالتي وضعها تورو – دنجان F. Thureau-Dangin. وبهذا المعنى، فإن العمل الريادي لـ: فينهوف K. R. Veenhof 1982 قد فتح الطريق إلى قراءات أخرى.

(٢٨) إن هذا النوع من وضع العلامات قد استخدم باستمرار من قبل اللغويين التقليديين – الكلاسيك، وإذا كنا نستطيع في أيامنا أن نجد وبصورة تافهة «الخطأ» «Faute» في كتابة «il śont» فهذا في الواقع دليل على أن السواكن في نهاية الكلمات هي حالة باطلة بالفرنسية. إلا إذا لم يحافظ الوصل الصوتي (sandhi) عند الحديث، أو أن وضعها لا يخدم في تمييز التأنيث في المقطع: /ša/ (tomcat) vs /šat/ (she-cat).

(٢٩) هذا يفسر الاستخدام الدائم لـ: (GU) KU8 في المقطع المدروس من قبل Charpin 1989: 33b-34a وبهذا المعنى فإن استعمال الرسائل العجمية لا يجب أن يدلنا أو يعلمنا لهجة ماري إلا بالاستعمال في الشمال حيث يقيم إلان صورا Ilân-şûrâ.

(٣٠) دوران، Durand* NABU 1994/73، إن هذه الظّاهرة متكررة في المجتمعات التاريخية؛ حيث نجد كلمات مثل Mélanchton وبدلها Schwarzerd في عصر كانت فيه اللغة الإغريقية لغة النخبة، وكذلك لدى موليير Moliere إذ أن الطبيب médecin يجب أن يكون اسمه لاتينياً، على الأقل عند، الإعراب لآخر الكلمة، و Diafoirus الذي يقال اليوم ودون شك بكلمة Coliquard».

(٣١) ويجب الانتباه إلى أن إحصاء السكان الأموريين من دون تحليل أدبي لا نجد فيه سوى القليل القليل من الأسماء الأمورية.

(٣٢) يوجد أمثلة على نطق العين، كعين أو همزة. وكذلك كتابة H خ/ح أو H ح/خ (cf. Streck, inter alios, 2000: 90-100) وهو لفظ لم يكن يعني سوى أن حمورابي Hommû-rap تعني شُفي الثائر وقد اختار الملك هذا المعنى بدل عمورابي ‘ammu-rabi بمعنى الجد الكبير؟.

(٣٣) من المؤكد أن هناك فروقات كبيرة، وهكذا فإن الاسم Zakura-abum كما هو معروف مشتق من الجذر ذكر ZKR ولكن دومنيك شاربان يشير إلى أنه يقرأ من الآن فصاعداً sa-ak-ra-ha-du (M.8142 C.ii 4= FM [1], 30) يقرن أو يرتبط بـ «Zakura-Addu». وهذا يصدق ويدعم الصيغة الكتابية مثل -sȧ-ku ra-a-hu-um (وكثير من الأمثلة) إلى جانب Za-ku-ra-a-hu-um في حين أن النصوص تذكر الجذر شكر ŠKR، sa-ak-ra-ha-du، الذي يعكس واقعاً مختلطاً بين كتابة تدعو للاعتقاد بـ Zakura- (H) addu، Sakura- (H) addu و Sakraddu من أجل فرد يمكن أن يدعى لغوياً Ŝakur- (H) addu.

(٣٤) هوفمن ١٩٦٥ Hoffman. مؤلفه، ورغم أنه كتب قبل نشر ARM/6/1,1979 والأجزاء ٢٢، ٣٢ حيث تظل الأسماء أفضل أداة بحثية تحت تصرفنا.

(٣٥) ستريك 2000 Streck كثير من الأسماء والأمثلة من ماري قد ترجمت بصورة خاطئة. كما أن التحليل اللغوي الزائد sur-philologie يلحق الأذى بالفهم ويصبح غير مقنع وبلا نقد؛. كما أن ستريك يهمل وضع النهاية أو الزائدة /it/ بالأمورية: فبدل من da-aq-ni-tum («bärtige»)، قليل الذوق أو اللطف)، ويُقرأ ba-ak-ni-tum (بعد الإلصاق) بدل Yaqqimit (sic !) وتقرأ (typo!) ia-qi-mi-im من أجل «yaqrit»، فالنص بدون نسخ ونادر، هو «schlecht erhalten».

(٣٦) إن ما ورد في 1980 Gelb هو مجرد خلط وغير تاريخي ولا نقدي وهي في الواقع ليست إلا جمع أسماء منشورة كما هي ومن هنا فإن كثيراً من تلك الأسماء، يجب أن تلغى بعد «الإلصاق» أو بمجرد نقد بسيط.

(٣٧) مَنْ يفكر أن حمورابي البابلي والكوردا وحلب المتماثلي الأسماء وعاشوا في نفس الزمن أنهم كانوا يتكلمون لغة واحدة؟ لا شيء يخبرنا عن تعليل أسمائهم وأن لهم نفس القيمة في جميع المناطق.

(٣٨) كان لامبرت 1967 Lambert قد لاحظ ذلك في مراجعته عن فينيه Finet 1956، حيث أن جميع المعطيات المنشورة في هذه المجموعة قد أُستعْرِضَتْ. كما راجع ذلك هايمبل 2003 Heimpel في (رسائل إلى ملك ماري Letteres to the king of Mari).

(٣٩) بهذا المعنى، أجد اختزالاً شديداً في تعريف ميخالوفسكي :Michalowski 2011 82 لوثائق ماري كـ: «but a peephole» أي مثل الوّصْوَصْ في حين أنها تفضي، في الواقع، إلى سلسلة أماكن ستكون مجهولة من وثائقنا الكتابية، إذا اقتصرنا على هذا التعريف، وسأترك للآخرين عناية المقارنة لحجم الوثائق

الكتابية التاريخي لمراسلات ماري مقارنة بالإشعارات أو السندات الحسابية لـ: أور ٣ UrIII.

(٤٠) قُدِمَ هنا اختيار بسيط، استخدم في دراسة أوسع تصدر قريباً.

(٤١) راجع MARI 4, 1985, 160 – 161. أُعيدَ تحليل النص بكامله في FM 13 الذي سينشر قريباً.

(٤٢) أن لا يذكر بصورة عامة ليس مدهشاً بحد ذاته. فقد لاحظنا (أثر نتائج متنوعة للتفاهم أو الفهم للغتين ومعرفة عامة في عصر اللاتين، إلخ) أن جول قيصر J. César في النص De Bello Gallico لا يذكر أبداً اتصالاته مع الغاليين Gaulois.

(٤٣) راجع ARM 27, 116. الواقع أن هؤلاء المترجمين الكوردا Kurdâ قد دعوا مَبّالوم mappalum برأينا أن مدينتهم تتكلم لهجة لا تدغم الزائدة اللفظية -ma بـ -ma عندما يتضمن الجذر حرفاً شفوياً. في حين أن ماري تفعل ذلك منذ الألف الثالث؛ راجع ملاحظات Charpin, MARI 5, 1987, 90.

(٤٤) من أجل هذا راجع Durand/ Chorpin 993, 367، والانتباه إلى نصوص متوازية غالباً مع نظيرها في ماري، أو راجع Durand 1993, 377 «مقابلة مدهشة... بين نصوص أكادية وسط رافدية وأخرى من ماري من الألف الثالث».

(٤٥) إن هذان المعنيين، وهما ليسا بعيدين جداً عن بعضهما البعض ذلك أن «استدعي convoquer، وصرخ «crier» يعبر عنهما بالبابلية بالكلمة شسوم šasûm وليسا مفترقين عن العربية رَجَمَ rajama «lapider». يجب أن يكون المعنى الأخير هو

قد تبدل دلالياً sémentique في وقت متأخر إلى «احتج ضد أحد Protester Contre quelqu'un».

(٤٦) راجع Bonnechi 1998. إن ظهور الكلمة دَدْمُمْ dadmum بالأكادية الفصحى في الألف الأول ليدل على البلاد أي ماتُم matûm يشكل جزءاً من هذا الظهور اللغوي، ألا وهو اللجوء إلى تعابير مهملة ومهجورة.

(٤٧) نجد في رسالة سمسو خدو sumû-hadû A 3300 إن مُبْعَداً من RHM قد ذهب إلى يمحاض ثم عاد، فكتب عن ذلك قائلاً: «الآن، يريد العودة «ituram» من يمحاض إلى أوجارم ماري»:

[i-n] a-an-na iš-tu [x] ia-am- ha- di- im a- ⌈na⌉ a-gàr ma-r[i^{ki}] i-tu- ra- ⌈am⌉.

يبدو هنا أن الكلمة أجر a-gàr لا تعني دائماً أرض – عقار وهنا كنا ننتظر كلمة ماتُم matûm. إذن A-gàr ألا تعني دائماً برية ؟ نشك بذلك عندما نرى بالسومرية أن: a-gàr nu-gi$_4$-gi$_4$-a-ta nam-ta-e$_{11}$-dé.

وقد ترجمت إلى الأكادية بـ: iš-tu ù-ga-ri la-a ta-a-ri ur-da (CT 17, 12, 7).

ومن الطبيعي أن نفكر أن kur nu-gi$_4$ «بلاد اللاعودة». ونضيف أن هذا التعبير شائع جداً a-gàr a-šà ويمكن أن يترجم بـ «الجزء من البلاد الذي يضم حقولاً». من حيث الدلالة، فإن الموقف هو نفسه، معكوسٌ بالإيطالية حيث أن Paese «بلاد Pays» قد تعني قرية «village». وهنا نذكر أن Ugârit أُجاريت لم تكن سوى طريقة محلية للدلالة على أرض بمعنى أرض!

(٤٨) إن حقيقة أن /ليم lîm لا نكتب إطلاقاً بالإشادة لـيم LIM (والمعروفة جيداً بالمقطعية) يرينا أن اللفظ الصحيح للاسم زمري ليم Zimrî-Lîm يجب أن يكون

زمري لِئِم Zimrî-Li'im، وإن li'mum (بالعبرية le'om) تنقلب إلى lîmum؛ فالكلمة ليست أكادية.

(٤٩) من أجل هذه الإشكالية انظر سابقاً Durand 1991.

(٥٠) بالعربية، يوجد أكثر من اسم للبوة lionne أو الأسد...

(٥١) «مورد ماء الأسود» على الفرات؛ وهي بلا شك ليست «باب الأسود» في مدينة ماري، وإنما فتحة مورد على النهر، وبمعنى خاص الذي صار إليه كلمة باب bâbum على الفرات الأوسط في ماري في القرن الثامن عشر وفي إيمار Emar في القرن الثالث عشر.

(٥٢) انظر قبلاً Durand, OLA 162/1 (2008) 290.

(٥٣) لهجة شكنكو لا تكتب العين šu giš-má/ ša$_{18}$ na-ag-bi$_{x}$ ib-bi-a; cf. Durand, NABU 2009/46.

(٥٤) إن عمل د. شاربان D. Charpin, NABU 1987/77 بكشفه في نص من الجنوب اسم العلم وَرَد – سكَّنِم Warad – Sikkanim يثبت أن الكلمة لم تكن مجهولة، حتى إذا لم تكن موجودة في النصوص. كما استطاع ليونيل مارتي L. Marti NABU, 2006, 91 أن يجد في كسرة مهملة من منبقا الكلمة خُمُوصُ humûsu التي تفيد أيضاً، في عصر البرونز الحديث لتحديد أو تعيين مظهر طبيعي في هذه الأرياف. إن هذه الكلمات، قليلة التدوين، تشير إلى أنه لا يبدو، أنها تستخدم يومياً، ولكنها ليست مجهولة.

(٥٥) إن عدم الاعتراف بالواقع (وهو عام في هذه النصوص) يبعث على أنه، بدل أن نقرأ im-şi-un وهي تبدل لـ: Yamşi'um المعروفة كثيراً، فنرى ترجمة زائفة

مثل Streck 2000:260 im-şi-KALAM وقراءة Iimşï-é-mátum في حين أن mâtum في تركيب اسم علم في هذا العصر، يجب أن تستجر صيغة مؤنثة من فعل بـــ -ta. من جهة أخرى، سنرى فـــي المقطـــع نفـــسه قـــد أورد (takûn- ta-ku-un-ma-tum mâtum) التي يوجد لها مقابل مواز. فاســـم العلـــم -da-nu ma-tum يعادل Dannu-Mâtum «Stark. War das land» وهـــو خطـــأ فـــي قراءة الإشارة المسمارية.

(٥٦) نلاحظ أن فقدان المصوت Voisement يترافق وعدم وجود علامة المؤنث دون أن يكون من السهل إقامة صلة بين الظاهرتين.

(٥٧) يوجد هذا الأمر في أسماء العلم المؤنثة (بعيداً عن دوائر اللغـــة الأكاديـــة فـــي منطقة الخابور وبعد العصر البابلي القديم (Dûr Katlimum).

(٥٨) انظر: MARI 4, 1985, 163 حيث أن الكلمة مقروءة كـــــ: $ka\text{-}wa_6$-šu-ra-tam الذي يعادل في الكتابة الحديثة [d]ku-ša-[ra-tum]. وتصبح الظّاهرة كصياغة وليس كنطق (-w-→-m-) وهذا ينفصل عن المعادل Nur- Nimer-11 وذلك في أسماء العلم. انظر: Durand, LAPO, 18, 2000, 487, subd، من أجل -ta-ma mi-tum وجمعها tawîtam.

(٥٩) راجع الأمثلة المكتشفة من قبل د. شاربان 1989:346؛ في $ṭú\text{-}pu\text{-}ul\text{-}ta_8$ be-lí-ia ta-aq-bi فحالة النصب تـــدون فـــي الواقـــع حالـــة مباشـــرة (مفعـــول بـــه accusative)، وخلاف البابلية حيث يصير محيداً. ويدل عدد من الأمثلة أن لهجة ماري الخالصة قد اتبعت هذا الاستخدام.

(٦٠) ونذكر هنا أنه في منطقة بني يمين mâr yamîna، عبـــارة maškabu وتعنـــي مبيت ليلي abri pour la nuit. وتذكر لنـــا نـــصوص مـــاري أيـــضاً عبـــارة

marpiqatu و narpiqatu بذات المعنى حيث أن العبارة الثانيــة تمثــل الأولــى البابلية. «لاحظ أن العبارة الأولى قريبة من «مرفق» العربية المترجم».

(٦١) انظــر : Charpin /Zigler, FM 5, 2003, 58 ad ARM 8, 100; m. 231. حيث عالجا الظّاهرة جيداً.

(٦٢) وهذه ظاهرة مختلفة عن التناوب بين i/u لأسماء الأفراد ذات المقطع، Işi//Uşi التي تعكس التناوب بين -Y في الغرب و W في الشرق.

(٦٣) وبمثل ARM 16/1, 112 نضيف من الآن فصاعداً النصين ARM 27, 69, 70. ويجب أن يكون الاسم الشخصي مختصراً من Ibassir-El التي تدخل في سلسلة أسماء نقرأها ونعرفها هي PUZUR+ND أي بزر + اسم إله وهكذا يتم بالنسبة لـــ: Bus(s)ur-ND أي بُشْرْ + اسم الهي.

(٦٤) انظر: ia- aś- si- ^{d}da- gan → والصحيح W.von zoden, Fs. M. Birot, 1985 ia- ba- si- ^{d}da- gan («Langue 104») .; 307 s[99] .

(٦٥) «أظهر نعمته أو حظوته». والصيغة a-ab-ba-an-ni-AN, RA 49, 1955, 17 iv 50, قد نسخت جيداً من قبل M. Birot. ولكنه خطأ مــن ia-ba-an-ni-AN/il ومــذكور بخـــلاف المـــشدد -bb-.ومــن المحتمــل أن الكاتـــب قـــد كتـــب Yabni-El←L/Ubanni-El.

(٦٦) انظر: Durand, RA 100, 2006, 97.

(٦٧) انظـــر: P. Bordreuil/D. Pardee, Manuel d' ougaritique, vol. I, 2004, 66-68, D, 4.1.2.63; š, 4.1.2.6.5, yaQaTTilu yašaQTilu.

(٦٨) لا يوجد تبدل من WHR إلى HR' (عكس ما فكرت به في LAPO 17, 1998, 318n. 19. ويعاد إلى wa-ah-ra-Ku ومعناها «تأخرت».

(٦٩) من أجـل ARM26, 542: 8 ia-ah-ma-du-um M. 6081; M. 11760, WA-ah-ma-du-um M7833, M. 11695: WA-şi-El WA↔ya-.

(70) S. Seminara, MVS6, 1996, 413: «I Casitdi confusione tra le coniagzioni G eD sono stati giá discussi nel paragrafo dedicato ai perfissi verbali, (…) si disse allora che questi cosi sono parti colarmente numerosi nei testi cultuali.»; ibid. 415, išapris sono state discusse nel pargrafo sui prefissi.v»; ibid. 353 «Alternonza tra i prefissi verbali i/ta-e-u/ tu-».

(٧١) مصححة خطأً بـــ nu من قبل المؤلف.

(٧٢) يبدو لي من غير الممكن إيجاد salhum في sulhum نظراً لدلالة salhum.

(٧٣) إن لهجة šuduhum تستخدم التناوب للصوتي الممدود + C ← صوتي متحرك + مضاعف، كما يدل على ذلك ha-mi-ik-ku-na بدل Hammi-kûn، وهو مـا يشير إلى أن كتابة «Nahhur» في هذه اللهجة تكشف عن نطق /Nâhur/، التـي تقابل Nāhor التوارتية. كما أن هذه الخاصية هي للماريين المقيمين فـي إلان – صورا Ilânşûra؛ انظر (§3) charpin, 1989, 32. بالمقابل نسجل ملاحظة هي حذف المتحرك الأخير: ARM 28, 113, 26 inaddinû-šu-inaddinûš;

(٧٤) انظر: LAPO 16, 1997, 477-478. إن سمة u في الفاعل/ المفعول لا يجـب أن تؤدي إلى الاستدلال إلى نوعيه أو لون /u/ في البادئة لصيغ D وš. M. 79.

(٧٥) انظر أيضاً: awîlam eqlam inhîlû, ARM 8,11,26، ملّكوا الرجـلَ الحقـلَ؛ «ils ont fait posseder le champ pour l'homme»، إن الـصيغة المقابلـة بالعبرية yamhil وتعنى ملّك في حـين أن صـيغة G تعنـي ملَـكَ، كمـا أن

في ماري تعنى مجرد مَلَكَ ARMI,91, rev.G.= MARI 5, 178- mahâlum 180, posseder.

إن الأمثلة الأخرى على فعل G ليست ملتبسة مثال ذلك قال الملك: ليرث A. 24: 10 Lugal ki-a-am iq- bé –em um-ma-mi li-ih-hi-lu a-di i- ومثال آخـر. na-hi-lu lú šu –ú ka –li «حتى يرث، هذا الرجل موقوف!». نذكر أن صيغة G تتميز عن صيغة hiphil، بالإضافة إلى ذلك فإن المد المتحرك، الذي لم يعد ممكناً التثبت منه، من خلال عدم إدغام n قبل الساكن، فلا نعير الانتباه لاعتبارات: Streck, 2000, 106 – 107, sic »grundlos«.

(٧٦) نذكر أنه في: «Nichts spricht für ein Partizip des kausativs» Streck 2000- 105 لأن مميزات الفاعل المسبب Causatif للصيغ هي مرفوضة؛ وكلمة ré'ûm رعى paîte faire مع المفعول به accusative تمثل واقعاً مختلفاً تماماً عن كلمة راعي berger. إن merhûm هي، في الواقع، وأكثر من ذلك: هو مَنْ يسمح للرعاة الرعي. إن ترجمة أو تفسيراً مثل nizbé لـ: «مرعى Pâtur» لا تفسر قطعاً حقيقة marhûm ونتوقع ما يحدده التعبير أو الكلمة، بالأحرى، أي نوع من الرعيان rê' ûm.

(77) Cf. A. Millet Alba, Fs. G. del olmo Lete, Auor. 17-18, 205-214.

(٧٨) انظر: A. 402, 19 صيغة me-er-hi—yu-um (ša yarih[ki])، هي مختصرة.

(٧٩) بيد أن صيغة العبرية mēqīm اسم فاعل hiphil من QūM. ويذكر n77, A. Millet Alba في مقالته صيغاً أخرى وينسبها إلى E. Lipiński, OLA 80, 1997, 420 التي لم استطع مراجعتها.

(٨٠) إن صيغة اسم الفاعل Hiphil =rmêrhûm ،D, ebbûm يمكن أن تدل أن المقصود هو صيغ مستقلة، دخلت بصورة ثانوية إلى تصريفات تشكلت شيئاً فشيئاً.

(٨١) إن القصة المرممة في ARM 26 من قبل ب. لافون B. Lafont تؤدي معنىً ضعيفاً: فالتاجر نبي سين Nabi – Sin ينتقل من كركميش إلى قطنة كي يطلب القسم من تُصَتَان Tuşatân حيث أن عمه غير مدان إلى والد ادن – دجن iddin Dagan –. وكنا نتوقع العكس! لأنه يأمل تثبيت الدين على أبيه، ويتوقع إلغاء واحد له (L. 22) انظر: شرح وتفسير آخر لهذا النص من قبل: Heimpel 2003, 405.

والواقع أن نبي سين قد مُنع من المتاجرة مع قطنة إثر شكوى ضده لأنه لم يدفع دينه لخان (كاروم Kârum)، إذ كان عليه إنهاء هذه الحالة قبل أن يذهب إلى ماري. وهذا يُظهر بدوره تضامن المراكز التجارية كاروم، فمن هو مدان في مكان ما، لا يستطيع المتاجرة في مكان آخر.

(٨٢) انظر «inter alia» المستمر Permnansif، لا – بَشَرَ، La-bašar -la-ba-ša) ar) «أي أن يكون سعيداً Qu'il soit heuseux أو هو حقاً سعيد La –bûr il est vraiment heureux «أ يعيش /يكون فاعلاً/ أنه يعيش حقاً فعال!» إلخ.

(83) Charpin 1989: 31 n. 7.

(٨٤) انظر ما سبق وخاصة المقدمة ص ٢٥، Durand/ Mari, JA 292, 2004, 1- 616.

(٨٥) يمثل هذا النص الترجمة الفرنسية لبحث شاربان زيجلر: Charpin / zigler, 2007) spéc, p. 74، أشكر هذين المؤلفين لإعلامي به.

(٨٦) تؤخذ للأسف غالباً عند التدوين كـ .hu أمورية – بمعنى ضمير مفرد متّصل – ـه (هو)، وهذا المفهوم لا يستحق النقاش.

(٨٧) وبهذه الطريقة نفهم أن يكون هناك رسالة بالحورية (السوبرية)؟ مرسلة إلى زمري ليم وكذلك التعازيم أو الرقى السومرية والسوبرية والعيلامية. وأن تعارضها مع السامية أساسي وليس لهجوي.

(٨٨) راجع «.CAD, Z_1 50b «The AKK. Of the text is rather poor…

(٨٩) نستطيع تقديم أنموذج من خلال مختارات قمنا بها في وقت سابق، دومنيك شاربان D. Charpin وأنا (NABV 1988/17) لصيغ فعلية مضعّفة غير ملاحظة في نصوص ماري.

(٩٠) بهذا المعنى يمكن الرجوع / وباهتمام إلى ما نشره د. ارنو D. Arnaud . حيث كرس ما دعاه تعبير معزقة بحر (FSG, Del Olmo Lete [= Auor. /7-18) 143-66] bech –de –mer التي تمثل لغة صبير sabir (وهي مزيج من العربية والفرنسية والاسبانية...). يتحدث بها أناس خاصون. فالمؤلف يطرح مسلمة أن هذه اللغة المزيج لم تقتصر على صور Tyr. والواقع أن أصول ذلك تعود إلى ما قبل القرن الثالث، وتتدرج في التشكل كلما ابتعدنا (في المكان والزمان) من المراكز التقليدية لكتاب أو مخططي المسمارية.

الحركة التأريخية في بلاد الشام في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي

الدكتور سامي مرعي
قسم التاريخ
جامعة دمشق

مقدمة:

حددت المصادر الجغرافية بلاد الشام بالمنطقة الواقعة بين بحر الروم «البحر المتوسط» غرباً، والبادية من أيلة إلى الفرات، ومن الفرات إلى حدود بلاد الروم شرقاً، وبلاد الروم شمالاً، ومصر جنوباً[١]، ويبلغ طولها من الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية ما يقارب شهراً، أما عرضها، فمن جبلي طيء في الجنوب إلى بحر الروم في الشمال، فيبلغ نحو عشرين يوماً[٢].

تناوبت على إدارة بلاد الشام في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي دول وإمارات متعددة متناحرة فيما بينها، وهذا ما جعلها ساحة لاضطرابات وحروب عديدة، فبعد سقوط الدولة الطولونية في سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م، عادت بلاد الشام تتبع للخلافة العباسية، واستمرت تابعة لها حتى سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م عندما أسس محمد ابن طغج الإخشيد دولته في بلاد الشام ومصر، ولكن لم يَصْفُ له حكم بلاد الشام طويلاً، حيث نافسه فيها القائد العباسي محمد بن رائق، ولم يلبث هذا التنافس أن انتقل

إلى نزاع إخشيدي ـ حمداني، وذلك بدخول سيف الدولة الحمداني إلى حلب في سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م، وتأسيسه الدولة الحمدانية فيها. فانقسمت بلاد الشام إلى قسمين: جنوبي يتبع الدولة الإخشيدية التي مركزها في مصر، وشمالي يتبع الدولة الحمدانية التي مركزها في حلب، وقد استمر هذا الوضع حتى سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م عندما حدث تغير كبير على الساحة السياسية في بلاد الشام. حيث حل الفاطميون محل الإخشيديين في السيطرة على القسم الجنوبي منها، فغدت بلاد الشام مسرحاً للتنافس والنزاع بين الفاطميين والحمدانيين، واستمر هذا الوضع حتى أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وَوُجِدَ إلى جانبهما البيزنطيون الذين كانوا قد احتلوا الثغور الشامية الشمالية، وبعض مناطق الساحل الشامي الشمالي، وقاموا بحملات نحو أعماق بلاد الشام، واحتلوا بعض مناطقها، وترافقت مع ذلك بداية لهجرات بشرية غير عربية لاسيما من العناصر الأرمنية والكردية إلى بلاد الشام، وتحركات لبني الجراح الطائيين في فلسطين، وحملات قرامطة البحرين نحوها.

وعلى الرغم من التمزق السياسي الذي عانت منه بلاد الشام في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وكثرة الاضطرابات والحروب التي حصلت في أراضيها إلا أنها عرفت ازدهاراً فكرياً واسعاً في مختلف اختصاصات العلوم التطبيقية والنظرية، وكان من العلوم النظرية المزدهرة: التأريخ الذي كان محط اهتمام العديد من رجال العلم، فدونوا فيه مؤلفاتهم القيّمة والثمينة.

تنطوي دراسة حركة التأريخ على أهمية بالغة، وذلك لما تحمله من فوائد جليلة وتحليلات ومعطيات هامة، و"التأريخ في اللغة هو الإعلام بالوقت"، وفي الاصطلاح هو "فن يُبحَثُ فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت"، وموضوعه هو الإنسان والزمان، و"فائدته هي معرفة الأمور على وجهها"(٣)، والأساس في الصناعة التأريخية، كما هو معروف، أن تكون مقصورة في البحث عن الحقائق وتقريرها بعد الحصول عليها، و"هدف التأريخ هو معرفة النشاط الإنساني في كافة الحقول

والمجالات وفي كل العصور إذا استطعنا إلى ذلك سبيلا"(٤)، وعن أهمية التأريخ والشروط الواجب توافرها في المؤرِّخ، قال ابن خلدون: "اعلم أن فن التأريخ فنٌّ عزيز المذهب، جمُّ الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا. فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحسنِ نظرٍ وتثبُّتٍ يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط لأن الأخبار إذا اعتُمد فيها على مجرد النقل، ولم تُحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يُؤمن فيها من العثور، ومزلّة القدم والحيد عن جادة الصدق"(٥).

من المعروف أنه لم يكن لدى العرب قبل الإسلام تدوين تاريخي بالشكل المألوف الذي يؤدي إلى صور المعرفة المتعددة الألوان، وجميع ما وصل عن ذلك العصر، جاء عن طريق الرواية الشفهية، وعن طريق النقوش العربية القديمة في جنوب شبه الجزيرة العربية وشمالها، وبعد الإسلام بدأ الاهتمام بالتدوين منذ وقت مبكر، وذلك منذ عهد معاوية بن أبي سفيان الذي يعدُّ عهد بدء التسجيل للأخبار الماضية، حيث استحضر عبيد بن شريه الجرهمي من اليمن، وكان أحد المعمرين، فسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم، ولمّا أجاب، أمر معاوية بتدوين إجاباته(٦)، ولعبيد بن شريه من الكتب: "كتاب الأمثال"، و"كتاب الملوك وأخبار الماضين"(٧).

وقد جاءت بدايات التدوين التاريخي مبكرة، وتمحورت حول شرح الدين الإسلامي وأحكامه وكل ما يدور في فلكه، فكانت بعض المدونات الأولى حول شرح القرآن الكريم وتفسير آياته(٨)، وكانت سيرة الرسول ﷺ من الموضوعات التي حظيت باهتمام كبير، فألَّف كثير من علماء صدر الإسلام فيها، وكان أولهم عروة بن الزبير (ت، ٩٤ أو ٩٩هـ/ ٧١٣، ٧١٨م)(٩) الذي يعد أول من صنَّف في المغازي أيضاً، على أن

مصنفاته لم تكن كتباً بل كانت من قبيل المدونات والرسائل. وبرز بعده محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت، ١٢٤هـ/ ٧٤١م)[١٠] الذي يعد أول من وضع كتباً في السيرة النبوية[١١].

وقد ارتبط التأريخ العربي الإسلامي في نشأته بالحديث منهاجاً وموضوعاً وأشخاصاً، فمن حيث المنهج، تأثر في نشأته بمنهج رجال الحديث في الرواية والإسناد. أما من حيث الموضوع، فعلى الرغم من أنه بدأ بما يسمى بالمغازي (أي غزوات الرسول ﷺ)، إلا أن تلك المغازي ابتدأت بسيرته كرسول. هذا وقد نُظمت الكتابات العربية الإسلامية كافة على أساس التقويم الإسلامي الهجري[١٢] الذي ظهر مبكراً ليُعِينَ على تنظيمها. أما من ناحية الأشخاص، فإن أول من أسهموا في كتابة السير والمغازي، كانوا من رجال الحديث أمثال: عروة بن الزبير، وابن شهاب الزهري[١٣].

وقد سارت بدايات علم التأريخ عند العرب في اتجاهين أساسيين هما: الاتجاه الإسلامي أو الاتجاه الذي ظهر عند أهل الحديث الذي يتمثل في المبادئ والفعاليات الإسلامية، وكان مركز هذا الاتجاه في المدينة. أما الاتجاه الثاني، فهو الاتجاه القبلي أو اتجاه الأيام الذي يمثل استمرار التراث القبلي، وكان مركز هذا الاتجاه في الكوفة والبصرة[١٤].

أما بالنسبة إلى بلاد الشام، فقد بدأت الحركة التأريخية فيها مبكراً، وعنيت هذه الحركة بدراسة الأنساب وتاريخ العرب قبل الإسلام والمغازي والفتوح، فكانت بذلك في هذه المواد وسطاً بين المدرستين المدنية والعراقية، غير أنها تميزت عنهما بعنايتها الكبيرة بأمر الفتوح خاصة والمغازي والمقاسم وتخصصها بها، وكان قد مهد للحركة التأريخية في بلاد الشام عدد من الصحابة الرواة الذين اشتركوا في الفتوح، ورووا بعض أحداثها، أمثال: عبادة بن الصامت[١٥]، وأبي أمامة الباهلي[١٦]. وقد شكلت رواياتهم الخطوة الأولى السابقة للتدوين التأريخي، وجاء بعدهم بعض التابعين

وتابعيهم ممن اشتهروا برواية الأخبار[١٧]، وكان من أبرز العلماء الذين أسهموا في الحركة التأريخية في بلاد الشام في القرنين الأول والثاني الهجريين/ السابع والثامن الميلاديين: عبيد بن شريه الجرهمي، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري، وعروة بن الزبير، والأوزاعي[١٨]، وأبو إسحق الفزاري[١٩]، والوليد بن مسلم[٢٠]، وأبو مسهر الدمشقي[٢١].

هذا وقد اتجهت معظم الكتابات التأريخية الشامية منذ أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وخلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي في اتجاهين: أحدهما رواية التاريخ الأموي ومناقب الأمويين، وأشهر من كتب في ذلك: أبو عبد الرحمن خالد بن هشام الأموي صاحب "كتاب أخبار الأمويين ومناقبهم"[٢٢]، والمؤلف المجهول الذي صنف "كتاب البراهين على إمامة الأمويين" في ثلاثمئة ورقة[٢٣]. أما الاتجاه الثاني، فكان رواية المغازي، وقد صنف فيها العديد من العلماء، أمثال: محمد بن عائذ الدمشقي (ت، ٢٣٣أو ٢٣٤هـ/ ٨٤٧-٨٤٨م) صاحب كتب "السير"، و"المغازي"، و"الفتوح والصوائف"[٢٤]. وعبد الله بن محمد بن علي بن نفيل الحراني (ت، ٢٣٤هـ/ ٨٤٩م) صاحب "كتاب المغازي"[٢٥]. وأبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو الدمشقي (ت، ٢٨١هـ/ ٨٩٤م) الذي يعد أبرز ممثل للحركة التأريخية في بلاد الشام في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وقد صنف مصنفات تأريخية عديدة، أبرزها: "كتاب التاريخ"[٢٦].

ولم يلبث هذان الاتجاهان أن بدأا يضمران في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ليظهر بدلاً منهما اللون المحلي في التدوين التأريخي الذي يهتم بأخبار المدن الشامية وعلمائها ومحدثيها[٢٧].

وقد برز في بلاد الشام خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، العديد من المؤرخين الذين كتبوا كتابات تاريخية مهمة، وقد كان معظمهم من الملمين بعلوم أخر.

فهناك من كان من المحدثين أو الفقهاء، أمثال: الحسين بن محمد بن أبي معشر مودود أبو عروبة الحراني (ت، ٣١٨هـ/ ٩٣٠م)، ومحمد بن عبد الله بن جعفر أبو الحسين الرازي (ت، ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م)، وعلي بن الحسن بن علان الحراني (ت، ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م)، وغيرهم ممن سوف يأتي الحديث عنهم.

وكان بعض الذين صنفوا كتابات تاريخية من الأدباء والكتّاب كما هو الحال مع عثمان بن عبد الله بن إبراهيم أبي عمرو الطرسوسي (ت، ٤٠١هـ/ ١٠١٠م) المحدِّث والكاتب(٢٨)، هذا ولم تكن الكتابات التأريخية مقصورة على فن من فنون التاريخ، بل جاءت في إطار أنواع تاريخية عديدة أمثال: التاريخ المحلي وكتب البلدان والفضائل، والتاريخ الحولي، والتراجم والطبقات، والسير والأنساب، وكتب الوفيات وغير ذلك.

١ - التاريخ المحلي وكتب البلدان:

اختصت بعض الكتابات التأريخية الشامية في التاريخ المحلي، هذا وتعد التواريخ المحلية تعبيراً أدبياً عن الرباط الوثيق الذي يربط الناس بمكان مولدهم، ونشأت من الاعتبارات الدينية والفقهية والمفاخر الإقليمية، وهي تبحث في تاريخ مدينة أو إقليم، وتبين العلماء المشهورين فيه(٢٩)، وأبرز من كتب في التاريخ المحلي:

ـ عبد الصمد بن سعيد بن عبد الله أبو القاسم الكندي القاضي (ت، ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م): محدِّث حمص، وقاضيها. قدم دمشق قديماً، وسمع(٣٠) بها أبا الحسن بن جوصاء، ويزيد بن عبد الصّمد، وحدَّث عنهما وعن غيرهما، وقدم دمشق مرة أخرى حاجاً، فحدَّث بها سنة ٣١٣هـ/ ٩٢٥م(٣١). جمع "تاريخ حمص"(٣٢)، وقد ذكره ابن عساكر باسم "تاريخ لذكر الصحابة الذين نزلوا حمص"(٣٣)، وهذا يعني أنه خصصه للصحابة والتابعين ومن تلاهم ممن نزل حمص واستقر بها. وقد شكّل هذا التاريخ مصدراً من المصادر التي نقل عنها ابن عساكر(٣٤). كما نقل ياقوت الحموي في كتابه "معجم البلدان" قطعاً منه(٣٥). وعاش بعد عبد الصمد بمدة لا تزيد على قرن من الزمن، أبو

بكر بن صدقة الذي كتب "تاريخاً لحمص"(٣٦) أيضاً، غير أنه لا يعرف الكثير عن هذا التاريخ وأهميته، وهل نقل فيه من تاريخ حمص الذي كتبه عبد الصمد بن سعيد الكندي، أم كان استمراراً وتكملة له؟...والواقع أنه لا يمكن الإجابة عن هذه التساؤلات، نظراً لأن هذا التاريخ مفقود، ويظهر أنه قد فقد باكراً بُعيد أيام مؤلفه. إذ إنه لم يكن من موارد المؤرخين في القرون التالية، والمصدر الوحيد الذي ذكره هو السخاوي.

ـ الحسين بن محمد بن أبي معشر مودود السلمي الجزري أبو عروبة الحراني (ت، ٣١٨هـ/ ٩٣٠م): محدِّثٌ ومفتٍ ومؤرخ من أبناء حران(٣٧)، ولد بعد ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م، اتجه نحو سماع الحديث سنة ٢٣٦ هـ/ ٨٥٠م، فسمع في بلاد الشام والجزيرة والعراق والحجاز، ثم عاد إلى بلده، فتولى قضاءها، وتصدر فيها محدثاً ثقة وفقيهاً، وكان ذا معارف واسعة بالرجال والمحدثين، لذلك قصده رجال العلم من أمصار مختلفة، ليتزودوا من معارفه، روى عنه: أبو حاتم بن حبان، وأبو أحمد بن عدي الجرجاني وجماعة كثيرة غيرهما(٣٨)، صنف تصانيف عديدة، منها: «حديث الشيوخ»(٣٩)، و«كتاب الأوائل»، و«كتاب الأمثال السائرة عن رسول الله ﷺ»، و«حديث الجزريين»(٤٠).

وبرز مؤرخاً للجزيرة، حيث صنف تأريخاً لحران، ذكر فيه جماعة كثيرة من أهل الجزيرة سماه "تاريخ الجزريين"(٤١)، وقيل "تاريخ الجزيرة"(٤٢)، وذكره حاجي خليفة باسم "تاريخ الجزيرتين"(٤٣)، ولأبي عروبة أيضاً "تاريخ الرقة"(٤٤).

ـ محمد بن سعيد بن عبد الرحمن بن إبراهيم القشيري الرقي الحافظ أبو علي (ت، ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م): عرف بابن الحراني لأن أصله من حران، وعرف بالرقي لأنه ولد ونشأ في الرقة(٤٥)، قال السمعاني عنه: "كان إماماً فاضلاً مكثراً في الحديث،

صنف كتاب التاريخ للرقيين"[٤٦]، وحدث بكتابه هذا سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، وعمره وقتئذ ثمانون سنة، وبالتالي فإن ولادته تكون في حدود ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م[٤٧].

وصِفَ القشيري بالمحدِّث والمؤرخ، قال عنه الذهبي: "الإمام الحافظ المفيد... محدث الرقة ومؤرخها"[٤٨]، وقال عنه الصفدي: "مؤرخ الرقة"[٤٩]، وقد صنف "تاريخاً للرقة"، وهو بعنوان: "تاريخ الرقة، ومن نزلها من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين والفقهاء والمحدثين"، وهو يعد من أوائل الكتب التي صنفت في تاريخ البلدان والمدن، ووصلت إلينا، ومع أنه تاريخ مدينة، ويدخل في إطار تاريخ البلدان، غير أنه اقتصر على تراجم للأعلام الذين برزوا فيها، وهو يحتوي على مئة وثلاث وعشرين ترجمة للأعلام من أهل الرقة، وقد صنفه في ثلاثة أجزاء. أما الجزء الأول منه، فقد أوقفه للحديث عن فتح الرقة، ومن نزلها من أصحاب رسول الله ﷺ ثم ترجم للتابعين وتابعي التابعين، وترجم في الجزأين الثاني والثالث للأعلام من المحدثين والفقهاء الذين برزوا فيها[٥٠]، وعلى الرغم من أن المادة التي يقدمها في كتابه، جاءت مختصرة، غير أن له أهمية كبيرة كونه يظهر كيف خرج التاريخ الإسلامي من الحديث إلى التراجم[٥١]، وكونه مصدراً للمؤرخين اللاحقين الذين نقلوا منه، ومنهم ابن عساكر[٥٢]، وابن العديم[٥٣].

ـ أحمد بن حميد بن سعيد بن خالد أبو الحسن الأزدي المعروف بابن أبي العجائز (القرن ٤هـ/ ١٠م): محدث من أبناء دمشق[٥٤]، عاش في القرن ٤هـ/ ١٠م. كان معاصراً لأبي الحسين الرازي المتوفى سنة ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م، صنف كتاباً بعنوان "تاريخ دمشق"، خصصه للحديث عن بني أمية، ومن كان منهم بدمشق وغوطتها، ولهذا الكتاب أهمية كبيرة لمعرفة تاريخ الأمويين في الشام ومنازلهم وأسمائهم، خاصة بعد سقوط الخلافة الأموية[٥٥]، وهذا الكتاب بحكم المفقود، ولكنه كان من مصادر ابن عساكر في تاريخه حيث اعتمد عليه، ونقل عنه تراجم بعض الأمويين الدمشقيين[٥٦]،

وكذلك هنالك نقول من هذا الكتاب ترد لدى ياقوت الحموي في معجم البلدان لا سيما عندما تحدث عن قرى غوطة دمشق التي كان يسكن فيها الأمويون(٥٧).

ـ محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن الجنيد أبو الحسين الرازي (ت، ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م): أصله من الري(٥٨)، وفيها كان يعرف بابن الرستاقي، ولما انتقل إلى الشام صار يعرف بالرازي. كان قد سمع محدثي بلده ثم تنقل في طلب العلم، فزار الكوفة ومكة وبغداد والموصل ومصر وغيرها، وفي نهاية المطاف جاء إلى دمشق، واستقر فيها حتى توفي، روى عنه ابنه تمام بن محمد، وعبد الرحمن بن عمر بن نصر وغيرهما(٥٩).

كان أبو الحسين الرازي من الأعلام الثقات في الحديث والتصنيف، قال الكتاني عنه: "كان ثقة نبيلاً مصنفاً"(٦٠)، وقال ابن عساكر عنه: "كان أحد المكثرين المصنفين الثقات"(٦١)، ووصفه الذهبي: بـ "الإمام المحدث الحافظ المفيد ...... جمع وصنف وأرخ، وأفاد الرفاق، وأفنى عمره في الطلب"(٦٢).

عاصر أبو الحسين الرازي أحمد بن أبي العجائز، وأخذ عنه، وتميز بأنه كان يحدث من مصنفاته(٦٣)، وقد صنف مصنفات عديدة عن تاريخ دمشق، أرخ فيها أسماء محدثيها وعلمائها وقوادها وكتابها وأمرائها، والجانب العمراني فيها، وغير ذلك، وقد شكلت هذه المصنفات مصدراً رئيساً من المصادر التي اعتمد عليها ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، ومن خلاله تمَّ التعرّف على عناوين هذه المؤلفات ومحتواها، ومنها:

ـ تسمية من سمع منه بدمشق(٦٤).

ـ تسمية من سمع منه بدمشق في الدفعة الثانية(٦٥).

ـ تسمية من كتب عنه بدمشق(٦٦).

ـ تسمية من كتب عنه بدمشق في الدفعة الثانية[٦٧].

ـ تسمية من كتب عنه بدمشق من العرب[٦٨].

ـ تسمية من كتب عنه بدمشق من الغرباء[٦٩].

ـ تسمية من كتب عنه في قرى دمشق[٧٠].

ـ تسمية أمراء دمشق[٧١].

ـ تسمية أمراء دمشق في أيام بني العباس[٧٢].

ـ تسمية كتّاب أمراء دمشق[٧٣].

ـ كتاب ذكر الدور بدمشق[٧٤].

ـ جزء فيما أفاده بعض أهل دمشق عن أبيه عن جده، وبعض أهل بيته المؤمنين[٧٥].

كذلك صنف كتاباً في مناقب الإمام الشافعي بعنوان «أخبار الشافعي وأحواله»، وهو كتاب جليل حفيل[٧٦]. هذا ولأبي الحسين الرازي أخبار وروايات وأحاديث في فضائل دمشق، وسوف يرد تفصيل ذلك عند الحديث عن كتب فضائل البلدان.

ـ علي بن الحسن بن علان بن عبد الرحمن أبو الحسن الحراني الحافظ (ت، ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م): محدث حران وحافظها، روى عن أبي يعلى الموصلي، وأبي بكر محمد بن أحمد بن أبي شيبة البغدادي، وسعيد بن هاشم الطبراني، وأبي عروبة وغيرهم. قدم دمشق سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م، وحدث بها، فروى عنه تمام بن محمد الرازي وأبو العباس محمد بن موسى بن السمسار، وأبو القاسم عبد الرحمن بن عبد العزيز بن الطبيز وآخرون. توفي بدمشق سنة ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م، وصف بأنه كان ثقة حافظاً نبيلاً[٧٧]، صنف "تاريخ الجزيرة"[٧٨] وذكر أحياناً باسم "تاريخ الجزريين[٧٩]".

ـ القاضي عبد الجبار بن عبد الله بن محمد الخولاني الداراني المعروف بابن مهنا (ت، بعد ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م): من أبناء داريا[٨٠]، وهو من رجال الحديث، حيث سمعه في دمشق والرملة وأنطاكية وغيرها، روى عن أحمد بن سليمان بن حذلم، ومحمد بن يوسف بن بشر الهروي وأحمد بن عمير بن جوصاء وآخرين. روى عنه العديد من المحدثين، أبرزهم: تمام بن محمد الرازي، وصنف "تاريخاً لداريا"[٨١]، حدث به سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م، قال في أوله: "ذكر من نزل داريا من أصحاب رسول الله والتابعين وتابعي التابعين وأهل العلم على طبقاتهم وأزمانهم وذكر وفاتهم، ومن أعقب منهم، ومن لم يعقب إلى وقتنا هذا"[٨٢]، وعلى الرغم من أن هذا الكتاب كما يشير عنوانه تاريخ مدينة، ويدخل في إطار تاريخ البلدان، غير أنه اقتصر على تراجم للأعلام الذين برزوا فيها، وقد ضم سبعاً وأربعين ترجمة، عرضها وفقاً لثلاث طبقات هي:

ـ ذكر من نزل داريا من أصحاب رسول الله ﷺ[٨٣].

ـ ذكر التابعين الأكابر ممن أدرك مولده حياة رسول الله ﷺ، ولم يهاجر إليه[٨٤].

ـ طبقة بعد هؤلاء[٨٥].

ويلاحظ من خلال تاريخ داريا، أن مؤلفه عرض تراجمه بإيجاز واختصار، وكان متمكناً في علم الحديث، فهو يضبط رواياته، وينقد الروايات المشكوك فيها ولو رويت عن كبار المحدثين، وتعود أهمية هذا التاريخ لانفراده بروايات وأخبار لا ترد في غيره، ولأن مؤلفه كان يلم إلماماً شاملاً بتاريخ داريا وأحوال أهلها وأصولهم وأنسابهم وجماعاتهم[٨٦].

ـ الشاعران الخالديان أبو بكر محمد بن هاشم (ت، ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)، وأبو عثمان سعيد بن هاشم (ت، نحو ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م): عرفا بالخالديين نسبة إلى قريتهما الخالدية، وهي من قرى الموصل[٨٧]، تعلّما بالموصل وبغداد، ثم التحقا ببلاط سيف الدولة الحمداني في حلب، فكانا من خواصه[٨٨]، ثم صارا خزنة كتبه[٨٩]، وبقيا في

بلاطه إلى ما بعد سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م، حيث انتقلا إلى العراق، ودخلا في حاشية الوزير المهلبي[٩٠]، وبعد وفاة هذا الوزير في سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م، انقطعا إلى التأليف والتصنيف حتى توفيا، فجمعا مجاميع أدبية مليحة، واختارا من الدواوين كثيراً، ومن تصانيفهما: «كتاب في أخبار أبي تمام ومحاسن شعره»، و«كتاب في أخبار وشعر ابن الرومي»، و«كتاب اختيار شعر البحتري»، و«كتاب اختيار شعر مسلم بن الوليد»[٩١]، وكتاب الأشباه والنظائر «حماسة الخالديين»، و«كتاب التحف والهدايا» [٩٢]. هذا ولم يقتصرا على تصنيف الكتب الأدبية، بل صنفا في الميدان التاريخي: "كتاب أخبار الموصل"[٩٣]. ومع أن المصادر المتوافرة التي ترجمت للخالديين لم تبين أسماء كتبهما التي صنفاها أثناء إقامتهما في البلاط الحمداني في حلب، ولكن مما لا شك فيه أن إقامتهما في حلب، وتوليهما الإشراف على خزانة كتب سيف الدولة الحمداني، وحضورهما لمجالسه التي كانت عامرة برجال العلم والأدب، كل ذلك كان له شأن كبير في زيادة معارفهما وصقلها. وهذا ما يدفع للترجيح أن بعض كتبهما قد صنفاهما أو وضعا خطة لتصنيفها في سنوات إقامتهما في حلب.

ـ عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد أبو عمرو الطرسوسي (ت، ٤٠١هـ/ ١٠١٠م): من أبناء طرسوس[٩٤]، لم يرد في المصادر التي ترجمت له[٩٥] كثير من التفصيلات عن حياته، كما أنها لم تشر إلى سنة ولادته، ولكن من المرجح أنها كانت في الربع الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي في طرسوس، نظراً لأنه بدأ بسماع الحديث سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م، وفيها سمع أبا الحسن علان بن عيسى بن مشكان القاساني[٩٦].

اتجه منذ طفولته للتحصيل العلمي في دور طرسوس ومسجدها الجامع. ففي سنة ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م، سمع أبا الحسن علي بن جعفر بن عقبة الأعرابي صاحب الجيش بطرسوس[٩٧]، وسمع في سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م إملاء[٩٨] أبي عمير عدي بن أحمد الأذني في داره[٩٩]، وفي السنة نفسها تعلم على الحسين بن علي أبي عبد الله العلوي

الطبري الذي كان يسكن في دار سلسبيل بطرسوس[١٠٠]. وسمع في السنة نفسها أيضاً إملاء أبي العباس أحمد بن محمد بن يعقوب بن أبي أحمد الطبري المعروف بابن القاص الفقيه الشافعي قاضي طرسوس في المسجد الجامع[١٠١]. وفي هذا الجامع حدثه أبو العباس أحمد بن رمضان المصري قراءةً[١٠٢]، وهما يتماشيان في صحنه[١٠٣]. وكذلك فيه قرأ القرآن الكريم على إسحق ابن خلاد أبي يعقوب التيلمي المقرئ بجامع طرسوس مراراً، وبقراءات متعددة[١٠٤]، وسمع منه كتاب القراءات لأبي بكر بن مجاهد من أوله إلى آخره[١٠٥]، وقرأ أيضاً على أبي بكر بن الأصبهاني المقرئ المعروف بأبي بكر الأسكاف أحد أئمة المسجد الجامع بطرسوس. ومن الذين سمع منهم بطرسوس أيضاً: أبو الطيب يمن بن عبد الله الريداني أحد فرسان طرسوس وقوادها، وكان يقيم في دار راغب الكبرى من دور طرسوس[١٠٦]، وسمع أبا عبد الله محمد ابن عيسى التميمي البغدادي الذي قدم طرسوس سنة ٣٤٣هـ/ ٩٥٤م[١٠٧]، وغيرهم.

اتجه الطرسوسي بعدما حصّل علوم بلاده للتنقل والارتحال في سبيل طلب العلم، فزار بعض مدن الثغور الأخرى[١٠٨]، كما زار بعض مناطق بلاد الشام الأخرى، والواقع أنه لا يعرف متى غادر الطرسوسي مدينة طرسوس، وهل غادرها قبل سقوطها بيد البيزنطيين سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م[١٠٩]، أم كانت مغادرته لها بسبب الاحتلال البيزنطي في السنة السالفة الذكر. وكل ما يعرف عن حياته أنه ارتحل في سبيل طلب العلم، فزار مناطق متعددة في بلاد الشام. فقد زار حلب، وسمع فيها إسماعيل بن القاسم بن إسماعيل الإمام أبي القاسم الحلبي (ت، بعد ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م)[١١٠]، وأحمد بن هارون بن محمد بن الزباب الحلبي (ت، ٣٨١هـ/ ٩٩١م)[١١١]، وسمع بدمشق أبا علي محمد بن آدم الفزاري، وأبا هاشم عبد الجبار بن عبد الصمد السلمي، وسمع بطرابلس خيثمة بن سليمان بن حيدرة وغيره، وببيروت أبا عمران موسى بن عبد الرحمن إمام المسجد الجامع فيها، ويظهر أنه بعد ذلك استقر في معرة النعمان، حيث تولى القضاء فيها ثم

في كفرطاب التي توفي فيها سنة ٤٠١هـ/ ١٠١٠م[١١٢]، تاركاً ولدين من المحدثين المغمورين هما: أبو الفتح أحمد، وأبو الحسين علي[١١٣].

روى عن الطرسوسي أبو حصين عبد الله بن المحسن بن عبد الله بن عمرو المعري، وعبد الواحد بن محمد بن الحسين الكفرطابي، وأبو علي الأهوازي المقرئ المشهور[١١٤]، وأبو العلاء المعري فيلسوف المعرة[١١٥] وآخرون.

وهكذا فإنه كان محدثاً "فاضلاً مسنداً"[١١٦]، وكان كاتباً بارعاً، تميز بسرعة الكتابة، حيث نسخ كثيراً من كتب الأدب، وجمع دواوين الشعر لبعض شعراء عصره، ممن عاصر سيف الدولة الحمداني وابنه شريف الدولة. قال ياقوت الحموي: "كان من الأدباء الفضلاء، رأيت بخطه الكثير من كتب الأدب والشعر، وجمع شعر جماعة من أهل عصره، منهم أبو العباس الصقري، وأبو العباس الناشئ وغيرهما من شعراء سيف الدولة وابنه شريف الدولة"[١١٧].

صنف الطرسوسي مصنفات متعددة كما تفيد إحدى إشارات ابن العديم[١١٨]، وذكر ياقوت الحموي أيضاً أنه صنف كتباً، غير أنه لم يذكر منها إلا كتاباً واحداً هو: "أخبار الحجاب"[١١٩]، وهو مفقود. ومن خلال ابن العديم في "بغية الطلب" تمّ التعرف على عنوان كتاب آخر له هو "سير الثغور"، وهذا الكتاب مفقود أيضاً، لكن جانباً مهماً منه نجا من الضياع، من خلال ابن العديم الذي نقل عنه مباشرة في كتابه السالف الذكر حوالي ثلاثين قطعة متفاوتة في الطول. فبينما بعضها لا يزيد على سطر، يمتد بعضها الآخر صفحات عديدة، وتحتوي هذه القطع على معلومات تاريخية في غاية الأهمية حول تكوين طرسوس وأخبارها وأحوال الثغور عامة، وقد لا توجد هذه المعلومات في أي كتاب آخر في التاريخ.

أشار ابن العديم إلى أن أبا عمرو الطرسوسي صنف كتابه هذا للوزير أبي الفضل جعفر ابن الفضل بن الفرات[١٢٠] الذي وزر للإخشيديين، كما وزر للفاطميين، لكنه لم

يشر إلى الكيفية التي تمّ فيها التواصل بين هذا الوزير والطرسوسي، وفي هذا ما يدفع للتساؤل هل تمت في مصر؟ ما يعني أن الطرسوسي سافر إليها، أم أنها تمت في مناطق بلاد الشام أو شمالها خصوصاً؟ وهذا يعني أن الوزير ابن الفرات جاء إلى هذه المناطق، كما أنه لم يشر إلى الزمن الذي كتب فيه الطرسوسي كتابه، هذا وترجح الدراسات أن التواصل بينهما تمّ في وزارة ابن الفرات الثانية أي التي وزر فيها للعزيز بالله الفاطمي بين سنتي ٣٨٣ ــ ٣٨٤هـ/ ٩٩٣ــ ٩٩٤م،. وفي تلك الآونة كان الفاطميون مهتمين بالتحرك نحو شمال بلاد الشام، والحرب مع بيزنطة، واستعادة الثغور السليبة، وبالتالي فإن طلب ابن الفرات من الطرسوسي وضع كتاب سير الثغور، قد يكون جاء في وقته، ولتلبية حاجة الخلافة الفاطمية العسكرية[١٢١].

ومع أن معظم المقتطفات والقطع ــ من كتاب سير الثغور ــ المحفوظة في الأجزاء الباقية من "بغية الطلب" لابن العديم، تخص مدينة طرسوس وحصونها فقط، لا يمكن القول إن الطرسوسي قد حصر كتابه على طرسوس فقط. فمن المرجح أنه ضمّنه الحديث عن ثغور أُخر، ولعل عنوان الكتاب "سير الثغور" حيث لم يخصصه على طرسوس، مما يؤكد ذلك. هذا ويمكن من خلال النصوص الباقية من هذا الكتاب، التعرّف إلى الموضوعات التي عالجها وخطة الكتاب، وهي:

ــ مقدمة[١٢٢].

ــ باب في فضائل الثغور وبخاصة طرسوس ومكانتها وفضل الجهاد والمرابطة فيها[١٢٣].

ــ باب في ذكر صفة طرسوس، ويتضمن الحديث عن بنائها، ووصف خططها، والأسوار والأبواب والخندق والأبراج والسكك والدور والحوانيت والمسجد الجامع والقبور والنقوش الكتابية والآثار فيها[١٢٤].

ــ باب في ذكر كيفية النفير بطرسوس، وكيف كان يجري أمره[١٢٥].

ــ باب في سقوط طرسوس والثغور بيد الروم[١٢٦].

ـ باب في ذكر حصون مذكورة مجاورة لطرسوس والمصيصة وأنطاكية كانت مضافة إلى هذه المدن، ومنها: مدينة اقليقية بين المصيصة وأذنة، ذكر حصن ثابت بن نصر بالمصيصة، ذكر حصن عجيف وأبرجته من حصون طرسوس، حصن شاكر قرب طرسوس، فصل في ذكر حصن الجوزات وهو على ثمانية فراسخ من طرسوس[١٢٧].

ـ باب في الثغور الأخرى: أذنة، المصيصة، أنطاكية[١٢٨].

ـ باب في تراجم الأعلام الذين برزوا في طرسوس سواء كانوا من أبنائها، أو من الذين عاشوا فيها أو زاروها، ويشمل الحديث عن المحدثين والقرّاء والفقهاء، وأئمة المسجد الجامع وخطبائه، والصالحين والزهاد والمرابطين والفرسان وغيرهم[١٢٩]، ويظهر أنه كان يترجم لهم أثناء الحديث عن دور طرسوس وسككها.

يلاحظ أن الطرسوسي عرض مادته وفقاً للمنهج الوصفي، من مثل قوله في وصف مدينة طرسوس: "مُدَّت طرسوس على سورين، في كل سور منها خمسة أبواب حديد، فأبواب السور المحيط بها حديد ملبس، وأبواب السور المتصل بالخندق حديد مصمت، فالسور الأول الذي يلي المدينة مُشَرَّف تعلوه ثمانية آلاف شرافه، فيها مرتبة عند الحاجة إلى الحرب عنها رجال يرمون عن ستة عشر ألف قوس رمية رجل واحد، وفي هذا السور من الأبراج مائة برج سواء، منها ثلاثة أبرجة للمجانيق الحرري، وعشرون برجاً للمجانيق الكبار، وعشرون برجاً للعرادات، وسائرها لقسي الرجل، وهذه الأبرجة التي ذكرناها فهي ملك لأربابها، ومساكين لمتأهلين وعُزَّاب، وبعضها مرسوم بعمل الورق والكاغد، وهو مما يلي زاوية الحباليين"[١٣٠].

كذلك وصف الطرسوسي كيفية النفير بطرسوس، وكيف كان يجري أمره، فقال: "يركب المتولي لعمل الحسبة أي وقت وقع النفير من ليل أو نهار، ورجالته بين يديه ينادون بأعلى أصواتهم أجمع، صوتاً واحداً، يقولون: النفير ياأصحاب الخيل والرجَّالة، النفير حملكم الله إلى باب الجهاد،.... وتغلق سائر أبواب المدينة، وتحصل مفاتيحها

عند صاحب الشرطة، فلا تزال مغلقة حتى يعود السلطان من النفير، ويستقر في داره، ثم تفتح الأبواب المغلقة كلَّها، ويطوف المحتسب ورجَّالته الشوارع الجداد كلها"[١٣١].

وتعود أهمية كتاب "سير الثغور" للطرسوسي، لمعاصرته كثيراً من الأحداث التي كتب عنها، وكونه شاهد عيان للأماكن التي وصفها، وكانت ملاحظاته ومشاهداته وسماعاته هي مصدره الأساس في تأليف كتابه. إذ لم يرد في الشذرات التي حفظها ابن العديم من هذا الكتاب ما يشير إلى اعتماده على مصادر خطية أو كتب أخر[١٣٢].

ويعد كتاب "سير الثغور" الكتاب الوحيد والفريد الذي أوقف للحديث عن الثغور، إذ انفرد بكثير من المعلومات المهمة والثمينة التي قدمها. لذلك كان من موارد ابن العديم الذي اعتمد عليه، فنقل عنه كثيراً من النصوص، ويظهر أنه أراد استيعاب جل مادته في كتابه، هذا ولو وجد غيره في موضوعه لكان نقل عنه ابن العديم. ولذلك فهو يعد وثيقة هامة ونادرة لكونه يؤرخ لمدن ثغور الشام، وخصوصاً مدينة طرسوس. وهو يقدم صورة نابضة بالحيوية عن واقعها من جوانبها المتعددة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والفكرية، كما يقدم كثيراً من التفاصيل لبعض الأحداث التأريخية التي مرت بها تلك المنطقة، ومما يزيد من أهمية كتاب "سير الثغور" ما تميز به صاحبه الذي كان ضابطاً[١٣٣].

٢- فضائل البلدان:

ويرز من صُوَرِ التاريخ المحلي، فن يمتدح بعض المدن والبلدان الشامية، ويروي الأحاديث الدينية حول قدسيتها، ويتحدث عن الصحابة الذين عاشوا وماتوا فيها، وقد عرف هذا التيار باسم فضائل البلدان[١٣٤]. فقد حظيت بعض المدن بعددٍ من المحدثين والكتّاب الذين تحدثوا عن فضائلها، ومن هذه المدن: دمشق التي تحدث عن فضائلها في القرن ٤هـ / ١٠م، محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن الجنيد أبو الحسين الرازي (ت، ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م)، وقد نقل عنه ابن عساكر مرات عديدة أخباراً

وروايات وأحاديث في فضائل دمشق[١٣٥]. وهذا يعني أنه ربما وضع كتاباً في فضائلها جمع فيه ما قيل في فضلها، وكان النواة الأساسية لسلسلة الكتب التي وضعت في فضائلها، رداً على ما تعرضت إليه من محن ونكبات في عصورها المختلفة[١٣٦]. واشتهر تمام بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن الجنيد الرازي (ت، ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م) مثل أبيه بحفظ كثير من الأحاديث والروايات في فضائل الشام ودمشق [١٣٧].

وصنف المحدث والحافظ الوليد بن حماد بن جابر أبو العباس الرملي الزيات (ت، قريباً من ٣٠٠هـ/ ٩١٢م) كتاباً في "فضائل بيت المقدس"[١٣٨].

٣- التاريخ الحولي:

إن كتب التاريخ الحولي هي الكتب التي تكتب وفقاً لتعاقب السنين، وفيها تعدد مختلف الحوادث التي تحدث في كل سنة على حدةٍ[١٣٩]. ومن الذين صنفوا وفقاً لهذا المنهج: أغابيوس (محبوب) بن قسطنطين المنبجي (القرن ٤ هـ/ ١٠م)، وهو من أبناء بلاد الشام، لا يعرف عن حياته شيء سوى أنه عاش ما بين النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، والنصف الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وكان معاصراً لسعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م[١٤٠]، وتوفي بعده بمدة قصيرة من الزمن[١٤١]، والظاهر أنه عرف بالمنبجي لأنه كان أسقفاً لمدينة منبج[١٤٢].

صنف المنبجي كتاباً في تاريخ العالم منذ بدء الخليقة حتى عصره، وهو يعد من أوائل الكتب التي صنفها أحد المسيحيين في بلاد الشام باللغة العربية[١٤٣]، وقد أرسله إلى رجل فاضل يقال له: عيسى بن الحسين[١٤٤]، وعن أهمية هذا الكتاب، قال المسعودي: "وأحسن كتاب رأيته للملكية في تاريخ الملوك والأنبياء والأمم والبلدان وغير ذلك، كتاب محبوب بن قسطنطين المنبجي"[١٤٥].

وقد تميز المنبجي بالمعالجة العلمية للأفكار، واستفادته التامة من أخبار الحوليات البيزنطية(١٤٦). وعن ذلك، قال روزنتال: "يتميز [تاريخ المنبجي] بمعالجة علمية للموضوع من حيث وصفه الجغرافي للعالم، واستفادته التامة من الأخبار التي نجدها في الحوليات البيزنطية، أي تاريخ بني إسرائيل الممتزج بالأساطير وبتاريخ الثقافة الإغريقية مع التواريخ السياسية الهللينية والرومانية والشرقية"(١٤٧).

وعلى الرغم من أن المنبجي أرخ في كتابه من بدء الخليقة حتى عصره، لكن ما وجد من كتابه يتوقف عند حوادث سنة ١٥٩هـ/ ٧٧٥م، وذلك بسبب التلف الذي أصاب النسخة المخطوطة عن الأصل، وضياع أوراق كثيرة منها، وخصوصاً من آخرها.

وقد حظي تاريخ المنبجي باهتمام الأب لويس شيخو الذي حققه، ونشره في جزأين ضمن مجلد واحد، وصدر عن مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت عام ١٩٠٧م، تحت عنوان: "كتاب العنوان المكلل بفضائل الحكمة، المتوج بأنواع الفلسفة، الممدوح بحقائق المعرفة"، وصدرت طبعة جديدة منقحة منه عام ١٩٦٢م بمدينة "لوفان" في بلجيكا تحت عنوان "تاريخ العالم" لأغابيوس أسقف منبج(١٤٨)، وأعاد عمر عبد السلام تدمري، تحقيق القسم الأخير منه الذي يتضمن أحداث التاريخ الإسلامي بدءاً من الهجرة النبوية الشريفة حتى مطلع عهد الخليفة العباسي المهدي سنة ١٥٩هـ/ ٧٨٥م، ونشره بعنوان "المنتخب من تاريخ المنبجي". ولهذا القسم من تاريخ المنبجي أهمية كبيرة، لأنه اعتمد في كتابته "أي كتابة تاريخ المسلمين" على الكتاب الذي صنفه العالم المنجم توفيل بن توما النصراني الرهاوي المتوفى في مطلع سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م(١٤٩)، وهو مؤرخ معاصر وشاهد عيان لسقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية. فقد ذكر المنبجي، وهو يؤرخ للحوادث في أيام مروان بن محمد (١٢٦-١٣٢هـ/ ٧٤٤ - ٧٥٠م) آخر الخلفاء الأمويين ما يلي: "قال توفيل المنجم الذي أخذنا عنه هذه الأخبار: إني لم أزل مشاهداً لهذه الحروب بنفسي، وكنت أكتب أشياء حتى لم يشذّ عني منها شيء"، وعلّق المنبجي على ذلك مضيفاً: "وله في ذلك كتب

كثيرة، إلا أنّا اختصرنا منها هذا الكتاب، وألحقنا فيه ما علمنا أنّ لا غناء عنه فيه، وتجنبنا التطويل جهدنا"(١٥٠).

وعرض المنبجي مادته وفقاً للنظم أو الفن الحولي حسب تسلسل السنين، وبلغ من أهمية كتابه هذا أنه كان من المصادر التي قرأها ابن شداد، وأخذ عنها(١٥١).

وصنف وفقاً للتاريخ الحولي أيضاً: عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغاني الأمير القائد الجندي (ت، بمصر سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م)، وهو في أصله من فرغانة(١٥٢)، كان جده قد جُلب منها إلى الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤٢م) (١٥٣). ولد عبد الله في بغداد، وعاش حياته ما بين بغداد والشام ومصر التي توفي فيها، ومع أنه ليس شامياً في أصله، لكن ترجمة ابن عساكر له، وقد تحدث عن قدومه إلى دمشق، وروايته الحديث فيها، هي التي دفعت لذكره، فقد وصفه بأنه: محدث ثقة، كان صاحباً لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، وحدث عنه، وقدم دمشق، فحدث بها سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م. وهذا مما أسهم في تكوين الفكر التاريخي بدمشق، إذ درس عليه، وروى عنه عدد من أبرز العاملين في ميدان التاريخ، أمثال: تمام بن محمد الرازي وأبو سليمان بن زبر وغيرهما، وقد صنف كتاباً في التاريخ ذيّل به على تاريخ الطبري(١٥٤)، سماه كتاب "الصلة"(١٥٥)، وقيل "الصلة في ذيل تاريخ الطبري"(١٥٦)، ويظهر أنه فيه أرخ لأحوال العالم العربي الإسلامي في عصره، غير أنه لم يبقَ من هذا الكتاب إلا قطعة تتضمن خبراً عن موقعة في عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥- ٣٢٠هـ/ ٩٠٧- ٩٣٢م)(١٥٧). هذا وقد كان كتاب الفرغاني من مصادر ابن العديم في "بغية الطلب"، فقد نقل عنه مرتين في المجلدات الباقية من "البغية"، مرة عن حوادث سنة ٣٥١هـ/ ٩٦٢م، وأخرى عن حوادث سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م(١٥٨). ويظهر أنه قد رتب كتابه وفقاً للنهج الحولي الذي سار عليه الطبري، ولا يعرف في أية سنة بدأ تاريخه، ولا في أية سنة أنهاه. هذا وترجح الدراسات أنه وصل به إلى حوالي سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م، وهي سنة وفاته. وتأتي أهمية هذا التاريخ كون مؤلفه

كان معاصراً لكثير من الوقائع التي أرخ لها[١٥٩]، فجاء غنياً بالتفاصيل، ولذلك حاز ثناء المؤرخين الذين ذكروه أو نقلوا عنه[١٦٠].

وصنف علي بن محمد العدوي الشمشاطي أبو الحسن (ت، بعد ٣٩٤هـ / ١٠٠٣م) بعض المؤلفات التأريخية وفقاً للتاريخ الحولي، وهو شاعر ومصنف وراوية أخبار، أصله من شمشاط في بلاد أرمينية من الثغور، كان يعلم أبا تغلب بن ناصر الدولة الحمداني وأخاه، ثم نادمهما[١٦١]. وكان على صلة وثيقة بسيف الدولة الحمداني، فتولى جمع مختارات الأشعار التي قيلت في مدحه، وذلك بالتعاون مع أبي محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب[١٦٢]. ويظهر أن الشمشاطي انتقل بعد وفاة سيف الدولة إلى العراق، فسكن بغداد، ودخل واسط في سنة ٣٩٤ هـ/ ١٠٠٣م[١٦٣]، وبذلك تكون وفاته بعد هذا التاريخ الأخير.

كان الشمشاطي شاعراً مجيداً[١٦٤]، ومصنفاً مؤلفاً، واسع الرواية، ومن مصنفاته الأدبية: «كتاب الأنوار ومحاسن الأشعار»، و«كتاب أخبار أبي تمام والمختار من شعره»، و«كتاب القلم»، و«كتاب التنزه والابتهاج»[١٦٥]، وغيرها. أما في الميدان التاريخي، فقد اختصر تاريخ الطبري[١٦٦]، وحذف أسانيده، وزاد عليه من سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م إلى أيامه. كذلك تممّ كتاب تاريخ الموصل لأبي زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم الأزدي المتوفى سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، وكان فيه إلى سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م، فعمل فيه من سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م إلى وقته، فدخلت فيه زيادة كبيرة[١٦٧].

٤ – الطبقات والتراجم:

وصنفت بعض الكتابات التأريخية الشامية وفقاً للطبقات والتراجم. ويعد هذا التصنيف ابتكاراً إسلامياً صرفاً، ويتوقف المعيار الأساسي لاختيار الترجمة على الإسهام الفردي الذي يقوم به صاحبها في الثقافة العربية الإسلامية. وقد تعددت معاجم التراجم

والطبقات تبعاً لاهتمامات المؤرخين، وهكذا فإن المؤرخين من رجال الدين جمعوا تراجم المحدثين والفقهاء والقرّاء والمفسرين. وجمع رجال الأدب معاجم الشعراء والأدباء، وجمع الكتّاب معاجم للوزراء والكتّاب والعلماء، أما الفلاسفة، فجمعوا معاجم خاصة بهم(١٦٨).

وتجدر الإشارة إلى أن تقسيم الطبقات يقوم على أساس التعاقب الزمني، بحيث جعلت مدة الطبقة الواحدة عشرين سنة أو عشر سنوات(١٦٩)، ومن الذين صنفوا وفقاً للطبقات: الحسين بن محمد أبو عروبة الجزري الحراني (ت، ٣١٨هـ/ ٩٣٠م)، وله "كتاب الطبقات"(١٧٠)، وقد كان من المصادر التي اعتمد عليها ابن عساكر(١٧١)، ولأبي عروبة أيضاً: "المنتقى من كتاب الطبقات"، و"كتاب الأوائل"(١٧٢).

وتتميز كتب التراجم عن كتب الطبقات بأنها غالباً ما ترتب فيها التراجم تبعاً لحروف الهجاء، ومن الذين صنفوا طبقاً للتراجم: عبد الوهاب بن الحسن بن الوليد أبو الحسين الكلابي المعروف بأخي تبوك العدل (ت، ٣٩٦هـ / ١٠٠٥م)، وهو من أعلام المحدثين في دمشق(١٧٣)، أرخ أسماء شيوخه في كتاب صنفه بعنوان "تسمية شيوخه الذين سمع منهم"، وقد شكّل هذا الكتاب مصدراً من المصادر التي نقل عنها ابن عساكر(١٧٤).

٥- السير والأنساب:

وأفردت بعض الكتابات التأريخية الشامية للسير. والفرق بين السيرة والترجمة يعود للاختلاف في الطول. فالترجمة تكون موجزة، وإذا ما توسع المؤلف في حديثه عن المُترجم له، وطوّل ترجمته، صارت هذه الترجمة تسمى سيرة. وأول ما استعملت كلمة سيرة، كانت للإشارة إلى سيرة الرسول ﷺ(١٧٥). وأبرز من صنف في السير عبد الله بن أحمد بن ربيعة بن سليمان بن زبر أبو محمد الربعي (ت، بمصر سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م): أصله من بغداد، تولى قضاء دمشق من سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٢م إلى سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م، وتولى قضاء مصر مرات عديدة، وفيها توفي. كان قد سمع عدداً كبيراً من المحدثين،

وروى عنه العديد من المحدثين، وأبرزهم: ابنه أبو سليمان بن زبر، وأبو الحسن الدارقطني[١٧٦]، وقد ذكره أبو الحسين الرازي في تسمية من كتب عنه بدمشق في الدفعة الثانية، ووصفه بأنه من "أهل بيت العلم"[١٧٧]، وهذا وتشير المصادر إلى أنه قد صنف كتباً في الحديث، وكان عارفاً بالأخبار والكتب والسير في الدولتين، ومن مصنفاته: "كتاب سيرة الدولتين"[١٧٨] (أي الدولة الأموية والدولة العباسية)، و"الشروط العمرية"[١٧٩]، و"أخبار الأصمعي"، و"كتاب تشريف الغنى على الفقر"[١٨٠].

وجمع علي بن الحسين الديلمي الزراد أبو الحسن (القرن ٤هـ/ ١٠م) تاريخ سيف الدولة الحمداني وأخباره في كتاب صنفه بعنوان "سيرة سيف الدولة". ويلاحظ من خلال النتف التي بقيت من هذه السيرة، والتي حفظها ابن العديم، أنه قد تفرد بذكر بعض الأخبار والتفاصيل التي قد لا توجد عند غيره[١٨١].

ومن الذين صنفوا في السير أيضاً: أحمد بن علي بن أبي أسامة الحلبي (القرن ٤ هـ/ ١٠م): وهو من أسرة بني أبي أسامة في حلب، التي خرّجت جماعة من أهل العلم والأدب والحديث والخطابة. فقد كان ابنه أبو أسامة عبد الله بن أحمد بن علي معاصراً لأبي عمرو عثمان بن عبد الطرسوسي، وقد روى عن أحمد بن هارون بن محمد بن الحسن الزباب الحلبي المتوفى ٣٨١هـ / ٩٩١ م، وكان حفيده حيدرة بن الحسن بن أحمد بن علي بن عبيد الله ابن أبي أسامة (ت، ٤٩٠هـ أو بعدها/ ١٠٩٧م) خطيباً بليغاً[١٨٢]. صنف أحمد بن علي كتاباً في التاريخ بعنوان "معرفة شرف الملوك"، وهو بحكم المفقود، ولكن يمكن التعرف إلى محتواه من خلال ابن العديم الذي قرأه، ونقل عنه خبراً يتعلق بأيام سيف الدولة الحمداني أواسط القرن ٤هـ/ ١٠م[١٨٣]. ولمّا أنه لم يعرف أي نص آخر مقتبس من هذا الكتاب، لذلك لا يعرف سيرة أي من الملوك احتوى عليها.

وصنفت بعض الكتابات التأريخية الشامية وفقاً للأنساب، وهي تهتم بدراسة تسلسل نسب الأفراد أو الأسر أو القبائل، ومن الذين صنفوا وفقاً لهذا الاتجاه: علي بن محمد العدوي الشمشاطي أبو الحسن الشاعر (ت، بعد ٣٩٤ هـ / ١٠٠٣م) الذي صنف كتاباً في الأنساب بعنوان " كتاب نسب ولد معد بن عدنان ولمع من أخبارهم وأيامهم"[١٨٤].

وصنف وفقاً للأنساب صالح بن جعفر بن عبد الوهاب بن أحمد الصالحي أبو طاهر الهاشمي (ت، ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م)، وهو من أعيان حلب المشهورين بالأدب والدين، كان فاضلاً، تولى قضاء حلب في أيام سعيد الدولة الحمداني[١٨٥] أو بعدها. كان قد تأدب على ابن خالويه، وروى عنه. كما زار دمشق، وسمع من محدثيها، صنف كتاب "الحنين إلى الأوطان[١٨٦]"، وكتاب "الصبر والعزاء"[١٨٧]، وصنف أيضاً كتاباً أو جزءاً يتضمن "نسب بني صالح بن علي"[١٨٨]، وقد استفاد ابن العديم من هذا الكتاب، في أثناء ترجمته لأعيان بني صالح بن علي الذين ينتهي نسبهم إلى بني العباس، ممن اجتازوا حلب أو أقاموا فيها[١٨٩]، هذا وبحكم أن هذا الكتاب مفقود لا يعرف إن كان جزءاً من "كتاب الحنين إلى الأوطان" أم كتاباً مستقلاً[١٩٠].

وبرز في الأنساب محمد بن علي بن الحسين بن أحمد أبو الحسين العلوي المعروف بأخي محسن، وعرف أيضاً بالشريف العابد (ت، ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م)، وكان زاهداً صالحاً متعبداً منقطعاً في بيته بدمشق، وصنف تصانيف[١٩١]، قال عنه الدواداري: "كان سيداً فاضلاً عالماً محققاً لأنساب أهل بيته"، وضع كتاباً "في ذكر الخلفاء الفاطميين"[١٩٢]، وفيه شكك في نسبهم، وطعن فيه، وكان هذا الكتاب من المصادر التي اعتمد عليها كل من النويري[١٩٣]، والدواداري[١٩٤]، والمقريزي[١٩٥].

٦- كتب الوفيات:

كانت كتب الوفيات من فنون الكتابة التأريخية في بلاد الشام، وتعود فكرة تصنيف هذه الكتب إلى علماء الحديث الذين كانوا مهتمين برواية الأحاديث والآثار، ولذلك صنفوا المؤلفات التي تضمن الصحة والسلامة في كل ما ينقل، وكان من هذه المؤلفات، كتب الوفيات، وذلك نظراً لما لها من أهمية كبيرة في الجرح والتعديل(١٩٦)، ومعرفة الاتصال والانقطاع في الأسانيد، ونقد الروايات الضعيفة، وفضح الكذابين(١٩٧)، وقد صنف في الوفيات: محمد بن عبد الله بن أحمد بن ربيعة بن سليمان بن زبر أبي سليمان الربعي الدمشقي (ت، ٣٧٩هـ / ٩٨٩م): وهو ابن القاضي أبو محمد بن زبر الربعي(١٩٨)، ولد بالرقة سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م(١٩٩)، نشأ نشأة علمية دينية، وقد وفرت له مكانة أبيه الاجتماعية. سهولة الالتقاء بمن يريد من العلماء والمحدثين، والأخذ عنهم، وقد بلغ عدد الشيوخ الذين روى عنهم ستة وأربعين شيخاً، أبرزهم: محمد بن الفيض بن محمد الغساني، ومحمد بن يوسف بن بشر الهروي، ومكحول البيروتي، وجماهير بن محمد الزملكاني، وعبد الله بن محمد البغوي البغدادي، وأحمد بن عمير بن جوصاء، وعلي بن محمد النخعي المعروف بابن كاس.

رحل أبو سليمان الربعي في طلب الحديث، فكان من الأماكن التي زارها مصر، ومكة المكرمة، وقد زارها لأداء فريضة الحج، والأخذ عن شيوخها، والشيوخ الذين يفدون إليها في موسم الحج. كما زار بغداد، وأخذ عن بعض علمائها، واستقر بعدئذ في دمشق، وصار يدرس الحديث، ويملي في المسجد الجامع. فكان من تلامذته تسعة عشر محدثاً، أبرزهم: تمام بن محمد الرازي، وعبد الرحمن بن أبي نصر وابناه أحمد ومحمد، وعبد الوهاب الميداني(٢٠٠).

كان أبو سليمان الربعي موضع ثقة العلماء وثنائهم، قال عنه الكتاني: "كان ثقة نبيلاً مأموناً"(٢٠١)، ووصفه ابن عساكر بالحافظ(٢٠٢)، وقال عنه الذهبي: "الشيخ العالم الحافظ... محدث دمشق"(٢٠٣).

ولم يقتصر أبو سليمان على تدريس الحديث، بل صنف مصنفات مهمة، حازت إعجاب العلماء وثناءَهم(٢٠٤)، ومن هذه المصنفات: "كتاب الوفيات على السنين"(٢٠٥)، المنشور باسم "تاريخ مولد العلماء ووفياتهم"(٢٠٦)، وهو يعد أول كتاب وصل في الوفيات(٢٠٧)، ومن مصادر الوفيات المبكرة، وقد شكّل الأساس لكتب الذيل التي ذيّلت عليه من قبل الكتاني(٢٠٨) وابن الأكفاني"(٢٠٩)، ويمكن إدراك مدى أهمية هذا الكتاب، من خلال اعتماد الكثير من المصادر عليه لا سيما الخطيب البغدادي، وقد نقل عنه أكثر من ست عشرة مرة، ونقل عنه ابن عساكر في تاريخ دمشق أربعمئة وثلاثاً وعشرين مرة، هذا وكان من المصادر التي اعتمدها ابن خلكان في "وفيات الأعيان"، و"الذهبي في تاريخ الإسلام"، و"سير أعلام النبلاء"، و"ابن كثير في البداية والنهاية" وغيرهم(٢١٠).

رتّبَ أبو سليمان بن زبر الربعي كتابه على السنين، فابتدأ من السنة الأولى للهجرة/ ٦٢٢م، وانتهى إلى سنة ٣٥٧ هـ/ ٩٦٧م. غير أن ما يخص السنوات بعد ٣٣٨ هـ/ ٩٤٩م، بقي بعضها مسودة، ولم يبيِضها ابن زبر في حياته بسبب انشغاله في تدريس الحديث، ولذلك لما صنف الكتاني كتاب الذيل، بدأ من سنة ٣٣٨هـ/ ٩٤٩م(٢١١). ويظهر من خلال الكتاب أن ابن زبر، كان ذا اطلاع واسع في التاريخ الإسلامي، ودقيقاً في تسجيل معلوماته، وقد عرض مادته باختصار، وتطرق في ثنايا كتابه لكثير من الأمور التأريخية المهمة.

ولابن زبر كتب أخر، هي: "كتاب معرفة الصحابة"(٢١٢)، و"أخبار ابن أبي ذئب"(٢١٣)، و"كتاب وصايا العلماء عند حضور الموت"، رواه عنه تلميذه أحمد بن عبد الرحمن بن

عثمان بن أبي نصر (ت، ٤٤١ هـ / ١٠٤٩م)، وكان قد قرأه على أستاذه ابن زبر في سنة ٣٧٢ هـ/ ٩٨٢م(٢١٤).

٧- بقية المؤرخين:

هناك العديد من المؤرخين والمهتمين بالكتابة التأريخية الذين صنفوا مصنفات تاريخية مهمة، غير أن عدم توافر معظمها، لم يمكن من التعرف على المنهج الذي كتبت وفقه، ومن هؤلاء المؤرخين:

ـ محمد بن العباس بن محمد بن الحسن الكناني الدمشقي أبو الحسن (القرن ٤هـ/١٠م): صنف كتاب "التاريخ المجدد"، وقد نقل عنه ابن العديم في ترجمة أبي القاسم الأفطسي أحمد بن الحسين بن علي بن محمد العلوي الشريف الشاعر بحلب أيام سيف الدولة، وقد كانت بين الكناني الدمشقي والشريف الشاعر هذا مودة كبيرة، وصداقة متينة(٢١٥).

ـ أبو الحسن الحلبي (القرن ٤ هـ / ١٠م): عاصر سيف الدولة الحمداني، حكى عن السري الرفاء، روى عنه أبو الحسن محمد بن علي بن نصر الكاتب، وصف بأنه كان شيخاً عارفاً بأخبار سيف الدولة، ومن طريقه نقل ابن العديم أخباراً(٢١٦).

ـ طلحة بن عبدالله بن قنّاش أبو جعفر (القرن، ٤هـ/١٠م): كان من ندماء سيف الدولة الحمداني، صنف كتاباً بعنوان "كتاب القضاة"(٢١٧).

ـ محمد بن يوسف بن يعقوب الرقي أبو بكر وقيل أبو عبد الله (ت، ٣٨٢ هـ / ٩٩٢م): محدث جوّال من أبناء الرقة، سمع بالشام ومكة وبغداد وواسط، وصف بالمؤرخ دون أن يرد في مصادر ترجمته أسماء مصنفات صنفها(٢١٨).

٨- الأخباريون:

وهناك بعض الأدباء والمحدثين ممن برزوا في التاريخ، واشتهروا برواية الأخبار، فوصفوا بالمؤرخين أو الأخباريين(٢١٩)، دون أن يرد في المصادر عناوين المصنفات

التي صنفوها، هذا وقد كان الأخباريون بحكم ثقافتهم الشعبية الواسعة، وحفظهم للأخبار والروايات والنوادر التي تخص ماضي العرب والأقوام الأخرى، محط إعجاب بعض رجال السلطة الذين حرصوا على اتخاذهم بطانة وسماراً لهم للاستمتاع بأحاديثهم، فلما نزل الخليفة المتقي الرقة سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م، اتخذ من أبنائها رجلاً أخبارياً يحفظ أيام الناس، فكان يستأنس به في خلواته وأوقات همه، ويسمع لما يحدثه به هو وغلامه من أخبار وحكايات وأشعار، وقد بلغ من إعجاب المتقي بما رواه هذا الأخباري وغلامه، أن أمر بتدوين بعضه وتثبيته(٢٢٠)، وكان من الأخباريين: يموت بن المزرع بن يموت العبدي الأديب (ت، ٣٠٣ أو٣٠٤هـ/ ٩١٥-٩١٦م): قيل اسمه محمد، أصله من العراق، قدم الشام في أواخر عمره، فحدث في دمشق وصيدا، وسكن طبرية، وتوفي فيها، وقيل توفي بدمشق، كان أديباً أخبارياً وصاحب ملح وآداب(٢٢١). ووصف أحمد بن سعيد بن عبد الله الدمشقي (ت، ٣٠٦هـ/٩١٨م) بـ «النحوي الأخباري»(٢٢٢).

ومن الأخباريين: الحسن بن القاسم بن عبد الرحمن دحيم بن إبراهيم أبو علي القاضي (ت، بمصر سنة ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م)، وهو محدث ثقة، من أبناء دمشق، حدث بمصر، وكان أخبارياً، وكانت الأخبار تغلب عليه، وله مصنفات فيها(٢٢٣).

وتميز المحدث محمد بن القاسم بن معروف التميمي الدمشقي (ت، ٣٤٧ هـ/ ٩٥٨م) بأنه كان صاحب دنيا، ويحب أهل الحديث، وصنف كتباً كثيرة من الأخبار والحكايات والنوادر(٢٢٤)، ولكن لم يبق من مصنفاته إلا " الفوائد"(٢٢٥). كذلك وصف المحدث محمد بن أحمد بن طالب أبو الحسن البغدادي (نزيل الشام، ت، بعد ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م) بأنه كان أخبارياً(٢٢٦). وكان محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر الذهلي البغدادي (ت، بمصر ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م) ــ قاضي دمشق ــ فقيهاً ومفسراً وأديباً وأخبارياً عارفاً بأيام الناس(٢٢٧).

ـ خاتمة:

من خلال ما تقدم يلاحظ كثرة المشتغلين والمهتمين بالدراسات التأريخية في بلاد الشام في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وازدياد نشاطهم، ووفرة مؤلفاتهم، حيث قدموا أعمالاً مهمة، وقد أتاحت هذه الدراسات المبكرة لعلم التاريخ العربي – الإسلامي أن يساهم مساهمة إيجابية في بناء صرح الحضارة العربية الإسلامية، وحفظ تراث الأمة وأمجادها.

هذا وقد كان معظم الذين عنوا بالتأريخ وتدوينه والتأليف فيه من الملمين بعلوم أخرى وخصوصاً العلوم الدينية، وقد جاءت مؤلفاتهم التأريخية في إطار فنون تاريخية مختلفة أمثال: التاريخ المحلي وكتب البلدان والفضائل، والتأريخ الحولي، والتراجم والطبقات، والسير والأنساب، والوفيات، وكذلك كان هناك الأخباريون، على أن أبرز الفنون التي صنفوا فيها تمثل في التاريخ المحلي وكتب البلدان وفضائلها التي تتحدث عن مدن بلاد الشام وفضائلها والأعلام الذين برزوا فيها.

وبينما وصلت بعض الكتابات التأريخية للمؤرخين الذين برزوا في هذا القرن مباشرة، وهي ذات أهمية كبيرة؛ لأنها من المصادر الأساسية، ولما تقدمه من معلومات قيّمة – بشكل خاص – عن تاريخ بلاد الشام وعلمائها، فقدت كثير من هذه المؤلفات، ولم تصل مباشرة، غير أنها كانت من موارد المؤرخين في القرون التالية، حيث اعتمدوا عليها، وحفظوا الكثير مما احتوته في مؤلفاتهم التأريخية، ويبرز هذا بشكل خاص لدى المؤرخين الشاميين الذي أرخوا لبلاد الشام ومدنها وأمرائها وعلمائها وشيوخها وشعرائها وأدبائها، ويلاحظ هذا بشكل كبير لدى أهم مؤرخي بلاد الشام، وهما ابن عساكر الدمشقي(ت، ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، وابن العديم الحلبي(ت، ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م)، حيث كانت مؤلفات المؤرخين في هذا القرن من الموارد الأساسية التي اعتمد عليها هذان المؤرخان في كتابتهما، وخصوصاً "تاريخ مدينة دمشق" لابن

عساكر، و"بغية الطلب في تاريخ حلب" لابن العديم، حيث شكلت المادة التي قدمها مؤرخو القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي في مؤلفاتهم التأريخية لبنات أساسية اعتمد عليها هذان المؤرخان في بناء كتابيهما السالفي الذكر.

هذا ويظهر من خلال بعض الكتابات التأريخية التي وصلتنا مباشرة، أن مؤلفيها دونوها بعبارات سهلة لا حشو فيها، ولا زخارف لفظية، وجاءت المادة التي قدموها– بشكل عام – مختصرة، أمثال: "تاريخ الرقة" للقشيري، و"تاريخ داريا" للخولاني، وكتاب "تاريخ مولد العلماء ووفياتهم" لابن زبر الربعي، وغيرها، ولكن مع ذلك، فإن لهذه المادة قيمتها التي لا تقدر، نظراً لأن مؤلفي هذه المصادر، كانوا معاصرين لكثير من الأحداث التي أرخوا لها، ولأن مؤلفاتهم من الأصول التي اعتمدت عليها المصادر في العصور التالية.

أما عن مصادر هؤلاء المؤرخين، فيلاحظ أن بعضهم اهتم بالرواية عمن عاصر الأحداث، واستعمل بعضهم مناهج البحث عند أهل الحديث في عرض الروايات، إذ اهتم بإيراد الإسناد. أما الأحداث التي عاصروها، فقد اعتمدوا في تدوينها على الاطلاع الشخصي والمشاهدة العيانية، وذلك إضافة إلى جمع الشهادات الشفوية من الشهود والمعاصرين.

ومن الأهمية الإشارة إلى أن للمؤلفات التأريخية التي وضعها مؤرخو بلاد الشام في القرن ٤ هـ/ ١٠م، أهمية كبيرة في رصد أوجه الحياة في ذلك القرن، في المجالات المختلفة: السياسية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية، وذلك في بلاد الشام خاصة، وبلاد الإسلام عامة.

الحواشي

(١) الإصطخري، إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي، (ت، ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، **المسالك والممالك**، تحقيق: محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة: محمد شفيق غربال، الجمهورية العربية المتحدة، دار القلم، ١٣٨١هـ – ١٩٦١م، ص٤٣؛ ابن حوقل، محمد بن علي بن حوقل النصيبي (ت، نحو ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)، **صورة الأرض**، ليدن، مطبعة بريل، ط٢، ١٩٣٨م، قسم١، ص١٦٥.

(٢) الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت، ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، **معجم البلدان**، بيروت، دار صادر، ط٢، ١٩٩٥م،، مج٣، ص٣١٢.

(٣) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت، ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ**، عني بنشره: القدسي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، ص٦-٧.

(٤) حاطوم، نور الدين، وآخرون، المدخل إلى التاريخ، "**في التاريخ والمؤرخين منذ القديم حتى اليوم**"، دمشق، مطبعة الإنشاء، ١٣٨٤هـ– ١٩٦٥م، ص٩٥.

(٥) ابن خلدون، عبد الرحمن (ت، ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، **مقدمة ابن خلدون**، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠٢م، ص٢١.

(٦) المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت، ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق: شارل بلا، بيروت، انتشارات الشريف الرضى، ط١، ١٤٢٢هـ، ج٢، ص٢٠٨، ٢٦٤، ٤٠٦؛ النديم، محمد بن إسحاق (ت، ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)، **الفهرست**، ضبطه وشرحه وعلّق عليه وقدّم له: يوسف علي طويل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠٢م، ص١٤٣ .

(٧) النديم، المصدر نفسه، ص١٤٣ .

(٨) كان من أوائل المفسرين: سعيد بن جبير (ت، ٩٥هـ/ ٧١٣)، ومجاهد المكي (ت، ١٠٤هـ/ ٧٢٢م)، والضحاك ابن مزاحم الهلالي (ت، ١٠٥هـ/ ٧٢٣م)، وعطية بن سعد الصوفي (ت، ١١١هـ/ ٧٢٩م)، وقتادة بن دعامة السدوسي (ت،

١١٨هـ/ ٧٣٦م)؛ سزكين، فؤاد، **تاريخ التراث العربي**، نقله إلى العربية: محمود فهمي حجازي، فهمي أبو الفضل، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م، مج١، ص٣٨-٤١؛ الخطيب، **نشأت، التاريخ والمؤرخون العرب** "تصور ومنهج"، بيروت، شركة النعمات التجارية، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، ص ١٠٨.

(٩) عروة بن الزبير بن العوام أبو عبد الله الأسدي القرشي (ت، ٩٤ أو ٩٩هـ / ٧١٣ أو ٧١٨م): كان أحد الفقهاء السبعة من أهل المدينة، تميز بسعة علمه ورواية الأشعار، وفد إلى الشام على معاوية، وعلى عبد الملك بن مروان، وعلى الوليد بن عبد الملك؛ ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت، ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، **تاريخ مدينة دمشق** وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م، ج٤٠، ٢٣٧-٢٨٦.

(١٠) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري: أحد الأعلام من أئمة المسلمين، كان من أهل المدينة، قدم دمشق غير مرة، فحدث بها، فأخذ عنه العديد من رجال العلم، وكان قدومه إلى الشام سنة ٨٢هـ/ ٧١٠م في عهد عبد الملك بن مروان، فلزمه، ولمّا توفي، لزم الخلفاء الأمويين بعده حتى توفي سنة ١٢٤هـ/ ٧٤١م في عهد هشام بن عبد الملك، كان الزهري كثير الحديث والعلم والرواية، وهو يعد أول من دوّن العلم وكتبه؛ ابن عساكر، تاريخ، ج٥٥، ص٢٩٤-٣٨٧.

(١١) الخطيب، **التاريخ والمؤرخون العرب**، ص ١٠٨-١٠٩.

(١٢) كان قد بدأ العمل بالتأريخ وفقاً للتقويم الهجري الإسلامي في أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان ذلك في سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م، أو ١٨هـ/ ٦٣٩م؛ المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت، ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، **التنبيه والإشراف**، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٩٣م، ص٢٩٠.

(١٣) الخطيب، **التاريخ والمؤرخون العرب**، ص١١٢؛ الدوري، عبد العزيز، نشأة علم التاريخ عند العرب، الإمارات العربية المتحدة، مركز زايد للتراث والتاريخ، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م، ص ٢٣- ٢٥، ٣٧-٣٨.

(١٤) الدوري، المرجع نفسه، ص٢٢.

(١٥) عبادة بن الصامت بن قيس بن الخزرج أبو الوليد الأنصاري: صاحب رسول الله ﷺ، أحد الاثني عشر نقيباً ليلة العقبة، شهد بدراً وأُحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وروى عن النبي ﷺ، وشارك في فتوح حمص، وسكن الشام، وتولى قضاء فلسطين، توفي سنة ٣٤هـ/ ٦٥٤م؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٢٦، ص١٧٥-٢٠٨.

(١٦) أبو أمامة الباهلي، صدّي بن عجلان بن عمرو: صحب رسول الله ﷺ، وروى عنه، وعن عمر بن الخطاب، وأبي عبيدة بن الجراح، وأبي الدرداء، ومعاذ بن جبل، سكن حمص، وقدم دمشق، وزار بيت المقدس، توفي ٨٦هـ/ ٧٠٥م؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٢٤، ص٥٠-٧٦.

(١٧) مصطفى، شاكر، **التاريخ العربي والمؤرخون**، بيروت، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨٣م، ج١، ص١١٩-١٢٢؛ كان من التابعين وتابعيهم الذين اشتهروا برواية الأخبار التأريخية: أبو عثمان الصنعاني شراحيل بن مرثد الذي شارك في فتوح الشام، وروى بعض أحداثها؛ ابن عساكر، تاريخ، ج٢٢، ص٤٤٧-٤٥١. عبد الرحمن بن غنم الأشعري (ت، ٧٨هـ/ ٦٩٧م)؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٣٥، ص٣١١-٣٢٢. وجبير بن نفير الحضرمي (ت،٨٠هـ/ ٦٩٩م)، وابنه عبد الرحمن بن جبير(ت، ١١٨هـ/ ٧٣٦م)، ورجاء بن حيوة (ت، ١١٢هـ/ ٧٣٠م)؛ ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري (ت، ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، **الطبقات الكبرى**، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، ج٧، ص٣٠٦، ٣١٦-٣١٧؛ مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج١، ص١٢١-١٢٢.

(١٨) الأوزاعي، أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو (ت، ١٥٧هـ/ ٧٧٣م): إمام أهل الشام في الحديث والفقه، عاش بين دمشق وبيروت، كان عارفاً بأنساب أهل الشام في الحديث والفقه، صنف كتباً مبوبة في السنن، تعد من أوائل الكتب الفقهية المصنفة، ومنها: "**كتاب السنن في الفقه**"، و"**كتاب المسائل في الفقه**"؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج٧، ص٣٣٩؛ النديم، **الفهرست**، ص٣٧٦؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٣٥، ص١٤٧ -٢٢٩.

(١٩) أبو إسحق الفزاري، إبراهيم بن محمد بن الحارث (ت، ١٨٦ أو ١٨٨هـ/ ٨٠٢ أو ٨٠٤م): من فقهاء الكوفة، أحد أئمة المسلمين وأعلام الدين، كان كثير الحديث وصاحب سنّة، وصنف في السير، قدم دمشق وحدث بها، ودخل المصيصة، فرابط فيها، وأدب أهلها، وعلّمهم السُنّة حتى توفي؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٧، ص١١٩-١٣٣؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت، ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م، ج٨، ص٥٣٩- ٥٤٣.

(٢٠) الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقي (ت، ١٩٥هـ/ ٨١٠م): من أعلام المحدثين بدمشق، اشتهر بحلقاته العلمية التي درّس فيها الحديث والفقه، وكان معتنياً بالتأليف والتصنيف، إذ بلغت مصنفاته سبعين كتاباً؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج٧، ص٣٢٦-٣٢٧؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٦٣، ص ٢٧٤-٢٩٥.

(٢١) أبو مسهر الدمشقي، عبد الأعلى بن مسهر الغساني (ت، ٢١٨هـ/ ٨٣٣م): من أهل دمشق، شيخ الشام في وقته وإمامها بالحفظ والإتقان، اشتهر بحلقاته العلمية، وكان من المعتنين بأنساب أهل بلده وأبنائهم، وعارفاً بالمغازي وأيام الناس؛ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج٧، ص٣٢٨؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٣٣، ص ٤٢١- ٤٣٣.

(٢٢) المسعودي، **مروج الذهب**، ج١، ص١٤- ١٥؛ مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، ج١، ص١٣٢.

(٢٣) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص٣٣٦- ٣٣٧؛ مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، ج١، ص١٣٢.

(٢٤) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٥٣، ص٢٨٨؛ الذهبي، سير، ج١١، ص١٠٦؛ المنجد، صلاح الدين، **معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة**، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط١، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م، ص٩.

(٢٥) الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت، ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، **العبر في خبر من غبر**، تحقيق: صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد، الكويت، وزارة الإعلام، ط٢، ١٩٨٤م، ج١، ص٤١٧؛ مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، ج١، ص١٣١.

(٢٦) الذهبي، سير، ج١٣، ص٣١١- ٣١٤؛ المنجد، **معجم المؤرخين**، ص١٢- ١٣؛ هذا وقد حقق كتاب التاريخ لأبي زرعة الدمشقي من قبل شكر الله القوجاني، ونشره المجمع العلمي العربي بدمشق.

(٢٧) مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، ج١، ص ١١٩، ١٣٤.

(٢٨) الأرمنازي، غيث بن علي بن عبد السلام الصوري (ت، ٥٠٩هـ/ ١١١٥م)، **المجموع من المنتخب المنثور في أخبار الشيوخ من تاريخ دمشق وصور**، براوية مؤرخ دمشق الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت، ٥٧١ هـ / ١١٧٥م)، جمعه واعتنى به: عمر عبد السلام تدمري، صيدا ـ بيروت، المكتبة العصرية، ط ١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م، ص١٨١؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٣٨، ص٤١٨ـ ٤٢٠؛ الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت، ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، **معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م، مج٣، ص٤٨٧ـ ٤٨٨؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت، ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م، [ح. و] ٤٠١ـ ٤٢٠هـ، ص ٤٥؛ ابن منظور، محمد بن مكرم (ت، ٧١١هـ/ ١٣١١م)،

مختصر **تاريخ دمشق لابن عساكر**، تحقيق: روحية النحاس وآخرون، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م، ج١٦، ص١٠٢.

(٢٩) روزنتال، فرانز، **علم التأريخ عند المسلمين**، ترجمة: صالح أحمد العلي، مراجعة: محمد توفيق حسين، بغداد، مكتبة المثنى بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٣م، ص٢٠٦ــ ٢٠٧؛ حاطوم وآخرون، **المدخل إلى التاريخ**، ص٢٨٦؛ الخطيب، **التاريخ والمؤرخون العرب**، ص٢٣٤؛ سالم، السيد عبد العزيز، التاريخ والمؤرخون العرب، بيروت، دار النهضة العربية، ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م، ص١٠٤.

(٣٠) السماع طريقة من طرائق التعليم، تقوم على سماع الأستاذ يلقي من ذاكرته أو يقرأ من كتاب، وتعد هذه الطريقة أعلى طرائق التعليم وأهمها؛ أبيض، ملكة، التربية والثقافة العربية ــ الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٨٠م، ص ٢٨٥.

(٣١) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٣٦، ص٢٢٩ــ ٢٣١؛ ابن منظور، **مختصر**، ج١٥، ص١٢٠؛ الذهبي، **العبر**، ج٢، ص٢٠٨.

(٣٢) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت، ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ**، منشور ضمن كتاب علم التأريخ عند المسلمين، لـ فرانز روزنتال، ترجمة: صالح أحمد العلي، مراجعة: محمد توفيق حسين، بغداد، مكتبة المثنى بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٣م، ص٥٤٢، ٦٢٩؛ حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي (ت، ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م)، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، اعتنى به: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٩هـ ــ ٢٠٠٨م، ج١، ص٣٤٠؛ سزكين، **تاريخ التراث العربي**، مج١، ص٥٥٩ ــ ٥٦٠.

(٣٣) **تاريخ**، ج٣٦، ص٢٣٠.

(٣٤) المصدر نفسه، ج٥٦، ص٥١٤.

(٣٥) الحموي، **معجم البلدان**، مج١، ص ٥٢٦؛ مج٢، ص٣٠٤، ٣٢٤، ٤٧٨؛ مج٣، ص٤١٩؛ مج٤، ص١٨٣؛ مج٥، ص١١٩.

(٣٦) السخاوي، الإعلان، طبعة روزنتال، ص٦٢٩؛ مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، ج٢، ص٢٧٣.

(٣٧) حرّان: مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرّها يوم، وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج ٢، ص ٢٣٥.

(٣٨) ابن العديم، عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت، ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م)، **بغية الطلب في تاريخ حلب**، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٨م، ، مج٦، ص٢٧٨٠ ــ ٢٧٨١؛ ابن عبد الهادي، محمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي الصالحي (ت، ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م)، **طبقات علماء الحديث**، تحقيق: أكرم البوشي، إبراهيم الزيبق، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٦م، ج٢، ص٢٣٩ــ ٢٤٠؛ الذهبي، **سير**، ج١٤، ص٥١٠ ــ ٥١١؛ **العبر**، ج٢، ص١٧٨ – ١٧٩؛ ابن العماد، عبد الحي بن أحمد (ت، ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، بيروت، دار الفكر، (د.ت)، ج٢، ص٢٧٩.

(٣٩) النديم، الفهرست، ص ٣٨٠.

(٤٠) سزكين، **تاريخ التراث العربي**، مج١، ص٢٨٢ ــ ٢٨٣؛ «كتاب الأمثال السائرة عن رسول الله ﷺ» مخطوط سراي، كوغوشلار ٢١/١٠٩٦(٢١٢ب ــ ٢١٤أ ، ٧٠٧هـ)؛ و«حديث الجزريين» مخطوط الظاهرية، مجموع ١١٠ (٣٥ أ ــ٥٢ ب ناقص ورقتان من أول المخطوط، من القرن السادس الهجري).

(٤١) السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني (ت، ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م)، **الأنساب**، وضع حواشيه: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م، مج٢، ص٢٣٢.

(٤٢) الحموي، **معجم البلدان**، مج٢، ص٢٣٦؛ الذهبي، **سير**، ج١٤، ص٥١١؛ السخاوي، **الإعلان**، طبعة روزنتال، ص٦٢٦.

(٤٣) حاجي خليفة، **كشف الظنون**، ج١، ص٣٣٠.

(٤٤) السخاوي، **الإعلان**، طبعة روزنتال، ص٦٣٢.

(٤٥) السمعاني، **الأنساب**، مج٢، ص٢٣٣؛ ابن عبد الهادي، **طبقات علماء الحديث**، ج٣، ص٣٨؛ الرقة: مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حران ثلاثة أيام؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج٣، ص٥٩.

(٤٦) **الأنساب**، مج٣، ص٩٢.

(٤٧) السمعاني، المصدر نفسه، مج٣، ص٩٢؛ الذهبي، **سير**، ج١٥، ص٣٣٥.

(٤٨) سير، المصدر نفسه، ج١٥، ص٣٣٥.

(٤٩) الصفدي، خليل بن أيبك (ت، ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، **الوافي بالوفيات**، باعتناء: س. ديدرينغ، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م، فيسبادن، فرانزشتاينر، ١٣٩١هـ ـ ١٩٦٢م، ج٣، ص٩٥ ـ ٩٦.

(٥٠) القشيري، محمد بن سعيد بن عبد الرحمن (ت، ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، **تاريخ الرقة ومن نزلها من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين والفقهاء والمحدثين**، عني بتحقيقه: إبراهيم صالح، دمشق، دار البشائر، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، ص١٨٧، ٢٢٦ ـ ٢٣٠؛ ومما تجدر الإشارة إليه أن تاريخ الرقة للقشيري حقق أول مرة من قبل طاهر النعساني، وطبع بمطابع الإصلاح في حماة، ونشر عام ١٩٥٩م.

(٥١) العش، يوسف، **تاريخ الرقة ومن نزلها للقشيري**، دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، مج١٧، ١٣٦١هـ ـ ١٩٤٢م، ج٢٥، ص٢٧١.

(٥٢) **تاريخ**، ج٥، ص١٢٥؛ ج٢٠، ص٩.

(٥٣) **بغية الطلب**، مج٤، ص١٦٥٩؛ مج٥، ص٢١٠٢، ٢٥٠٢.

(٥٤) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٧١، ص٩٧؛ ابن منظور، **مختصر**، ج٣، ص٦٠.

(٥٥) المنجد، **معجم المؤرخين**، ص١٦.

(٥٦) **تاريخ**، ج٢١، ص٩٨؛ ج٣٧، ص١٩٩؛ ج٣٨، ص٢٩٠، ٣١٩؛ ج٤٠، ص١٩.

(٥٧) **معجم البلـــدان**، مج١، ص٥٢٠؛ مـــج٢، ص٩٦، ٤٣٣، ٤٩٦، ٥٢٩، ٥٤٣؛ مج٣، ص٢٢٠، ٢٢٩، ٣٢١، ٤١٤؛ مج٤، ٤١٧؛ مج٥، ٢٤١، ٤٤١.

(٥٨) الري: بلدة كبيرة من بلاد الديلم بين قومس والجبال؛ الـــسمعاني، **الأنـــساب**، مج٣، ص٢٥.

(٥٩) ابن عساكر، **تاريخ**، ج ٥٣، ص ٣٣٥ــ ٣٣٧؛ الذهبي، محمد بن أحمد بـــن عثمان (ت، ٧٤٨هــ/ ١٣٤٧م)، كتاب تذكرة الحفاظ، وضع حواشـــيه: زكريـــا عميرات، بيروت، دار الكتب العلميـــة، ط١، ١٤١٩هـــــ ــ ١٩٩٨م، ج٣، ص ٤٧٦؛ **سير**، ج ١٦، ص١٧ ــ ١٨؛ ابن منظـــور، **مختـــصر**، ج٢٢، ص ٢٦٧- ٢٦٨.

(٦٠) **ذيل تاريخ**، ص٨١.

(٦١) **تاريخ**، ج ٥٣، ص ٣٣٦.

(٦٢) سير، ج ١٦، ص ١٧ ــ ١٨.

(٦٣) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٥٣، ص٣٣٦.

(٦٤) ابن عساكر، المصدر نفسه، ج ٨، ص ٣٥٢؛ ج ٣٦، ص ١٣٣؛ ج ٥٥، ص ١٩٤.

(٦٥) ابن عساكر، المصدر نفسه، ج ٥١، ص ١٥٩.

(٦٦) ابن عساكر، المصدر نفـــسه، ج ١٣، ص ٣٨٧؛ ج ٢٤، ص ٤٥٢؛ ج ٣٧، ص ٣٣٣؛ ج٤١، ص ٣٢٦، ٥٢٨؛ ج٤٣، ص ١٩١؛ ج ٥٢، ص ٢١٤، ٢٦٧؛ ج ٥٣، ص ٣١٣، ٤٠٣.

(٦٧) ابن عساكر، المصدر نفسه، وقد نقل عنه أكثر من خمسين مرة، وخشية مـــن تضخم الحواشي، لذلك سوف اقتصر على ذكـــر بعـــضها ، ج٧، ص٢٦، ١٠٢، ١٠٤؛ ج١٩، ص١٣، ٥٩، ٣٥٢؛ ج٣٥، ص٥٩، ٣٧٠، ٣٨٣، ٣٨٨؛ ج٥٢، ص١٠٨، ٣٠٧، ٣٧٢.

(٦٨) ابن عساكر، المصدر نفسه، ج٦، ص٣٨٦.

(٦٩) ابن عساكر، المصدر نفسه، ج٢٦، ص٣٨٨؛ ج٣٦، ص١٣٣؛ ج٤١، ص٢٠٤؛ ج٥١، ص١١١؛ ج٥٤، ص١٠٢.

(٧٠) ابن عساكر، المصدر نفسه، ج٥، ص٣٧٣؛ ج٢٥، ص٢١٦؛ ج٣٥، ص٧؛ ج٤٥، ص٧٠، ٨٤؛ ج٥٥، ص٧٦، ٢١٩.

(٧١) ابن عساكر، المصدر نفسه، ج٩، ص١٧٤؛ المزي، يوسف بن عبد الرحمن (ت، ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م)، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، راجعه وقدّم له: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م، ج١٠، ص٥٨٩.

(٧٢) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٩، ص١٦٣.

(٧٣) ابن عساكر، المصدر نفسه، ج٦، ص٩٧، ٣٧٦؛ ج٨، ص٨٣، ٢٨٠؛ ج٢١، ص٤٥، ٢٣٦، ٣٦٧؛ المزي، تهذيب الكمال، ج١٠، ص١٧٥؛ ج٢٠، ص١٦٢.

(٧٤) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٣٨، ص٤٢٩.

(٧٥) ابن عساكر، المصدر نفسه، ج٥٩، ص٣٨٦، (وفيه ترد كلمة المؤمنين بـ "المربيين")؛ المنجد، **معجم المؤرخين**، ص١٨.

(٧٦) ابن عساكر، **تاريخ**، ج ٥٤، ص ١٧٣؛ ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري (ت، ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، **طبقات الفقهاء الشافعية**، هذّبه ورتبه واستدرك عليه: يحيى بن شرف النووي (ت، ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م)، بيّض أصوله ونقّحه: يوسف بن عبد الرحمن المزي (ت، ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م)، حققه وعلّق عليه: محيي الدين علي نجيب، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م، ج١، ص ١٨٣؛ الأسنوي، عبد الرحيم بن الحسن بن علي (ت، ٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠م)، **طبقات الشافعية**، تحقيق: عبد الله الجبوري، بغداد، مطبعة الإرشاد، ط١، ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠م، ج١، ص ٥٧٩؛ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت، ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)، **الجواهر والدرر**، منشور ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين، لـ فرانز روزنتال، ترجمة: صالح أحمد العلي، مراجعة: محمد توفيق حسين، بغداد، مكتبة المثنى بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٣م، ص ٧٣٤.

(٧٧) الكتاني، عبد العزيز بن أحمد (ت، ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م)، **ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم**، تحقيق: عبد الله بن سليمان الحمد، الرياض، دار العاصمة، ط١، ١٤٠٩هـ، ص٨٦ ـ ٨٧؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٤١، ص٣٣٢ ـ ٣٣٣؛ الذهبي، **سير**، ج١٦، ص٢٠.

(٧٨) ابن عساكر، **تاريخ**، ج١٧، ص١٤؛ ج٤١، ص٣٣٢؛ ابن عبد الهادي، طبقات علماء الحديث، ج٣، ص١١٦؛ ابن العديم، **بغية**، مج٧، ص٣٣٤٩؛ ابن منظور، **مختصر**، ج١٧، ص٢٢٠؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م،ج٢٠، ص٢١٤.

(٧٩) الحموي، **معجم البلدان**، مج١، ص٣٨٣؛ مج٣، ص١٥٧، ٢٤٠.

(٨٠) داريا: قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج٢، ص٤٣١.

(٨١) الخولاني، عبد الجبار بن عبد الله بن محمد (ت، بعد ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م)، **تاريخ داريا ومن نزل بها من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين**، حققه وقدم له: سعيد الأفغاني، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، مقدمة المحقق، ص١٢ ـ ١٣؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٣٤، ص٢٣ ـ ٢٤، (وفيه ابن مهنا مكتوبة بالألف المقصورة)؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج٢، ص٤٣٢؛ دهمان، محمد أحمد، القاضي عبد الجبار الخولاني، دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، مج٢٦، ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م، ج٢، ص٣١٦ـ ٣١٧.

(٨٢) الخولاني، تاريخ داريا، ص٥٢.

(٨٣) الخولاني، المصدر نفسه، ص٥٢.

(٨٤) الخولاني، المصدر نفسه، ص٥٩.

(٨٥) الخولاني، المصدر نفسه، ص٨١.

(٨٦) الخولاني، المصدر نفسه، ص ١٤ ـ ١٦.

(٨٧) الحموي، **معجم البلدان**، مج٢، ص ٣٣٨؛ ابن العديم، **بغية**، مج ١٠، ص ٤٧٥٩.

(٨٨) الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري (ت، ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، حققه وشرحه: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السعادة، ط٢، ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦م، ج١، ص٣٤.

(٨٩) الكتبي، محمد بن شاكر (ت، ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، **فوات الوفيات**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٣م، ج٤، ص٥٢؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج٥، فيسبادن، باعتناء: س. ديدرينغ، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٧٠م، ص١٤٩.

(٩٠) المهلبي: أبو محمد الحسن بن محمد بن هارون، من ذرية المهلب بن أبي صفرة الأزدي (ت، ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م)، تولى الوزارة لمعز الدولة البويهي أحمد بن بويه في سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م، واستمر في وزارته ما ينوف على ثلاث عشرة سنة، كان شاعراً بليغاً أديباً ومحباً لأهل الأدب، اشتهر بالجود والكرم والحزم ورجاحة العقل، وله من الكتب: "**كتاب رسائل وتوقيعات**"، و"**ديوان شعر**"؛ النديم، **الفهرست**، ص٢١٧؛ ابن خلكان، محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت، ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، (د.ت)، مج٢، ص١٢٤- ١٢٧؛ الذهبي، **العبر**، ج٢، ص٣٠٠-٣٠١.

(٩١) النديم، الفهرست، ص ٢٧٨.

(٩٢) الصفدي، الوافي، طبعة **دار إحياء التراث العربي**، ج١٥، ص١٦٤؛ الكتبي، فوات، ج٢، ص٥٢ ـ ٥٣.

(٩٣) النديم، **الفهرست**، ص٢٧٨؛ الكتبي، فوات، ج٢، ص ٥٢ ـ ٥٣؛ ج ٤، ص ٥٢؛ الصفدي، الوافي، طبعة فيسبادن، ج٥، ص ١٤٩؛ طبعة دار إحياء التراث العربي، ج١٥، ص ١٦٤؛ بروكلمان، كارل، **تاريخ الأدب العربي**، ج٣، نقله إلى العربية: عبد الحليم النجار، القاهرة، دار المعارف، ط٣، ١٩٧٥م، ج٣، ص٧١.

(٩٤) طرسوس: مدينة مشهورة من ثغور المسلمين في بلاد الشام، تقع بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، كانت موطناً للصالحين والزهاد والغزاة الذين يقصدونها من أنحاء العالم الإسلامي المختلفة للجهاد ضد البيزنطيين، سقطت بأيدي البيزنطيين سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م؛ ابن حوقل، **صورة الأرض**، قسم١، ص١٨٣ ــ ١٨٤؛ الحموي، معجم البلدان، مج٤، ص٢٨.

(٩٥) ترد ترجمته لدى: الأرمنازي، المجموع، ص١٨١؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٣٨، ص٤١٨ــ ٤٢٠؛ الحموي، **معجم الأدباء**، مج٣، ص٤٨٧ ــ ٤٨٨؛ ابن منظور، **مختصر**، ج١٦، ص١٠٢ــ١٠٣؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، [ج. و] ٤٠١ ــ ٤٢٠هـ، ص٤٥.

(٩٦) ابن العديم، **بغية الطلب**، مج١، ص ١٠٢.

(٩٧) ابن العديم، المصدر نفسه، مج١، ص ٢٠٥.

(٩٨) الإملاء: هي أن يملي الشيخ أو العالم من ذاكرته أو من كتاب بين يديه، وتعد طريقة لا يتطرق إليها أي نوع من الفساد لأن الشيخ يعرف ما يملي، والطالب يفهم ما يسمع ويكتب؛ السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت، ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م)، **أدب الإملاء والاستملاء**، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت)، ص ٨، ١٠.

(٩٩) ابن العديم، **بغية الطلب**، مج١، ص ٢٠١.

(١٠٠) ابن العديم، المصدر نفسه، مج٦، ص٢٧٢٢.

(١٠١) ابن العديم، المصدر نفسه، مج٣، ص١٠٦١.

(١٠٢) حدثه قراءةً: أي أنه أملى عليه من كتاب بين يديه، وهي طريقة من طرائق أخذ الحديث عن المشايخ؛ السمعاني، **أدب الإملاء والاستملاء**، ص٨.

(١٠٣) ابن العديم، **بغية الطلب**، مج٢، ص٧٤٧.

(١٠٤) عرف القرآن الكريم أوجهاً عديدة من القراءات، أشهرها سبعة، وهي التي سميت بالقراءات السبع، وتعود تسمية كل منها إلى أحد الأئمة القرّاء الموثوقين،

وهم: عبد الله بن عامر اليحصبي الدمشقي (ت، ١١٨هـ/ ٧٣٦م)، عبد الله بن كثير الداري المكي (ت، ١٢٠هـ/ ٧٣٨م)، عاصم بن بهدلة بن أبي النجود الكوفي (ت، ١٢٧هـ/ ٧٤٥م)، أبو عمرو زبان بن العلاء البصري (ت، ١٥٤هـ/٧٧١ م)، حمزة بن حبيب الزيات الكوفي (ت، ١٥٦هـ/ ٧٧٣م)، نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني (ت، ١٦٩هـ/ ٧٨٥م)، علي بن حمزة الكسائي الكوفي (ت، ١٨٩هـ/ ٨٠٥م)؛ النديم، **الفهرست**، ص٤٤-٤٦؛ الداني، عثمان بن سعيد (ت، ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م)، التيسير في القراءات السبع، عني بتصحيحه: أوتوبرتزل، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م، ص٤- ٧.

(١٠٥) ابن العديم، **بغية الطلب**، مج٣، ص١٤٦١.

(١٠٦) ابن العديم، المصدر نفسه، مج١٠، ص٤٣٥٩، ٤٦٥٤.

(١٠٧) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٣٨، ص٤١٩.

(١٠٨) ابن العديم، **بغية الطلب**، مج١٠، ص٤٣١٩، ٤٣٩٠.

(١٠٩) الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى (ت، ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م)، **تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا**، حققه ووضع فهارسه: عمر عبد السلام تدمري، طرابلس، جروس برس، ١٩٩٠م، ص١٠٧ــ ١٠٨؛ ابن العديم، **بغية**، مج١، ص ١٩٥ ــ ١٩٧.

(١١٠) ابن العديم، المصدر نفسه، مج٤، ص١٧٤٦.

(١١١) ابن العديم، المصدر نفسه، مج٣، ص١١٩٩.

(١١٢) الأرمنازي، المجموع، ص١٨١؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٣٨، ص٤١٨ــ ٤٢٠؛ الحموي، **معجم الأدباء**، مج٣، ص٤٨٧ــ ٤٨٨؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، [ح. و] ٤٠١ــ ٤٢٠هـ، ص٤٥.

(١١٣) ابن العديم، **بغية الطلب** ، مج٤، ص١٧٠٧.

(١١٤) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٣٨، ص٤١٩؛ الحموي، **معجم الأدباء**، مج٣، ص٤٨٨؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، [ح. و] ٤٠١ ــ ٤٢٠هـ، ص٤٥.

(١١٥) ابن العديم، عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت، ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م)، **الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري**، دراسة وتحقيق: عبد العزيز حرفوش، (د. م)، دار الجولان، ط١، ١٤٢٨هـ ــ ٢٠٠٧م، ص٦٦، ٩٤؛ بغية، مج٢، ص٨٦٣.

(١١٦) ابن العديم، **بغية الطلب** ، المصدر نفسه، مج١، ص١٠١.

(١١٧) **معجم الأدباء**، مج٣، ص٤٨٧.

(١١٨) **بغية**، مج٣، ص١٠٦١.

(١١٩) **معجم الأدباء**، مج٣، ص٤٨٧.

(١٢٠) **بغية الطلب** ، مج١، ص١٨٠؛ مج٨، ص٣٥٥٥؛ مج١٠، ص٤٦٥٤؛ جعفر ابن الفضل بن جعفر بن الفرات الوزير أبو الفضل المعروف بابن حنزابة (ت، ٣٩٢هـ/ ١٠٠١م): بغدادي الأصل، مصري الدار والوفاة، تولى الوزارة للإخشيديين سنة ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م، واستمر بشكل يكاد يكون مستمراً حتى سقوط الدولة الإخشيدية على أيدي الفاطميين، ووزر للخليفة العزيز الفاطمي سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م، واستمر إلى سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م، كان عالماً محباً للعلماء، ومحدثاً، وصنف مصنفات في أسماء الرجال والأنساب؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، مج١، ص٣٤٦ ــ ٣٥٠؛ المقريزي، أحمد بن علي (ت، ٨٤٥هـ ــ ١٤٤١م)، **المقفى الكبير**، تحقيق: محمد اليعلاوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤١١هـ ــ ١٩٩١م، ج٣، ص٤١ ــ ٥٠.

(١٢١) الطرسوسي، عثمان بن عبد الله (ت، ٤٠١هـ/ ١٠١٠م)، **بقايا كتاب سير الثغور** من خلال **مخطوطة بغية الطلب لابن العديم**، تقديم ودراسة: شاكر مصطفى، دمشق، دار طلاس، ط١، ١٩٩٨م، مقدمة المحقق، ص١٨.

(١٢٢) ابن العديم، **بغية الطلب** ، مج١، ص١٩٢.

(١٢٣) ابن العديم، المصدر نفسه، مج١، ص١٨٧، ١٩٩ ــ ٢٠٤.

(١٢٤) ابن العديم، المصدر نفسه، مج١، ص١٨٠ ــ ١٨٧، ٤٥٣ ــ ٤٥٤، ٤٥٧، ٤٦٩ ــ ٤٧٠.

(١٢٥) ابن العديم، المصدر نفسه، مج١، ص١٨٨ ــ ١٩١.
(١٢٦) ابن العديم، المصدر نفسه، مج١، ص١٩٥ــ ١٩٧.
(١٢٧) ابن العديم، المصدر نفسه، مج١، ص٢٠٥ ــ ٢١٢.
(١٢٨) ابن العديم، المصدر نفسه، مج١، ص١٠٢ ــ ١٠٣، ١٦٥، ١٧٠.
(١٢٩) ابن العديم، المصدر نفسه، مج١، ص١٩٢؛ مج٢، ص٧٤٧، ٨٥٣؛ مج٣، ص١٠٥٩، ١١٦٨، ١١٩٩، ١٤٦١؛ مج٦، ص٢٧٢٢؛ مج٧، ص٣٤٦٨؛ مج٨، ص٣٧٤٤؛ مج١٠، ص٤٣١٩، ٤٣٥٩، ٤٣٦٩، ٤٣٩٠، ٤٥٩٠ ــ ٤٥٩١، ٤٦٥٣، ٤٧٠٤؛ الطرسوسي، **بقايا كتاب سير الثغور**، ص٤٣ ــ ٤٤؛ ٤٨ ــ ٥٨ ــ ٦٣.
(١٣٠) الطرسوسي، المصدر نفسه، ص٣٦-٣٧؛ ابن العديم، **بغية**، مج١، ص١٨٠-١٨١.
(١٣١) ابن العديم، المصدر نفسه، مج١، ص١٨٨؛ الطرسوسي، **بقايا كتاب سير الثغور**، ص٤٠-٤١.
(١٣٢) عباس، إحسان، **شذرات من كتب مفقودة في التاريخ**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨م، ج١، ص٣٩؛ الدرع، مريم، موارد ابن العديم التأريخية ومنهجه في كتاب (بغية في تاريخ حلب)، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٢٦هــ ــ ٢٠٠٥م، ص٧٤٨.
(١٣٣) ابن العديم، **بغية**، مج٣، ص١٠٦٢.
(١٣٤) لويس، برنارد، ب. م. هولت، **مؤرخو العرب والإسلام حتى العصر الحديث**، نقله إلى العربية وقدم له: سهيل زكار، دمشق، دار التكوين، ٢٠٠٨م، ص١٧١.
(١٣٥) ابن عساكر، **تاريخ**، ج١، ص١٣ ــ ١٤؛ ج٢، ص٣٢٨، ٣٤٩، ٣٩١؛ المنجد، **معجم المؤرخين**، ص١٨.
(١٣٦) مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، ج٢، ص٢٢٨.
(١٣٧) الربعي، علي بن محمد (ت، ٤٤٤هــ/ ١٠٥٢م)، **فضائل الشام ودمشق**، حققه: صلاح الدين المنجد، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٩٥٠م، ص١٧،

وانظر: الكتاب، حيث أكثر من نصف الأخبار التي وردت فيه، كانت من طريق تمام بن محمد؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج١، ص١٠١ ــ ١٠٦، ١٥٣، ٢١٦ ــ ٢١٧، ٢٢٦ ــ ٢٣١، ٢٤٩ ــ ٢٥٨، ٢٦٨، ٢٧٦- ٢٧٩، ٢٨٨، ٣٣٢ ــ ٣٣٥.

(١٣٨) الذهبي، **سير**، ج١٤، ص٧٨ ــ ٧٩.

(١٣٩) روزنتال، **علم التأريخ**، ص١٠١ــ ١٠٢؛ حاطوم وآخرون، **المدخل إلى التاريخ**، ص٢٨٦؛ الخطيب، **التاريخ والمؤرخون العرب**، ص٢٢١ــ ٢٢٢.

(١٤٠) سعيد بن البطريق: من أهل فسطاط مصر، كان طبيباً مسيحياً مشهوراً عارفاً بعلم الطب وممارسته، وكان على دراية بعلوم النصارى ومذاهبهم، ولد سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م، وفي سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م صيّر بطريركاً على الإسكندرية، وسمّي أوثوشيوس، وبقي في منصبه حتى توفي سنة ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م، وله عدة كتب، منها: "**كتاب في الطب علم وعمل**"، و"**كتاب نظم الجوهر ثلاث مقالات**"، وهو الذي ذيّل عليه يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي؛ ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي (ت، ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ضبطه وصححه ووضع فهارسه: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م، ص٥٠٠ ــ ٥٠١.

(١٤١) سزكين، **تاريخ التراث العربي**، مج١، ص٥٤٤ ــ ٥٤٥.

(١٤٢) المنبجي، أغابيوس بن قسطنطين (القرن ٤ هـ/ ١٠م)، **المنتخب من تاريخ المنبجي**، انتخبه وحققه: عمر عبد السلام تدمري، طرابلس، دار المنصور، ط١، ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م، مقدمة المحقق، ص٩؛ منبج: مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة، تقع في شمال بلاد الشام، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج٥، ص٢٠٥-٢٠٦.

(١٤٣) سزكين، **تاريخ التراث العربي**، مج١، ص٥٤٥.

(١٤٤) المنبجي، **المنتخب من تاريخ المنبجي**، مقدمة المحقق، ص٥.

(١٤٥) المسعودي، **التنبيه والإشراف**، ص١٥٤.

(١٤٦) سالم، **التاريخ والمؤرخون العرب**، ص٩٩.
(١٤٧) علم **التأريخ**، ص ١٩٠.
(١٤٨) المنبجي، المنتخب من تاريخ المنبجي، مقدمة المحقق، ص٨ ــ ٩.
(١٤٩) توفيل بن توما النصراني: وقيل اسمه ثئوفيل أو ثوفيل، كان خبيراً بالتنجيم والفلك، استلم رئاسة منجمي الخليفة العباسي المهدي، صنف تاريخاً معتبراً باللغة السريانية، توفي في مطلع ١٦٩هـ/ ٧٨٥م؛ ابن العبري، غريغوريوس بن أهرون الملطي (ت، ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، **تاريخ الزمان**، نقله إلى العربية: إسحق أرملة، بيروت، دار المشرق، ١٩٨٦م، ص١١ ــ ١٢؛ القفطي، علي بن يوسف (ت، ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، القاهرة، مكتبة المتنبي، (د.ت)، ص ٧٧.
(١٥٠) المنبجي، **المنتخب من تاريخ المنبجي**، ص١٠٩.
(١٥١) ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي (ت، ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تحقيق: يحيى عبارة، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩١م، ج١، قسم ٢، ص٣٦٢.
(١٥٢) فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج٤، ص٢٥٣.
(١٥٣) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت، ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٥هـ ــ ٢٠٠٤م، مج٩، ص٣٩٦.
(١٥٤) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٢٧، ص١١؛ ابن منظور، **مختصر**، ج١٢، ص١٥؛ الصفدي، الوافي، طبعة دار إحياء التراث العربي، ج١٧، ص٢٠؛ بدران، عبد القادر، **تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر**، بيروت، دار المسيرة، ط٢، ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م، ج٧، ص٢٨٠.
(١٥٥) الحموي، **معجم الأدباء**، مج٥، ص٢٤٤.

(١٥٦) البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين «**أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**»، اعتنى به: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٩هـ ــ ٢٠٠٨م، ج١، ص٤٠٧.

(١٥٧) سزكين، **تاريخ التراث العربي**، مج١، ص٥٤٣؛ " ذكر أن القطعة الباقية من كتاب الصلة للفرغاني توجد مخطوطة بالمعهد الشرقي بشيكاغو، وقد نشرتها نبيهة عبود عام ١٩٥٧م".

(١٥٨) بغية، مج٥، ص ٢٠٦٨؛ مج٢، ص٦٨٠ ــ ٦٨١.

(١٥٩) الدرع، **موارد ابن العديم**، ص ٣١١ ــ ٣١٢.

(١٦٠) القفطي، **إخبار العلماء**، ص٧٧.

(١٦١) النديم، **الفهرست**، ص ٢٤٨؛ الحموي، **معجم الأدباء**، مج ٤، ص ٢٨٢.

(١٦٢) الثعالبي، **يتيمة**، ج ١، ص ٢٨.

(١٦٣) ابن النجار، محمد بن محمود البغدادي (ت، ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، **ذيل تاريخ بغداد**، ملحق بتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٥هـ ــ ٢٠٠٤م، مج١٨، ج ١٩، ص ٩٣.

(١٦٤) الثعالبي، **يتيمة**، ج ١، ص ١٢٥.

(١٦٥) النديم، **الفهرست**، ص ٢٤٨؛ الحموي، **معجم الأدباء**، مج ٤، ص ٢٨٣.

(١٦٦) النديم، **الفهرست**، ص٣٨٦.

(١٦٧) الشمشاطي، علي بن محمد العدوي (ت، بعد ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م)، **الأنوار ومحاسن الأشعار**، تحقيق: السيد محمد يوسف، الكويت، وزارة الأعلام، ١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م، ج١، مقدمة المحقق، ص١١.

(١٦٨) لويس، هولت، مؤرخو العرب والإسلام، ص٩١ــ ٩٣؛ حاطوم وآخرون، **المدخل إلى التاريخ**، ص٢٤٧، ٢٧٦.

(١٦٩) الخطيب، **التاريخ والمؤرخون العرب**، ص٢٥٤.

(١٧٠) الذهبي، **سير**، ج١٤، ص٥١١؛ بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، ج٣، ص١٦٢؛ سزكين، **تاريخ التراث العربي**، مج١، ص٢٨٢، يتناول أبو عروبة الحراني في "**كتاب الطبقات**" أحوال الصحابة في حياتهم، يوجد منه مختارات مخطوطة في الظاهرية بدمشق (رقم ٤٥٥٣ عام).

(١٧١) **تاريخ**، ج٥، ص١٢٥؛ ج٣٨، ص٤٣٢.

(١٧٢) السخاوي، الإعلان، طبعة روزنتال، ص٥٠٩؛ **مصطفى**، **التاريخ العربي والمؤرخون**، ج٢، ص٢٧٢.

(١٧٣) ابن عساكر، **تاريخ**، ج ٣٧، ص ٣١٤؛ الذهبي، **سير**، ج ١٦، ص ٥٥٧.

(١٧٤) **تاريخ**، ج١١، ص٢٥؛ ج١٣، ص٣٧١، ٣٨٥؛ ج٣٧، ص٣٥٣؛ ج٤١، ص٥٢٤؛ ج٤٩، ص٣٢٨؛ ج٥٣، ص١١٨، ٢٧٤، ٣٠١، ٣٦٩؛ ج٥٥، ص١٥٤.

(١٧٥) الخطيب، **التاريخ والمؤرخون العرب**، ص٢٦٣.

(١٧٦) ابن زبر، محمد بن عبد الله بن أحمد الربعي الدمشقي (ت، ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م)، **تاريخ مولد العلماء ووفياتهم**، دراسة وتحقيق: عبد الله بن سليمان الحمد، الرياض، دار العاصمة، النشرة الأولى، ١٤١٠هـ، ج٢، ص٦٦٢؛ الكندي، محمد بن يوسف (ت، ٣٥٠هـ/ ٩٦١م)، **كتاب الولاة وكتاب القضاة**، تحقيق: رفن كست، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، (د.ت)، ص٤٨٣ـ ٤٨٤، ٤٨٧ ـ ٤٨٩؛ الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ج٩، ٣٩٤ـ ٣٩٥؛ السمعاني، **الأنساب**، مج٣، ص١٤٧؛ ابن منظور، **مختصر**، ج١٢، ص١٨؛ ابن طولون، محمد بن علي (ت، ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، **قضاة دمشق**، الثغر البسّام في ذكر من ولي قضاء الشام، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٩٥٦م، ص٢٩.

(١٧٧) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٢٧، ص٢٩.

(١٧٨) ابن عساكر، المصدر نفسه، ج٢٧، ص٢٧؛ ج٥٩، ص٣١٣.

(١٧٩) المنجد، **معجم المؤرخين**، ص ١٩. هناك نسخة من "الشروط العمرية" **مخطوطة في التيمورية تاريخ ٢٢٥٢**.

(١٨٠) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٢٧، ص٢٧؛ الأرمنازي، المجموع، ص١٤٦؛ الذهبي، **سير**، ج١٥، ص٣١٦؛ من الأهمية الإشارة إلى أن كتاب أخبار الأصمعي لأبي محمد بن زبر لقي الاهتمام من الضياء المقدسي محمد بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن المقدسي (ت، ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، فانتقى منه رسالة سماها "المنتقى من أخبار الأصمعي"، وقد نشر ما بقي من هذا المنتقى عز الدين التنوخي في مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، مج١٣، ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٥م، ص٣٢١ ـ ٣٣٠، ٤١٣ ـ ٤٢٠، ٤٧٥ ـ ٤٨٨؛ مج١٤، ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٦م، ص٤١ ـ ٥٣.

(١٨١) **بغية**، مج٢، ص٦٧٣ـ ٦٧٤؛ مج٥، ص٢٤٠٨؛ مج٦، ص٢٥٢٨، ٢٥٣١؛ مج١٠، ص٤٤٩٠؛ عباس، **شذرات من كتب مفقودة**، ج٢، ص٢٨١-٢٨٤.

(١٨٢) ابن العديم، **بغية**، مج٣، ص١١٩٩؛ مج٦، ص٣٠١٢.

(١٨٣) ابن العديم، المصدر نفسه، مج ٣، ص ١١٧٦.

(١٨٤) الشمشاطي، **الأنوار**، ج١، مقدمة المحقق، ص١٢.

(١٨٥) سعيد الدولة الحمداني: هو أبو الفضائل بن سعد الدولة بن سيف الدولة علي ابن عبد الله بن حمدان، تولى إدارة الدولة الحمدانية في حلب بعد وفاة والده في سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م، فكان المدبر لأمره وصاحب جيشه لؤلؤ السيفي الكبير، وفي عهده عانت الدولة الحمدانية من الضعف والوهن، إذ هاجمها الفاطميون الذين حاولوا الاستيلاء على حلب، واستمر سعيد الدولة يحكم حتى توفي مسموماً في سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠١م، فخلفه ولداه أبو الحسن علي وأبو المعالي شريف اللذان نصبهما لؤلؤ السيفي، وقبض هو على زمام الأمور دون أن يكون لهما أدنى سلطة؛ الأزدي، علي بن ظافر (ت، ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م)، أخبار الدولة الحمدانية بالموصل وحلب وديار بكر والثغور، حققته وقدمت له: تميمة الرواف، دمشق، دار حسان، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م، ص٥٥-٥٨؛ ابن العديم، عمر

بن أحمد بن أبي جرادة (ت، ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م)، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، حققه وقدم له: سهيل زكار، دمشق، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧م، ج١، ص١٦٨-١٧٤.

(١٨٦) ابن عساكر، **تاريخ**، ج٢٣، ص٣٢٤ـ ٣٢٥؛ ابن العديم، **زبدة الحلب**، ج١، ص١٧٥.

(١٨٧) الصفدي، **الوافي**، طبعة دار إحياء التراث العربي، ج١٦، ص١٤٧.

(١٨٨) ابن العديم، بغية، مج٢، ص٩١٣، ١٠٠١.

(١٨٩) بغية، المصدر نفسه، مج٢، ص ٩١٣، ١٠٠١ ـ ١٠٠٢؛ مج٣، ص ١٢٩٦، ١٤٦٧؛ مج٦، ص٢٧٥٢ ـ ٢٧٥٣.

(١٩٠) الدرع، موارد ابن العديم، ص٣٨٨.

(١٩١) ابن عساكر، تاريخ، ج٥٤، ص ٣٠٧.

(١٩٢) الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك (ت، بعد ٧٣٦ هـ/ ١٣٣٥م)، **كنز الدرر وجامع الغرر**، الجزء السادس، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة، المعهد الألماني للآثار، ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١م، ج٦، ص٦.

(١٩٣) النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت، ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، حققه: محمد أمين، محمد أحمد، القاهرة، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، ج٢٨، ص٧٠ـ ٧٣.

(١٩٤) الدرة، ج٦، ص٦، ١٧، ٤٤، ٩٦، ١٤٨.

(١٩٥) المقريزي، أحمد بن علي (ت، ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)، **إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، ج١، ص١١٨ـ١٢٢؛ **المقفى**، ج٤، ص٥٢٥ ـ ٥٢٩.

(١٩٦) علم الجرح والتعديل: هو فرع من فروع علم رجال الحديث، ويبحث فيه عن جرح الرواة وتعديلهم بألفاظ مخصوصة؛ الرازي، عبد الرحمن بن أبي حاتم

محمد بن إدريس بن المنذر التميمي (ت، ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م)، **كتاب الجرح والتعديل**، حيدر آباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ط١، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م، مقدمة، ص (ب).

(١٩٧) ابن زبر، **تاريخ مولد العلماء**، ج١، مقدمة المحقق، ص ٣٣- ٣٤، ٣٨-٣٩؛ الكتاني، **ذيل تاريخ**، مقدمة المحقق، ص ٣٧ - ٣٩.

(١٩٨) سلف الحديث عنه في السير والأنساب.

(١٩٩) ابن زبر، **تاريخ مولد العلماء**، ج ٢، ص ٦٢٧.

(٢٠٠) ابن زبر، المصدر نفسه، ج١، **مقدمة المحقق**، ص ١٢- ١٩، ٢٢-٢٤؛ الكتاني، **ذيل تاريخ**، ص١١٢؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٥٣، ص ٣١٥-٣١٦؛ الذهبي، **تذكرة**، ج٣، ص ١٣٥؛ ابن منظور، **مختصر**، ج٢٢، ص٢٥٩-٢٦٠.

(٢٠١) **ذيل تاريخ**، ص ١١٢.

(٢٠٢) **تاريخ**، ج٥٣، ص٣١٥.

(٢٠٣) **سير**، ج١٦، ص٤٤٠.

(٢٠٤) ابن عساكر، **تاريخ**، ج ٥٣، ص ٣١٨.

(٢٠٥) الذهبي، سير، ج١٦، ص٤٤١؛ تذكرة، ج٣، ص١٣٥؛ **تاريخ الإسلام**، [ج. و] ٣٥١-٣٨٠هـ، ص٦٥١؛ ابن عبد الهادي، **طبقات علماء الحديث**، ج٣، ص١٨٧؛ السخاوي، الإعلان، طبعة روزنتال، ص ٧٠١.

(٢٠٦) وقد نشر في جزأين، تحقيق: عبد الله بن سليمان الحمد، الرياض، دار العاصمة، النشرة الأولى، ١٤١٠هـ، وهو من المصادر المعتمد عليها في هذا البحث.

(٢٠٧) مما هو جدير بالذكر أن أول من صنف في الوفيات هو أبو الحسين عبد الباقي بن قانع بن مرزوق البغدادي المتوفى سنة ٣٥١هـ/ ٩٦٢م، وهو محدث من أبناء بغداد، وقد انتهى بكتابه إلى سنة ٣٤٦هـ/٩٥٧م؛ السخاوي، الإعلان، طبعة القدسي، ص١٦٠؛ الكتاني، **ذيل تاريخ**، **مقدمة المحقق**، ص ٣٨.

(٢٠٨) عبد العزيز بن أحمد بن محمد التميمي الكتاني الدمشقي الصوفي الحافظ (ت، ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م): **محدث دمشقي**، سمع الكثير، وكتب الكثير، ورحل في طلب الحديث، كان حافظاً ثقة أميناً متقناً، وصنف وجمع مصنفات عديدة، غير أنه لم يصل منها إلا كتاب «**الوفيات على السنين**»، كذلك ترك إجازة، أجاز فيها لكل مولود في الإسلام قبل موته مروياته؛ ابن الأكفاني، هبة الله بن أحمد بن محمد بن هبة الله (ت، ٥٢٤هـ / ١١٣٠م)، ذيل **ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم**، تحقيق: عبد الله بن سليمان الحمد، الرياض، دار العاصمة، ط١، ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م، ص٤٠؛ السمعاني، **الأنساب**، مج٤ مج٤، ص٥٨٨؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٣٦، ص٢٦٢ ــ ٢٦٤؛ ابن عبد الهادي، **طبقات علماء الحديث**، ج٣، ص٣٦٤ ــ ٣٦٥؛ الذهبي، **تذكرة**، ج٣، ص٢٤١.

(٢٠٩) أبو محمد بن الأكفاني هبة الله بن أحمد بن محمد الأنصاري الدمشقي الحافظ (ت، ٥٢٤ هـ / ١١٣٠م): محدث دمشقي، سمع أباه وأبا القاسم الحنائي وأبا بكر الخطيب، ولزم أبا محمد الكتاني مدة، وكان ثقة فهماً شديد العناية بالحديث والتاريخ، كتب الكثير، وكان من كبار العدول، ذيّل على كتاب الكتاني في الوفيات؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٧٣، ص٣٥٩؛ الذهبي، **العبر**، ج٤، ص٦٣؛ سير، ج١٩، ص٥٧٦؛ السخاوي، الإعلان، طبعة روزنتال، ص٧٠١.

(٢١٠) ابن زبر، **تاريخ مولد العلماء**، ج١، مقدمة المحقق، ص٤٠ ــ ٤١.

(٢١١) ابن زبر، المصدر نفسه، ج١، مقدمة المحقق، ص٤٣.

(٢١٢) العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (ت، ٨٥٤ هـ / ١٤٤٨م)، رفع الأصر عن قضاة مصر، **ملحق بكتاب الولاة وكتاب القضاة للكندي**، تحقيق: رفن كست، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، (د . ت)، ص ٥٤٣.

(٢١٣) ابن أبي ذئب: هو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب هشام بن شعبة القرشي المدني الفقيه: فقيه أهل المدينة، ولد سنة ٨٠هـ/ ٦٩٩م، كان فقيهاً صالحاً ورعاً، أقدمه الخليفة المهدي إلى بغداد، فحدث بها، وفي طريق عودته منها توفي بالكوفة سنة ١٥٩هـ/ ٧٧٥م؛ الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**،

ج٣، ص٩٧ ــ ١٠٦؛ الذهبي، **تذكرة**، ج١، ص١٤٣ـــ ١٤٤؛ توجد نسخة **مخطوطة** من "**أخبار ابن أبي ذئب**" في الظاهرية، مجموع ٩٢ (٣١٣).

(٢١٤) ابن زبر، **تاريخ مولد العلماء**، ج١، مقدمة المحقق، ص ٢٥ـ ٢٦؛ المنجد، **معجم المؤرخين**، ص٢٢؛ خلوصي، إحسان بنت سعيد، **أعلام الفكر في دمشق بين القرنين الأول والثاني عشر للهجرة**، دمشق، دار يعرب، ط١، ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م، ص٣٢٧؛ بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، ج٣، ص٢٢٧.

(٢١٥) ابن العديم، **بغية**، مج ١٠، ص ٤٥٩٢.

(٢١٦) **بغية**، مج٩، ص٤٢٠٨ ــ ٤٢٠٩؛ مج١٠، ص ٤٤٠٢ ــ ٤٤٠٣.

(٢١٧) الحموي، **معجم الأدباء**، مج٢، ص٤٤.

(٢١٨) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ج٤، ص١٧٩ـ ١٨٠؛ ابن عبد الهادي، **طبقات علماء الحديث**، ج٣، ص٢٠٦؛ الذهبي، **سير**، ج١٦، ص٤٧٣ـــ ٤٧٤؛ تذكرة، ج ٣، ص ١٤٥.

(٢١٩) الأخباري: نسبة إلى الأخبار، ويقال: لمن يروي الحكايات والقصص والنوادر والأخبار؛ السمعاني، **الأنساب**، مج١، ص٩٢.

(٢٢٠) المسعودي، **مروج الذهب**، ج٥، ص٢٣٤ـ ٢٤١.

(٢٢١) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، مج١٤، ص ٣٦٠-٣٦١؛ السمعاني، **الأنساب**، مج١، ص٩٢.

(٢٢٢) القفطي، علي بن يوسف (ت، ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ط٢، ١٤٢٦هـ ــ ٢٠٠٥م، ج١، ص ٤٤.

(٢٢٣) ابن عساكر، **تاريخ**، ج١٣، ص ٣٤٧ ــ ٣٤٩؛ ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت، ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٢ هـ ــ ١٩٩٢م، ج١٣، ص٣٧٨؛ ابن منظور، **مختصر**،

ج٧، ص٦٠؛ الذهبي، **سير**، ج١٥، ص٣٠٩ ــ ٣١٠؛ بدران، **تهذيب**، ج٤، ص٢٤٢.

(٢٢٤) الكتاني، **ذيل تاريخ**، ص٨٠ ــ ٨١؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٥٥، ص١٠٢ــ ١٠٤؛ الذهبي، **سير**، ج١٥، ص٥٧٢ ــ ٥٧٣؛ ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج٢، ص٣٧٦.

(٢٢٥) سزكين، **تاريخ التراث العربي**، مج١، ص٣٠٣.

(٢٢٦) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، مج١، ص ٣٢٦؛ السمعاني، **الأنساب**، مج١، ص٩٢-٩٣؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج٥١، ص٥٧-٥٨؛ الحموي، **معجم الأدباء**، مج٥، ص١١٤.

(٢٢٧) ابن عساكر، **تاريخ**، ج ٥١، ص ٦٢ــ ٦٦؛ الذهبي، **العبر**، ج٢، ٣٥٠-٣٥١؛ الصفدي، **الوافي**، ج٢، باعتناء: س ديدرينغ، فيسبادن، فرانز شتاينر، ١٩٧٤م، ص ٤٥؛ المقريزي، **المقفى**، ج ٥، ص١٨٩؛ ابن طولون، **قضاة دمشق**، ص٣٤ــ ٣٥.

المصادر والمراجع:

أولاً – المصادر:

١- الأرمنازي، غيث بن علي بن عبد السلام الصوري (ت، ٥٠٩هـ/ ١١١٥م)، المجموع من المنتخب المنثور في أخبار الشيوخ من تاريخ دمشق وصور، براوية مؤرخ دمشق الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت، ٥٧١ هـ / ١١٧٥م)، جمعه واعتنى به: عمر عبد السلام تدمري، صيدا ـ بيروت، المكتبة العصرية، ط ١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٢- الأزدي، علي بن ظافر (ت، ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م)، أخبار الدولة الحمدانية بالموصل وحلب وديار بكر والثغور، حققته وقدمت له: تميمة الرواف، دمشق، دار حسان، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.

٣- الأسنوي، عبد الرحيم بن الحسن بن علي (ت، ٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠م)، طبقات الشافعية، تحقيق: عبد الله الجبوري، بغداد، مطبعة الإرشاد، ط١، ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠م.

٤- الإصطخري، إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي، (ت، ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة: محمد شفيق غربال، الجمهورية العربية المتحدة، دار القلم، ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م.

٥- ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي (ت، ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ضبطه وصححه ووضع فهارسه: محمد باسل عيون السود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٦- ابن الأكفاني، هبة الله بن أحمد بن محمد بن هبة الله (ت، ٥٢٤هـ / ١١٣٠م)، ذيل ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، تحقيق: عبد الله بن سليمان الحمد، الرياض، دار العاصمة، ط١، ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م.

٧- الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى (ت، ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م)، تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، حققه ووضع فهارسه: عمر عبد السلام تدمري، طرابلس، جروس برس، ١٩٩٠م.

٨- الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري (ت، ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، حققه وشرحه: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السعادة، ط٢، ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٦م.

٩- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت، ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٢ هـ ــ ١٩٩٢م.

١٠-حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي (ت، ١٠٦٧هـ / ١٦٥٦م)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، اعتنى به: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٩هـ ــ ٢٠٠٨م.

١١-الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت، ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ ــ ١٩٩١م.

١٢-ـــــــــــ معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ط٢، ١٩٩٥م.

١٣-ابن حوقل، محمد بن علي بن حوقل النصيبي (ت، نحو ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧م)، صورة الأرض، ليدن، مطبعة بريل، ط٢، ١٩٣٨م.

١٤-الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت، ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

١٥-ابن خلدون، عبد الرحمن (ت، ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٦-ابن خلكان، محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت، ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، (د.ت).

١٧-الخولاني، عبد الجبار بن عبد الله بن محمد (ت، بعد ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م)، تاريخ داريا ومن نزل بها من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، حققه وقدم له: سعيد الأفغاني، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١٨-الداني، عثمان بن سعيد (ت، ٤٤٤ هـ/ ١٠٥٢م)، التيسير في القراءات السبع، عني بتصحيحه: أوتوبرتزل، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١٩-الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك (ت، بعد ٧٣٦ هـ/ ١٣٣٥م)، كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السادس، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة، المعهد الألماني للآثار، ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١م.

٢٠-الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت، ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٢١-ـــــــــ سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٢٢-ـــــــــــــ العبر في خبر من غبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد، الكويت، وزارة الأعلام، ط٢، ١٩٨٤م.

٢٣-ـــــــــــــ كتاب تذكرة الحفاظ، وضع حواشيه: زكريا عميرات، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٤-الرازي، عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر التميمي (ت، ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م)، كتاب الجرح والتعديل، حيدر آباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ط١، ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م.

٢٥-الربعي، علي بن محمد (ت، ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م)، فضائل الشام ودمشق، حققه: صلاح الدين المنجد، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٩٥٠م.

٢٦-ابن زبر، محمد بن عبد الله بن أحمد الربعي الدمشقي (ت، ٣٧٩هـ / ٩٨٩م)، تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، دراسة وتحقيق: عبد الله بن سليمان الحمد، الرياض، دار العاصمة، النشرة الأولى، ١٤١٠هـ.

٢٧-السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت، ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، منشور ضمن كتاب علم التأريخ عند المسلمين، لـ فرانز روزنتال، ترجمة: صالح أحمد العلي، مراجعة: محمد توفيق حسين، بغداد، مكتبة المثنى بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٣م. وطبعة القدسي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢٨-ـــــــــــــ الجواهر والدرر، منشور ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين، لـ فرانز روزنتال، ترجمة: صالح أحمد العلي، مراجعة: محمد توفيق حسين، بغداد، مكتبة المثنى بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٣م.

٢٩-ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري (ت، ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٣٠-السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني (ت، ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م)، الأنساب، وضع حواشيه: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.
٣١-ـــــــ أدب الإملاء والاستملاء، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت).
٣٢- ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي (ت، ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، الجزء ١، قسم ١ + ٢، تحقيق: يحيى عبارة، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩١م.
٣٣-الشمشاطي، علي بن محمد العدوي (ت، بعد ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م)، الأنوار ومحاسن الأشعار، تحقيق: السيد محمد يوسف، الكويت، وزارة الأعلام، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.
٣٤- الصفدي، خليل بن أيبك (ت، ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات، فيسبادن، فرانز شتاينر،ج٢، باعتناء: س ديدرينغ، ١٩٧٤م؛ ج٣، باعتناء: س. ديدرينغ، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م؛ ج٥، باعتناء: س. ديدرينغ، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٧٠م. الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.
٣٥-ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري (ت، ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، طبقات الفقهاء الشافعية، هذّبه ورتبه واستدرك عليه: يحيى بن شرف النووي (ت، ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م)، بيّض أصوله ونقّحه: يوسف بن عبد الرحمن المزي (ت، ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م)، حققه وعلّق عليه: محيي الدين علي نجيب، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.
٣٦- الضياء المقدسي، محمد بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن المقدسي (ت، ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، "المنتقى من أخبار الأصمعي لأبي محمد بن زبر" ،

نشر: عز الدين التنوخي ، دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، مج١٣، ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٥م؛ مج١٤، ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٦م،.

٣٧-الطرسوسي، عثمان بن عبد الله (ت، ٤٠١هـ/ ١٠١٠م)، بقايا كتاب سير الثغور من خلال مخطوطة بغية الطلب لابن العديم، تقديم ودراسة: شاكر مصطفى، دمشق، دار طلاس، ط١، ١٩٩٨م.

٣٨-ابن طولون، محمد بن علي (ت، ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، قضاة دمشق، الثغر البسّام في ذكر من ولي قضاء الشام، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٩٥٦م.

٣٩-ابن عبد الهادي، محمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي الصالحي (ت، ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م)، طبقات علماء الحديث، تحقيق: أكرم البوشي، إبراهيم الزيبق، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

٤٠-ابن العبري، غريغوريوس بن أهرون الملطي (ت، ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، تاريخ الزمان، نقله إلى العربية: إسحق أرملة، بيروت، دار المشرق، ١٩٨٦م.

٤١-ابن العديم، عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت، ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٨م.

٤٢-ـــــــــ زبدة الحلب من تاريخ حلب، حققه وقدم له: سهيل زكار، دمشق، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧م.

٤٣-ـــــــــ الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري، دراسة وتحقيق: عبد العزيز حرفوش، (د. م)، دار الجولان، ط١، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م،

٤٤- ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت، ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو

اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.
٤٥-العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (ت، ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، رفع الأصر عن قضاة مصر، ملحق بكتاب الولاة وكتاب القضاة للكندي، تحقيق: رفن كست، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، (د.ت).
٤٦-ابن العماد، عبد الحَي بن أحمد (ت، ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الفكر، (د.ت).
٤٧-القشيري، محمد بن سعيد بن عبد الرحمن (ت، ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، تاريخ الرقة ومن نزلها من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين والفقهاء والمحدثين، عني بتحقيقه: إبراهيم صالح، دمشق، دار البشائر، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.
٤٨-القفطي، علي بن يوسف (ت، ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة، مكتبة المتنبي، (د.ت).
٤٩-ــــــــ إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ط٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.
٥٠-الكتاني، عبد العزيز بن أحمد (ت، ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م)، ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، تحقيق: عبد الله بن سليمان الحمد، الرياض، دار العاصمة، ط١، ١٤٠٩هـ.
٥١-الكتبي، محمد بن شاكر (ت، ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٣م.
٥٢-الكندي، محمد بن يوسف (ت، ٣٥٠هـ/ ٩٦١م)، كتاب الولاة وكتاب القضاة، تحقيق: رفن كست، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، (د.ت).

٥٣-المزي، يوسف بن عبد الرحمن (ت، ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، راجعه وقدّم له: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م.

٥٤-المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت، ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، التنبيه والإشراف، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٩٣م.

٥٥-ـــــــــ مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: شارل بلا، بيروت، انتشارات الشريف الرضى، ط١، ١٤٢٢هـ.

٥٦-المقريزي، أحمد بن علي (ت، ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)، المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٥٧-ـــــــــ إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٥٨-المنبجي، أغابيوس بن قسطنطين (القرن ٤هـ/ ١٠م)، المنتخب من تاريخ المنبجي، انتخبه وحققه: عمر عبد السلام تدمري، طرابلس، دار المنصور، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٥٩-ابن منظور، محمد بن مكرم (ت، ٧١١هـ/ ١٣١١م)، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: روحية النحاس وآخرون، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٦٠-ابن النجار، محمد بن محمود البغدادي (ت، ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، ذيل تاريخ بغداد، ملحق بتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٦١-النديم، محمد بن إسحاق (ت، ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)، الفهرست، ضبطه وشرحه وعلّق عليه وقدّم له: يوسف علي طويل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

٦٢-النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت، ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، حققه: محمد أمين، محمد أحمد، القاهرة، ١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م.

ثانياً – المراجع العربية:

١- أبيض، ملكة، التربية والثقافة العربية ــ الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٨٠م.

٢- بدران، عبد القادر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر، بيروت، دار المسيرة، ط٢، ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م.

٣- البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين «أسماء المؤلفين وآثار المصنفين»، اعتنى به: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٩هـ ــ ٢٠٠٨م.

٤- حاطوم، نور الدين، وآخرون، المدخل إلى التاريخ، "في التاريخ والمؤرخين منذ القديم حتى اليوم"، دمشق، مطبعة الإنشاء، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٥م.

٥- الخطيب، نشأت، التاريخ والمؤرخون العرب «تصور ومنهج»، بيروت، شركة النعمات التجارية، ط١، ١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م.

٦- خلوصي، إحسان بنت سعيد، أعلام الفكر في دمشق بين القرنين الأول والثاني عشر للهجرة، دمشق، دار يعرب، ط١، ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م.

٧- الدرع، مريم، موارد ابن العديم التأريخية ومنهجه في كتاب (بغية الطلب في تاريخ حلب)، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٢٦هـ ــ ٢٠٠٥م.

٨- الدوري، عبد العزيز، نشأة علم التاريخ عند العرب، الإمارات العربية المتحدة، مركز زايد للتراث والتاريخ، ١٤٢٠هـ ــ ٢٠٠٠م.

٩- سالم، السيد عبد العزيز، التاريخ والمؤرخون العرب، بيروت، دار النهضة العربية، ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م.

١٠-عباس، إحسان، شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨م.

١١-مصطفى، شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨٣م.

١٢-المنجد، صلاح الدين، معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط١، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

ثالثاً - المراجع المترجمة إلى العربية:

١- بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ج٣، نقله إلى العربية: عبد الحليم النجار، القاهرة، دار المعارف، ط٣، ١٩٧٥م.

٢- روزنتال، فرانز، علم التأريخ عند المسلمين، ترجمة: صالح أحمد العلي، مراجعة: محمد توفيق حسين، بغداد، مكتبة المثنى بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٣م.

٣- سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، مج١، نقله إلى العربية: محمود فهمي حجازي، فهمي أبو الفضل، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م.

٤- لويس، برنارد، ب. م. هولت، مؤرخو العرب والإسلام حتى العصر الحديث، نقله إلى العربية وقدم له: سهيل زكار، دمشق، دار التكوين، ٢٠٠٨م.

رابعاً ـ الأبحاث والمقالات:

١- دهمان، محمد أحمد، القاضي عبد الجبار الخولاني، دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، مج٢٦، ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م، ج٢.

٢- العش، يوسف، تاريخ الرقة ومن نزلها للقشيري، دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، مج١٧، ١٣٦١هـ ـ ١٩٤٢م، ج٢٥.

تطور العمران وهندسة البناء والتشييد بالأندلس في العصور الوسطى

الدكتور علي أحمد

قسم التاريخ

جامعة دمشق

كان الاهتمام بالعمران والبناء بالأندلس من السمات البارزة للعرب هناك، على الرغم من أن الأندلس كانت من أحفل البلاد بالعمارة والبنيان. ولا بد أن ذلك يعود في الأساس إلى التوجه الحضاري، الذي تحكم بالمسيرة العربية العامة حتى وقت متقدم من العصور الوسطى. وقد تفوق عرب الأندلس في هذا المجال إلى حدٍ كبير. وتمثل تفوقهم ببناء العديد من المدن التي ما زالت قائمة حتى يومنا في إسبانيا. ويُعد بعضها من أحسن المدن الأوروبية، وكذلك ببناء الكثير من القصور الملكية، التي ما زالت شامخة حتى اليوم تشهد على حضارة مبدعة ومتقدمة. هذا بالإضافة إلى بناء المساجد العملاقة في حجمها واتساعها وهندستها ورونقها. وسندرس كل فرع من هذه الفروع العمرانية بشكل مستقل عن الآخر، حتى نقف على حقيقة وعظمة ما أنجزه العرب بالأندلس في هذا المجال، وعلى ما يدُره ما تبقى من هذا المنجز الحضاري على إسبانيا من مالٍ وخير، ذلك لأن السياحة الثقافية التي تشكل الآثار العربية الباقية أساسها، تشغل حيزاً كبيراً في حركة السياح من مختلف أنحاء العالم باتجاه إسبانيا،

حتى يقف هؤلاء السياح على بعض منجزات حضارة كانت سيدة حضارات العالم في عصر ازدهارها.

١ – المدن:

لم تكن الأندلس بحاجة لبناء وإقامة مدن جديدة، حينما دخلها العرب في أواخر القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي. لذلك نرى أن العرب هناك سيبقون أكثر من مئة سنة دون أن يتحركوا في هذا الاتجاه، ذلك لأن المدن التي كانت قائمة بالأندلس كانت كافية لاستيعاب كل الأنشطة العربية. لكن الأمر تغير منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي بسبب تأثير بعض العوامل، التي تتعلق بالتطور العام في تلك الفترة من الزمن، والتي يمكن أن نحددها بعوامل عسكرية وعوامل اجتماعية وأخرى اقتصادية بحتة وكذلك سياسية. وسننوه بكل هذه العوامل في سياق الحديث التفصيلي عن هذه المدن.

بدأ ظهور المدن التي بناها العرب بالأندلس في عصر الإمارة الأموية(١). فبنيت ثلاث مدن هي مجريط (مدريد) ومرسية وطلمنكة. فمدينة مدريد بُنيت في الأساس لتؤدي وظيفة عسكرية بحتة من خلال موقعها المتقدم باتجاه شمال شرق وشمال إسبانيا. فهي قريبة من الثغرين الأعلى والأوسط. وكانت أهميتها العسكرية بالغة، ذلك لأنها شكلت إلى فترة زمنية طويلة قاعدة حشد عسكرية للجيوش العربية، التي كانت تنفذ عمليات عسكرية في شمال وشمال غرب إسبانيا، حيث تجمعت نواة المقاومة الإسبانية ضد الوجود العربي. إذا أردنا أن نفصّل في عملية بناء مدينة مدريد، فلا بد من القول أن فكرة بناء هذه المدينة تعود إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي كما ذكرنا، حينما تبين للعرب المسلمين أن الخط الدفاعي الواصل بين سرقسطة وطليطلة لم يعد من القوة والمنعة، بحيث يستطيع أصحابه الوقوف أمام اشتداد شوكة حركة الاسترداد الإسبانية، التي بدأت متماسكة وقوية في عصر ألفونسو الثالث الملقب بالعظيم، الذي

حكم من سنة (٢٥٢هـ/٨٦٧م حتى سنة ٢٦٩هـ/٨٨٣م). فقد تمكن هذا الحاكم الإسباني أن يسيطر على معظم شمال إسبانيا. وأصبح يشن هجمات قوية على مواقع العرب المجاورة. ولم يكن أمام الأمير الأموي محمد بن عبد الرحمن سوى التصرف بسرعة للرد على هذا الواقع الخطير. وتجسد رده في تعزيز قواته العسكرية في مدن الثغر من خلال العديد من القلاع والحصون.

كانت مدينة مدريد في بداية أمرها حصناً كبقية الحصون المجاورة لها. لكن سرعان ما تطور هذا الحصن حتى أصبح مدينة هامة كما يؤكد معظم الجغرافيين العرب. وكان اسمها القديم (مجريط). وتتألف هذه الكلمة من مقطعين: (مجرى) وهو لفظ عربي خالص، و(يط) ومعناه الكثير. وبهذا يكون معنى الكلمة: المدينة التي تكثر فيها القنوات الجوفية، التي كانت تزود أهل المدينة بما يحتاجون من المياه[٢].

إن أهم صعوبة واجهها العرب بمدينة مجريط هي ندرة الماء فيها. الأمر الذي حدا بهم للبحث الجاد عن مصدر مائي يزود المدينة بالمياه اللازمة. وتمكنوا من خلال معرفتهم الهندسية في مجال تمديد المياه أن يتغلبوا على هذه المعضلة، بأن عملوا على استنباط المياه من جوف الأرض ورفعها بآلات تشبه السواقي، التي كانت تستخدم على ضفاف الأنهار الكبرى في المشرق بخاصة. وهذه الآلات كانت تسمى النواعير. كذلك فقد زودوا مدينة مجريط بجزء من المياه التي عملوا على تجميعها في بحيرة صناعية قرب جبل (وادي الرمل)، وجُرت من هذه البحيرة إلى مدريد بواسطة قناة طويلة. وقد تجمعت مياه البحيرة من آبار غزيرة المياه حُفرت في منطقة وادي الرمل. وكانت أعلى من مدينة مدريد لتأمين انسياب المياه بسهولة. وقد عُدَّ هذا النظام الهندسي من مفاخر الابتكارات الهندسية العربية في إسبانيا في العصور الوسطى. وتألفت مدينة مجريط عند بنائها من قسمين رئيسين هما: القصبة وهي أمنع مواقع المدينة، وتقع على ربوة مرتفعة تطل على السهل المنبسط الذي يُدعى الفحص وفي شمال هذا الجزء يقع قصر الحاكم العربي، وهو الذي يقوم في موضعه الآن القصر الملكي. وإلى

الجنوب الغربي من أسوار القصبة يقع باب الفحص. يقابل هذا الباب من ناحية الشرق باب داخلي، ويسمى باب المدينة. أما المدينة فكانت تقع إلى الجنوب الشرقي من القصبة، وكانت محاطة بالأسوار ولها أربعة أبواب، باب فالنادو في الشمال وربما يعني في الجنوب الشرقي، وهو الطريق الذي كان يؤدي إلى بلنسية، وهناك باب رابع في الجنوب بمواجهة الساحة التي تُعرف بميدان الشعير، وهو الباب الذي كان يؤدي إلى طليطلة وغيرها.

ومع مرور الأيام تحولت مدينة مجريط (مدريد) إلى مدينة كبيرة، وأخذت تتحول من ثغر عسكري إلى مدينة آهلة بكل أنواع السكان، من تجار وحرفيين وعلماء وغير ذلك، فقد ذكروا أن تعداد بيوتها وصل إلى نحو /٢١٦٨/ بيتاً، ووصل عدد سكانها إلى نحو (١٣٫٠٠٠ نسمة)[٣]. وشهدت حركة اقتصادية نشيطة وبخاصة في مجال التجارة والصناعة، ودليل ذلك أن شوارعها القديمة ما زالت تحمل حتى اليوم أسماء أصحاب الصناعات المختلفة. واشتهر من هذه الصناعات على وجه الخصوص صناعة الأسلحة، ذلك لأن المدينة كما ذكرنا أنشئت لتكون ثغراً أو قاعدة عسكرية متقدمة. كما اشتهرت صناعة الفخار والأدوات المنزلية[٤].

ولمدينة مدريد العربية ماضٍ تليد فيه ذكريات طيبة، تعكس بشكل خاص عظمة هذه المدينة وأهميتها في فترة الازدهار العربي. من ذلك أنها كانت في عصر محمد بن أبي عامر، الذي حكم الأندلس معظم سني النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، من أهم الثغور وأحبها إلى قلبه. فكثيراً ما انطلق منها في رحلات نضالية مظفرة، وكثيراً ما عاد إلى قرطبة عن طريقها[٥].

ومن مدينة مدريد انطلقت ثورة عبيد الله بن عبد الجبار على الخليفة الأموي المستكفي بالله، الذي حكم بقرطبة سنة ونيف من (٤١٤-٤١٥هـ/١٠٢٤-١٠٢٥م)، وكان يُعرف من قبل قيامه بهذه الثورة بالغلام العطار[٦].

وفي عصر دول الطوائف كانت مدريد من نصيب طليطلة، التي كان بحكمها بنو ذي النون. وقد سيطر الإسبان على مدريد سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٦م) بقيادة ألفونسو السادس، بعد أن سيطر على الكثير من البلدان من حولها، مثال ذلك وادي الحجارة وطلمنكة وغيرهما. ولم يفلح المرابطون بعد نصرهم بمعركة الزلاقة في إعادة مدريد إلى أيدي العرب، وكذلك الموحدون على الرغم من المحاولات التي قام بها المرابطون بصورة خاصة(٧). منذ ذلك الحين أصبحت مدينة مدريد مركزاً استراتيجياً له خطره الكبير على الوجود العربي بإسبانيا، حينما كانت غارات الإسبان تنطلق منها.

من ناحية أخرى كانت مدريد مركز استقطاب لعدد كبير من الشخصيات العربية، التي اهتم أصحابها ونذروا أنفسهم لأعمال المرابطة والنضال ضد حركة الاسترداد الإسبانية، التي كانت تهدف في المقام الأول إنهاء الوجود العربي من إسبانيا. نذكر من هؤلاء إبراهيم بن محمد المعروف بابن القزازة. وعلى الرغم من علو مكانته في ميدان الفقه، فقد آثر حياة الجهاد والنضال والمثاغرة. فخرج إلى مدريد ومعه خمسة من تلاميذه القرطبيين. لكنه مات وهو في الطريق إلى مدريد(٨).

ومن هؤلاء المثاغرين محمد بن حنين الأشنجي، الذي كان مرابطاً بمدريد حتى وفاته في أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وموسى بن قاسم الطليطلي الذي كان من كبار العلماء بالحديث انتقل إلى مدريد للجهاد والمثاغرة خلال الفترة التي سبقت سقوطها،. وقد استشهد في الفحص (السهل) الذي يقع بجنوب شرق مدريد(٩).

ومن المغرب الكبير جاء إلى مدريد للمرابطة والجهاد نفر، يمكن أن نذكر منهم جساس الزاهد، الذي بقي بمدريد وقتاً طويلاً يمارس ما نذر نفسه له وهو الجهاد في سبيل الحرية(١٠).

ومن مدريد أيضاً خرج العديد من العلماء، الذين طارت شهرتهم في عالم العصور الوسطى، وما زالوا يذكرون في ميدان العلم حتى اليوم. لعل في طليعتهم شهرة

وعالمية العالم الفلكي مسلمة المجريطي، الذي قدم للإنسانية علماً جماً في مجال الفلك والتعرف على كثير من مظاهر الفضاء. وقد تطور علمه وتبلور في العديد من الحقائق العلمية التي استفادت منها أوربا والعالم على يد العالم الزرقالي فيما بعد.

هذه هي مدريد التي تُعد من أوائل المدن العربية، التي شيدها العرب بالأندلس في العصور الوسطى، وبقيت في أيديهم حتى أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، والتي تطورت فيما بعد حتى أصبحت من أعظم مدن إسبانيا على الإطلاق، بعد أن اختيرت لتكون عاصمة البلاد السياسية. وما زالت هكذا حتى اليوم.

المدينة الأخرى التي بُنيت في عصر الإمارة كانت مدينة مرسية بشرق الأندلس. وقد بُنيت قبل مدينة مدريد، ومع ذلك فقد تحدثنا عن مدريد في البداية، منطلقين في ذلك من أهمية هذه المدينة في الماضي والحاضر. فقد بُنيت مدينة مرسية في عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط، الذي حكم من سنة (٢٠٦هـ/٨٢٢م حتى ٢٣٨هـ/٨٥٢م) وكان بناؤها على أنقاض مدينة قديمة هي مدينة تدمير، التي كانت من نصيب المصريين، حينما قام أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي بتوزيع أجناد الأندلس على الأقاليم والمدن الأندلسية، التي تتناسب مع بيئة هذه الأجناد قبل انتقالهم إلى الأندلس، وقد حصل ذلك في أواخر عصر الولاة بالأندلس.

وقصة بناء هذه المدينة أن فتنة قوية اشتعلت على أساس قبلي عصبي بين القيسية واليمنية بتدمير في عصر عبد الرحمن الأوسط. واستمرت هذه الفتنة من سنة (٢٠٧-٢١٣هـ/٨٢٣-٨٢٩م)، ولم تهدأ حتى قام الأمير عبد الرحمن الأوسط بإعطاء أوامره بهدم مدينة تدمير وبناء مدينة جديدة هي مدينة مرسية، التي ما زالت حتى اليوم بشرق إسبانيا[١١]. وقد تم بناء هذه المدينة في سنة (٢١٦هـ/٨٣١م).

أما في عصر الخلافة الأموية فقد بُنيت عدة مدن ملكية وعسكرية وتجارية، اندثر بعضها، وما زال بعضها الآخر يعجُ بكل ألوان الحياة في إسبانيا. ومن أهم هذه

المدن مدينة الزهراء، التي بناها الخليفــة عبد الرحمن الناصر لدين الله، الذي كان في عصره من أعظم ملوك الدنيا. الأمر الذي جعله ينزع إلى تحقيق شيء على الأرض يعكس هذه العظمة، فأمر ببناء مدينة الزهراء لتكون دار الخلافة الجديدة التي أعلنها بالأندلس.

مهما يكن ففي الحديث عن بناء مدينة الزهراء وبانيها عبد الرحمن الناصر لدين الله، لا بد من القول أن الوقوف أمام ذلك البناء الرائع، وأمام تلك الحضارة المتقدمة التي أنشـــأته، وأمام العزيمة القوية والصادقــة التي أوجدت تلك الحضـــارة ليس لأجل المباهاة والمفاخرة بالمجد العظيم الذي كان لأجدادنا، لأنه في ثنايا ذلك المجد والتفاخر البراق اعترافٌ بالمهانة والتقصير، يسبب لنا الألم والحزن العميق. وإنما الذي ننشدهُ ونريده من خلال استعراض هذه الزاوية الصغيرة من تاريخنا المشرق، هو أن نتذكر ونحن نعيش وقتاً من أصعب الأوقات التي مرت بها أمتنا العربية، إلى أي مدى استطعنا أن نقود العالم ونوجهه في ميدان المدنية والعمران. وماهي المنجزات التي خلفناها ومنها مدينة الزهراء.

تولدت فكرة بناء الزهراء عند الناصر لدين الله بعد مرور ربع قرن تقريباً على وجوده بالحكم بالأندلس. ففي سنة ٣٢٥هــ/٩٣٧م ماتت له سرية فتركت مالاً كثيراً جداً[١٢]. فأمر الناصر أن يفك بذلك المال أسرى من العرب. لكنه لم يجد أسيراً واحداً فشكر الله على ذلك. وكانت الرغبة في العمران مستقرة يومئذ في قلوب رجال الدولة العربية وعقولهم. فقالت له الزهراء زوجته: اشتهيت لو بنيت لي مدينة سميتها باسمي وتكون خاصة لي. فكان ذلك أحد الأسباب القوية في دفع الناصر لدين الله إلى البدء بعملية بناء مدينة الزهراء. وأما السبب الأساسي في ذلك فيعود إلى رغبة أكيدة تولدت عند الناصر لدين الله، كي يخلِّد نفسه من خلالها. ولا بد أن هذه الرغبة تطورت أكثر بعد إعلان نفسه خليفة. الأمر الذي يفرض عليه أن يحيط نفسه بأبهة معينة من قصور وبناء للخدم والحشم والنساء ورجال الدولة من وزراء وغيرهم.

بنيت مدينة الزهراء إلى الشمال من مدينة قرطبة في السفح الجنوبي لجبل عروس على هيئة مستطيل طوله حوالي (١٥٠٠م وعرضه ٧٥٠م) وعلى ثلاثة مسطحات متدرجة في الارتفاع. وتبعد عن قرطبة نحواً من خمسة أميال، يجري بينهما نهر الوادي الكبير، الذي تقوم الزهراء على ضفته(١٣). وقد احتوت على أبنية وقصور مختلفة للخليفة والوزراء والنساء على هيئة ما كان بقرطبة.

والحقيقة إن بناء الزهراء كان أعجوبة من أعاجيب الدنيا في ذلك الحين. لم يخطر مثل مخططها على بال أحد المهندسين. فإذا خرج الإنسان من باب قرطبة الشمالي في الطريق الذي تقع على يساره رصافة عبد الرحمن الداخل سائراً على ضفاف الوادي الكبير، بين غابات كثيفة ورياض غنّاء واسعة، لا يلبث ساعتين أو ثلاثاً حتى يبدو له باب هائل في هيئته. وهو باب مدينة الزهراء الذي يتصل به من جانبيه سور عظيم يحيط بالمدينة وفيه ثلاثمائة برج حربي. فإذا دخل من هذا الباب، وصل حدائق غنّاء وساحات واسعة الأرجاء، تطل عليها من قصور أعيان المملكة ورجال الدولة مبانٍ رائعة. بعد ذلك ينتقل إلى باب الأقباء وهو أول أبواب القصر الخلافي. ثم بعد ذلك يأتي باب السدة الأعظم إلى غير ذلك من أمكنة(١٤).

وفي مدينة الزهراء قصر الخلافة، الذي صُرف عليه الكثير من المال لشراء الذهب والرخام والقرميد والعاج والآبنوس وما إلى ذلك. وبالقرب من هذا القصر مسجد كبير. فُرش جميعه بالرخام الخمري. تخير له الناصر لدين الله خطيباً عُرف بالصراحة والتقى وعدم المحاباة. هو القاضي منذر بن سعيد البلوطي، الذي وجه انتقاداته اللاذعة للخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله نتيجة صرفه على بناء هذه المدينة. وكان الخليفة يتقبل هذه الانتقادات بشيء من القبول والابتعاد عن ردات الفعل القوية(١٥).

اشـــتهرت مدينة الزهراء إضافة لما تقدم بأنها احتوت على حديقـــة للحيوانات. ربما كانت الأولى من نوعها في العصور الوسطى. كما اشتهرت بخزانتها العلمية التي أسسها الخليفة المتنور الحكم المستنصر، التي وُصفت على أنها من أعظم خزانات الكتب في العالم آنذاك. فقد احتوت على ٤٤ فهرسة في كل فهرسة ٢٠ورقة. ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط. ساعد على ذلك اهتمام الخليفة الحكم المستنصر بالعلم بصورة مميزة عن جميع حكام الأندلس. فقد كان عالماً صافي السريرة، عمل على جلب العديد من المؤلفات العلمية من خارج الأندلس غير مهتم بما يصرف على ذلك من أموال جمة[١٦].

استمرت عملية البناء فترة طويلة من الزمن، دامت أكثر من خمسة وعشرين عاماً، وقُدرت النفقة عليها بثلاثمائة ألف دينار في كل عام. أي أن هذه النفقة بلغت في عصر الناصر لدين الله سبعة ملايين دينار ونصف المليون[١٧].

بقيت مدينة الزهراء إلى ما قبل تسعين عاماً مضت، كانت ما زالت مندرسة بعد ذلك الذي حصل لها من تدمير في الفتنة. فبدأت الحكومة الإسبانية مشروعاً للبحث والتنقيب عن موقع هذه المدينة معتمدة على ما جاء بشأنها من أوصاف دقيقة في مؤلفات العلماء العرب، وبخاصة عند الإدريسي الجغرافي الشهير. وقد تمكن المنقبون بقيادة المهندس الإسباني (بلاسكث بوسكو) من اكتشاف بعض أسوار وأعمدة وجدران تتعلق بالمدينة نفسها أو بالقصور الملكية، التي كانت قد أُقيمت فيها، هذا بالإضافة إلى العديد من الأواني الخزفية وبعض الزخارف وقطع الرخام. وتعد الآثار المكتشفة من هذه المدينة على قلتها عامل جذب كبير لمجموعات سياحية ضخمة. تعول الحكومة الإسبانية على الاعتماد عليها هي وغيرها كمصدر هام من مصادر الدخل القومي الإسباني.

وبالجملة فإن مدينة الزهراء الأندلسية من المدن المتميزة، التي شيدها العرب بالأندلس. والتي تعدُّ من روائع ما أنتجته الهندسة العربية على الأرض الأوروبية في العصور الوسطى. خططها وأبدعها عقل عربي متحضر في زمن كان فيه العرب يتطلعون دوماً إلى زيادة مجدهم وإنتاجهم العلمي المتميز، بعد أن سيطر تيار العلم وزخمه على تفكيرهم وعقولهم وتصرفاتهم. فارتفعوا عن الصغائر والترهات، وظلوا هكذا حتى سقوط دولة الخلافة على حين غرّة وفي غفلة عن غدر الزمن. حينما عادوا للتمسك بالقبلية والطائفية والعصبية، وما زالوا حتى اليوم يتخبطون في مستنقع السقوط هذا، في وقت وصلت فيه الأمم التي كانت تحت أيديهم إلى ذروة المجد والحضارة والتقدم.

اهتم الناصر لدين الله[١٩]، ببناء مدينة عسكرية هامة، هي مدينة سالم حتى يجعلها قاعدة دفاعية في مواجهة دولة قشتالة الإسبانية، التي كانت تتطور بسرعة فائقة نحو تشكيل جبهة قوية من الإسبان، من أجل التخلص من الوجود العربي بشبه الجزيرة الإيبيرية. وتقع مدينة سالم إلى الشمال من مدينة مدريد بنحو ١٥٣كم على الطريق المؤدي من مدريد إلى سرقسطة في شمال شرق إسبانيا. وكانت هذه المدينة في العصر الروماني معروفة باسم أوسيليس. وحينما دخل العرب الأندلس تحول اسم هذه المدينة وتغير. وحملت اسم رجل مغربي قام بتطوير عمارة هذه المدينة. وهذا الرجل هو كما ذكرت المصادر الأندلسية سالم بن ورعمال المصمودي المعروف أيضاً باسم القائد سالم. ولكن هذه المدينة المثاغرة تخربت وتهدمت معظم أحيائها في عصر الأمير الأموي عبد الله، الذي حكم الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. وفي فترة حكم الناصر لدين الله الذي خلف هذا الأمير، أعيد ترميم هذه المدينة وبناؤها من جديد بإشراف أحد قادة الناصر العسكريين المشهورين. وهو مولاه غالب أو كما يُعرف أحياناً القائد غالب، الذي أصبح قائداً لهذه المدينة باعتبارها ثغراً ورباطاً متقدماً في مواجهة قشتالة، التي مثلت الخطر الأكبر على الوجود العربي

منذ عصر الناصر لدين الله. وستبقى مدينة سالم من أهم ثغور الأندلس في عصر الخلافة، وبخاصة في ظل قائدها المولى غالب، الذي انتهى حكمه على هذه المدينة في سنة (٣٦٧هـ/٩٧٨م) نتيجة خلافه مع الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر[٢٠]. ويبدو أن المنصور محمد بن أبي عامر كان يحب هذه المدينة المثاغرة. لأنه كان من أشهر الذين حكموا الأندلس اهتماماً بالجهاد والمرابطة والمثاغرة، فاختار أن يدفن فيها بعد مرض انتابه وهو في طريق عودته من إحدى غزواته الشهيرة في سنة (٣٩٢هـ/١٠٠٢م).

ومن المدن التي بناها الناصر لدين الله أيضاً، مدينة المرية على الساحل الجنوبي للأندلس بالقرب من غرناطة. وكان بناء هذه المدينة دليلاً كبيراً على ازدهار الاقتصاد العربي بالأندلس في عصر الخلافة الأموية وبخاصة التجارة، حيث أصبحت المرية من أهم الموانئ الأوروبية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في مجال التصدير والاستيراد.

شيدت هذه المدينة بأمر من الناصر لدين الله في سنة (٣٤٤هـ/٩٥٦م). وربما أُختيرت لأن تكون المرفأ الأكبر والأشهر بالأندلس. لأن هذا المرفأ محاط بكل عوامل الأمان الطبيعية. فهو محمي ضد هذه العوامل وبخاصة الرياح، مما يجعل السفن تقصده وترسو به بأمان. وكانت المراكب تقصد هذه المدينة من الشام والمغرب، تحمل إليها البضائع وبالعكس. وما كثرة الفنادق المخصصة لنوم الوافدين إليها واستراحتهم سوى دليل أكيد على غزارة ما يؤمها من التجار من المشرق والمغرب[٢١].

وتطورت مدينة المرية بسرعة فائقة بعد بنائها، كما يشير الحميري في الروض المعطار بقوله: "وقد كانت مراكب التجار من الإسكندرية والشام تقصد مدينة المرية وهي كثيرة الخيرات وفيها ألف فندق إلا ثلاثون فندقاً"[٢٢].

ازدادت أهمية هذه المدينة مع مرور الأيام، ليس فقط لأنها أهم الموانئ البحرية على سواحل الأندلس من الناحية التجارية، بل لأنها أصبحت أيضاً مدينة صناعيــة من الدرجــة الممتازة، مما عزز مركزها التجاري بشكل أكبر من ذي قبل. ففي الربع الأخير من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وهي فترة حكم المرابطين الأولى، كانت المرية قد أصبحت مستقراً لكل الصناعات بالأندلس تقريباً. يقول الحميري في الروض المعطار عن ذلك: "وكانت المرية أيام الملثمين مدينة الإســلام وبها من كل الصناعات كل غريبة، وكان بها من طراز الحرير ٨٠٠ طراز وتعمــل الحلل والديباج والأصبهاني والجرجاني والســتور الملكية والثياب... وكانت فيما تقدم تصنع بها من صنوف آلات النحاس والحديد ما لا يحد"[٢٣].

ويمكن أن نذكر للناصر أيضاً بناء مدينة لم تشتهر كثيراً، هي مدينة الفتح التي بناها سنة (٣١٨هـ/٩٣١م) مقابل مدينة طليطلة أو بالقرب منها. وكان ذلك على أثر فشله في دخول مدينة طليطلة، التي استعصت عليه في البداية. وما كان منه إلا بناء هذه المدينة، التي ظل مقيماً فيها يشرف على حصار طليطلة حتى سنة (٣٢٠هـ/٩٣٢م)، حينما تفاقمت أمور الطليطليين فسلموا مدينتهم لعبد الرحمن الناصر لدين الله على الرغم من طلب المعونة من الإسبان[٢٤]. ومنذ ذلك الحين لم يعد لهذه المدينة أي ذكر على الإطلاق. ولا بد أن ذلك يعود إلى شهرة وعظمة طليطلة كقاعدة للثغر الأوسط بالأندلس.

كانت مدينة الزاهرة آخر المدن التي أُنشئت في هذا العصر أي عصر الخلافة الأموية بالأندلس. وقام ببنائها الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر[٢٥]، بتأثير عقدة النقص عنده، وكذلك حب الظهور والمفاخرة والتشبه بالآخرين ولا سيما الخلفاء الأمويين. فحينما نجح في الوصول إلى حكم الأندلس سنة (٣٦٧هـ/٩٧٨م) أحب أن يخلد نفسه من خلال بناء هذه المدينة، كما فعل الناصر لدين الله صاحب مدينة الزهراء سابقة الذكر. فقرر بناء مدينة جديدة إلى الشرق من مدينة قرطبة بنحو ستة كيلو مترات،

لتكون قاعدة لحكمه تقيه من شر المعارضة التي كان على الدوام، يتوجس خيفة منها. وقد عاش ومات وهو يعاني من هاجس هذه المعارضة. ذلك لأنه كان يشعر بعدم شرعية حكمه على الإطلاق، لأنه ليس من العائلة الأموية.

استمر بناء مدينة الزاهرة نحواً من ثلاث سنوات انتهت في سنة (٣٧٠هـ/٩٨١م)، وقد ضمت قصر الحكم وقصور الوزراء ومكان إقامة الموظفين الآخرين. كما ضمت العديد من المنشـآت والمرافق علـى غرار ما كان بالزهـراء. ولكن ليس تماماً من حيث البذخ والفخامة وما إلى ذلك. وقد أقام فيها المنصور محمد بن أبي عامر طوال فترة حكمه وكذلك ابنه عبد الملك وابنه عبد الرحمن شنجول حتى أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ولكنها لم تلغ دور العاصمة الأولى قرطبة. وبقيت كما بقيت الزهراء من قبلها عبارة عن قصر كبير للحكم في ضاحية قرطبة الشرقية[٢٦].

وقد دمرت هذه المدينة في الفتنة الكبرى بالأندلس، التي أدت إلى سقوط الخلافة نهائياً. ويبدو أن التدمير كان كبيراً وشاملاً، ذلك لأنه أتى على المدينة برمتها. وهذا ما يعكس ضخامة الحقد على العامريين، الذين اغتصبوا حق الخلفاء الأمويين بالحكم. ولم يتمكن المنقبون الآثاريون أن يحصلوا على شيء من أساس أو بنيان هذه المدينة كما حصل بالنسبة لمدينة الزهراء التي اكتشف مخططها العام وبعض موجوداتها الأخرى.

وهكذا فإن ذكر هذه المدن في هذا الوقت بالذات، ما هو إلا مثال حيٌّ يعيدنا بسهولة ويسر إلى بعض الماضي العربي الحافل بالمجد والعطاءات، التي كانت نتيجة إيجابية من النتائج التي تمخضت عن تماسكنا ووحدتنا وسعينا لبناء ما ينفع الإنسانية جمعاء. فما أحوجنا نحن عرب هذا الزمن إلى روح التعاون والتعاضد والوفاق، لا لأجل السيطرة على شعوب الدنيا من جديد، بل لنشارك ولو بجزء يسير في عملية بناء صرح الحضارة الإنسانية المتسارعة النمو، والتي نقف على هامشها متفرجين، لا نملك عمل شيء بعد أن تقطعت أوصالنا بخناجر الفرقة والتشتت والإقليمية البغيضة.

٢ – بناء المساجد:

رغم أن الأمويين لم يكونوا يعطون المسألة الدينية ذلك الاهتمام الكبير، وكانوا أقرب إلى العلمانية أو ما يسمى بفصل الدين عن الدولة، رغم ذلك التوجه الطيب فإنهم صرفوا أموالاً طائلة على بناء المساجد، التي كانت تؤدي عدة وظائف اجتماعية في الأندلس في عصرهم، مثل تأدية فرض الصلاة وممارسة عملية التعليم. ذلك لأن المسجد في العصور الوسطى بقي المكان الأهم لممارسة عملية التدريس والتعليم بشكل عام.

ومن أهم المساجد التي بُنيت بالأندلس في الفترة الأولى من حكم العرب هناك، كان مسجد قرطبة الذي بدأ بتطويره ووضع أسسه الأمير الأموي الأول عبد الرحمن الداخل، الذي أراد أن يحاكي ما فعله أجداده الأمويون بالمشرق، ولا سيما الوليد بن عبد الملك الذي بنى المسجد الأموي بدمشق. والمسجد الأقصى بالقدس، ووسع المسجد النبوي بالمدينة المنورة. وقد أراد عبد الرحمن الداخل أن يكون مسجد قرطبة صورة طبق الأصل عن مسجد بني أمية بدمشق، ذلك لأن هذا الأمير حاول على الدوام، أن يجسد الحياة الشامية على أرض الأندلس قدر إمكانه في كافة المجالات. وقد انتهى عبد الرحمن الداخل من بناء هذا المسجد في سنة (١٦٩هـ/٦٨٥م). وجاء بناؤه مشابهاً إلى حدٍ كبير بناء مسجد دمشق الكبير، وبخاصة في بناء العقود المزدوجة التي تساعد على ارتفاع السقف، ثم وضع المئذنة وفي نواحٍ أخرى[٢٧].

وتتالت الزيادات على هذا المسجد في عصر الأمراء والخلفاء الأمويين، الذين رأوا في هذه الزيادات ضرورة دينية كبيرة، وبخاصة بعد أن ساد المذهب المالكي بالأندلس كمذهب وحيد[٢٨]. ويرى فقهاء هذا المذهب أنه لا يجوز للمسلمين أن يصلوا صلاة الجمعة إلا في مسجد واحد ضمن المدينة الواحدة. هذا بالإضافة إلى أن عدد المسلمين كان في حالة ازدياد مع مرور الزمن. ولم تنته الخلافة الأموية بالأندلس حتى أصبح

مسجد قرطبة من أعظم مساجد الدنيا في العصور الوسطى، من حيث ضخامته اتساعه، ومن حيث رونقه ودقة صنعته وتنفيذه وكلفته المادية.

وحينما جاء الأمير هشام الرضا إلى الحكـــم بعد وفاة والده عبد الرحمن الداخل، اهتم بمسجد قرطبة الكبير الذي أسسه والده اهتماماً كبيراً. وتجسد ذلك على أرض الواقع بتوسعة هذا المسجد. فأضاف إليه المئذنة والميضأة وبعض السقائف. وهذا الأمر ليس غريباً من الأمير هشام الرضا، إذا عرفنا أنه كان رجلاً متديناً بعكس والده وبعكس ابنه الحكم الربضي.

وفي عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط، جرت على المسجد الأموي بقرطبة زيادة كبيرة من ناحية المحراب باتجاه الجنوب. وقيل أن عرض هذه الزيادة بلغ خمسين ذراعاً. وبلغ طولها مئة وخمسين ذراعاً. وبلغ عدد السواري في هذه الزيادة ثمانين سارية. ثم أمر بعد ذلك بنقل المحراب القديم إلى نهاية جدار القبلة الجديد الذي وصلت إليه الزيادة. وقد حصلت هذه الزيادة الهامة في سنة (٢٣٤هـــ/٨٤٩م) أي قبل وفاة الأمير عبد الرحمن الأوسط بأربع سنوات[٢٩]. كذلك فقد اهتم الخلفاء الأمويون بزيادة هذا المسجد أحياناً أخرى، وبترميمه أحياناً أخرى. ففي عصر الخليفة الناصر لدين الله وُجد أن المئذنة التي بناها الأمير هشام الرضا، بدأت بالتصدع. فأمر الخليفة الناصر لدين الله بإزالتها وبنائها من جديد وزيادة ارتفاعها السابق، الذي وصل إلى أربعين ذراعاً. فأصبحت ثمانين ذراعاً وبلغ عدد أدراج كل مطلع حتى نهاية المئذنة مئة وسبع درجات، وحصل ذلك في سنة (٣٤٠هـــ/٩٥٢م).

لكن ما حدث في زمن ابنه الحكم المستنصر كان أكبر بكثير. وقد تجسد ذلك بزيادة كبيرة بهذا المسجد في قسمه الجنوبي. وهي زيادة جاءت لتواكب الزيادة الكبيرة في عدد المصلين بهذا المسجد. كما زوده بالماء العذب من عين ماء بجبل قرطبة، بواسطة الهندسة المائية التي كانت متقدمة في هذا العصر. وهي التي سنتحدث عنها

فيما بعد بالتفصيل. وهي هندسة الفقارات والخطارات، التي اعتمدت أنابيب من فخار وغيره[٣٠].

أما الزيادة الأخيرة في مسجد الأمويين بقرطبة، فقد نفذها الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر في الجانب الشرقي من المسجد، مما اضطره إلى هدم العديد من البيوت في هذه الجهة، بعد التعويض لأصحاب هذه البيوت بما يوازي قيمة بيوتهم. وقد حصلت هذه الزيادة في سنة (٣٨٠هـ/١٠٠١م)[٣١]. وكان المنصور يريد على الدوام أن يرضي رجال الدين والعامة. لذلك فإن إقدامه على هذه الزيادة المكلفة مالياً، كان من أجل ذلك.

هذا ومن الجدير بالذكر، أن الحكام الأندلسيين حتى عصر الخلافة، لم يحصروا اهتمامهم بمسجد قرطبة فحسب. بل أمروا ببناء العديد من المساجد بقرطبة وخارجها، وشاركتهم في ذلك بعض نسائهم وجواريهم.

لكن العصور التالية لم تشهد ذلك الاهتمام ببناء مساجد تماثل مسجد قرطبة، باستثناء عصر الموحدين الذي شهد بناء مسجد كبير بإشبيلية، قيل أنه يفوق في حجمه واتساعه أي مسجد آخر بالأندلس. وقد بني هذا المسجد في الفترة بين (٥٦٧-٥٧٠هـ). وفي عام ٥٨٠هـ/١١٨٥م أمر الخليفة أبو يعقوب المنصور ببناء ملحقات لهذا المسجد. وأشرف على ذلك المهندس الذي أُشتهِر في عصر الموحدين، وهو أحمد بن باسة الذي أبدع بصنع المصاعد إلى أعلى مئذنة بالجامع على طريقة السطوح المائلة. كما صُنعت صومعة لهذا المسجد. قيل أنه لا يوجد نظير لها في المساجد الأخرى. فهي متميزة في ارتفاعها وفي طريقة صنعها العجيبة. وما زالت الصومعة قائمة بإشبيلية ويسميها الأسبان الخيرالدا أي الدوارة[٣٢].

٣ – القصور:

كانت عادة بناء القصور بالأندلس وبخاصة في عصر الإمارة والخلافة الأموية استمراراً لما كان سائداً في عصر الأمويين بالمشرق. حيث بنوا العديد من القصور في سورية والأردن وفلسطين وغيرها. وأمضوا معظم حياتهم في هذه القصور، رغم ازدهار عاصمتهم دمشق. وكان عبد الرحمن الداخل مؤسس الإمارة الأموية بالأندلس، أول من بنى قصراً بجوار العاصمة قرطبة تقليداً لأجداده الأمويين. ذلك لأن هذا الأمير كان يريد أن يجسد الحياة الأموية بالمشرق على أرض الأندلس، متأثراً بذلك بتيار حنين إلى المشرق لم يفارقه طوال حياته، رغم ما كان ينعم به بالأندلس من حياة رافهة في طبيعة مناسبة وفي بيئة جميلة بكل مظاهرها وأشكالها.

ويظهر ذلك الواقع من خلال التسمية، التي أطلقها على أول قصر ريفي في تاريخ العالم الغربي فقد سماه قصر الرصافة أو منية الرصافة، وذلك تيمناً برصافة جده هشام بن عبد الملك الذي تربى في كنفه بمحافظة الرقة السورية اليوم. وتقع هذه المنية إلى الشمال الغربي من قرطبة في سفح جبل قرطبة. وكان عبد الرحمن الداخل يقضي فيها معظم أيام الصيف. وكانت تؤدي وظيفة هامة بالنسبة له. وهي الرغبة في الابتعاد عن الازدحام والخلود إلى حياة الهدوء والاستمتاع بمباهج الطبيعة غير المتكلفة أو المصطنعة. كما قام ابنه عبد الله ببناء منية أخرى ببلنسية في شؤون الأندلس، سماها أيضاً منية الرصافة، التي ما تزال موجودة حتى اليوم[٣٣].

تتالى بعد ذلك ظهور القصور الريفية أو المنى، وذلك تقليداً لعبد الرحمن الداخل الذي يُعد الرائد في مجال نقل الكثير من مظاهر الحياة الشرقية إلى الأندلس. فقد بنى عبد الرحمن الأوسط قصراً جديداً بجوار قصر الإمارة بقرطبة، وقد اعتنى ببنائه أكثر من عبد الرحمن الداخل، الذي كان قصره قريباً إلى حياة البساطة والابتعاد عن مظاهر الترف والبذخ. فقد بنى عبد الرحمن الأوسط العديد من الأبراج في قصره، وغطاها

بالزجاج الشفاف ليتمكن من كشف المناظر الطبيعية، التي يطل عليها القصر ولا سيما منظر السفن وهي تسير عبر الوادي الكبير. وأضاف إلى ذلك أن أمر ببناء قصر لبعض جواريه المحببات إلى قلبه، سماه قصر أو دار المدنيات(٣٤). وقد بُني هذا القصر بمدينة قرطبة حُباً وتقديراً من الأمير عبد الرحمن الأوسط لمسائل الموسيقى والغناء وما يتصل بذلك، لأن اللواتي نزلن به كنَّ من المغنيات المقربات إليه. وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على مدى الرُقي والتقدم، الذي وصله العرب المسلمون بالأندلس، فكانوا رسل حضارة حقيقيين إلى أوروبا والعالم. وحينما خبت هذا الروح الطليعية المتحضرة، خبت شمس العرب وبدا ظلامهم قاتماً عكسته مظاهر الجهل والتعصب الديني والتغييب المستمر. وهي مظاهر كلفت الأمة العربية كثيراً، حينما سببت لها مزيداً من القهر والذلة والتقهقر والتدهور وما إلى ذلك من أمور مجحفة ومؤلمة.

نشطت عملية بناء القصور في عصر دويلات الطوائف(٣٥)، حتى أصبح ذلك ملمحاً مميزاً لحكام هذا العصر غير الميمون. ويرجع سبب هذا النشاط في المقام الأول إلى حب الظهور والتميز، ذلك لأن حكام دويلات الطوائف كانوا غير متوافقين، وبالتالي فقد سعى كل واحد منهم بشتى الطرق إلى أن تبدو دولته بمظهر عام يتميز عن كل الدويلات المجاورة. وقد انعكس هذا الواقع بجزء كبير منه في إقدام حكام الطوائف على التنافس في بناء القصور الحكومية، التي أرادوا من خلالها أن يبرهنوا على عظيم سيادتهم وسلطانهم. ورغم أن كل حاكم من هؤلاء الحكام بنى لنفسه قصراً، كي يكون داراً لحكومته وعاصمة لدولته، فإن بعض هذه القصور تميز عن البقية بعدد من الملامح، التي جعلته محور اهتمام الكتّاب والمهتمين، على الرغم من أن هناك عبارة عامة كثيراً ما ذكرها الكتاب، حينما كتبوا عن هذه القصور هي (تُحار فيه الأبصار). ومن أمثلة هذه القصور المتميزة، قصر أبي يحيى محمد بن معن بن صمادح حاكم المرية، الذي قام ببناء قصر بديع في موقعه العام وفي أجزائه

المختلفة. فقد حرص أن يكون هذا القصر في موقع متوسط بين الجبل والبحر، وأن يكون في وسط بستان ذي أرض خصبة، تجود فيها كل الثمار التي جلبت إليه من الشرق والغرب. وكان على عدة طوابق بحيث كان الجالس في أحدها، يتمتع بسهولة بمشاهدة ما يجري في مرفأ المرية من حركة للسفن القادمة والمغادرة، على اعتبار أن مرفأ المرية أصبح منذ بنائه في عصر الناصر لدين الله الأموي، أحد أكبر وأنشط المرافئ بجنوب غرب أوروبا أي في إسبانيا والبرتغال. وقد بُلطت أرض هذا القصر بالرخام الجميل، وزينت جدرانه بالنقوش والزخارف الأنيقة. وكان من بينها زخارف ذهبية(٣٦).

وحينما انفرد المأمون بن ذي النون بحكم مدينة طليطلة في عصر الطوائف، بنى لنفسه قصراً بديعاً للغاية، عكس صورة البذخ الكبيرة التي ركز عليها المأمون. فاستخدم في هذا القصر الكثير من المرمر في العديد من أقسامه، وكذلك الزجاج الملون بعدة ألوان. وزينت أماكن عديدة أيضاً في هذا القصر بالذهب والفضة وصور الطيور والحيوانات(٣٧).

كما بنى المعتمد بن عباد بإشبيلية قصراً مماثلاً من حيث البناء والحجم. ولكنه كان متفوقاً من حيث مظاهر الترف والبذخ. فقد احتوى هذا القصر على تمثال لفيل تقذف منه الماء باتجاه بركة القصر، وتمثال لجمل صنع من البلور كانت عيناه عبارة عن ياقوتتين جمليتين. أضف إلى ذلك فقد زُين بنفائس أخرى(٣٨).

لم يقتصر البذخ في هذه القصور على الملامح الخارجية منها. بل شمل ذلك الحياة اليومية التي كانت تُعاش وتُمارس داخل هذه القصور. نذكر من ذلك حرص المعتمد ابن عباد علـــى تحقيق حلم جاريته الرميكية، التي كان يهيم بها غرامـــاً وحباً. وقد تجسد حلم هذه الجارية بإعادة صورة حياتها السابقة قبل أن تأتي إلى قصر المعتمد، بأن يهيئ لها أرضاً موحلة لتضع فيها أقدامها كما كانت تفعل في الماضي. فأمر لها

المعتمد بذلك. لكنه أمر بأن يكون الطين من معجون الكافور والعنبر. وقد كانت تجري بعض الصور المشابهة في قصور بني ذي النون وغيرها(٣٩).

وقد تطورت هذه القصور مع الأيام، حتى أصبحت في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي مراكز بحوث متقدمة من أجل تطوير الزراعة بكل أنواعها. وكان من رواد هذا البحث، العالمان العربيان ابن البصال وابن العوام، اللذان شكلا ثورة علمية حقيقية في مجال التطوير الزراعي بالأندلس، ساعدهما في ذلك أن القصور وبخاصة بإشبيلية وطليطلة، كانت تمتلك الأراضي الخصبة المناسبة لإجراء التجارب الزراعية على مدار السنة.

وفي أواخر الحكم العربي بالأندلس، الذي مثله بنو الأحمر بغرناطة وما حولها، شهدت غرناطة عملاً هائلاً في مجال القصور الحكومية، تجسد على أرض الواقع بقصور بني الأحمر في منطقة الحمراء بغرناطة نفسها(٤٠).

ترافقت هذه المنجزات الكبيرة مع ظهور نظام هندسة متقدم في مجال الري والسقاية وإيصال المياه من مناطق الوفرة إلى مناطق القلة والحاجة. هو نظام الفقارات أو الخطارات، الذي ظهر في الأندلس منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. ففي هذا القرن توصل المهندسون العرب إلى ابتكار من أهم وأعظم الابتكارات العربية في مجال هذه الهندسة المتقدمة. تجسد هذا الابتكار على أرض الواقع في نظام القنوات الجوفية، الذي ساعد على إيصال المياه إلى مدينة مجريط (مدريد الحالية)، على أثر الانتهاء من بناء هذه المدينة من وادي الرمل إلى الشمال منها. فقد حفرت آبار غزيرة المياه، ووضعت في قعرها قنوات امتدت حتى مدينة مدريد. وهي تنحدر من الأعلى إلى الأسفل. وقد انتشر هذا النظام تباعاً في عدد من المدن الأندلسية. وقد كانت القنوات الجوفية تتألف من قناة ضخمة، تُعد هي الأم، ومنها تتفرع داخل المدينة شبكة معقدة من قنوات صغيرة فرعية. وفي كل عقدة يتجمع عندها عدد من تلك الفروع مقام

خزان أو مستودع، يُجتهد في حمايته ووقايته بالطوب والفخار. وهذه الخزانات هي التي يتحكم منها المهندسون والخبراء في توزيع الماء توزيعاً عادلاً بين الأحياء والمنازل والحدائق العامة والخاصة. وتُبنى عليها صهاريج مقفلة بأبواب وقضبان من الحديد. لا يسمح إلا للقنواتي الإشراف عليها، الذي يُوكل إليه الصهريج ويكون مسؤولاً عنه ويحتفظ بمفتاحه. وهناك صهاريج عامة لسقيا الناس والبيوت، وتكون أحياناً على الأرض وأحياناً أخرى في باطن الأرض، إذا كانت القناة التي تمدها على عمقٍ شديد. وحينئذ لا يوصل إليها إلا بسلالم، تصل في بعض الأحيان إلى نحو عشرين درجة[٤١].

وفي عصر المرابطين[٤٢]، اُشتهر في ميدان هذه الهندسة، المهندس عبد الله بن يونس الأندلسي، الذي نقله المرابطون من الأندلس إلى المغرب بعد فترة وجيزة من دخولهم إلى الأندلس، وكلفوه بتنفيذ عدد من المشاريع المائية في المغرب الأقصى، وخاصة في مدينة مراكش عاصمة دولتهم.

ففي هذه المدينة قام المهندس عبد الله بن يونس بابتكار نظام جديد لجر المياه من الأماكن البعيدة في جوف الأرض، ذلك لأن مدينة مراكش كانت تفتقر إلى المياه. ويذكر الإدريسي أن السلطان المرابطي، أُعجب بما نفذه ابن يونس بمراكـــش. فأمر له بعطاء جزيل. ومنذ ذلك الحين بدأ العمران يتسع بمدينة مراكش، وترافق ذلك مع ازدياد لافت في عدد المروج والحدائق وأماكن الخضرة، وأصبحت عاصمة للدولة المرابطية ومن بعدها للدولة الموحدية[٤٣].

وما زالت هذه الشبكة الواسعة من القنوات الجوفية باقية بمدينة مراكش، وبلغ عددها نحواً من ثلاثمائة وخمسين قناة. غير أن الإهمال لحقها في الفترة الأخيرة.

أما في عصر الموحدين[٤٤]، فقد امتاز المهندسون الأندلسيون بمقدرة فائقة في عمليات تسريب المياه في أجواف الأرض حسب أصول حسابية دقيقة. فحينما تقرر جر المياه

لسقي إقليم البحيرة بإشبيلية، اعتمد المهندسون على نظام هندسة الفقارات هذا[٤٥]. وفي إشبيلية أيضاً نجح المهندس يعيش المالقي في تسريب المياه إلى داخل قصور البحيرة الملكية، وإلى داخل مدينة مجاورة عُرفت بقلعة جابر. وكذلك نفذ بوسط إشبيلية خزاناً مائياً ضخماً وبالتحديد بحارة كانت تدعى (ميور)[٤٦].

ويبدو أن هذا النظام الهندسي الراقي، كان قد انتشر في عدد من المناطق الأندلسية. ومن أهم هذه المناطق مدينة بلنسية وتوابعها بشرق الأندلس[٤٧]. حيث ما زالت تُعقد بمدينة بلنسية، محكمة أهلية لا تتدخل فيها الحكومة الإسبانية، ومهمة هذه المحكمة توزيع المياه بالتساوي والعدل بين الفلاحين عبر قنوات دقيقة، تفي بأغراض عمليات الري السقاية من كافة الجوانب.

وبالجملة فقد كانت منجزات العرب في مجال العمران والبناء والتشييد من أهم ما أنجزوه في المجالات كافة. ذلك لأن ما تبقى من هذه المنجزات اليوم، يُعد من روائع العمارة العالمية في كل العصور من جهة. ومن جهة ثانية يُعد من أهم مصادر الدخل القومي الإسباني، وذلك نتيجة لزيارة ملايين السّياح للمدن والقصور والمساجد والمرافق العربية في إسبانيا. وهي أي المنجزات إضافة لكل ذلك، تدل دلالة واضحة على مقدرة العرب على الإبداع والعطاء، إذا تعاونوا مع بعضهم بعضاً، وتعالوا على كل الجراح والمشاكل، التي فرقت صفوفهم في الماضي في مغرب الدولة العربية ومشرقها على حدٍ سواء، وما زالت كذلك حتى يوم الناس هذا.


مصور الأندلس

الهوامش

(١) - بدأ هذا العصر سنة ١٣٨هـ، وانتهى سنة ٣١٦هـ،

(٢) F.W. Robins, the story of water supply. Oxford University Press 1946.Pp. 116-118

(٣) - محمود علي مكي، **مدريد العربية**، طبعة وزارة الثقافة المصرية، ص ٧٤ وما بعدها.

(٤) - محمود علي مكي، المرجع السابق، ص ٨٣ وما بعده.

(٥) - ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج ٢، ص ٢٦٥.

(٦) - ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، نشر ليفي بروفنسال، طبعة القاهرة، ١٩٤٨، ص ٩٢.

(٧) - ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ج ٢، ص ٨٥، السلاوي، **الإستقصاج**، ج ٢، ص ٥٩

(٨) - ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، الترجمة رقم ٢، ابن القوطية، **تاريخ علماء الأندلس**، الترجمة رقم ١٠.

(٩) - ابن بشكوال، **كتاب الصلة**، الترجمة رقم ١٢١٩.

(١٠) - محمد علي مكي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد عن كتاب أحكم السوق ليحيى بن عمر الأندلس، طبعة ١٩٥٦، ص ٨٢.

(١١) - الحميري، **الروض المعطار**، ص ١٨١، ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج ٢، ص ١٢٤ وما بعدها.

(١٢) – المقري، **نفح الطيب**، ج ١، ص ٥٢٣، سعد زغلول عبد الحميد، **العمارة والفنون في دولة الإسلام**، طبعة الإسكندرية، ص ٣٢١ وما بعدها.

(١٣) – ابن عربي، **محاضرة الأبرار**، ج ١، طبعة دار السعادة بالقاهرة، ١٣٢٤هـ، ص ١٤٩، المقري، **نفح الطيب**، ج ١، ص ٥٢٣.

(١٤) – ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج ٥، ص ٢٦.

(١٥) – ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص ٢٨، المقري، **نفح الطيب**، ج ١، ص ٥٢٧.

(١٦) – ابن الآبار، **التكملة لكتاب الصلة**، ج ١ ص ٢٧٦، ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج ٢، ص ٢٣٣، النباهي – المرقبة العليا، ص ٦٩-٧٠.

(١٧) – – المقري، **نفح الطيب**، ج ١، ص ٥٦٤، ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج ٥، ص ٢٦.

(١٩) – هو أول خليفة بالأندلس استمر حكمه من سنة ٣٠٠ إلى ٣١٦هـ كأمير ومن سنة ٣١٦-٣٥٠ كخليفة.

(٢٠) – ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص ٤٦٦، ابن عذاري، **البيان المغرب**.

(٢١) – الإدريسي، **صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**،طبعة ليدن، ١٨٦٤، ص ١٩٢.

(٢٢) – الحميري، **الروض المعطار**، ص ٥٣٨.

(٢٣) – الحميري، **الروض المعطار**، ص ٥٣٨.

(٢٤) – ابن حيان، **المقتبس**، ص ٨٤.

(٢٥) – استطاع أن يحكم الأندلس بعد وفاة الحكم المستنصر من سنة ٣٦٧ إلى سنة ٣٩٢ هـ.

(٢٦) – الحميري، **الروض المعطار**، ص ١٨١ ومابعدها، ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج ٢، ص ٢٠٠ وما بعدها، ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص٤٦٦.

(٢٧) – ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج ٢، ص ٧٢.

(٢٨) – بدأت هذه الزيادة منذ عصر الأمير هشام الرضا الذي حكم من ١٧٢-١٨٠هـ.

(٢٩) – ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج٢، ص٨٢ و ٢٣٠. عبد العزيز سالم، **المساجد والقصور في الأندلس**، ص ١٩ وما بعدها.

(٣٠) – أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ٢١٢.

(٣١) – ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج٢، ص ٢٨٨، ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص ٧٦.

(٣٢) – ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص ٤٦١ وما بعدها.

(٣٣) – أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ١٠٨.

(٣٤) – انظر إلى كتابنا، **الاصطلاحات الحضارية**، مادة دار المدنيات.

(٣٥) – بدأ هذا العصر بالأندلس سنة ٤٢٢ هـ، وانتهى سنة ٤٨٤ هـ.

(٣٦) – العذري، **ترصيع الأخبار**، ص ٨٤-٨٥.

(٣٧) - ابن بسام، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، ق ٤، ج ١، ص ١٠٢ وما بعدها.

(٣٨) - المقري، **نفح الطيب**، ج ٥، ص ٣٩٣ وما بعدها.

(٣٩) - ابن بسام، المصدر السابق، ق ٤، ج ١، ص ١٠١-١٠٢.

(٤٠) - انظر عن هذا القصر، سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ٣٢٣ وما بعدها، ويُعد هذا القصر من أهم مخلفات العرب بالأندلس على صعيد العمارة، وبالتالي فهو من أهم المعالم التي يقصدها السياح الأوروبيون وغيرهم.

(٤١) - انظر خايمه أوليفر آسين، **تاريخ اسم مدريد**، ص ٨٩ و.

(٤٢) - بدأ هذا العصر سنة ٤٨٤، وانتهى سنة ٥٤٣هـ.

(٤٣) - محمود مكي، **مدريد العربية**، طبعة وزارة الثقافة بمصر، ص ٥٢، الإدريسي، **نزهة المشتاق**، نشر راينهاث دوزي خويه، ص ٦٨.

(٤٤) - بدأ هذا العصر سنة ٥٤٣ هـ وانتهى سنة ٦٦٨ هـ.

(٤٥) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ج ٢، ص ٤٤٨.

(٤٦) - ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٦٨ وما بعدها.

(٤٧) - ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٦٤ وما بعدها، الحميري، الروض المعطار، ص ٥٤٠.

المصادر والمراجع

١ – ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٦.

٢ – ابن الأثير، الكامل في التاريخ، طبعة صادر، بيروت، ١٩٦٥و ١٩٦٦.

٣ – آنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٥٥.

٤ – الحميري (محمد بن عبد المنعم) الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار العلم للطباعة، بيروت، ١٩٧٥.

٥ – شكيب أرسلان، تاريخ غزوات المغرب، طبعة مصر، ١٩٥٢.

٦ – العبادي (أحمد مختار) في تاريخ المغرب والأندلس، طبعة دار المعارف.

٧ – ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق س. كولان وليفي بروفنسال، وإحسان عباس، طبعة ليون١٩٤٨، وبيروت ١٩٦٧.

٨ – ليفي بروفنسال، تاريخ الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، القاهرة بدون تاريخ.

٩ – المقري التلمساني (أحمد بن محمد) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٦٨.

١٠ – مؤلف مجهول، الأخبار المجموعة في فتح الأندلس، وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، طبعة مدريد ١٩٦٧.

١١ – يوسف فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، طبعة أولى، دار الجيل، بيروت ١٩٩٣.

12 - CF. Edward Gibbon, The decline and Fall of the Roman empire. London 1993.

13 - F.W. Robins, the story of water supply Oxford university Press 1946.

14 - Montgomery Wat, A story of Islam Spain.

الوحدة بين مصر والشام في عهد أحمد بن طولون

(٢٥٤-٢٩٢هـ/ ٨٦٨-٩٠٥م)

الدكتور محمد زيود

قسم التاريخ

جامعة دمشق

هذا البحث يلقي الضوء على أحد القادة الأتراك البغدادي المولد، والذي نشأ في سامراء وكبر في "طرسوس"، وكان نموذجاً للمجاهد المسلم الذي امتاز عن أقرانه الأتراك بالسمعة الحسنة والأخلاق الطيبة، فمن هو هذا الشاب التركي "ابن طولون"، والمؤسس لأول وحدة بين مصر والشام في العصر العباسي؟.

المولد والنشأة (٢٢٠-٢٧٠هـ/ ٨٣٥-٨٨٣م)

يُنسَبُ أحمد بن طولون(١)، مؤسس الدولة الطولونية في مصر والشام التي حكمت حوالي ثمانية وثلاثين سنة، إلى "طولون" والد "أحمد". "وطولون" هذا من الأتراك الذين كانوا يقيمون في بلاد التركستان، ومن أسرة نشأت في "بخارى"، وجيء به أسيراً إلى واليها العباسي "نوح بن أسد الساماني" أثناء الحروب بين أهالي تلك المنطقة وبين القوات العباسية، وقد أرسله هذا الوالي إلى الخليفة العباسي "المأمون" سنة

٢٠٠هـ/٨١٥م هدية مع من أرسل من المماليك الأتراك، وقيل أنه أرسل إلى "الرشيد"[٢] سنة ١٩٠هـ/٨١٠م.

أُعجب الخليفة العباسي "المأمون" (١٩٨- ٢١٨هـ / ٨١٣- ٨٣٣م) بهذا المملوك التركي، وحظي عنده كغيره من الأتراك الذين زاد عددهم، بعد أن فقدت الخلافة العباسية ثقتها بالعرب والفرس، وبدأت تبحث عن عنصر جديد يحفظ التوازن بين القوى المتصارعة على النفوذ والسلطة في بغداد[٣].

زادت مكانة "طولون" لدى الخليفة العباسي، وأسند إليه الوظائف المتعددة، وترقى إلى أن أصبح أميراً للستر[٤]، (رئيساً للحرس الخلافي)، واستمر طولون مدة عشرين عاماً يتمتع بهذا المنصب الهام في عهدي المأمون والمعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢م)، ولهذا دلالة قاطعة على ثقة المأمون بأمانة طولون وأخلاقه.

أنجب طولون عدداً من الأولاد من بينهم أحمد[٥]، والذي يرجع إليه الفضل في تأسيس أول دولة مستقلة بعد الفتح العربي الإسلامي في مصر والشام. ولد أحمد بن طولون في رمضان في سنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م في بغداد[٦]، ونشأ في كنف والده ورعايته، وظهرت عليه منذ صغره علامات الذكاء والرزانة، وأكثر من الدرس فحفظ القرآن والحديث، وطلب العلم، وتعلّم الفقه، وتعمَّق فيه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة[٧].

حرص ابن طولون منذ نشأته الأولى أن يبتعد عن الأتراك القادة العسكريين الآثمين، كما كان يصفهم بقوله[٨] "كم نقيم على هذا الإثم مع هؤلاء الموالى الأتراك؟، لا يطئون موطئاً إلا كُتِبَ الخطأ والإثم"، والصواب أن نسأل الوزير أن يكتب أرزاقنا إلى الثغر". فتم له ما أراد وخرج إلى ثغر طرسوس، وأعجبه المقام فيه، لما رأى ما عليه الناس من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفرح بذلك، وهناك أخذ العلم والحديث عن كبار المحدثين، وظهر فضله ، وعرف عند الأولياء، وتميز عن أقرانه من الأتراك.

وأصبح موثوقاً عند الجميع على الأموال والأسرار والفروج[٩]... وأثبت أنه شخص ذو قيم منذ بداية حياته الأولى وفي شبابه، وخطب إلى يارجوخ (القائد التركي) ابنته خاتون فزوجه منها[١٠]، وقُدِّر لهذا الزواج أن يكون ذا أثر واضح على حياة ابن طولون السياسية، وأهم شيء أفاد منه ابن طولون من إقامته بثغر طرسوس إضافة لتلقيه العلم والأدب ابتعاده عن مجتمع الأتراك في بغداد وسامراء وعن جوهم القاتم الحافل بالمؤامرات والدسائس، فعاد من طرسوس فارساً مكتمل الأدوات، كما شارك وهو في طرسوس في الجهاد ومقارعة العدو البيزنطي، وتطلع إلى السلطة والحكم، وتعرف عن قرب على بلاد الشام وأهمية موقعها وثغورها ودورها، وما اتصفت به من المكانة[١١]، وربما كان هذا موقظاً ومناراً لتطلعاته، وطموحاته وتحقيق مشروعه الكبير في إقامة دولته في مصر والشام، والقائم على تبني مشروعه الكبير المستند على الجهاد ومقارعة الأعداء، وحماية المسلمين، والدفاع عن مصالحهم التي بانت له بكل وضوح وهو يكبر في هذا الثغر لما له من أهمية عسكرية واستراتيجية تعود لتاريخ طويل[١٢]. فطرسوس أهم الثغور الإسلامية، وهي تقع على الحدود بين آسيا الصغرى وبلاد الشام واتسمت بصفات قل أن توفرت لمدينة ثغرية أخرى، وفيها انتعشت المدنية الهلنستية، وتعايشت مع الحضارة العربية الإسلامية، ونتج عن هذا الامتزاج نشاط كبير في الحركة العلمية، فكانت محط الوافدين من طلبة البحث والتأليف، وملاذاً كبيراً للفارين من الاضطهاد بشتى أشكاله الديني وغيره[١٣]، فزاد كل هذا أهمية في موقعها الحربي الفريد والهام، ولذلك يمكن أن نقول بأن أحمد بن طولون أفاد من إقامته في أهم منطقة من مناطق الجهاد في الدولة العربية الإسلامية فوائد هامة وكبيرة، الأدبية منها والدينية والحربية، ولاسيما أن أهمية طرسوس العسكرية كانت ذات أثر فعال في تكوينه تكويناً حربياً ممتازاً[١٤] وجهادياً من الطراز الأول، يعلم قيمة الجهاد ويقدّر أهله، ويعرف أهمية هذه الثغور المجابهة للعدو والمتلقية لضرباته المستمرة. فتشكلت عنده قناعة هادفة لتقوية هذه الثغور والعمل على منعتها

وقوتها، ولاشك بأن ذلك كله كان وراء تصرفاته حيال هذه الثغور وأهلها عندما سمحت له الظروف وغدا الحاكم الأقوى في مصر والشام وثغورهما فيما بعد، وقيام دولته في مصر والشام والتي امتدت فيما بين (٢٥٤ - ٢٩٢هـ / ٨٦٨ - ٩٠٤م).

ابن طولون يحقق ولايته واستقلاله بولاية مصر

نشأ ابن طولون نشأة حسنة، وتمسك بأصول الدين وولع بالجهاد، وكل هذا مهّد له سبل النجاح والتقدّم السريع[١٥]، واحترام الجميع، كما حظي بثقة البلاط العباسي وتقديره، وتوطدت علاقته بكل من الخليفة المتوكل(٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٦-٨٦١م) والمستعين(٢٤٨-٢٥٢هـ/٨٦٢-٨٦٦م) واختاره هذا ليكون رفيقه[١٦] وحارسه في منفاه، ولقد أثبت ابن طولون أنه جدير بهذه الثقة فعامل الخليفة بالحسنى، ولم يقبل أن يدنس يده بقتله، ورفض عرض قبيحة أم الخليفة الجديد المعتز (٢٥٢-٢٥٥هـ/٨٦٦-٨٦٨م) عندما طلبت منه شراء رأس الخليفة المستعين بولاية واسط، فكان جوابه[١٧] "لا أرى الله وأنا قد قتلت خليفة بايعته أبداً، أو لا يراني الله عز وجل أقتل خليفة له في رقبتي بيعة وأيمان مغلظة أبداً"، فأرسلت القوى المسيطرة على الخلافة العباسية جلاد بني هاشم سعيد بن صالح فقام باستلام الخليفة وقطع رأسه[١٨].

وكان لهذا الموقف الجليل الذي وقفه أحمد بن طولون من الخليفة العباسي الأثر العظيم عند الأتراك وغيرهم، وكبر في نظر الجميع في زمن لم تراعى فيه حرمة الخلافة العباسية ولا غيرها من معظم القادة العسكريين الأتراك وغيرهم.

لذلك ما إن انتهت الفتنة التي قتل فيها المستعين، واستخلف القادة الأتراك المعتز سنة ٢٥٢هـ/٨٦٦م وظهر "بايكباك أو باكباك" في مقدّمة قواد الأتراك مع بغا ووصيف، وسيما الطويل وتقاسم هؤلاء أعمال الولايات والنواحي فأقطع المعتز باكباك أعمال مصر ونواحيها، وكما هي العادة آثر باكباك البقاء في بغداد قريباً من مركز السلطة خوفاً من العزل والتشريد وطلباً لما تجود به العاصمة من النعيم، واستشار باكباك

أصحابه فيمن ينيبه أمر مصر، وسرعان ما تم اختيار أحمد بن طولون لما عرف عنه من حسن السيرة ولقرابته من هذا القائد التركي باكباك فهو "زوج أمه"(١٩).

سار ابن طولون على رأس جيش إلى مصر ودخلها في (٢٣ رمضان ٢٥٤هـ/ سبتمبر ٨٦٨م) متقلداً على حاضرتها الفسطاط دون غيرها(٢٠)، وكانت الزعامة فيها موزعة على قوى مختلفة فعامل الخراج " ابن المدبر" وكانت سيرته فيها سيئة ويعامل الناس بالقسوة. وعامل البريد "شقير الخادم" غلام قبيحة أم المعتز يراقب التصرفات ويعلم الخلافة بكل كبيرة وصغيرة، ويعمل للدس بين القوى التي تحكم مصر حتى لا يقع الوفاق فيما بينها وتجتمع ضد الخلافة(٢١).

وكان على القضاء "بكار بن قتيبة"، وعلى الإسكندرية "اسحاق ابن دينار" وعلى برقه أحمد بن عيسى الصعيدي.

كان أمراً طبيعياً أن يصطدم أحمد بن طولون بهذه القوى، وظهر ذلك منذ لحظة وصوله إلى مصر حيث قدَّم له ابن المدبر عامل الخراج هدية نقدية تقدر بعشرة آلاف دينار بقصد استمالته، غير أنه رد الهدية، طالباً منه كوكبة من الرجال كانت ترافقه ليستعين بها على إخافة النفوس، فتنبه ابن المدبر لاتساع آمال أحمد ابن طولون، وكتب إلى العاصمة أن هذا الرجل واسع الطموح ومثله لا يؤتمن على ولاية مصر(٢٢)، ولا على طرف من الأطراف متهما إياه بالعمل على الاستقلال.

وبدأت حلقة طويلة من الصراع بينه وبين ابن المدبر، وأدرك ابن طولون أن استمراره في مصر مرهون برضى القوى النافذة في بغداد وسامراء، لهذا عمل منذ لحظة وصوله إلى مصر بالعمل الجاد على إيجاد قوة له في العاصمة تساعده لتحقيق تطلعاته، واعتمد سياسة تقوم على الاتفاق مع مجموعة من التجار في كل من العراق ومصر(٢٣) وأناط إليها مساعدته، وتمكنت هذه القوى بفضل قوتها الاقتصادية من الوقوف بجانبه، فكانت أكبر مساعد له لتحقيق تطلعه الكبير في الاستقلال بمصر ومن

ثم التطلع إلى الشام، وتمكن ابن طولون من الوصول إلى الوزير الحسن بن مخلد[٢٤] بدعم أنصاره وبعطاياهم. وكان هذا الوزير يرسل إليه صوراً عن الكتب التي كان ابن المدبر وشقير الخادم يرسلانها ضده[٢٥]، وتعرف ابن طولون على أعدائه، واعتمد على مجموعة من الجواسيس[٢٦] كانوا يوافونه بكل ما يهمه، ومهدت هذه السياسة لابن طولون القضاء على أكبر القوى النافذة في مصر والمعادية له ولسياساته في مصر.

احتدم الصراع بعهد المعتمد(٢٥٦-٢٧٩هـ/٨٦٩-٨٩٢م)، وقُتل القائد باكباك وظهر القائد يارجوخ[٢٧] على مسرح الأحداث في سامراء وهو ختن أحمد بن طولون فكتب[٢٨] له "تسلم من نفسك بنفسك" وبهذا إشارة له لتسليم أمر مصر كلها، فقصد الإسكندرية ٢٥٧هـ/٨٧٢م فاستقبله عاملها "اسحق" فأقره عليها، كما استلم برقة من "أحمد بن عيسى الصعيدي"، وفي ٢٥٩هـ/٨٧٢م مات يارجوخ صاحب إقطاع مصر الذي كان ابن طولون يحكمها نيابة عنه، فتوطدت سلطته عليها وصار يحكمها من قبل الخليفة مباشرة[٢٩].

وفي سنة ٢٦٣هـ/٨٧٦م وصله كتاب المعتمد بتقليده أمر خراج مصر وتوليه أمر الثغور الشامية على أثر الاضطرابات فيها وسوء إدارتها[٣٠]. وهكذا أصبح ابن طولون سيد البلاد بلا منازع في مصر، فبدأ بأعماله العمرانية وغيرها من الأعمال التي تؤكد استقلاليته التامة عليها. ومعلوم أنه بدأ يعمل للاستقلال بهذا الإقليم ويتخذه مركز انطلاق لمشروعه الكبير، فقام في سنة ٢٥٧هـ/٨٧٠م وأشاد مدينة القطائع[٣١] قرب دار إمارته وأقطعها لجنده، وتضمنت المدينة منازل وأسواقاً وحمامات ودواوين حكومية. وفي سنة ٢٦٤هـ/٨٧٧م أتم ابن طولون مسجده[٣٢] المعروف بالمأذنة الدائرية (الحلزونية) وأنفق عليه مائة وعشرين ألف دينار وأقام إلى جواره دار الإمارة، وفي سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م أمر ابن طولون ببناء[٣٣] المشفى الخاص المرضى من عامة الناس، وأمر أن لا يطبَّب فيه أي جندي أو مملوك كي يظل

خالصاً لعامة الشعب، وعُدَّ هذا المشفى أول مشفى عام في مصر الإسلامية، وكانت الأدوية والأغذية وأنواع العلاجات تصرف مجاناً، ويحتوي الأقسام المختلفة والأطباء والممرضين. وأشاد قصره الجديد تحت قبة الهواء القديمة، وأقام له حديقة غناء وميداناً فسيحاً، وأنشأ هذا القصر على غرار القصور الخلافية في بغداد[٣٤].

وهكذا مهد ابن طولون لعمله الاستقلالي بهذه الأعمال العمرانية والعسكرية ثم سك الدينار[٣٥] الأحمدي على عيار كامل كرمز لهذا الاستقلال التام، وغدا السيد المطاع، والمؤتمن على الصلات والخراج والشرطة والقضاء والإمارة، وعلى الأقاليم وأخذ على عاتقه نشر الأمن والاستقرار وضرب حركات التمرد[٣٦]، وهو من أجل ذلك أكثر من الشرطة لإقامة العدل. كما أقدَّم على تشكيل قوة عسكرية مدربة وجيش قوي[٣٧] اهتم به ابن طولون واختار أفراده من مختلف الأقوام والطوائف، واعتنى بأفراد هذا الجيش، ولم يترك فرصة إلا واستغلها للإكثار من تعداده وعدته حتى زاد عن مائة ألف مقاتل من عناصر مختلفة من العرب والترك والسودان والإغريق وغيرهم، وغدا أكبر قوة وعدداً لاسيما في عهد خلفه وابنه[٣٨] خمارويه حيث قدر بـ (٤٠٠,٠٠٠) مقاتل، وزادت نفقاته وبلغت سنوياً تسعمائة ألف دينار.

هذا الجيش ساعد ابن طولون على فرض وجوده على المسرح السياسي، وقاده للبحث عن مجال حيوي لهذه القوة[٣٩]، وتأمين رغباتها، ولم يكن في مقدوره إلا أن يتطلع إلى الشام، ويحقق القاعدة التاريخية القائلة بأن أمن مصر من أمن الشام فما من حاكم تولى أمر مصر إلا وتطلع إلى الشام وبالعكس، وهكذا توجه ابن طولون إلى المجال الحيوي الطبيعي له فاتجه صوب الشام، وربط هذا التوجه بفكرة دعمت هذا التوجه وأعطته صفة الشرعية، فأعلن مبدأ الجهاد ضد[٤٠] العدو البيزنطي واتخذ من توسعه في الشام شعاراً يقول أنه في طريقه إلى حماية الثغور ودعى الناس للجهاد، فانضمت إلى قواته المتطوعة[٤١] والمقاتلون، ولاقت هذه الفكرة قبولاً واسعاً مكَّنه من سهولة السيطرة على الشام، وتوحيد البلدين مصر والشام وجهد ما بوسعه دفاعاً عن هذا

الهدف الكبير، واستفاد منه، ومن إمكانات البلدين الاقتصادية والإستراتيجية والاجتماعية وهذا ما يفسر سر قوة وعظمة هذه التجربة الطولونية التي غدت رائدة لقوى كثيرة جاءت بعدها، كالإخشيدية، ثم الفاطمية وغيرها.

تطلع ابن طولون إلى الشام والعوامل التي ساعدته

عرف ابن طولون الشام عن كثب وتطلع إليها منذ شبابه عندما كان في ثغر طرسوس، وامتزجت الرغبات الدينية بالمصالح والآمال ونمت الأحلام والتطلع إلى المجد والسلطة، وأدرك ابن طولون أهمية الشام العسكرية والاستراتيجية، فعمل لتحقيق حلمه وإيجاد أول دولة في تاريخ العرب والإسلام في أهم إقليمين من أقاليم الدولة العربية الإسلامية.

ما إن وصل ابن طولون إلى مصر سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م حتى جاءته الفرصة المواتية للتدخل في أمور بلاد الشام إثر ثورة ابن الشيخ[٤٢] في فلسطين والأردن على الخلافة العباسية، التي لم تجد بداً من الطلب من ابن طولون للتصدي لهذا الخارج الطامع في الشام ومصر، وهيأت له هذه الثورة الإسراع في تشكيل وتدعيم قواته العسكرية المقاتلة، وقد استغل ابن طولون هذه الثورة أبعد استغلال[٤٣] مما جعلت أعداءه يرتابون منه ويهابونه.

هكذا مهدت الظروف لابن طولون التوجه نحو الشام، فاتبع سياسة هادفة لتحقيق تطلعاته وأهدافه التي تقاطعت مع معطيات متعددة مهدت له سرعة تحقيق مشروعه الكبير، ومن هذه المعطيات[٤٤]:

١ - الضرورات العسكرية والاستراتيجية، والدفاع عن أمن دولته في مصر.

٢ - أهمية بلاد الشام الاقتصادية بالنسبة لمصر وحاجتها لخيراتها.

٣ - ضرورة وجوده بالقرب من الأحداث في بغداد حفاظاً على دولته ونفوذه.

٤ - إدراك ابن طولون أن الخطر على دولته لابد أن يأتي من الشرق سواء من الشام أو من الروم البيزنطيين أو غيرهم وهذا ما حدث فعلاً.

مشروع ابن طولون السياسي المرتبط بالجهاد

دولة ابن طولون في مصر ثم في الشام كأي دولة في التاريخ لابد لها من مقومات وأهداف تستند عليها، ولقد حقق لها ابن طولون أداتها في مصر(٤٥) وكوّن قوة عسكرية قوية مهابة الجانب، وسار ضمن خطة وطيدة لتحقيق حلمه الكبير في مصر والشام وصولاً إلى الثغور والاقتراب من مصدر القرار في بغداد، وقد أعطى الجهاد اهتمامه المباشر وكسب بإعلانه التأييد الشعبي الكبير، وكان موفّقاً به وغدا قدوة لكل من أتى بعده على مسرح الأحداث في مصر والشام من الإخشديين والحمدانيين ثم الفاطميين فيما بعد(٤٦).

شكل هذا المطلب الجهادي هاجس ابن طولون، ولاشك أنه كان متأثراً بذكريات شبابه الأولى في هذا الثغر(٤٧)، وتحققت أماله عندما أسند إليه الخليفة العباسي المعتمد في سنة ٢٦٣هـ/٨٧٦م أمر خراج الثغور(٤٨) ومن ثم أمر الثغور والدفاع عنها وحمايتها، وأصبح يشكل أهم العاملين في رسم السياسة في كل من مصر والشام والثغور، وأدرك الخطر الآتي على دولته من الشام وثغورها(٤٩).

ولقد تشكلت قوة الطولونيين في عهده وعهد من أتى بعده من قوة البلدين وإمكاناتهما، ومن تسخير هذه القوة لصالح مشروعه السياسي، ومكنته من ضرب كل القوى الخارجة على سلطته في كلا البلدين، ومهدت له هذه القوة الصمود أمام تحديات القوى المسيطرة على الخلافة العباسية ومناوراتها الممثلة في الموفق أحمد(٥٠) أخي الخليفة والمتحكم في أمره، وصاحب المشروع الكبير القاضي بفرض سلطته وجبروته على كافة القوى السائرة في ركب الخلافة العباسية، والأفضل والأهم أن هذه القوة التي التأمت بوحدة البلدين مصر والشام، مكنته من الوقوف بقوة ضد البيزنطيين(٥١)

المتربصين والمتطلعين إلى الثغور العربية والاعتداء عليها. وأرغمتهم على طلب الهدنة والصلح(٥٢) وإيقاف القتال تخوفاً من الطولونيين وبأسهم في وقت كانت القوة العباسية تتلقى الضربات الموجعة على يد صاحب الزنج(٥٣) وحركته وعجزت عن التصدي لهذا الاعتداء البيزنطي المستمر.

وهكذا نجح أحمد بن طولون في تحقيق مشروعه الكبير المتطلع للسيطرة التامة على الشام وثغورها، والدخول في الصراعات السياسية المباشرة في العراق، والاستفادة منها لتحقيق مصالحه.

وتضافرت عوامل كثيرة ساعدت ابن طولون لتحقيق مشروعه الكبير والمهم لعل أهمها:

١ - كانت الخلافة العباسية في هذه الحقبة تمر في بداية محنة كبيرة تسيطر عليها روح تمرد الأقاليم وبروز الظواهر الاستقلالية وقيام ما سمي بالدويلات المستقلة في مشرق الوطن العربي ومغربه(٥٤).

٢ - كما لا يفوتنا أن نتذكر أن بلاد الشام كانت في عداء دائم مع العباسيين(٥٥)، وكانت تتطلع باستمرار لعودة الأمويين إلى الحكم، أو على الأقل الانفصال عن العراق لاسيما بعد أن عجز العباسيون عن إقامة الوفاق بين القبائل العربية في الشام(٥٦)، واستمرت الحركات في الشام والتي خدمت المشروع الطولوني، ولم يتعرض لمقاومة كبيرة أثناء سيطرة أحمد بن طولون على أمهات المدن الشامية إلا من بعض الطامعين أمثال سيما الطويل في أنطاكية(٥٧).

٣ - كما أن ثورة الزنج(٥٨) وغيرها من الحركات ساعدت أحمد بن طولون لتحقيق حلمه في حكم الشام. ولا ننسى أيضاً التحركات البيزنطية، وهجومها المتكرر على الثغور عند الشعور بأي عجز أو ضعف في حمايتها. وكل هذا أجبر الخلافة على أن توكل أمر حماية الثغور إلى أحمد بن طولون وقوته الجديدة.

وهكذا تحقق لابن طولون حلمه الكبير وأرسل نائبه طخشي بن يلبرد[٥٩] إلى الثغور، وأوصاه بحسن معاملة الأهالي والتلطف بهذه المنطقة العزيزة عليه لأهميتها الكبيرة.

استفاد أحمد بن طولون من طرح هذا الشعار الجهادي وربط حملته على بلاد الشام بأقدس شعار عند المسلمين وقابلته شعوب المنطقة بالترحاب، وكثر المتطوعة في جنده[٦٠]، واقتنع الكثرة بأنه ساع من أجل العمل للصالح العام، وبذلك كسب ود الناس فاستقبلته العامة راجية منه تنفيذ مطالبها وإصلاح أحوالها. كما أنه بهذه السياسة أحرج أعداءه ومعارضيه، ووضعهم في صف العدو فيما إذا فكروا بالتصدي له، لاسيما أنه لم يتحرك إلا بعد أن حصل من الخليفة المعتمد على أمر تقليد الشام[٦١] وثغورها في غمرة صراعه مع الموفق أحمد، وحرص ابن طولون على تمسكه بالشرعية، فنال رضا الناس، وظهر وكأنه سياسي كبير وتمتع بسعة اطلاع، وساعده كل ذلك لتحقيق أهدافه وتأمين مصالحه، وأضعف كل القوى في الشام وعجزت عن الوقوف في وجهه بعد إعلانه أنه سائر إلى الثغور ومعلناً الجهاد ضد العدو البيزنطي، مستغلاً ثورة الزنج وآثارها السيئة على خصمه الموفق أحمد[٦٢].

وفي دمشق استقبل بالترحاب من القادة هناك أمثال علي ابن اماجور، وأحمد بن دوغباش، وأحمد بن وصيف وجميع أنصارهم وانضم الجميع لمساعدته[٦٣]، وترك ابن طولون دمشق بعد أن نظم أمورها وعَيَّن عليها أحمد بن دوغباش[٦٤]، وما إن وصل حمص حتى استقبله واليها عيسى الكرخي ورغب ابن طولون في توليته أمرها، غير أن سياسته اتسمت بعدم القبول من الأهالي لذلك استجاب ابن طولون لطلبهم وعزله عنها، وعين يمن التركي[٦٥]. وأثبت نواياه الطيبة تجاه الأهالي، فكسب ودهم فوقفوا إلى جانبه، واتجه بعدها إلى حلب ولم يلق مقاومة فيها، وفيها بدأ يضع الخطط للسيطرة الفعلية على الثغور، وكان عليها نائبه طخشي بن يلبرد وقام فيها بعدة إصلاحات، وتصدى للبزنطيين ووجه لهم الضربات القاسية التي أجبرتهم على طلب الصلح والمهادنة[٦٦].

غير أن سياسة ابن طولون تعرضت على أبواب أنطاكية لنكسة أولى جاءته من واليها سيما الطويل الطامع في السلطة، فكاتبه أحمد يدعوه إلى الطاعة على أن يقره عليها. فامتنع هذا وعاود ابن طولون وكاتبه ملاطفاً. وأصرّ سيما على امتناعه(٦٧)، فانتظره بعض الوقت عله يتمكن من إعادته إلى جادة الصواب، واتبع معه الكياسة والصبر، وأوضح له أنه راغب في السلام، وعدم التصدي لأية قوة في بلاد الشام لاسيما في مناطق الثغور، وأن لا يعتمد العنف وليست داخلة في حساباته. وبهذه السياسة ظهر بأنه بعيد النظر، وسياسي محنك، وعرف كيف يستغل الأمور ويقود الرجال ويسوس الرعية.

ولما لم يجد ابن طولون طريقاً مفتوحاً أمامه مع سيما، اضطر إلى مهاجمة أنطاكية(٦٨)، ولم يكن سيما محبباً إلى شعبها بل كان صاحب سمعة سيئة وظالماً لأهلها ويأخذ الأموال بغير حق، ولهذا لم يقف شعب أنطاكية معه، وقدَّموا درساً لكل قيادة متجبرة لا ترعى مصالح رعاياها. فما كان منهم إلا أن اتصلوا بابن طولون ومهدوا له السبل لدخول المدينة(٦٩) وحصنها المنيع الذي عُرف أنه لم يفتح عنوة قط(٧٠)، وخذل شعب أنطاكية واليهم الظالم، وانتهى الأمر بقتله على يد أحدهم، رغم أن أوامر أحمد بن طولون كانت الإبقاء على حياته، وجاء قتله على يد امرأة أنطاكية(٧١).

وأثبت شعب أنطاكية أن إرادة الشعوب لا تقيدها أوامر الحكام، وعندما رأى أحمد رأس خصمه قال(٧٢): " قد علم الله جلَّ اسمه أني كنت أحب لك غير هذا فأبيت فأنا بريء من ذلك. والله ما أمرت بقتلك ولقد نهيت عنه"، وكان ذلك في المحرم في سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م.

وهكذا دلل ابن طولون على حسن سياسته، واتبع سلوكاً معيناً أفاده في حكم هذا البلد المشتت الأطراف وتمكن من فرض سلطته عليه، وقيادة حكامه المختلفي الأهواء

والنزعات، ولم يترك أنطاكية إلا بعد أن نظم أمورها، وصادر أموال سيما وما كان له من عتاد(٧٣).

اتجه بعد ذلك إلى بقية الثغور فأتى المصيصة(٧٤) ودخلها وكذلك "اذنه"، ومنها سار إلى طرسوس، عاصمة الثغور، والمدينة المحببة إلى قلبه، وكان عليها "يازمان" الخادم وامتنع هذا عن استقباله وتسليمها بتحريض من عدوه اللدود "الموفق أحمد"، ولم يجد بداً من فتحها بالقوة على أن بعض المصادر تشير إلى دخولها سلماً ولم يمانع "يازمان" أو يقف ضده(٧٥).

استخدم ابن طولون الكياسة في التعامل مع الشعوب والرفق بالأهالي واعتماد مطالبهم، واعتمد على الحكام ولم يطلب منهم إلا الدعوة له وثبتهم في حكم مدنهم، وكان لزاماً عليهم أن يساعدوه في مشروعه الجهادي وحماية الثغور، ولاقت سياسته القبول من كافة القوى الحاكمة وشعوب المنطقة.

بقي "ابن طولون" في ثغر "طرسوس" فترة من الزمن ينظم أمورها وشعر بالراحة والمسؤولية في هذا الثغر الذي بدأت فيه أحلامه، واعتمد في هذا الثغر منتهى الحكمة والأناة(٧٦) ورسم سياسة، كم نتمنى لو يأخذ بها حكامنا الآن لكنّا تمكّنا من النصر المؤكد.؟

تميزت حكمة ابن طولون التي فاقت رجال عصره، فأدرك بحسه السليم مدى أهمية القوة العسكرية لهذه الثغور وتصديها لضربات العدو البيزنطية المستمرة، وإجبارهم على التراجع إلى ثكناتهم والابتعاد عن المزارع والقرى والحقول الثغرية وحمايتها من هجماتهم وإحراقها وتدميرها إثر كل فرصة سانحة لهم. لذلك كانت أولى واجباته أن يجعل من هذه الثغور قوة مهابة يحسب لها العدو ألف حساب قبل أن يفكر بالاعتداء عليها(٧٧).

شكل بقاء ابن طولون في ثغر طرسوس مع قواته الكبيرة عامل إرهاق لشعب هذا الثغر، وتضايق الناس من وطأة هذه القوات التي تحتاج إلى الغذاء والماء والإقامة، وأثقلت العيش على كاهل الأهالي، فتضايقوا وضجوا، وتكلموا بصراحة مع أحمد ابن طولون. لا بل أشعروه بالثورة(٧٨) على هؤلاء العساكر وبما يعانونه من جراء هذه الجيوش التي لا تدخل بلداً إلا تأذيه وتنشر فيه الاضطراب.

هنا أدرك ابن طولون مسؤوليته، وأمر قواده وجنوده بضرورة التراجع والإسراع وترك طرسوس(٧٩)، والتظاهر بأنه تركها مرغماً لا برضى منه، وقد تضايق قادته ومرؤوسيه وعساكره من هذا التصرف، وطلبوا منه تحريك سيوفهم ضد هؤلاء الذين خاطبوه بلغة الثورة والتمرد(٨٠). فما كان منه إلا أن بادر لإقناعهم بأنه يجب أن يعرف الناس والعدو بخاصة إلى أن ابن طولون على كبر صيته، وكثرة عساكره وقوته لم يتمكن من هذا الثغر المقاوم، وانهزم عنهم ليكون ذلك أهيب لهم في قلب عدو متربص لحركاتهم جميعاً(٨١).

وأعلن ابن طولون مغادرة هذا الثغر بعد أن اطمأن لوضعه وقدَّم له كل المساعدات، وبذل الأموال لكل محتاج، وتصدق على الفقراء فخرجوا جميعاً مشيعين يدعون له بالنصر(٨٢). وترك طخشي بن يلبرد نائبه عليهم، وزوده بنصائحه وتعليماته الواضحة التي تستند على اليقظة التامة والاهتمام الكبير بهذه الثغور، وشحذها بالمقاتلين وتحصينها وحمايتها، وقال له بأن العدو لم يطلب الهدنة إلا لظروفه الخاصة، وهو يستعد للانقضاض، وإذا ما أمرتك بقبول الهدنة فاعلم أنها فرصة لك لكي تتهيأ للقتال وتستعد لملاقاة الأعداء المتوقعين بكل لحظة، وهي سياسة قلما وجدنا لها مثيلاً في تاريخنا الوسيط والحديث.

ولقد وصلت الأخبار إلى ملك الروم وما جرى من أهل طرسوس مع ابن طولون، وخروج الجيش الطولوني مجبراً عنها فازداد تخوفاً، وعظمت هيبة هذا الثغر في قلبه وازداد ترقباً لتحركاته.

لم ينس ابن طولون لحظة الهدف النبيل الذي تذرع به وتحرك بمقتضاه معلناً الجهاد ضد العدو، فأعلن أنه يستعد لغزو الروم قبل أن يترك هذا الثغر(٨٣)، غير أن أحداثاً مزعجة في مصر(٨٤) أرغمته على تأجيل هذا الغزو ولم يترك الشام وحدود مصر الشرقية يتلاعب بها الطامعون، فصمم على القضاء عليهم جميعاً خشية منه على إثارتهم الاضطرابات بعد خروجه من الشام، واتخذ قراره السليم بإخماد تحركات هؤلاء لاسيما في مناطق الرقة(٨٥)، وجهز لهم القوات وتمكن من القضاء عليهم جميعاً وضم كافة نواحيها إلى سلطته، وغدت مناطق نفوذه ملاصقة لحدود العراق، وجعل من مدينة الرقة مركزاً لحكمه الجديد(٨٦). كما عمل أحمد بن طولون على تحصين المدن الساحلية في الشام والثغور. وفي سبيل ذلك قام بتحصين مدينة عكا وجعل منها أكبر قاعدة بحرية اتخذها كقاعدة انطلاق لقواته البرية والبحرية، وأولاها هذا الأمير جانباً كبيراً من عنايته(٨٧). كما اتجه اهتمامه بعد ذلك إلى يافا، وقام ببناء أول قلعة بها لعبت دوراً هاماً في تحصين هذه المدينة خلال مراحل تاريخها العسكري والبحري. كما أهتم ببقية الموانئ الشامية وغدت هذه الموانئ قواعد انطلاق بحرية لقوات ابن طولون(٨٨)، وشغلت دوراً بارزاً في النشاط البحري في حوض البحر المتوسط، وساهمت في التصدي للقوى البيزنطية(٨٩).

وفي حملته الثانية على الثغور الشامية في ٢٦٧هـ/٨٨٠م، عمل أحمد بن طولون للنهوض بالمقاومة وحماية الثغور العربية لاسيما في طرسوس، ورفع من مكانتها وجهد للنهوض بهيبتها أمام العدو، واستخدم كافة السبل لإظهارها بمظهر القوة والمنعة ومدها بكل الوسائل اللازمة لتصديها للغزو البيزنطي المستمر. كل ذلك على حساب قوته ومنعة جيشه وظهر ذلك في تقاعسه عن الهجوم على "يازمان الخادم"(٩٠)

المتربص في هذا الثغر، ولم يرضخ لنصح قادته بمهاجمة عـدوه وفـضّل الانتظـار والتريث عليه علّه يعيده إلى جادة الصواب، لكن دون جدوى، فطال انتظاره وعرّض نفسه لبرد الشتاء القاسي(٩١) ومياه نهر البردان الذي أطلقه عليه عدوه "يازمان" كل هذا أثر في نفسه وجسده ومرض مرضه الأخير الذي تسبب في موته(٩٢)، لذلك قيـل أن أحمد ابن طولون مات شهيد الثغور(٩٣) رغم ما عرف عنه من جلد وقـوة، وبطـش بالأعداء.

كم نحن بحاجة إلى فكر هذا القائد الذي ضحى بكبريائه، وتظاهر بضعف قوته أمـام عدوه المتمرد في طرسوس، ليرفع من قدر الجهاد والمجاهدين، وليدرك الأعـداء أن أحمد بن طولون وعظمة وقدرة قواته تحطمت على صخرة المقاتلين في هـذا الثغـر المواجه للعدو، ولم يأبه لقادته العسكريين وتحريضهم له على هؤلاء المتمردين، فـي وقت كان هذا الأمر سمة العصر وقانونه، وأثبت أنه مـؤمن بالجهـاد والمجاهـدين، ومقدّماً لهم ومعترفاً بقوتهم التي لا تقـاوم. وقـدّم النمـوذج الحـي لفكـرة الجهـاد والمجاهدين بهدف الحفاظ على قيم الإسلام، وحمايتها من التشويه والإساءة.

مات ابن طولون سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م بعد أن ترك دولة استمرت قوية طوال حياتـه، وبقيت طيلة وجودها تستقي من إلهامه، وتنفق من تركته وخبراته. ولـم يكـن مـن المنطق التاريخي أن تزول الدولة الطولونية بشكل مفاجئ، فقد حصد "خمارويه" خلفـه ما زرع والده(٩٤)، وخلف "ابن طولون" في خزانته (من الذهب النقـدي عـشرة آلاف دينار، ومن المماليك سبعة آلاف مملوك، ومن الغلمان على أربعـة وعـشرين ألـف غلام، ومن الخيل الميدانية على سبعة آلاف رأس، ومن الجمال على ألفين وسـبعمائة جمل، ومن المراكب الحربية مائة مركب، وفي رواية أخرى مائتي مركـب حربـي كباراً بآلاتها، وكان يحمل لصدقات الثغور في كل شهر خمسمائة دينار، ويدخل إلـى خزانته في كل سنة بعد مصاريفه أربعة آلاف دينار)(٩٥).

بعض مآثر التجربة الطولونية في مصر والشام:

نبهت التجربة الطولونية، وتأسيس الدولة شعب البلدين في مصر والشام إلى صلاتهما، وأعادت إلى خيال شعبيهما ذكريات التاريخ القديم، منذ العهدين الفرعوني، والآشوري، وعادت الصلات التي انقطعت إلى سابق عهدها الوثيق، ومع أن مجريات الأمور كانت تسير لصالح الفسطاط والقطائع في مصر، غير أن أهالي البلدين جميعاً أدركوا بأن وحدتهم أعطتهم القوة والمجد، وأدركوا أنهم بهذه الوحدة يشكلون قوة مهابة حيال الأعداء والأصدقاء ومكّنت القيادة "الطولونية" في البلدين من فرض وجودها وقيادتها، والتخلص من تبعيتها لبغداد، والقوى المتحكمة والمسيطرة على الخلفاء فيها(٩٦).

كما رافق قيام الدولة الطولونية في مصر والشام تطورٌ بعيد المدى في تاريخ الشعبين، وغدا العرب والمسلمون في عهد ابن طولون في كلا القطرين غالبية السكان، واصطبغ الشعب المصري بالصبغة الدينية وتحدثت الغالبية من السكان باللغة العربية، وترك الكثرة من المسيحيين لغتهم الأصلية، وبالتدريج أخذ الجميع يعتمدون على اللغة العربية واكتمل التعريب، وشمل جميع مناحي الحياة، وحتى الدماء في العروق أخذت تتسرب إليها هذه المؤثرات العربية(٩٧).

وأدرك أحمد بن طولون أهمية وقدرة ومكانة الشعبين في مصر والشام وتأثيرهم في حكمه، وحماية استمراريته، ومساندته في صراعه مع أعدائه في الداخل والخارج وهم كثر. لذلك تفانى في كسب ودهم ورضاهم، وارتدى ثوب المدافع عنهم، ودافع عن حقوقهم ومصالحهم الوطنية وحكم باسم هذه المصالح والحقوق لشعب البلدين، فاستحق أن يقدره الشعب في القطرين، ودوّنه التاريخ في سجلاته، وقال عنه بأنه قائد مجرب وسياسي محنك، ولو فعل غير ذلك، لما استحق هذه الشهادة التاريخية التي مجدته(٩٨).

كما شكل قيام الدولة الطولونية بدايات قوية لتطلعات جديدة، استغلتها حركات كثيرة جاءت بعدها، واستفادت منها، ولم تمض سنوات على نهاية التجربة الطولونية حتى قامت على غرارها الدولة الإخشيدية، ثم انطلق الفاطميون والأيوبيون فيما بعد نحو الشام ومصر متخذين من وحدة البلدين قوة لهم وقواعد أساسية لبناء دولتهم وحكمهم وتحقيق انتصاراتهم. هذه الحقيقة التاريخية القديمة والحديثة شكلت حتمية تاريخية تقوم على وحدة البلدين ومصالحهما المشتركة، وتؤكد بأن قوتهما وضعفها مرتبطان بهذه الحتمية التاريخية القائمة على لقاء البلدين وتضامنهما معاً، وهذه الحتمية التاريخية أدركها القادة المجربون، والعلماء والعقلاء والمفكرون، وكل المرتبطين بهما وبمصالح شعوبهما المشتركة، ولم ولن يغفل عن هذه الحقيقة التاريخية إلا الجهلاء بالتاريخ، والمرتبطون بمشاريع خارجية بعيدة عن مصالح الشعبين فيهما. وبنظرة ثاقبة في أعماق تاريخنا القديم والوسيط والحديث ندرك بالبديهة بأن الأمة متعافية، وعلى طريق الصواب والقوة عندما تكون (مصر والشام) متفقتين ومتعافيتين، وسياساتهما متوائمة وموحدة، وتضعف الأمة بقدر ما تكونان متباعدتين، وهذه الحقيقة لا جدال فيها، وترسخت عبر مراحل العصور التاريخية، ومن يُغفل ذلك يضع نفسه خارج منطق التاريخ، وبعيداً كلياً عن مصالح الشعبين المصري والشامي على أقل تقدير(٩٩).

رأي التاريخ في ابن طولون:

على الرغم مما حققه "ابن طولون" من انتصارات، وعلو ظاهرة التجربة الطولونية، وتأثيراتها الإيجابية على مصر والشام، فإن هناك سقطات تاريخية كبيرة وقع فيها "ابن طولون" خلال مسيرته التاريخية. وهو كغيره من الحكام وقع ببعض الأخطاء والمثالب، ويمكن أن توجه له التهم والوقوع في مطبات الأحداث التاريخية. ولم يكن "ابن طولون" استثناءً في التاريخ بعيداً عن النقد والأخطاء الكبيرة منها والصغيرة.

فابن طولون وهو يشيد معالم دولته المستقلة عن الخلافة العباسية في بغداد، كان يدرك خطورة عمله، ويعلم بأن القوى المسيطرة والفاعلة في مركز السلطة لن تتركه طليق اليدين، وأنها ستعمل ضد مجهوداته في تنفيذ مشروعه الاستقلالي والانفصالي، مهما اتخذ من احتياطات ومبررات، لأن عمله يتعارض مع حكام بغداد، ويشكل خسارة كبيرة وضربة موجهة لمركزية الحكم في العاصمة، وإضعافاً للخلافة والقائمين على أمورها[١٠٠].

كما كان أحمد بن طولون على علم بما يدور في بغداد وسامراء، وبسيطرة القوى العسكرية التركية وصراعها على الحكم والنفوذ، مع بقية القوى الأخرى العباسية وغيرها، ومعظم هذه القوى المتصارعة لاسيما التركية وغيرها من الدخلاء، التي لا تضع نصب أعينها إلا المصالح المادية، والنفوذ العسكري، ضاربة بمصلحة الخلافة وبمكانة الدولة عرض الحائط، وكانت عاصمتا الخلافة بغداد وسامراء لاسيما الأخيرة في هذه الفترة تعج بالدسائس والمؤامرات، ولا همَّ لهؤلاء المتنفذين فيها من الأتراك إلا ما يشبع رغباتهم ويملأ بطونهم[١٠١].

وضع ابن طولون كل ذلك نصب عينيه، وسار على خطاً رصينة تهدف لتأمين أهدافه، وهو من أجل ذلك اعتمد على مجموعة من التجار في مصر والعراق، واتفق معهم، وربط مصيره ببعض الكبار منهم، رغم أنه امتنع عن العمل بالتجارة لأنه كان يرى بأن الحاكم يجب أن يبتعد عنها. فكفل لهؤلاء التجار الأمن والاستقرار، وأخذ على عاتقه حماية الطرق التجارية وحرية التنقل، وضرب كل قوى الشر واللصوص، والخارجين عن الدولة، فأمن لهؤلاء التجار، أهم عوامل نجاح تجارتهم ونشاطهم[١٠٢]، كما أمن دولته وحمى حدودها من العابثين، وأصلح العملة وسك الدينار الأحمدي على عيار كامل كما قلنا، وقام هؤلاء التجار بمساعدته في الحاضرة، وساندوه وشكلوا قوة كبيرة لاستمراره في الحكم، معتمدين على نفوذهم المالي، وساعدوه في الوصول إلى القوى الفاعلة في سامراء، وبمعاونتهم تعرف على بعض القوى المتحكمة في

العاصمة[١٠٣]، ووطدوا علاقته بهم، وكثيراً ما تدخل هؤلاء التجار لصالحه وساندوه ضد أعدائه والمتربصين به، واعتمد ابن طولون على هؤلاء التجار وعلى مجموعة من الجواسيس والعيون كانوا يُعلمونه بكل كبيرة وصغيرة، تمكنه من الوصول والتعرف على أعدائه، فكان يتخلص منهم، وكثيراً ما كان سجنه يعج بهؤلاء الأعداء[١٠٤].

أما سياسة ابن طولون التوسعية فقد قرنها بإعلانه مبدأ الجهاد وركز على هذا الشعار لتحقيق تطلعاته وأهدافه التوسعية، ووضع نصب عينيه الوصول إلى الثغور لتحقيق هذا الهدف، ونصب من نفسه مدافعاً عن حدود بلاد الشام وقائماً بأمر الجهاد، واتخذ ذلك ذريعة للسيطرة على الشام كلها، لاسيما وأن الجهاد يرفع من قدرته لا في الشام ومصر وإنما في معظم العالم الإسلامي، ويقوي مركزه، لأن الثغور كانت تشكل مركز استقطاب المسلمين والمجاهدين من مختلف الأقاليم في الدولة العربية والإسلامية[١٠٥].

سار ابن طولون وراء أهدافه، مستغلاً الأحداث السياسية ومنتهزاً الفرص، ومتمسكاً بالشرعية، لهذا وقف بجانب الخليفة المعتمد ودافع عنه ضد أخيه "الموفق طلحة" وولي عهده صاحب النفوذ في "الحاضرة"، وكسب جانب الخليفة، وحصل منه على ولاية الثغور للدفاع عنها وحمايتها ومن ثم حصل على ولاية الشام كلها[١٠٦]. كما استخدم أسلوب التقرب إلى الناس وشراء الأتباع، وإغداق الأموال والعطاء، معتمداً سياسة متوازنة بهدف الحصول على غاياته بمختلف السبل، ومن جهة أخرى ضرب بيد من حديد أعداءه وكل من يقف حيال مشروعه[١٠٧].

أما علاقة "أحمد بن طولون" بـ "الموفق طلحة" صاحب مشروع الحركة الإصلاحية القائمة على إعادة دور الخلافة إلى مجدها الأول، فأمر طبيعي أن تكون هذه العلاقة

علاقة عداء، وصدام بين القائدين، ومنذ اللحظات الأولى لولاية "ابن طولون" على مصر وعمله الدؤوب على الاستقلال بها(١٠٨).

وأدى ذلك لقيام صراع سياسي وعسكري، ومؤامرات كبيرة بين الرجلين، وحصلت مشادات وحروب على أرض الشام وثغورها بين أتباع كل منهما أنهكت الجميع وزادت في ضعف الخلافة العباسية، ووصل الصراع إلى ذروته عندما تمكن "ابن طولون" من إقناع الخليفة "المعتمد" بالتوجه إلى مصر ليصبح تحت حمايته، ويخلصه من استبداد أخيه "الموفق" وأرسل له خطاباً يتودد إليه ويوضح فيه وضع كل قواته تحت تصرفه(١٠٩). توجه الخليفة من العراق إلى الرقة متظاهراً برحلة صيد لكنه كان قاصداً مصر، وكان "ابن طولون" حينها في دمشق ينتظر حضور الخليفة، ويخطط لهذه النقلة الكبيرة ومتطلعاً لنقل الخلافة إلى مصر وسيطرته عليها، وكان "الموفق طلحة" مشغولاً بإخماد ثورة "صاحب الزنج" في جنوب العراق التي أنهكت قوة الخلافة(١١٠)، فما كان من "الموفق" إلا أن كتب إلى والي الموصل "اسحق بن كنداج" طالباً منه رد الخليفة لمنع هذا الأمر، وموضحاً خطورته، الذي لو تم سيكون وبالاً على الجميع، ولن يكون للعباسيين ولا للأتراك أي سلطة أو أمر، وستنتقل مراكز الأمور السياسية وغيرها في الدولة إلى مصر(١١١).

تمكن "ابن كنداج" من رد الخليفة إلى سامراء، فحجر عليه "الموفق" وحصل منه على أمر بخلع "ابن طولون"، وكافأ "ابن كنداج"، وخلع عليه الحلي، وولاه على أعمال "أحمد بن طولون" في مصر والشام(١١٢).

رد "ابن طولون" على إجراءات "الموفق" بإجراء غريب، حيث أمر باجتماع العلماء والأشراف، والفقهاء، والقضاة ودعاهم إلى اجتماع عقد في دمشق ٢٦٩هـ/٨٨٢م واستعرض أمامهم الموقف في سامراء، وأبلغهم أن "الموفق" حجر على الخليفة ونكث ببيعته، فقرر المجتمعون خلع "الموفق طلحة" باستثناء البعض منهم، كان على رأسهم

قاضي مصر "بكار بن قتيبة"، فأقدَّم "ابن طولون" وأودعه في السجن، وأوكل أمر القضاء إلى "محمد بن شاذان الجوهري"(١١٣)، وبقي "بكار" في سجنه حتى مات "ابن طولون" في السنة التالية ٢٧٠هـ/٨٨٣م.

وهكذا جعل "ابن طولون" من نفسه حامياً للشرعية، ومدافعاً عن الخليفة، معطياً لنفسه صلاحيات واسعة، ومطلقاً لها العنان، مستنداً بكل ذلك لقوته العسكرية التي غدت أعظم قوة في الدولة، ومنح لنفسه لقباً جديداً، ظهر في نهاية كتاب الخلع " أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين"(١١٤). وأمر بلعن "الموفق" على المنابر، وإسقاط اسمه في الدعوة وخلعه، ونزع اسمه من الطراز. وكتب بذلك إلى جميع البلاد التابعة له في مصر والشام، مستناً بذلك سنة قلده بها البعض من أصحاب النفوذ والطامعين بالسلطة والاستقلال، وكل ذلك ساهم في ضعف خلافة بغداد.

ولم يتمكن "الموفق" وأعوانه من "ابن طولون"، وتصدى لهم ولجيوشهم في الشام ومنعهم من النفوذ إليها، ودفع خطرهم عنها، ومال الجميع أخيراً مجبرين إلى الصلح والمهادنة والمسالمة، وكاتبه "الموفق" طالباً الصلح، والوفاق، غير أن المنية وافت "أحمد بن طولون" في سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م وهو يدافع عن مشروعه ومات وهو بحكم المعزول من الناحية الشرعية(١١٥).

لم تكن القوى في العراق وعلى رأسها "الموفق طلحة" مخلصة لهذا الوفاق بين العباسيين والطولونيين، لذلك ما إن وصلت الأخبار بوفاة "ابن طولون" حتى جهزت العساكر بإمرة "الموفق" لمواجهة الطولونيين في بلاد الشام، وحدثت معارك عسكرية بين الطرفين إلى أن كانت معركة "الطواحين" في فلسطين سنة ٢٧١هـ/٨٨٤م حسمت الموقف لصالح "خمارويه بن أحمد بن طولون"، الذي خلف أباه وتمكن من الحصول على تفويض من الخلافة بحكم مصر والشام والثغور وأرمينية له ولأبنائه لمدة ثلاثين عاماً(١١٦).

وعلى إثر ذلك بدأت صفحة جديدة من العلاقات العباسية الطولونية، كان لها وقع إيجابي لاسيما على المستوى العسكري في الثغور والبحر المتوسط، وقاتلت القوتان مجتمعتين الأعداء البيزنطيين، ومهد كل ذلك لارتباط البيتين بزواج سياسي بين الخليفة العباسي "المعتضد" (٢٧٩-٢٨٩هـ/ ٨٩٢-٩٠٢م)) وبنت "خمارويه" "قطر الندى" الفتاة الزكية في (٢٨١هـ/٨٩٤م)، والتي عمل لها والدها عرساً عد من الأساطير في التاريخ(١١٧)، وأحدث هزة اقتصادية في عاصمة الطولونيين بمصر.

كما استغل "أحمد بن طولون" العداء التقليدي بين الشام والعراق، لأبعد حدود، لا بل حاول إيقاظ الفتنة بين الإقليمين، للاستفادة من ذلك لصالح مشروعه وتمكن من الحصول على تأييد أهل الشام له، مستغلاً الرغبة الشامية في الخلاص من التبعية للعباسيين، واستخدم ذلك في صراعه مع "الموفق طلحة"، وعقد مؤتمره المشهور في دمشق، وأقام فيها أربعة أروقه على قبر "معاوية بن أبي سفيان" ورتب عند القبر أناساً يقرؤون القرآن الكريم، ويوقدون الشموع(١١٨)، مذكراً بأيام مضت تعود لأيام "صفين"، موقظاً خلافاً رغم أنه لا يصح لحاكم مسلم استغلال أحداث تاريخية لإيقاظ فتنة نائمة بين منطقتين إسلاميتين، وعمل "ابن طولون" هذا يتقاطع مع بعض الحكام في عالمنا الحالي ممن يحاولون إشعال الفتن، وإيقاظ الضغائن والأحقاد المذهبية الدفينة، وذلك بهدف الفتنة، وتدعيم الانقسام بين شعوب المنطقة العربية والإسلامية، بقصد إضعافها، وتحقيق مكاسب فردية لا تخدم المصلحة العليا، بقدر ما تخدم من يطلقونها، وهذه سياسة استعدائية لا تتفق مع مبادئ الإسلام، وقيمه، استخدمها "ابن طولون" رغم تمسكه الشديد بالإسلام منذ نشأة أظفاره(١١٩)، وهي تستخدم اليوم على الرغم من أنه في جميع الأحوال والظروف والقرون يجب أن نحيدها عن الإسلام ومبادئه السمحة الصادقة لأن إلحاقها بالإسلام تفقده قدسيته ورونقه وتطمس قيمه الخالدة.

اختلف المؤرخون في "ابن طولون" فبعضهم لا يرى فيه إلا الرحمة والتقوى، وآخرون لا يرون فيه إلا القسوة والعنف والتجسس وكلا الرأيين فيه شيء من الصحة(١٢٠)،

"وابن طولون" قدَّم صورة حية وواضحة لخوف الحكام من كل فكر حـر، وكـل ذي رأي ثاقب، أو من أي إنسان تتسم فيه النجابة، وكان صراعه كبيراً مع هؤلاء يتعـدى صراعه مع الأعداء[١٢١]. ومات في سجنه ثمانية عشر ألفاً[١٢٢].

وقد رأى في منامه أن الحق سبحانه وتعالى مات في داره، فعظم عنده ذلـك، وفـاق مرتعداً، وجمع المعبرين فلم يعلم أحدهم بشيء مما رأى، إلى أن جاء بعضهم وقـال: أقول ولى الأمان؟ فقال نعم، قال: أنت رجل ظالم قد أمتَّ الحق في دارك فبكى[١٢٣].

وهكذا نرى أن "ابن طولون" رغم تمسكه بالإسلام وقيمه وقع بالعديد من المحظورات، واستخدم وسائل عديدة لا تتفق مع روح الإسلام وقيمه، وسلك سياسـة تعتمـد علـى العنف والقسوة لتحقيق أحلامه، وتثبيت حكمه ومشروعه، وأبعد نفسه عن قيمٍ كثيراً ما تظاهر بها واستند عليها، لكنها مع الأسف الكبير كثيراً ما تعارضـت مـع سـلوكه وتصرفاته في الدفاع عن مصالحه ومشاريعه، ومن هنا يتضح أن التجـارب توضـح النوايا، وأن السياسة والحكم والسلطة لا تنسجم تماماً مع القيم والعقائد، وقـد تكونـان متعارضتين، والمنهج العلمي السليم تقضي بفصلهما، والاستفادة منها بما يحقق مصالح الأغلبية وتأمين العدالة الاجتماعية والابتعاد عن التسلط الكلي والمظالم التي هي مفاسد لا تقرها الشرائع السماوية كافة.

هوامش البحث

١ – ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ط دار الكتاب، القاهرة، ج٣، ص١.

- حسن ابراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي**، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٣، ج٣، ص١٢٦.
- مصطفى طه بدر: **مصر الإسلامية**، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩، ص١١٤.
- محمد أحمد زيود: **العلاقات بين الشام ومصر في العصرين الطولوني والأخشيدي (٢٥٤–٣٥٨هـ)**، دار حسان، دمشق، ١٩٨٩، ص١٧.

٢ – المصادر والمراجع السابقة.

٣ – زيود: المرجع السابق، ص١٧.

٤ – أمير الستر هو الشخص الذي يكلف بالقيام في الحفاظ على حياة الخليفة.

انظر علي ابراهيم حسن، **مصر في العصر الوسطى**، مكتبة النهضة المصرية، ط٥، سنة ١٩٦٤، ص٦٦ . زيود: المرجع السابق ص ١٧.

٥ – المقريزي: **الخطط**، صورة عن طبعة بولاق ١٢٧٠هـ ، ص٥٨٩. زيود: المرجع السابق، ص ٧.

٦ – قيل أنه ولد في سامراء من جاريه تسمى هاشم أو قاسم وقيل ولد سنة ٢١٤هـ والأرجح أنه ولد سنة ٢٢٠هـ. انظر زيود: المرجع السابق، ص ١٨.

٧ – أبو المحاسن: **النجوم** ، ج٣، ص٤.

٨ – أبو المحاسن: **النجوم** ، ج٣ ، ص٤. البلوي: **سيرة أحمد بن طولون**، المكتبة العربية، دمشق، مطبعة الترقي، ١٣٥٨هـ، ص٣٥.

٩ - البلوي: **سيرة**، ص ٣٥. المقريزي: **الخطط**، ص ٥٨٩ وما بعدها. أحمد أمين: **ظهر الإسلام**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٥، ١٩٦٩. محمد ماهر حمادة: **دراسة وثقية للتاريخ الإسلامي ومصادره من عهد بني أمية حتى الفتح العثماني لسورية ومصر**، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ١٨٠.

١٠- البلوي: **سيرة**، ص ٣٥. أبو المحاسن: النجوم ، ج٣، ص٥. ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، مكتبة النهضة العربية، مصر، ١٩٤٨، ج١، ص١٥٦. حسن أحمد محمود: **مصر في عصر الطولونيين والاخشيديين**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠، ص١٨. محمد زيود: المرجع السابق، ص ١٩/١٨.

١١ - علي ابراهيم حسن: المرجع السابق، ص٦٧. زيود: المرجع السابق، ص ١٩.

١٢ - علي ابراهيم حسن: المرجع السابق، ص ٦٧. زيود: المرجع السابق، ص١٩.

١٣ - ابن سعيد الاندلسي: **المغرب في حل المقرب**، تحقيق زكي محمد حسن، ج١، القسم الخاص بمصر، مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣. علي ابراهيم حسن: المرجع السابق، ص ٦٧. زيود: المرجع السابق، ص١٩.

١٤ - حسين مؤنس: تاريخ الحضارة المصرية، **دائرة المعارف الإسلامية**، ح٤، ص٣٥٩.

١٥ - البلوي: **سيرة** ص ٢٥/٣٤. حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص١٣.

١٦ - ابن سعيد: المغرب، ص٧٤. البلوي: سيرة، ص ٣٦. حادثة مقتل المستعين.

- حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص١٤.

١٧ - البلوي: **سيرة**، ص٤٠. ابن سعيد: المصدر السابق، ص٧٥. أبي الفداء: **تاريخ الملك المؤد: البلدان**،ج٢، ص ٤٦، باريس، ١٨٥٠م. أبو المحاسن: **النجوم**، ج٣، ص٦. حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص ١٥. علي ابراهيم حسن: المرجع السابق، ص١٨.

١٨ – أبو المحاسن: المصدر السابق، ص٦. البلوي: **سيرة**، ص ٤٠. حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص١٦. زيود: المرجع السابق، ص ٢١.

١٩ – ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، بيروت، ١٩٦٧، ج٥، ص٣٣٩.

- اليعقوبي: **تاريخه**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠، ج٢، ص ٥٠١.
- ابن سعيد: **المغرب**، ص ٧٦. عبد المنعم ماجد: **ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر**، القاهرة، ١٩٦٨، ص٦٨.

٢٠ – البلوي: **سيرة**، ص٤٢.

٢١ – ابن سعيد: المصدر السابق، ص٧٧. البلوي: المصدر السابق، ص٤٤. حسن ابراهيم حسن: المرجع السابق، ص ١٢٧.

٢٢ – ابن سعيد: المصدر السابق، ص٧٧/٧٨. البلوي: المصدر السابق، ص ٤٤/٤٥. اليعقوبي: المصدر السابق، ج٢، ص٥٠٢. علي ابراهيم حسن: المرجع السابق، ص٧٠.

٢٣ – ابن سعيد: المصدر السابق، ص٧٨. البلوي: المصدر السابق، ص٦٠. ابن الدايه: سيرة أحمد بن طولون، ص١١. طه بدر: مصر الإسلامية، ج١، ص١١٦.

٢٤ – ابن سعيد: المصدر السابق، ص ٧٩. البلوي: سيرة، ص٥٨. طه بدر: مصر الإسلامية، ص١١٧.

٢٥ – المصادر والمراجع السابقة. زيود: المرجع السابق، ص٢٤.

٢٦ – زيود: المرجع السابق، ص ٢٤/٢٥ وما بعدها.

٢٧ – ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج٦، ص٦٦. الكندي: **الولاة والقضاة**، ١٩٠٨، ص٢١٦.

- حسن محمود: **العالم الإسلامي في العصر العباسي**، ص ٤٢٨.

٢٨ – الكندي: **الولاة والقضاة**، ص٢١٦. ابن خلدون: العبر، ج٣، ص٢٩٥. الختن: **الصهر زوج الابنة**. زيود: المرجع السابق، ص ٢٤/٢٥.

٢٩ – ابن سعيد: المصدر السابق، ص ٨٠. الكندي: **الولاة**، ص٢١٦. حسن ابراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي**، ج٣، ص١٢٨. زيود: المرجع السابق، ص٢٥.

٣٠ – الكندي: **الولاة**، ص٢١٧. أبو المحاسن: **النجوم**، ج٣، ص٧.

- أبي العديم: **زبدة الحلب في تاريخ حلب**، تحقيق سامي الدهان، نشر المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، ص ٧٤ (حيث يورد أن الخليفة ولاة الشام مع أنطاكية وطرسوس وغيرها من البلاد.

٣١ – الكندي: الولاة، ص٢١٧. لينبول: **سيرة القاهرة**، ترجمة حسن ابراهيم حسن، طبعة ١٩٥٠، ص٨٢.

٣٢ – الكندي: **الولاة**، ص ٢١٦. اتربي ابوالعز: **الدر المنتخب في تاريخ المصريين والعرب**، ص١٣٤. أحمد حسين، **موسوعة تاريخ مصر**، ص ٤٨٢.

٣٣ – الكندي: **الولاة**، ص٢١٦. اتربي أبو العز: المصدر السابق، ص١٣٤. حسين مؤنس: **تاريخ الحضارة المصرية**، ص ٣٩٧. أحمد حسين: **موسوعة تاريخ مصر**، ص٤٨٣.

٣٤ – ستانلي لينبول: **سيرة القاهرة**، ص ٨٣. زيود: المرجع السابق، ص٢٦.

٣٥ – الكندي: المصدر السابق، ص ٢١٧. حسن ابراهيم حسن: المرجع السابق، ج٣، ص١٢٨.

٣٦ – أبو المحاسن: **النجوم**، ج٣، ص٦. الكندي: الولاة، ص ٢١٤. البلوي: **سيرة**، ص٦٢.

- حسن محمود: مصر في عصر الطولونيين، ص٣٥. زيود: المرجع السابق، ص٢٧.

٣٧ – الكندي: الولاة، ص٢٢٣. ابن الداية: **المكافأة**، ص١٧. حسن ابراهيم حسن: المرجع السابق، ج٣، ص١٢٨. زيود: المرجع السابق، ص٢٨.

٣٨ – ابن سعيد: **المغرب**، ص٩٤. أبو المحاسن: **النجوم**، ج٣، ص٥٩. المقريزي: **الخطط**، ج١، ص١٥٠. طه بدر: المرجع السابق، ص ١٥١/١٥٠.

٣٩ – زيود: المرجع السابق، ص٢٨.

٤٠ – ابن سعيد: المصدر السابق، ص١٢٩. حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص٨٨. زيود: المرجع السابق، ص٢٩/٢٨.

٤١ – ابن سعيد: المصدر السابق، ص١١٦. البلوي: **سيرة**، ص٩٢. المسعودي: **مروج الذهب**، ج٤، ص١٢٣. زيود: المرجع السابق، ص ٣٧/٣٦/٣٥.

٤٢ – ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ٣٩٥. البلوي: **سيرة**، ص٥١/٥٠.

- سيده كاشف: **أحمد بن طولون**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، ١٩٦٥، ص٦٥/٦٤.

٤٣ – ابن الأثير: المصدر السابق والصفحة. البلوي: المصدر السابق والصفحة. سيده كاشف: المرجع السابق، ص٦٥/٦٤. زيود: المرجع السابق، ص٣٠.

٤٤ – ابراهيم أحمد العدوي: **الأساطيل العربية في البحر المتوسط**، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ص١٠٨. الرافعي وعاشور: **مصر في العصور الوسطى**، ص١١٨.

- حسن ابراهيم حسن: **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب وصر والشام وبلاد العرب**، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٩٥٨، ص١٥١. زيود: المرجع السابق، ص٣١/٣٠.

٤٥ – ابن سعيد: **المغرب**، ص٩٤. حسين مؤنس: **تاريخ الحضارة المصرية**، ص٣٩٠.

- زيود: المرجع السابق، ص٣٢/٣١.

٤٦ – حسن ابراهيم حسن: **الدولة الفاطمية**، ص١٥٢.

٤٧ – البلوي: المصدر السابق، ص٤٧. حسين مؤنس: المرجع السابق، ص٣٩٤.

٤٨ - ابن الأثير: **الكامل**، ج٦، ص ١٥. ابن سعيد: **المغرب**، ص٩٢. البلوي: المصدر السابق، ص٧٢.

٤٩ - اتربي أبو العز: **الدر المنتخب**، ص١٣٣. حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص٤٧.

- زيود: المرجع السابق، ص٣٢/٣١.

٥٠ - الرافعي وعاشور: **مصر في العصور الوسطى**، ص١١١. زيود: المرجع السابق، ص٣٣/٣٢.

٥١ - ابن سعيد: **المغرب**، ص١١٨. البلوي: المصدر السابق، ص١٠٩.

٥٢ - المصادر السابقة. زيود: المرجع السابق، ص٣٣.

٥٣ - ابن سعيد: المصدر السابق، ص٩٨. البلوي: المصدر السابق، ص ١٠٩.

٥٤ - حامد غنيم: **عصر الدول الإقليمية**، ص١٦ وما بعدها.

- حسن أحمد محمود: **حضارة مصر في العصر الطولوني**، ص٣.

٥٥ - حتى: **مختصر تاريخ لبنان**، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨، ص١٢٤.

٥٦ - حتى: **تاريخ سورية**، ص١٢٥/١٢٤. زيود: المرجع السابق، ص٣٤.

٥٧ - ابن خلدون: المصدر السابق، ج٣، ص٣١٧. الكندي: **الولاة**، ص١١٩.

٥٨ - ابن خلدون: المصدر السابق، ج٣، ص٣٠١/٣٢٨ وما بعدها. زيود: المرجع السابق، ص٣٤.

٥٩ - أبو المحاسن: **النجوم**، ج٣، ص٧. ابن سعيد: **المغرب**، ص٩٢.

٦٠ - ابن سعيد: المصدر السابق، ص١١٦. البلوي: المصدر السابق، ص٩٢. المسعودي: مروج، ج٤، ص١٢٣.

٦١ - ابن الأثير: **الكامل**، ج٦، ص١٨. ابن خلدون: **العبر**، ج٣، ص ٣١٧.

- اتربي أبو العز: المصدر السابق، ص١٣٧. زيود: المرجع السابق، ص٣٦.

٦٢ - زيود: المرجع السابق، ص٣٧/٣٦

٦٣ - ابن سعيد: **المغرب**، ص١١٦. الكندي: **الولاة**، ص٢٢٣. زيود: المرجع السابق، ص٣٨/٣٩.

٦٤ - ابن سعيد: المصدر السابق، ص١١٦. المسعودي: **مروج**، ج٤، ص١٢٣.

٦٥ - البلوي: المصدر السابق، ص٩٣. ابن سعيد: **المغرب**، ص١١٦ (يذكر الكندي أنه سلمها إليه يعني عيسى الكرخي). انظر الكندي، **الولاة**، ص٢٢٠.

٦٦ - ابن خلدون: **العبر**، ج٣، ص٣١٠. زيود: المرجع السابق، ص٣٨.

٦٧ - ابن الأثير: **الكامل**، ج٦، ص١٨. البلوي: المصدر السابق، ص٩٤.

٦٨ - المسعودي: المصدر السابق، ج٤، ص١٢٣.

٦٩ - ابن الأثير: **الكامل**، ج٦، ص١٨. البلوي: المصدر السابق، ص٩٤.

٧٠ - المسعودي: **مروج الذهب**، ج٤، ص١٢٥. البلوي: المصدر السابق، ص٩٤.

٧١ - المسعودي: **مروج الذهب**، ج٤، ص١٢٥. ابن العديم: **زبدة الحلب**، ج١، ص٧٥.

- البلوي: المصدر السابق، ص٩٦.

٧٢ - البلوي: المصدر السابق، ص٩٦.

٧٣ - البلوي: المصدر السابق، ص٩٦/٩٧.

٧٤ - المصدر السابق والصفحة.

٧٥ - المسعودي: المصدر السابق، ح٤، ص١٢٥. البلوي: المصدر السابق، ص٩٧.

٧٦ - زيود: المرجع السابق، ص٤٠.

٧٧ - زيود: المرجع السابق، ص٤٠.

٧٨ - البلوي: المصدر السابق، ص٩٨.

٧٩ - الكندي: **الولاة**، ص٢٢٠. اتربي أبو العز: المصدر السابق، ص١٣٧.

- يوسف الدبس: **تاريخ سورية**، ج٣، المجلد الخامس، بيروت، ص٣١٩.

٨٠ - المصادر والمراجع السابقة.

٨١ - المصادر السابقة. البلوي: المصدر السابق، ص٩٨.

٨٢ - البلوي: المصدر السابق، ص٩٨. الكندي: المصدر السابق، ص٢٢٠.

٨٣ - ابن سعيد: المصدر السابق، ص١١٨. البلوي: المصدر السابق، ص٩٨.

٨٤ - ابن سعيد: المصدر السابق، ص١١٨.

٨٥ - اتربي أبو العز: المصدر السابق، ص١٢٨/١٣٨. ابن الأثير: **الكامل**، ج٦، ص١٨.

- ابن خلدون: العبر، ج٣، ص٣١٨.

٨٦ - حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص٤٨/٤٩. زيود: المرجع السابق، ص٤١/٤٢.

٨٧ - عبد العزيز سالم: **دراسات في تاريخ صيدا في العصر الإسلامي**، بيروت، ١٩٧٠، ص ٦٥/٦٦. العدوي: **الأساطيل العربية في البحر المتوسط**، ص ١٠٩. زيود: المرجع السابق، ص ٥٢/٥٣.

٨٨ - ابن الأثير: **الكامل**، ج٦، ص٥٥. اتربي أبو العز: **الدر المنتخب**، ص١٤.

٨٩ - العدوي: المرجع السابق، ص١٠٩. زيود: المرجع السابق، ص٥٣.

٩٠ - الكندي: المصدر السابق، ص ٢٢٥. البلوي: المصدر السابق، ص٣١٠. ابن الأثير: **الكامل**، ج٦، ص٥٠.

٩١ - الكندي: الولاة، ص٢٢٩.

٩٢ - ابن الأثير: **الكامل**، ج٦، ص٥٥ " يشير ابن الأثير أن ابن طولون أرسل ليازمان كتاباً يقول فيه أني لم أرحل إلا خوفاً أن تخترق حرمة هذا الثغر فيطمع فيه العدو". البلوي: **سيرة**، ص٣١١.

٩٣ - ابن سعيد: المصدر السابق، ص١٢٩. البلوي: المصدر السابق، ص٣١١.

ابن العديم: **زبدة الحلب**، ج١، ص٨. زيود: المرجع السابق، ص٥٨/٥٩.

٩٤ – حامد غنيم: المرجع السابق، ج ٣، ص ٤٣٤. أحمد شلبي: **موسوعة**، ج ٥، ص ٨٢.

٩٥ – أبو المحاسن: **النجوم**، ج ٢، ص ٢١. البلوي: **سيرة**، ص ٣٤٩. ابن سعيد: المصدر السابق، ص ١٣٢.

٩٦ – اسعد طلس: **الشام ومصر**، ص ١٦، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٥٤.

- كرد علي: **خطط**، ج١، ص ١١٩. حسين مؤنس: **تاريخ الحضارة المصرية**، ص ٢٩٣.

- الرافعي وعاشور: **مصر في العصور الوسطى**، ص ١١١. محمد زيود: المرجع السابق، ص٤٣.

٩٧ – حسن أحمد محمود: **حضارة مصر في العصر الطولوني**، ص ٥٤.

- محمد كرد علي: **الإسلام والحضارة العربية**، ص ١٧٨، طبعة ١٩٦٨، القاهرة، لجنة التأليف والنشر.

٩٨ – حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص ٥٥. محمد زيود: المرجع السابق، ص ٦٢.

٩٩ – البلوي: **سيرة**، ص ٣٥١. حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص ٨٠-٩١.

- محمد زيود: المرجع السابق، ص ٦٠-٦٣.

١٠٠ – حسن أحمد محمود: **العالم الإسلامي في العصر العباسي**، ص ٢٨٠ وما بعدها. وحضارة مصر في العصر الطولوني ، ص ٣. حامد غنيم: عصر الدولة الإسلامية، ص ٢٦٩/١٦. محمد زيود: **العلاقات**، ص ٣٤.

١٠١ – المراجع السابقة.

١٠٢ – ابن الداية: **سيرة ابن طولون**، ص ١١. ابن سعيد: المصدر السابق، ص ٧٩,

- البلوي: **سيرة**، ص ٥٨/٦٠. الكندي: **الولاة**، ص ٢١٦. محمد زيود: المرجع السابق، ص ٢٣٧.

١٠٣ – البلوي: **سيرة**، ص ٧٨. طه بدر: **مصر الإسلامية**، ص ١١٧. محمد زيود: المرجع السابق، ص ٢٤.

١٠٤ – البلوي: **سيرة**، ص ٧٠. طه بدر: **مصر الإسلامية**، ص ١١٥. محمد زيود: المرجع السابق، ص ٦١.

- أبو المحاسن: **النجوم**: ج٣، ص ١٠٠ . حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص ١٥٨.

١٠٥ – المسعودي: **مروج**، ج٤، ص ١٢٣. ابن سعيد: المصدر السابق، ص ١١٦.

- طه بدر: المرجع السابق، ص ١١٧.
- حسن محمود: المرجع السابق، ص ٨١. محمد زيود: المرجع السابق، ص٤٥.

١٠٦ – ابن الأثير: **الكامل**، ج٦، ص ١٨. البلوي: **سيرة** ، ص ٩٢.

- ابن خلدون: **العبر**، ج٣، ص ٣١٧. أبو المحاسن: **النجوم**، ج٣، ص
- محمد زيود: **العلاقات** ، ص ٤٥/٤٦. طه بدر: المرجع السابق، ص ١٢١.

١٠٧ – البلوي: **سيرة**، ص ٦٢/٧٠ . الكندي: **الولاة**، ص٢١٤. ابن خلدون: المصدر السابق، ج٣، ص٣٠٥.

- حسن محمود: **حضارة مصر**، ص ٣٥. محمد زيود: المرجع السابق، ص ١٢٧.

١٠٨ – ابن سعيد: **المغرب**، ص ٨٧. ابن خلدون: **العبر**، ج٣، ص ٣٣٩. ابن الأثير: **الكامل**، ج٥، ص ٣٢١.

- حامد غنيم: المرجع السابق، ص ٢٧٠. الكندي: **الولاة**، ص ٢١٢.
- حسن ابراهيم حسن: **التاريخ السياسي**، ج٣، ص ١٤ وما بعدها. محمد زيود: **العلاقات**، ص ٩٤ وما بعدها.

١٠٩ – جاء في كتاب ابن طولون إلى الخليفة المعتمد قوله: " قد منعني الطعام والشراب والنوم خوفي على أمير المؤمنين من مكروه يلحقه، وقد اجتمع عندي مائة ألف عنان انجاد – وأنا أرى لسيدي أمير المؤمنين الانجذاب إلى مصر فإن

أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز، ولا يتهيأ لأخيه فيه شيء، مما يخافه عليه منه في كل لحظة".

- انظر البلوي: **سيرة**، ص ٢٨٠. محمد زيود: المرجع السابق، ص ١٠٩.

١١٠ – عن ثورة الزنج: انظر: الطبري: **تاريخ**، ج٩، ص ٤١٠-٦٥٤.

- ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج١١، ص ٤٤/١٨، وقد ظهر صاحب الزنج علي بن محمد أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب كما يدعي، التف حوله الزنج الذين كانوا يعملون في السباخ في منطقة البصرة جنوب العراق، فقوى بهم، واستمرت ثورته من عام ٢٥٥هـ /٨٦٨م ولمدة أربعة عشرة عاماً. فيصل السامر: **ثورة الزنج**، ط٢، بيروت، ١٩٧١.

١١١ – انظر: البلوي: **سيرة**، ص ٢٩٠. الطبري: **تاريخ**، ج٥، ص ٦٢٠. حسن محمود: **حضارة مصر**، ص ٧٤.

- محمد زيود: **العلاقات**، ص ١١٢، وهامش ١٣٣، ص ١٨٦.

١١٢ – الطبري: **تاريخ**، ج٩، ص ٦٢٠. زيود: المرجع السابق، ص ٥٨.

١١٣ – حوار القاضي بكار مع ابن طولون: قال بكار لابن طولون: " أنت أوردت علي كتاباً من المعتمد أن الموفق ولي عهده، فأورد علي كتاباً منه، بخلعه". فقال: هو الآن مغلوب مقهور وأنا أحبسك حتى يرد كتابه بإطلاقك، فقيده وحبسه، واسترجع منه ما كان دفعه إليه من جوائز فوجدها عنده على حالها كما استلمها".

- انظر: الأزدي، **أبي منصور ظافر بن الحسين بن غازي الحلبي الازدي**، ت ٦١٣هـ/١٢١٦م، ص ٢٠٢. تحقيق محمد بن مسفر بن حسين الزهراني، مكتبة الدار بالمدينة المنورة، ١٩٨٨.

١١٤ – البلوي: المصدر السابق، ص ٢٩٧/٢٩٩. حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص ٧٨.

- زيود: المرجع السابق، ص ١١٣/١١٤.

١١٥ – البلوي: **سيرة**، ص ٣٠٥/٣٠٤. الكندي: **الولاة**، ص ٢٢٨. السيوفي: حسن المحاضرة، ص ١٤٧.

- حسن محمود: **حضارة مصر**، ص ٧٩/٧٨. محمد زيود: ص ١١٩/١١٨.

١١٦ – الكندي: **الولاة**، ص ٢٣٨/٢٣٧. ابو المحاسن: **النجوم**، ج٣، ص ٥١.

- حسن أحمد محمود: **حضارة مصر**، ص ١٢٢. محمد زيود: **العلاقات**، ص ١٣٣/١٣٢/١٢٩.

١١٧ – أحداث زواج المعتضد من قطر الندى، انظر: المسعودي: **مروج الذهب**، ج٢، ص١٤٥.

- الازدي: المصدر السابق، ص ٢٠٧/٢٠٤. الكندي: **الولاة**، ص ٢٤٠. أبو المحاسن: المصدر السابق، ج٣، ص٦٢. ابن الأثير: **الكامل**، ج٦، ص ٨٠. ابن كثير: المصدر السابق، ج١١، ص٧٠.

- محمد زيود: **العلاقات**، ص ١٣٥.

١١٨ – أبو المحاسن: **النجوم**، ج٣، ص ٤٧. حسن محمود: المرجع السابق، ص ٧٩/٧٨/٧٤.

- محمد زيود: **العلاقات**، ص ٥٢.

١١٩ – انظر فيما سبق من هذا البحث ص ١/٢ وما بعدها. محمد زيود: **العلاقات**، ص ٢١/٢٠/١٩/١٨.

١٢٠ – محمد حمدي المناوي: **مصر في ظل الإسلام**، ص ٥٨. محمد زيود: **العلاقات**، ص ٦١.

١٢١ – البلوي: **سيرة**، ص ٣٢٦/٣١٦. المناوي: المرجع السابق، ص ٥٨.

١٢٢ – مؤرخ مجهول: **العيون والحدائق**، ج٤، قسم، ص ٧١، تحقيق عمر السعيدي، دمشق، ١٩٧٣. أبو المحاسن: **النجوم**، ج٣، ص ١٣.

١٢٣ – أبو المحاسن: **النجوم**، ج٣، ص ١٣. محمد زيود: **العلاقات**، ص ٦١.

قائمة بالمصادر والمراجع

أولاً – المصـــادر:

١ – ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ط دار صادر، بيروت، ١٩٥٧و ط ١٩٦٧.

٢ – الأندلسي: المغرب في حلي المغرب، ج١، القسم الخاص بمصر، نـــشر زكـــي محمد حسن ورفاقه، القاهرة، ١٩٥٣م.

٣ – الازدي: أخبار الدول المنقطعة، تاريخ الدولة العباسية، تحقيق ودراسة، محمد بن مسفر بن حسين الزهراني، المدينة المنورة، ١٩٨٨.

٤ – البلوي: سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي، دمشق، ١٣٥٨هـــ.

٥ – ابن تغري بردي (أبو المحاسن): النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقـــاهرة، دار الكتب المصرية.

٦ – الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق محمد محـــي الـــدين عبـــد الحميد، القاهرة، ١٣٧٥هـــ و ١٩٦٥م.

- لطائف المعارف، تحقيق ابراهيم الابياري، القاهرة، ١٩٦٠.

٧ – ابن جبير: رحلته، القاهرة ١٩٤٩، وط ١٩٥٥م.

٨ – خسرو: سفرنامه، ترجمة الخشاب، بيروت، ١٩٧١م.

٩ – ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، ١٩٨٦م.

١٠ – ابن خلكان: وفيات الأعيان، القاهرة، ١٩٤٨، و ط ١٩٥٠م.

١١ – ابن الدايه: سيرة أحمد بن طولون، ط القاهرة ١٩١٤، و ط١٩٤٠م.

١٢ – ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ليدن، ١٨٩١، ويليه كتاب البلدان، لليعقوبي.

١٣ – ابن زولاق: أخبار سيبويه المصري، نشر محمد ابراهيم سعد وحسني الـــديب، ط ١٩٣٣م.

١٤ – السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الـــدين عبـــد الحميـــد، القـــاهرة، ١٩٥٩م.

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة، ١٣٢٧ه.

١٥ – الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، القاهرة، ١٩٧١م.

١٦ – ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدها، دمشق، ١٩٥١و١٩٥٤م.

١٧ – أبو الفداء: تقويم البلدان، باريس، ١٨٤٠، ١٨٥٠م.

- المختصر في أخبار البشر، القسطنطينية، ١٢٨٦هـ.

١٨ – ابن كثير: البداية والنهاية، القاهرة، ١٣٥٨هـ.

١٩ – الكندي: الولاة والقضاة، مطبعة الآباء اليسوعيين، القاهرة.

٢٠ – المسعودي: مروج الذهب، بيروت، ١٩٠٨ و ط ١٩٥٨م.

٢١ – المقريزي: المواعظ والاعتبار...، او كتاب الخطط المقريزية، القاهرة، ١٩١١، ١٩٢٤، وط بولاق ١٢٧٠هـ.

٢٢ – النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق الحسيني، دمشق، ١٩٤٨م.

٢٣ – النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، ١٩٢٣م.

٢٤ – اليعقوبي: البلدا، ملحق بكتاب الأعلاق النفيسة، وتاريخ اليعقوبي، بيروت، ١٩٦٠م.

٢٥ – مؤرخ مجهول: العيون والحدائق، ج٤، قسم ١، تحقيق عمر السعيدي، دمشق، ١٩٧٣م.

ب – المراجع:

١ – أمين (أحمد): ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٩.

٢ – بدر (مصطفى طه): مصر الإسلامية، القاهرة، ١٩٥٤، و ط مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩م.

٣ – حسن (حسن ابراهيم): تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي، القاهرة، ١٩٦٥ وط ١٩٧٣م. وتاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر والشام وبلاد العرب، القاهرة، ١٩٥٨.
٤ – حسن (علي ابراهيم): مصر في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٤.
٥ – حسين (أحمد): موسوعة تاريخ مصر، دار الشعب، ١٩٧٢، ١٩٧٤.
٦ – حتي (فيليب): مختصر تاريخ لبنان، بيروت، ١٩٦٨، وتاريخ سورية.
٧ – حمادة (محمد ماهر): دراسة وثقية للتاريخ الإسلامي ومصادره من عهد بني أمية حتى الفتح العثماني لسورية، بيروت، ١٩٨٠.
٨ – رستم (اسد): الروم وسياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب.
٩ – زيود (محمد أحمد): العلاقات بين مصر والشام في العهدين الطولوني والاخشيدي، دمشق، ١٩٨٩م.
١٠ – سالم (عبد العزيم): تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، بيروت، ١٩٧٢. ودراسات في تاريخ صيدا في العصر الإسلامي، بيروت، ١٩٧٠.
١١ – السامر (فيصل): ثورة الزنج، ١٩٧١م.
١٢ – طلس(اسعد): مصر والشام في الغابر والحاضر، مصر ١٩٥٤.
١٣ – عثمان (فتحي): الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، القاهرة، ١٩٦٧.
١٤ – عبد السلام (حورية): الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مدينة الفسطاط منذ الفتح الإسلامي حتى قيام الدولة الفاطمية، جامعة القاهرة.
١٥ – العدوي (ابراهيم أحمد): الأساطيل العربية في حوض البحر المتوسط، القاهرة، ١٩٥٧.
١٦ – كاشف (سيده اسماعيل): مصر في العصر الاخشيدي، القاهرة، ١٩٧٠. وأحمد بن طولون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٦٥.

١٧ – كاشف (سيده اسماعيل) وحسن أحمد محمود: مصر في عصر الطولونيين والاخشيديين، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٠.

١٨ – كرد علي (محمد): الإسلام والحضارة العربية، القاهرة، ١٩٦٨. خطط الشام، دمشق، ١٩٢٥، ١٩٣٨م.

١٩ – لينبول (ستانلي): سيرة القاهرة، ترجمة حسن ابراهيم حسن، طبعة القاهرة، ١٩٥٠م.

٢٠ – ماجد (عبد المنعم): ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، القاهرة، ١٩٦٨.

٢١ – محمود (حسن أحمد ، وأحمد ابراهيم الشريف): العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، القاهرة.

٢٢ – مؤنس (حسين): ومجموعة من الدارسين، تاريخ الحضارة المصرية، القاهرة، دائرة المعارف الإسلامية.

٢٣ – يني (جرجي افندي): تاريخ سورية، بيروت، ١٨٨١م.

٢٤ – يوسف (الدبس): تاريخ سورية، مطبعة بيروت العمومية، ١٩٠٠م.

السلطنة السلجوقية والكرج

الدكتور صبحي العزام

قسم التاريخ

كلية العلوم الاجتماعية

جامعة مؤتة

الملخص

تناول البحث موطن الكرج وطبيعة بلادهم، ديانة الكرج وتاريخ التحول للمسيحية، الغزو السلجوقي للكرج، وازدياده في عهد السلطان الب أرسلان ،وهدوء العلاقة بين الطرفين في عهد السلطان ملكشاه والسلطان محمد. وهزيمة الكرج للسلطان محمود وقوة الكرج في عهد السلطان أرسلان شاه وخلفائه من السلاطين السلاجقة، بحيث وصف توسعهم بالتراكض على الأقاليم الإسلامية في أذربيجان وأرمينية، والتصدي والانتصارات التي حققها الأتابك شمس الدين الدكز. وعرض ازدياد شوكة الكرج في عهد الأمير أبي بكر بن محمد البهلوان، الذي انشغل بملذاته عن التصدي لهم. وأوضح الغزو المغولي للكرج، وما أصاب بلادهم من دمار. وعرض لجهود السلطان جلال الدين منكبرتي في التصدي لهم، وإلحاق الهزائم بهم. فحقق مالم يحققه السلاطين العظام من السلاجقة. وبيّن أنّه ما إن انتهي عصر السلطان جلال الدين منكبرتي. حتى خضعت بلاد الكرج للإمبراطورية المغولية عام ٦٣٩هـ/١٢٤٠م، فأصبح الكرج منذ ذلك التاريخ يقاتلون إلى جانب المغول، كغيرهم من القوى التي خضعت لسيادتهم.

مقدمة:

أطلق اسم الكرج (بالضم ثم السكون) على طائفة من النصارى، كانت تسكن جبال القبق[١] وتشير الروايات إلى أن هذه الأمة كانت وثنية إلى حين اعتنقت الإمبراطورية الرومانية الديانة المسيحية في عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير فبدأت المسيحية بالتسرب إليهم، بفضل القديسة نونة، وأصبحت الديانة الرسمية لسكان تلك المنطقة، ومن (الكرج والروم) تسربت المسيحية إلى الأمم المجاورة لهم كالجلالقة والصقالبة والروس واللان والأرمن[٢] وقد جاء أول وصف للكرج عند الرحالة والمؤرخ المسلم المسعودي في كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، الذي وصفهم بأنهم كانوا قلة من الناس تسكن عدة كور في جبال القبق، وعلى رأس الجماعة ملك يقال له برزيتان[٣] ومن الشعوب القريبة لهم : الأبخاز، نسبة إلى ناحية من نواحي جبال القبق المتصلة بباب الأبواب، التي تمتاز بصعوبة المسالك ووعورتها[٤]، وأحياناً أخرى يطلق عليهم اسم الخزر، لوقوع نواحيهم على بحر الخزر[٥]، وكان الإسلام قد وصل إلى تلك البلاد في عهد سيدنا عثمان، الذي تمكن أحد قادته من فتح مدينة تفليس[٦] عاصمتهم سنه٢٢/٢٦هـ[٧] لكن انتشار الإسلام لم يكن كبيراً، إذ بقي هؤلاء محتفظين بديانتهم المسيحية متعصبين لها في مواجهة الإسلام وأهله. لهذا بقي هؤلاء يشكلون خطراً على الثغور الإسلامية المحاذية لهم إذ كانوا يقتنصون الفرصة لمهاجمة الثغور الإسلامية المحاذية لهم طوال العصر الأموي والعباسي.

العلاقة في العصر السلجوقي الأول:

بدأت العلاقة العدائية بين الكرج والسلاجقة عام ٤٤٠هـ/١٠٤٩م حين قام إبراهيم ينال[٨] أخ السلطان طغرلبك[٩] بغزو بلادهم[١٠] وتتحدث المصادر عن أسباب هذا الغزو، فتذكر أن خلقاً من قبائل الغز[١١] قدموا إلى إبراهيم ينال في إقليم ما وراء النهر[١٢] وعند قدومهم اعتذر عن توطينهم بحجة ضيق بلاده وبما يحتاجون إليه،

مرغِّباً إياهم في غزو بلاد الروم للجهاد في سبيل الله والحصول على الغنائم مع الاستعداد في مرافقتهم كمزيد من الحماس لهم، فوافقوا رأيه، وقد نجح إبراهيم ينال بمساعدتهم في التوغل في بلاد الروم حتى وصل إلى طرابزون [١٣] وهناك جرى اللقاء، وتبادل الطرفان النصر والهزيمة، وأخيراً ظفر المسلمون وانهزم الروم وأنصارهم الأبخاز، وأسر جماعة من بطارقتهم، وكان من ضمن الأسرى قاريط ملك الأبخاز، الذي قدم فدية ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف دينار لنفسه، وقد استغل السلاجقة انتصارهم بالتوسع حتى وصلوا إلى مشارف مدينة القسطنطينية[١٤] عندئذ عاد إبراهيم ينال بعد أن حصل على غنائم تقدر بمائة ألف رأس من السبى، ومن الدواب والبغال والغنائم والأموال ما حملت على عشرة آلاف عجلة[١٥] ومنذ ذلك الحين بدأت السلطنة السلجوقية تتجه إلى بلاد الروم والكرج وتحديداً في عهد السلطان الب أرسلان[١٦]، الذي يقال أنَّه عزم على غزو بلاد الروم عام ٤٥٦هـ/١٠٣٦م، حتى وصلَ إلى مرند[١٧]، وهناك قدم إليه أحد أمراء التركمان ويدعى طغدكين الذي اعتاد غزو بلاد الروم، وبرفقته خلق اعتادوا الغزو والجهاد، وبقدومه شجع السلطان على غزو بلاد الروم، وضمن له سلوك الطريق المؤدي إلى بلادهم، فوافقه السلطان وسلك بعساكره مضايق تلك الأرض ومخارجها حتى وصل إلى نقجوان[١٨]، وهناك قام السلطان بصناعة السفن لعبور نهر راس، وسير عميد خراسان بقسم من الجيش إلى سكان خوى[١٩] وسلماس[٢٠] من أذربيجان لمحاربتهم[٢١]، بعد أن رفض أهلها الطاعة للسلطان بإعلان العصيان، وما إن وصل الجيش السلطاني، حتى سارعوا إلى إعلان الطاعة، [٢٢] وبعد الانتصار سار السلطان في عدد لا يحصى من العسكر إلى بلاد الكرج، وعند مشارف بلادهم انقسم الجيش السلطاني إلى قسمين قسم بقيادة السلطان ألب أرسلان، والقسم الثاني بقيادة ولده ملكشاه[٢٣]، ووزيره نظام الملك الطوسي[٢٤]. وبدأ الفريق الثاني معاركه بحصار قلعة من بلاد الروم. كان يقطنها جمع من النصارى الذين قتلوا الكثير من العسكر الإسلامي، فنزل ملكشاه والوزير نظام

الملك عليها، فقاتلوها حتى انتهى الأمر بمقتل أميرها والاستيلاء عليها [٢٥] وبعدها واصل ملكشاه والوزير المسير إلى قلعة سرماري[٢٦]، التي اشتهرت ببساتينها ومياها الجارية، وبعد حصار تمكن المسلمون من الاستيلاء عليها، وأسر من بها من النصارى[٢٧] وبعدها واصل العسكر السلجوقي مسيره إلى قلعة قريبة أيضاً، ففتحها ملكشاه، وقام الوزير نظام الملك بشحنها بالذخائر والأموال والسلاح لتكون ثغراً للمسلمين[٢٨]. وبعد تلك الفتوح الصغيرة توجه العسكر السلجوقي بقيادة ملكشاه والوزير نظام الملك إلى مدينة مريم نشين[٢٩]، التي اشتهرت بكثرة الرهبان والقساوسة، والحصانة لحجارتها الكبيرة، ووقوعها على نهر كبير، لذلك كان ملوك النصارى يتقربون إلى أهلها[٣٠] وقد أعد نظام الملك لقتالها ما تحتاج إليه من السفن، وقاتل أهلها ليلاً ونهاراً، حتى تمكن المسلمون من الاقتراب من أسوارها ونصب السلالم عليها، وحين شاهد أهلها المسلمين على الأسوار أصابهم الضعف، فتمكن ملكشاه من دخول المدينة وإحراق البيع وإخرابها، فقتل الكثير وأسلم الكثير من أهلها[٣١] وبعد هذا الفتح العظيم سارملكشاه والوزير للقاء السلطان الب أرسلان، وفي الطريق فتحا الكثير من القلاع والحصون، وبعد اللقاء كانت أولى المناطق التي اتجهوا إليها مدينة سبيذشهر[٣٣] وبعد مقاومة عنيفة يّسر الله فتحها على يد السلطان[٣٤] والمنطقة التالية مدينة آغاك لال[٣٥] التي تعدّ من أحصن المدن في بلاد الكرج نظراً لارتفاع أسوارها، ووجود جبل عال ونهر يحدّ بها من الشرق والغرب، ورغم ذلك قام السلطان بنصب جسر والاشتباك مع الكرج في قتال شديد، حتى أتى الفرج بخروج رجلين من أهل المدينة يطلبان الأمان وإرسال طائفة من العسكر الإسلامي معهما، فأرسل السلطان جمعاً كبيراً من العسكر برفقتهما وما إن اقتربا من مشارف المدينة حتى خرج أهل المدينة لقتالهم، فصمد المسلمون وكانت النتيجة هزيمة الكرج ودخول المسلمين للمدينة[٣٦]، كما ملك السلطان قلعة حصينة أخرى إلى جوار تلك المدينة[٣٧] وبعد هذا الانتصار اتجه السلطان وعسكره إلى ناحية فرس[٣٨] ومدينة إني[٣٩] وأثناء

المسير عرجا على ناحيتي رسل ورده ونوره[٤٠] اللتان سارع أهلها بالخروج إلى السلطان والإذعان له بالاستسلام، فأخرب السلطان البيع الموجودة بهما وبنى المساجد[٤١]، ومن ثم اتجه السلطان إلى مدينة اني التي تعدّ من أشهر مدن الكرج حصانة نظراً لوقوع ثلاث أرباع المدينة على نهرارس والربع الآخر على نهر عميق[٤٢] وحين شاهد المسلمون حضانة المدينة آيسوا من فتحها. لكن السلطان قام ببناء الأبراج ونصب المجانيق ورماة النشاب عليها، حتى تمكن المسلمون من التقدم للسور ونقبه وأثناء النقب انهدمت قطعة من السور، فدخل المسلمون المدينة، وقد سرت بشرى هذا الفتح في بلاد الإسلام، إذ قرىء كتاب الفتح في بغداد، وبرز خط الخليفة بالثناء على السلطان وبعد تلك الانتصارات رتب السلطان العسكر في المناطق التي سيطر عليها وقفل عائدا إلى مدينة أصبهان[٤٣].

وقد كانت تلك الانتصارات التي حققها السلطان الب أرسلان من أعظم الانتصارات التي تحققت على هذه المملكة المسيحية طوال العصر السلجوقي. وترجع أهمية تلك الانتصارات إلى أنها استطاعت وضع حد لهذه المملكة التي اعتادت الإغارة على الثغور الإسلامية الشمالية المحاذية لها. كما مكنت المسلمين من معرفة الطرق المؤدية إلى تلك المملكة، والواقع الذي كانت عليه من حيث القوة والازدهار. إذ أشارت المصادر أنها كانت بلاداً عامرة بالمدن والسكان، حتى أن الأقاليم التي دخلتها القوات السلجوقية كانت تحوي على سبعمائة ألف دار، وألف بيعه ودير[٤٤].

ورغم تلك العلاقة العدائية بين السلطنة ومملكة الكرج إلاَّ أن المصادر ذكرت أن السلطان أقدم عام ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م على الزواج من أخت ملك الكرج فقراط، التي زفت إليه في همذان[٤٥] وما مر وقت قليل حتى دفع السلطان إليها كتاب الطلاق[٤٦].

ورغم أن تلك الانتصارات أضعفت مملكة الكرج إلا أن الكرج أعادوا ترتيب صفوفهم وخرجوا عام ٤٦١هـ/١٠٦٨م في جمع كبير للإغارة على البلدان الإسلامية المحاذية لهم حتى وصلوا كنجة[٤٧]، ورافق الإغارة أعمال القتل والأسر والسبي والنهب[٤٨].

وحين خرج الإمبراطور البيزنطي رومانوس إلى بلاد الإسلام عام ٤٦٣هـ /١٠٧٠م في مائتي ألف مقاتل، كان الكرج ضمن القوى المشاركة في هذا الجيش إلى جانب الروم والفرنج والروس والبجناك، وقد كان من نتائج المعركة بين السلاجقة والإمبراطورية البيزنطية في منازكرد[٤٩] هزيمة الإمبراطورية وحلفائها، واحتلال السلطان لمساحات واسعة من آسية الصغرى، حتى أصبح الثغر الإسلامي على مشارف مدينة القسطنطينية[٥٠] ومن خلال الاطلاع على المصادر، يظهر لنا أنّ الكرج امتنعوا عن التعرض للبلدان الإسلامية المحاذية لهم في عهد السلطان ملكشاه[٥١] نظراً لقوة السلطنة السلجوقية في عهده، وعاد الكرج للتعرض للبلدان الإسلامية في عهد السلطان محمد[٥٢] وتحديداً في عام ٥٠٣/هـ إذ هاجم الكرج بلاد كنجة المجاورة لهم، وكان ردّ السلطان تجهيز جيش لكف أذاهم[٥٣]، لكن التحرك الضخم للكرج كان في عهد السلطان محمود[٥٤] عام ٥١٤هـ/١١٢٠م، إذا خرج الكرج إلى البلاد الإسلامية المجاورة لهم ومعهم القفجاق وغيرهم من الأمم. ونتيجة لانشغال السلطنة، تكاتف الأمراء المسلمون المجاورون في التصدي لهم ومعهم ايلغازي بن ارتق[٥٥]، ودبيس بن صدقة[٥٦]، والملك طغرل[٥٧]، وقدّر عدد الجيش الإسلامي الذي خرج لقتالهم بمائة ألف[٥٨]، وفي رواية بثلاثين ألفاً[٥٩]، وتذكر المصادر أن الفريقان حين اصطفا للقتال خرج من القفجاق مائتا رجل، فظن المسلمون أن الخروج بهدف الأمان إلاّ أن القفجاق حين دخلوا في صفوف المسلمين، رموا النشاب، فاضطرب الصف الإسلامي، وظن من كان خلفهم أنها الهزيمة، فانهزم المسلمون وقتل الكثير وقد بقي الكرج يقتلون ويأسرون من المسلمين لمسافة عشرة فراسخ، وقدر عدد من قتل وأسر بأربعة آلاف ونجا الملك طغرل، وايلغازي، ودبيس بن صدقة[٦٠]، كما احتل الكرج الأراضي

الإسلامية المحاذية لهم وقاموا بنهبها، حتى وصلوا إلى مدينة تفليس، التي فرضوا الحصار عليها ورغم جهود المسلمون في الدفاع عنها، إلا أن طول الحصار، وإشراف أهل المدينة على الهلاك، دفع أعيان المدينة إلى مفاوضة الكرج على التسليم مقابل الأمان. لكن الكرج رفضوا العرض ودخلوا المدينة قهرا، فاستباحوها ونهبوها، ولهول الفاجعة خرج أهلها إلى بغداد مستنصرين وإلى السلطان محمود مستغيثين[٦١]. ويقال: إنّ السلطان استجاب لندائهم[٦٢]، إذ أنفذ العساكر إلى الكرج عام ٥١٧هـ/١١٢٣م[٦٣]، وفي رواية أن الاستغاثة ليس من أهل تفليس فقط، بل قدمت جماعة أخرى من أهل دوبندشروان[٦٤]، الذين شكوا للسلطان ضعفهم وعجزهم أمام الكرج، ولهذا سار السلطان إلى بلاد الكرج بنفسه حتى وصل مدينة شماخي[٦٥]، وحين نزل السلطان على مقربة من الكرج، جرت مراسلات، تمثلت برسالة أرسلها ملك الكرج إلى السلطان، وفيها اظهر الكرج القوة والأنفة والاعتزاز بالنفس ((إني قد سمعت انك قلت انا امضي واقلع ابن داود، وابن داود قد تقدم إليك خمسين فرسخاً فإن كنت رجلا فتقدم إليه خمسة فراسخ، ولولا أنك صاحب تاج وتخت، وقد جرت عوائدنا بحفظ حرمة الملوك، لهجمت عليك وأسرتك، فاذهب بحرمتك ولا تحدث نفسك بقصدي))[٦٦]، ورغم ذلك استمر السلطان في عزمه على غزو بلادهم[٦٧]، وحين اللقاء أصيب العسكر الإسلامي بالضعف لكثرة الكرج حتى نصح الوزير شمس الملك عثمان السلطان بالرحيل، إلاّ أن أهل شروان[٦٨]، أشاروا على السلطان البقاء مقابل أن يتولوا هم قتال الكرج، لأن وجود السلطان قوة المسلمين ورحيله ضعفٌ لهم. فقبل السلطان رأيهم، وأثناء القتال حدث الخلاف بين الكرج وأتباعهم القفجاق مما تسبب في هزيمة الكرج، وتشير الروايات أن السلطان أقام بعد الانتصار في شروان مدة، ثم عاد إلى همذان[٦٩]. وفي رواية أن السلطان لم يحقق النصر إذ قصد بلادهم وعاد بالعجز[٧٠]، لكن من المؤكد أن السلطان حقق الانتصار بدليل القبض على وزيره

شمس الملك عثمان، الذي أشار بالعودة عن حرب الكرج، لأن الخيرة كانت للمسلمين والسلطان في مخالفة رأيه واتهامه بالتهور وقلة المعرفة بمصالح الدولة[٧١].

العلاقة في العصر السلجوقي الأخير:

تسكت المصادر عن ذكر الصراع بين السلاجقة والكرج حتى عام ٥٤١هـ/١١٤٦م، وتحديداً في عهد السلطان مسعود[٧٢]، إذ ذكرت المصادر قيام أحد أتابكة السلطان ويدعى عبد الرحمن طغايرل بتسيير الأمراء لقتال الكرج[٧٣]، وفي عهد السلطان محمد[٧٤]، استعادت السلطنة قوتها فبادر الكرج إلى مراسلته طلبا للصلح، بعد أن شاهدوا انتصار السلطان على أتابكه شمس الدين الدكز[٧٥]، رغم ما كان في صحبة هذا الأتابك من العسكر والأمراء[٧٦]، وتجدّد الصراع بين الطرفين عام ٤٥٨هـ/١١٥٣م على جبهة سلاجقة الروم إذ يقال: إنَّ الكرج قاموا بمهاجمة صلتق صاحب أرزن الروم[٧٧]. وكانت النتيجة هزيمة صلتق وأسره، وما أطلق سراحه إلاّ بفدية[٧٨].

وازداد الصراع في عهد السلطان أرسلان شاه بن طغرل[٧٩]، نظراً لصغر سن السلطان وهيمنة الأتابك شمس الدين الدكز زوج أمه على سلطنته، وانشغال الأتابك بالقضاء على الأمراء الثائرين على سلطنة السلطان. لذلك زحف ملك الكرج جورجي عام ٥٥٦هـ/١١٦٠م على مدينة أني فملكها بعد قتال كبير وبما أن المدينة قريبة من مدينة خلاط[٨٠]، فقد تصدى لهم شاه أرمن بن إبراهيم[٨١] صاحب خلاط الذي جمع العساكر والمتطوعة لقتالهم، وكانت النتيجة هزيمة المسلمين بعد قتل الكثير منهم، بحيث تذكر المصادر أن شاه أرمن عاد وليس معه سوى أربعمائة فارس[٨٢] كمؤشر على عظم الكارثة التي لحقت بهم. وعاد الكرج ثانية عام ٥٥٦هـ/١١٦٠م لمهاجمة صاحب أرزن الروم، ورغم المقاومة العنيفة التي أبداها الأمير إلا أنَّه هُزم وأُسر ولم يطلق سراحه إلا بفدية أرسلت إلى ملك الكرج[٨٣]، وعاد الكرج لمهاجمة ديار الإسلام

عام ٥٥٧هـ/١١٦١م، وكانت وجهتهم مدينة دوين[٨٤]، إحدى أعمال أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج[٨٥]، وقد حشد الكرج في حملتهم أعداد كبيرة تقدر بثلاثين ألف مقاتل، وبتلك القوات استولى الكرج على المدينة وسوادها وقاموا بأعمال النهب والقتل حتى قدرت المصادر عدد من قتل من المسلمين بعشرة آلاف[٨٦] وفي رواية بثلاثين ألفاً[٨٧].

وازدادت بشاعة الكرج بأسر النساء، وأخذهن سبايا[٨٨]، بحيث أثارت الحادثة حفيظة المسلمين، لذلك أخذ شمس الدين الدكز، صاحب أذربيجان والجبل[٨٩]، وأصفهان[٩٠]، في جمع العساكر وحشدها وانضم إلى هذا الحشد عدد من الأمراء المسلمين أمثال شاه أرمن بن سكمان صاحب خلاط، وابن اقسنقر صاحب مراغة[٩١]، وقدّر عدد الجمع بخمسين ألف جندي، وقد سارت تلك القوات باتجاه الكرج عام ٥٥٨هـ/١١١٢م، وتمكنت هذه القوات من دخول بلاد الكرج والقيام بأعمال النهب والقتل والأسر لبلاد الكرج لمدة شهر[٩٢]، وتشير الروايات إلى أسباب هزيمة الكرج وهي حضور أحد أمراء الكرج إلى الأتابك شمس الدين الدكز والإسلام بين يديه والطلب منه تسيير العسكر برفقته في طريق يعرفها ليأتي الكرج من الخلف، في الوقت الذي يقاتل فيه الأتابك الكرج من الأمام وبذلك انهزم الكرج فقُتل وأُسر الكثير وغُنم من أموالهم ما لا يدخل في إحصاء[٩٣].

ورغم الهزيمة، فإن الكرج أعادوا ترتيب صفوفهم ثانية والإغارة على البلدان المجاورة لهم عام ٥٦١هـ/١١٦٥م، وخاصة مدينة تفليس فقتلوا وسبوا[٩٤]، لكن الهجوم الأعظم للكرج على أذربيجان كان عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م، فاتجهوا إلى مدينة دوين ودخلوها، بعد عمل مجزرة عظيمة بحق المسلمين فيها[٩٥]، ويبدو أن الأتابك شمس الدين الدكز لم يحرك ساكناً لتلك المجزرة، رغم أن المدينة كانت من أملاكه بدليل أنَّه حين أرسل رسالة إلى السلطان نور الدين محمود يطلب فك الحصار عن الموصل رد عليه السلطان نور الدين، بالقول: إنك ملكت نصف بلاد الإسلام، وأهملت

الثغور حتى غلب الكرج عليها بينما أنا بليت بأشجع الناس وهم الفرنج، ومع ذلك أخذت بلادهم وأسرت ملوكهم[٩٦].

وعاد الأتابك شمس الدين الدكز إلى أذربيجان وأران، حين سمع قيام بعض أمرائه بمراسلة الكرج ومراسلة الكرج لهم[٩٧]، وأن الكرج تحدثهم أنفسهم بقصد ديار الإسلام بعد غارتهم على مدينة دوين وأخذ من بها من المسلمين، وحين عاد إلى أذربيجان، قامت الكرج بمراسلته، طالبين خراج كنجة وبيلقان[٩٨]، الذي لم يرسله الأتابك شمس الدين منذ سنين إلاّ أن الأتابك رفض طلبهم وأرسل إليهم رسالة فيها أنّه ما ترك العراق إلاّ بهدف جمع العساكر وقصد تفليس لإخراجهم منها وأنه لا ينجيهم من عسكره إلاّ الضرب بالسيف والطعن بالأسنة[٩٩]، وبعد أن جمع الأتابك شمس الدين عساكره جاء مدداً له السلطان أرسلان شاه وبرفقته عساكر (رفت لها العيون لكثرتها)، بحيث لم يسمع عسكر جمع فيه تلك الطبقات من الجند ما جمعه السلطان في هذا العسكر، كما انضم إليهم عسكر شاه أرمن سقمان بن إبراهيم، وما إن وصلت الجيوش الإسلامية إلى كنجة حتى بادر ملك الكرج، بإرسال رسالة إلى السلطان، معلناً تنازله عما طلبه، وأنه لن يعود إلى عمل يسيء إلى السلطان وأتابكه، وأنه نازل عما يريده السلطان وأتابكه[١٠٠].

وإثر تلك الرسالة، بادر السلطان إلى جمع الأمراء لاستشارتهم بشأن عرض الكرج وقد رفض أمراء العراق ذلك العرض، كونهم أنفقوا الأموال الباهظة في جمع الجند للقاء الكرج، ووافقهم في ذلك شاه أرمن الذي أشار أن الكرج أصبحت وطأتهم ثقيلة على المسلمين بدليل ما فعلوه بالأمس في مدينة دوين كما أن عدم قتال الكرج. يدفع الكرج إلى الخروج لطرق بلاد الإسلام ثانية، فوافق الأتابك شمس الدين الدكز رأيهم مطالباً إياهم التأهب للقاء الكرج وتشير الروايات أن ملك الكرج حين علم بإصرار المسلمين على قصد بلاده خرج بعسكر ما سمع بمثله في العدة والعتاد وقبيل اللقاء، قام الأتابك بتقسيم عسكره إلى ثلاث فرق فرقة للقاء ملك الكرج وعسكره وفرقة ثانية

من عسكر العراق منتظره اختلاط الرجال بالرجال والخيل بالخيل وفرقة ثالثة من غلمانه وخواصه، وحين بدأ القتال وصمد الفريقان لبعضهم أتت الفرقة الثانية كظلام الليل وفي منتصف النهار أتى الأتابك بنفسه وبرفقته رجاله الأتراك. ولما رأى ملك الكرج كثرة العسكر الإسلامي والإمداد متواصل انهزم بعد أن قتل عشرة آلاف من أبطاله وأسر الآلاف(١٠١).

كما تصدى السلطان أرسلان شاه وأتابكة شمس الدين الدكز أيضاً لملك الأبخاز. الذي طمع في بلاد الإسلام، وأساء إلى الثغور الإسلامية المجاورة له، وعند لقاء ملك الأبخاز، كان لعبقرية الأتابك العسكرية الأثر في حماية الجند السلطاني وإلحاق الهزيمة بملك الأبخاز. والاستيلاء على كميات هائلة من الصلبان الذهبية وأواني الشراب الفضية من العسكر الأبخازي (١٠٢)، كما قام السلطان وأتابكة ثانية بغزو بلاد الأبخاز عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م، ورغم أن ملك الأبخاز تصدى لهم بجند لا عدّ له لكنه لم يقوا على التصدي للجيش الإسلامي لذلك احتمى بجبل وغابة، ولما لم يكن للمسلمين منفذ إلى تلك المنطقة قاموا بالإغارة على مدينة شهد(١٠٣)، التي بناها ملك الأبخاز ومن ثم العودة إلى نخجوان(١٠٤)، وحين عاد السلطان وأتابكه الكرة على بلاد الأبخاز تصدى لهم ملك الأبخاز بجند لا حصر لها. مما أضعف الجند السلطاني وما أنقذهم من الهزيمة سوى الشيخ ظهير الدين البلخي الذي أخذ ينادي لإثارة الحماس بالجند والهجوم بنفسه ومعه الأتابك والأمراء. وكانت النتيجة هزيمة الأبخاز وانتصار المسلمين(١٠٥).

ولما كان السلطان طغرل الثالث صغير السن(١٠٦)، فقد وقع تدبير شؤون دولته على أتابكه محمد البهلوان(١٠٧)، الذي كانت له مهابة كبيرة في قلوب العسكر وأصحاب الأطراف، وقد تصدى الأتابك للأخطار الخارجية وخاصة الخطر الكرجي، إذ جمع العساكر وسار إلى بلاد أذربيجان وأران حتى دخل بلاد الكرج، دون أن يجرؤ الكرج على مقابلته، بل أنفذ إليه الكرج من صالحه على ما أراد ومن ثم عاد إلى بلاده(١٠٨)،

وحين نضج السلطان طغرل الثالث واشتد ساعده، أصبح تدبير الدولة عليه فنجح في إلزام ملك الأبخاز على البقاء في قلاعة وعدم التعرض لدار الإسلام[١٠٩]، كما يذكر له قيامه بحمله عسكرية إلى بلاد الكرج في بعض السنوات دون أن تتحدث المصادر عن مجريات هذه الحملة[١١٠]. وبعد وفاة السلطان وأتابكه محمد البهلوان، تتحدث المصادر عن النزاع الذي دب بين أبناء الأتابك وهما أمير أميران عمر، وأخوه أبو بكر. وكانت نتيجة النزاع، هزيمة أمير أميران عمر أمام أخيه وذهابه إلى شروان شاة طالباً المساعدة في التصدي لأخيه. وتشير الروايات أن شروان شاه أكرم مثواه وحمل إليه من الأموال والخيل والرجال ما يقارب المائة ألف رجل، كما سار أمير أميران عمر إلى الكرج طالباً المساعدة من ملكة الكرج، التي طلبت من أمراء عساكرها إكرام مثواه وإعطائه ما يحتاج إليه من الميرة والعلوفة والدنانير والثياب. مقابل أن تكون البلاد التي يسيطر عليها من أخيه ملكاً للكرج ، يأخذوا منها ما يريدون[١١١].

وقد تحمس الكرج لمساعدته، بجمع العساكر وتجهيزها والطلب من شروان شاه الذي دخل في طاعتهم وأدى الخراج إليهم أن يتجهز للمسير معه، كما انضم إليه، الكثير من عسكر أران، وأثناء اللقاء هزم أخوه أبو بكر، ووقع بين القتلى[١١٢]، وفي رواية أنَّه لم يقتل، إذ حمله أحد الفرسان، وهو جريحٌ إلى بيلقان، فأقام هناك، يجمع المغلوبين ومن ثم سار إلى نخجوان[١١٣]، أما أمير أميران عمر فانه بعد انتصاره سار إلى كنجه وبرفقته عسكر الكرج والمسلمين وقد رفض أهل كنجة تسليم المدينة إليه كون الجنود الكرجي برفقته، وهم جند لا يؤمن شرهم في الاستيلاء عليها وعلى الذراري، كما أن الاستيلاء على هذا الثغر الإسلامي كنجة يعني أنَّه لا يبقى بلد من بلاد الإسلام إلاّ ويصير لهم، فاضطر أمير أميران عمر مراسلة الأمراء الموجودين في المدينة، طالباً التسليم، مقابل إزاحة الكرج الذين برفقته فوافقوه، وحين علم الكرج بالنبأ، طمأنهم أنَّه إذا دخل المدينة أنفذ فيها حكمهم، وأدى إليهم خراجها على أن يدخل معه عدد من أمراء الكرج لإجلاسه على سرير السلطنة، واستحلافه، وفي اليوم التالي حين دخل

المدينة دخلها مع غلمانه وثلاثة من أمراء الكرج، وما إن وصل إلى دار السلطان وجلس على سرير السلطنة، حتى حلف لأمراء الكرج على ألاّ يضمر لهم غدراً، وان يكون موافقاً لهم في السر والجهر، ومن ثم خرج الأمراء ومعهم العسكر الكرجي من حول المدينة، وبقي أمير أميران عمر حاكما للمدينة مدة اثنين وعشرين يوماً ومن ثم توفي(١١٥).

النتائج:

كان من أهم النتائج التي توصل إليها الباحث في بحثه ما يلي:

١- أن الإسلام كان قد وصل مبكراً إلى بلاد الكرج، إلا أن ذلك الوصول لم يقدر له النجاح الكبير، نتيجة تمسك الكرج بديانتهم المسيحية وحماسهم لها.

٢- أن بداية الاصطدام مع الكرج، كانت على يد إبراهيم ينال أخي السلطان طغرلبك، الذي كان أول من غزا بلادهم، وعاد بالسبي والغنائم.

٣- أن أعظم الفتوحات السلجوقية في بلاد الكرج، كانت في عهد السلطان الب أرسلان، الذي تمكن من فتح بلادهم وإلحاق الهزيمة بهم وبحلفائهم البيزنطيين.

٤- أن الكرج اعتادوا مهادنة السلطنة السلجوقية أثناء قوتها، كما في عهد السلطان ملكشاه والسلطان محمد. لكن عند شعورهم بضعفها، كانوا لا يتوانون عن غزو الأقاليم الإسلامية المجاورة لهم في أذربيجان وآران كما حصل في عهد السلطان محمود والسلطان مسعود.

٥- أن أغلب انتصارات الكرج على المسلمين، كانت في عهد السلطان أرسلان شاه بن طغرل، نظراً لصغر سن السلطان، وهيمنة أتابكة شمس الدين الدكز عليه، رغم الانتصارات المحدودة التي حققها السلطان وأتابكة عليهم وعلى حلفائهم الأبخاز.

٦- لا نشاهد في العصر السلجوقي حالة من الخنوع للكرج، كما نشاهدها في عهد اوزبك بن محمد البهلون، الذي انشغل بحياته الخاصة عن مقارعتهم والتصدي لهم.

٧- أن الانتصارات التي حققها جلال الدين بن خوارزمشاه على الكرج، لا نجد لها نظيراً في التاريخ السلجوقي، رغم قلة عدد جنده وخراب بلاده على يد التتر.

٨- أن الكرج كالمسلمين، لم يتمكنوا من التصدي للتتر، رغم المقاومة العنيفة التي أبداها الكرج أمامهم، إذ انتهى الأمر بهزيمتهم ووقوع بلادهم تحت السيادة التترية.

الهوامش

(١) جبال القبق : أحد الجبال في بلاد أرمينية.

(٢) ابن العبري، جمال الدين بن هارون أبو الفرج الملطي (ت٦٨٥ه/١٢٨٦م) **تاريخ مختصر الدول**، د م، دن، ص٧٩

(٣) ياقوت: شهاب الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله الرومي (ت ٦٢٦ه/١٢٢٩م)، **معجم البلدان**، متعدّد الطبقات، ٧ج، دار صادر، بيروت، د ن،ج٤، ص٥٠٦

(٤) الراوندي محمد بن علي بن سليمان (ت ٦٠١هـ/١٢٠٤م) **راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية**، نقله من الفارسية إبراهيم أمين الشواربي، وعبد المنعم محمد حسنين، وفؤاد عبد المعطي الصياد، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٠ هامش ص٣١٢

(٥) الراوندي، المصدر نفسه، هامش ص٢١٣

(٦) تفليس: أول حدود أرمينية بينها وبين قالي قلا أربع مراحل وهى على نهر وغابة في الرقة والخصب، الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت٩٠٠هـ/١٤٩٤م) **الروض المعطار في خبر الأقطار**، حققه إحسان عباس، مكتبة لبنان،بيروت، ١٩٨٤م، ص١٣٩

(٧) ابن قدامة: أبو الفرج قدامه بن جعفر بن قدامه الكاتب البغدادي (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م) **الخراج وصناعة الكتابة**. شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١م، ص ٣٢٤ وما بعدها.

(٨) إبراهيم ينال: الأخ غير الشقيق للسلطان طغرلبك وقد كان أعطى ولاية قهستان وجرجان إلا أنَّه ثار على أخيه السلطان طغرلبك، مما أدى إلى مقتله على يد السلطان عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم

الشيباني الجزري (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، **الكامل في التاريخ**، تحقيق محمد يوسف الدقاق، ١١، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٨٧م، ج٩،ص٦٠٢

(٩) طغرلبك أول سلاطين السلاجقة وإليه يعود الفضل في عبور السلاجقة إقليم خراسان والقضاء على السلطنة الغزنوية، كما كان أول من دخل العراق من السلاجقة الذهبي، شمس الدين محمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) **دول الإسلام**، ٢ج في ام، طبع دار المعارف، حيدر ابادوالدكن ١٣٣٧هـ، ج١، ص٢٠٧.

(١٠) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٨،ص.٢٨٢

(١١) الغز(الاغوز): أمة عظيمة من الترك ذات قبائل متعددة تقطن المنطقة الممتدة من بحر الخزر إلى أواسط آسية، بارتولد، فلاديمير، **تاريخ الترك في آسية الوسطى**، ترجمة السعيد سليمان، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م، ص٩٤_٩٥.

(١٢) ما وراء النهر: يراد به ما وراء نهر جيحون وكان هذا لإقليم أول الأقاليم التي استقر بها السلاجقة حين هجرتهم من موطنهم الأصلي بلاد تركستان ياقوت، **معجم البلدان**، ج٥ ص.٤٥

(١٣) طرابزون: إحدى المناطق في آسية الصغرى، القريبة من أرمينية.

(١٤) القسطنطينية : كانت رومة في القديم دار مملكة الروم ثم ملك بها قسطنطين، ثم انتقل إلى بيزنطيه وبنى عليها سوراً وسماها القسطنطينية، الحميري، **الروض المعطار**، ص٤٨١.

(١٥) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٨،ص٢٨٢_٢٨٣.

(١٦) الب أرسلان حكم من عام ٤٥٦هـ/١٠٦٣م- ٤٦٥هـ/١٠٧٢م، وإليه يعود الانتصار الذي حققته الدولة السلجوقية على الإمبراطورية البيزنطية عام٤٦٣هـ/١٠٧٠م.

(١٧) مرند: مدينة من أشهر مدن أذربيجان، ياقوت، **معجم البلدان**، ج٥، ٥ص١١٠.

(١٨) نقجوان: بلد بأقصى أذربيجان، ياقوت، **معجم البلدان**، ج٥ ،ص٢٧٦.

(١٩) خوى: مدينة من أذربيجان، الحميري، **الروض المعطار**، ص٢٤٢_٢٢٤.

(٢٠) سلماس: بلد في داخل المشرق، الحميري، **الروض المعطار**، ص٣٢٧.

(٢١) أذربيجان: الإقليم الخامس طولها ٧٣ درجه وعرضها ٤٠ درجة، ياقوت، **معجم البلدان**، ج٢، ص١٢٨.

(٢٢) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ج٨ ،ص٣٦٨.

(٢٣) ملكشاه: أبو الفتح بن أبى شجاع محمد بن الب أرسلان الملقب بجلال الدولة، كان من السلاطين العظام في العصر السلجوقي الأول حكم ٤٦٥هـ- ٤٨٥هـ/١٠٧٣_١٠٩٢م، ابن الجوزى، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٩٢م، ج١٦ ، ص٣٠٨_٣١٣.

(٢٤) نظام الملك: أبو على الحسن بن على الطوسي الملقب بنظام الملك، وزر للسلطان الب أرسلان وابنه السلطان ملكشاه لمده ٢٩ سنة(ت٤٨٥هـ /١٠٩٢م) ابن الجوزي، **المنتظم**، دار المعارف العثمانية، ج ٨، ص٢٣٠.

(٢٥) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، ج٨ ، ص ٣٦٨.

(٢٦) سرماري: ولاية واسعة تقع بالقرب من بخارى، ياقوت ، **معجم البلدان** ، ص٧٥.

(٢٧) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، ج٨ ص٣٦٨.

(٢٨) المصدر نفسه ، ج٨ ، ص٣٦٨.

(٢٩) مريم نشين: مدينة من نواحي أرمينية.

(٣٠) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، ج٨ ص٣٦٨_٣٦٩.

(٣١) المصدر نفسه ، ج ٨، ص٣٦٨_٣٦٩.

(٣٢) المصدر نفسه ج ٨ ص٣٦٩.

(٣٣) سبيذ شهر: مدينة من نواحي أرمينية.

(٣٤) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٣٦٩.

(٣٥) اغاك لال: إحدى كور بلاد أرمينية ، ياقوت، **معجم البلدان** ، ج١ص٢١٢.

(٣٦) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، ج٨،ص ٣٦٩.

(٣٧) المصدر نفسه ، ج٨،ص، ٣٦٩.

(٣٨) فرس: مدينة من نواحي أرمينية.

(٣٩) انى: مدينة بأرض أرمينية بين خلاط وكنجه، ياقوت، **معجم البلدان**، ج١، ص٥٩.

(٤٠) رسل ورده ونوره: ناحية من نواحي أرمينية.

(٤١) ابن الأثير ، **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص ٣٦٩.

(٤٢) المصدر نفسه، ج٨،ص ٣٦٩_٣٧٠.

(٤٣) المصدر نفسه،ج٨، ص٣٦٩. الذهبى، شمس الدين محمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧ م) **دول الإسلام**، ج٢، مطبعة دائرة المعارف النظامية الكائنة بحيدر أباد، الدكن ١٣٣٧هـ، ج١ص٢٠٧ اليزدى، محمد بن عبدالله ابن النظام الحسينى (ت٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م) **العراضة في الحكاية السلجوقية**، تحقيق عبد النعيم محمد حسنين، حسين أمين، طبع على نفقه جامعة بغداد،١٩٧٩ص٤٦.

(٤٤) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج ١٦، ص٨٨.

(٤٥) همذان :أبر مدن بلاد الجبل ، ياقوت، **معجم البلدان** ، ج٥ ص٤١٠.

(٤٦) ابن العبري، جمال الدين بن هارون أبو الفرج الملطي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) **تاريخ الزمان**، نقله إلى العربية الأب إسحاق أرملة ، دار المشرق. بيروت ، ١٩٩١م، ص١٨٠.

(٤٧) كنجة: من أصقاع أرمينية وهي تقع بين همذان وأصبهان وهي تسمية أطلقتها العامة على بلاد اران، ياقوت، **معجم البلدان** ج٤،ص٤٨٢.

(٤٨) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٩، ص١٨٢.

(٤٩) مناز كرد: بلد بين خلاط وبلاد الروم ، تعدّ من بلاد أرمينية وأهله أرمن وروم وقد حدثت بها معركة فاصلة بين السلطان الب أرسلان وبيزنطة في عهد الإمبراطور رومانوس، ياقوت، **معجم البلدان**، ج٥، ص٢٠٢.

(٥٠) ابن العمراني محمد بن علي بن محمد (ت ٥٨٠هـ/١١٨٤م) **الإنباء في تاريخ الخلفاء**، تحقيق ودراسة قاسم السامرائي، نشريات المعهد الهولندي للآثار المصرية والبحوث العربية، القاهرة ، ١٩٧٣ ص٢٠٠.

(٥١) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٩ ، ص١٩٤ اليافعي، عبدالله بن اسعد بن علي بن سليمان(ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م) **مرآة الجنان وعبرت اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، ٤ج، وضع حواشية خليل منصور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ن، ج٣، ص٦٧.

(٥٢) السلطان محمد غياث الدنيا والدين محمد بن ملكشاه استقرت له السلطنة بعد وفاة أخيه بركياروق (عام ٤٩٨هـ/١١٠٤م) واستمر في الحكم حتى وفاته٥١١/ ١١١٧م، الحسيني، صدر الدين أبي الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر بن علي (ت٥٧٥هـ/١١٨٠م) **أخبار الدولة السلجوقية**، عني بتصحيحه محمد إقبال، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٤، ص٧٩_٨٤.

(٥٣) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص.٨١

(٥٤) السلطان محمود: هو السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه حكم(٥١١ه/١١١٧م) وقد عرف بصراعه مع الكرج والخلافة العباسية وإمارة الحلة الشيعية ، الراوندي، **راحة الصدور وآية السرور**، ص٢٩٩_٣٠٣.

(٥٥) ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين وجد ملوكها (ت٥١٦هـ/١٢٢٢م) الذهبي، **دول الإسلام**، ج٢، ص٤٣.

(٥٦) دبيس بن صدقة بن منصور بن علي بن مزيد، أحد أمراء الحلة الشيعية وهي إمارة واقعة بين الكوفة وبغداد، ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيه** تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مكتبة المثنى، بغداد،١٩٦٣، ص٤٦_٤٧.

(٥٧) الملك طغرل هو طغرل بن محمد بن ملكشاه (ت ٥٢٩هـ/ ١١٤٣م) كان خيراً عاقلاً قريباً من الرعية محسناً إليها ،ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١٠ ، ص١٩ ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٧ ص٣٠٣.

(٥٨) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٩ ،ص١٩٤.

(٥٩) المصدر نفسه، ج٩ ، ص١٩٤.

(٦٠) المصدر، نفسه، ج٩ ، ص١٩٤.

(٦١) المصدر نفسه، ج٩ ،ص١٩٤، ابن العمراني، **الأنباء** ص٢١٣ ابن العبري، **تاريخ مختصر**، ص٢٠٢_٢٠١ . ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف(ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ٥م، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر د.م، د.ن، ج٥، ص٢٢٣.

(٦٢) تبريز: بكسر أوله أشهر مدن أذربيجان، ياقوت، **معجم البلدان**، ج٢ ،ص.١٣

(٦٣) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ،ج٩،ص.٢٢٤،١٩٤

(٦٤) دربند شروان:وهي على بحر الخزر وهي مدينه كبيره تعدّ إحدى الثغور الجليلة، ياقوت، **معجم البلدان** ج١،ص٣٠٣.

(٦٥) شماخي : بفتح أوله مدينة عامرة وهي قصبة بلاد شروان في طرف آران، تعدّ عملاً من أعمال باب الأبواب. ياقوت، **معجم البلدان**،ج١.ص٣٣٩.

(٦٦) ابن العمراني ،**الأنباء** ،ص٢١٤,

(٦٧) المصدر نفسه، ص ٢١٤,

(٦٨) شروان: بلاد شروان ولاية قرب بحر الخزر، ياقوت، **معجم البلدان**، ج١، ص٣٣٩ دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٤، ص٣٣ مادة شروان.

(٦٩) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ،ج٩ ،ص٢٢٤.

(٧٠) ابن العمراني، **الأنباء**، ص٢١٤.

(٧١) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٩، ص٢٢٣.

(٧٢) السلطان مسعود: هو السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه حكم بين عام (٥٢٧هـ /١١٣٢م)ـ (٥٤٧هـ/١١٥٣م) قتل في عهده خليفتان المسترشد

بالله والراشد بالله، وكان له دور في تعيين المقتفي لأمر الله لمنصب الخلافة، ابن لأثير، **التاريخ الباهر** ، ص٦٠-١٠٦.

(٧٣) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص٧٨.

(٧٤) السلطان محمد، هو أبو شجاع محمد بن محمود بن ملكشاه حكم ٥٤٧-٥٥٣هـ ـ ١١٥٢م/١١٥٨م)ـ وقد عرف بصراعه مع الخلافة العباسية وذلك بمحاصرة بغداد حاضرة الخلافة في عهد المقتفي لأمر الله، الراوندي، **راحة الصدور وآية السرور**، ص ٣٧١-٣٨٩

(٧٥) شمس الدين الدكز: أحد أتابكة السلطان أرسلان شاه بن طغرل، وكان الحاكم الفعلي للدولة في عهده نظراً لكونه زوج أم السلطان أرسلان شاه (ت٥٧٠ هـ/١١٧٤م) ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس احمد بن محمد (ت٦٨١هـ/١٢٨٦م)، **وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان** ٨ج، تحقيق إحسان عباس، متعدّد الطبعات، دار صادر ، بيروت ، ج٥، ص ٢٠٨.

(٧٦) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص١٤٢.

(٧٧) ارزن الروم: بلده من بلاد أرمينية، ياقوت، **معجم البلدان**، ج١ ،ص.١٥٠

(٧٨) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ،ج١، ص٣٩٣.

(٧٩) أرسلان شاه بن طغرل: أحد السلاطين السلاجقة المتأخرين الذين لم يكن لهم شأن إلى جوار زوج أمه شمس الدين الدكز (ت ٥٧٣هـ/١١٧٧م) اليافعي، **مرآة الجنان** ،ج٣ ، ص٣١.

(٨٠) خلاط: مدينة عامرة تعدّ قصبة أرمينية الوسطى، ياقوت، **معجم البلدان**، ج٢، ص٣٥٠. القرويني، زكريا بن محمد بن محمود (٦٨٢هـ/١٢٨٣م) **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت د.ن، ص٢٠٤.

(٨١) شاه ارمن بن ابراهيم بن سكمان :هو أحد ملوك بقايا البيت السلجوقي في آسية الصغرى.

(٨٢) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ،ج٩، ص٤٥٢.

(٨٣) المصدر نفسة ،ج٩، ص٤٥٣.

(٨٤) دوين: مدينه في اران من آخر حدود أذربيجان قرب تفليس، ياقوت، **معجم البلدان**،ج٢، ص١٥٢.

(٨٥) اران : من أصقاع أرمينية تسميها العامة كنجة، ياقوت، **معجم البلدان**،ج١ ، ص١٣٦.

(٨٦) ابن الأثير،**الكامل في التاريخ**،ج٩، ص٤٥٧_٤٥٨،ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص١٢.

(٨٧) الذهبي، شمس الدين محمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) **العبر في خبر من غبر**، ٤ج، حققها وضبطها أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٩٨٥، ج٣ ، ص٤٧.

(٨٨) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٩ ،ص٤٥٧ ٤٥٨.

(٨٩) بلاد الجبل: أرض واسعة وإقليم عظيم من مدنه همذان والسوس، ليسترنج، كي، **بلدان الخلافة الشرقية**، نقله إلى العربية ووضع فهارسه بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٩٨٥ ص٢٤٦.

(٩٠) أصفهان: مدينة عظيمة من أعلى المدن وأشهرها في الأقاليم الفارسية، القزويني، آثار البلاد، ص٢٩٦.

(٩١) مراغة: بلدة مشهورة عظيمة من بلاد أذربيجان، ياقوت، **معجم البلدان** ،ج٥، ص٩٣.

(٩٢) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص٤٥٨ ،ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص١٢ الذهبي، **العبر**، ج٣،ص٢٧.

(٩٣) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**،ج٩، ص٤٥٨ الذهبي، **العبر**،ج٣،ص٢٧.

(٩٤) الذهبي، **العبر**، ج٣، ص٣٥، **دول الإسلام**، ج٢، ص٥٣.

(٩٥) الذهبي، **العبر**، ج٣، ص٤٧.

(٩٦) ابن الأثير، **التاريخ الباهر**، ص ١٥٣.

(٩٧) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص.١٤٨

(٩٨) بيلقان: مدينة بإقليم داغستان الروسي على الشاطئ الغربي لبحر الخزر، دائرة المعارف الإسلامية ج، ٩ص١٧٨ ماده بيلقان.

(٩٩) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص١٦٢.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص ١٦٢.

(١٠١) المصدر نفسه، ص ١٦٢.

(١٠٢) الراوندي، **راحة الصدور وآية السرور**، ص٤١٣.

(١٠٣) اق شهر: ناحية من نواحي آسية الصغرى القريبة من أرمينية.

(١٠٤) الراوندي، **راحة الصدور وآية السرور**، ص٤٢٨.

(١٠٥) المصدر نفسه، ص ٤٢٩.

(١٠٦) طغرل الثالث: هو طغرل بن أرسلان شاه (ت٥٩٠هـ/١١٩٤م) إذ قتل على يد الخوارزمية بتحريض من الخليفة الناصر لدين الله العباسي، الذهبي، شمس الدين محمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٣م) **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام** (حوادث٤٤٠هـ/٥٩٠هـ) تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، دار الكتاب العربى، بيروت ١٩٩٦،(حوادث ٥٩٠هـ /٦٠٠هـ)، ص٩٣.

(١٠٧) محمد البهلوان: هو شمس الدين محمد البهلوان بن الدكز صاحب أذربيجان وعراق العجم كانت أيامه عشر سنين توفى عام ٥٨١هـ/١١٨٥م الذهبى، **دول الإسلام** ج٢ ص٩١.

(١٠٨) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية** ص١٧١-١٧٢.

(١٠٩) الراوندي، **راحة الصدور وآية السرور**، ص٥٢٦.

(١١٠) المصدر نفسه، ص ٥٢٦.

(١١١) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص١٨٥.

(١١٢) المصدر نفسه، ص١٨٦.

(١١٣) نحجوان: بلد بأقصى أذربيجان، ياقوت، **معجم البلدان**، ج٥، ص٢٧٦.

(١١٤) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص١٨٧.

(١١٥) المصدر نفسه، ص ١٨٨.

قراءة جديدة عن المدرسة الأيوبية الدمشقية فكرياً وأثرياً

"٥٦٩- ٦٥٩هـ/ ١١٧٣-١٢٦٠م"

الدكتورة وفاء صارم

قسم التاريخ

جامعة تشرين

مقدمة:

لم يكن العصر الأيوبي عصراً عادياً من العصور الهادئة، إنّما هو عصر تجلّت فيه حركة دائمة على مختلف الأصعدة، حروب في الخارج، وتوسع وانتصارات ترتب عليها تحصين حدوده ضد الاعتداءات الخارجية، وحياة حافلة بالمنجزات الإنشائية والعمرانية والاقتصادية والثقافية والدينية. وبلغت النهضة العمرانية بدمشق أوجها في عهد الأيوبيين بما تكامل فيها من عمران مدني وأحياء وأسواق وسُويقات ومرافق عامة. والذي حدث في دمشق في عهد الأيوبيين هو إعمار مناطق جديدة خارج الأسوار واتساع المدينة اتساعاً منقطع النظير، وهذه المظاهر نتيجة طبيعية لازدياد عدد السكان والازدهار الاقتصادي الذي حققه الأيوبيون والذي انعكست آثاره على الحركة العمرانية في دمشق خاصة. فكيف تجلى هذا الدور للمدرسة فكرياً وعمرانياً؟

الواقع إن بناء المدارس في ذلك العصر صار تقليداً متبعاً بين الملوك والأمراء وذوي الجاه يريد كل منهم تخليد ذكراه بعمل عمراني يحمل اسمه وينال ثوابه. وليس أفضل من المدرسة لتحقيق هذا الغرض، لأنها المكان الذي تعقد فيها جلسات الدرس ويتخرج

منه دعاة الدين والفضائل القويمة إلى جانب المسجد. مع هذا كله لابد من الوصول إلى الأسباب الحقيقية لبناء المدرسة، والدور التعليمي لها، والإثراء الكبير الذي قدمته لعلماء الآثار.

يختلف العلماء حول أصل المدرسة ونشأتها ووجدت عدة نظريات تبناها بعض المستشرقين والعلماء العرب حول نشأة المدرسة، فيفترض بارتولد Barthold أن المدرسة قد استوحيت من الأديرة البوذية في آسيا الوسطى، بيد أن المدارس الأولى قد ظهرت في نيسابور ومرو وبخارى في فترة حكم السلطان محمود الغزنوي (٣٩١-٤٢١ هـ / ٩٩٩- ١٠٣٠م)[١]. ويرى أحمد فكري أن المدرسة هي التطور المنطقي لوظيفة المسجد [٢]. أما جورج مقدسي فيعتقد أن المدرسة هي تطور ((للخانات)) التي كان يقيم بها الطلبة الغرباء عند ترددهم على كبار العلماء والمشايخ في القرن الرابع الهجري[٣]. يعتقد البعض أن العرب لم يعرفوا هذه المنشآت قبل القرن (٤هـ/١٠ م)، بيد أنهم يؤكدون أن العرب قد عرفوا أساليب التدريس العلمي العالي ومارسوه بشتى الوسائل وبمختلف الأمكنة من مساجد ودور علم قبل هذا التاريخ[٤]. ويُجمع المؤرخون أن أول من بنى مدرسة في الإسلام واقتدى به الناس بعد ذلك الوزير نظام الملك ((الحسن بن علي بن اسحاق بن العباس الطوسي)) وزير السلطان السلجوقي ((ملكشاه أبو أرسلان بن داود)) الذي شرع ببناء المدرسة النظامية الكبرى (٤٥٧ هـ/١٠٦٤م). وفي (عام ٤٥٩هـ/١٠٦٦م) جمع الناس ليدرسوا بها وذلك في أواسط القرن (٥ هـ/١١م) [٥]. بينما ينفي عدد كبير منهم ذلك [٦]. أما السبكي فيرجح أن "نظام الملك" هو أول من قَدَّر المعاليم للطلبة والأساتذة، فهذا يكون بالنسبة إليه وكذلك لابن خلكان والذهبي. والمدرسة في المفهوم "النظامي" هي مؤسسة لها عدة وظائف سياسية ودينية وثقافية....[٧]. كما يرى محمد أسعد طلس أن المدرسة لم تتنظم ولم تتخذ طريقها الثقافي الواسع، إلا في أيام "نظام الملك". ويعد عمل "نظام الملك" هذا أول عمل رسمي قامت به الدولة الإسلامية لتنظيم الدرا...

الضرورية، وإعداد الرواتب والنفقات للأساتذة والطلاب[٨] والحقيقة أنه وردت في كتب التاريخ والتراجم أسماء مدارس عديدة ظهرت قبل "نظام الملك" بفترة طويلة أقدمها مدرسة بالموصل بنيت أيام هشام بن عبد الملك، تليها مدرسة بالبصرة بنيت في (القرن ٢ هـ / ٨ م)، ثم مدرسة أنشأها المأمون في خراسان أثناء ولايته عليها[٩]. كما إنه من المؤكد أن المدارس انتشرت انتشاراً كبيراً في المشرق الإسلامي من القرن ٤هـ/١٠م، فقد ذكرت مدارس عديدة في إيران والري ومرو، كما ذكر السبكي العديد من المدارس التي أنشأت بدءاً من القرن (٤ هـ/١٠ م) [١٠].

وتذكر المصادر و المراجع ظهور مدارس في دمشق [١١] في وقت مبكر فأقيمت فيها خانقاه دويرة[١٢]حمد التي أقامها حمد بن عبد الله الدمشقي بدرب السلسلة (٤٠٠هـ/١٠٠٩م) فكانت مدرسة يؤمها الطلاب ويتلقون فيها علم القراءات. وأقام رشا بن نظيف بن ما شاء الله الدمشقي دار القرآن الرشائية في أوائل القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي. حيث بدأت داراً لتعليم القرآن الكريم، ثم أخذت بالتطور وتعليم المعارف المختلفة كالحديث والفقه والأدب. ويشير كارل والتسينجر في كتابه (الآثار الإسلامية في دمشق) إلى مدرسة تعرف بالمدرسة الأمينية، أسسها أمين الدولة سنة (٤١٢ هـ/١٠٢١م) [١٣] غير أنه لا تتوفر معلومات عن هذه المدرسة ولا عن مؤسسها، ولا يشير إلى مصدر معلوماته. ربما كانت مدرسة أقامها أحد أعيان المدينة الذين لم يرد ذكرهم في كتب التراجم. أما المدرسة الصادرية فهي أول مدرسة فقهية في دمشق والتي يظن أنها أول مدرسة في دمشق وأن صادر بن عبد الله بن علي الدمشقي أقامها سنة (٣٩١ هـ/١٠٠٠م)[١٤].

نستطيع القول: إن المدارس قديمة، فالتعليم موجود منذ العصور الأولى لكن المدارس الخاصة لم توجد منذ البداية. إلا أننا لا نعرف شيئاً عن نظامها ولا عن طريقة التدريس فيها، ولا عن المواد التي درست فيها. ولكن من الأرجح أنها كانت مخصصة للعلوم الدينية واللغوية.

ولبناء المدارس في دمشق في العصر الأيوبي عدد من الدوافع كتوحيد كلمة أصحاب المذهب السني ومحاربة الأفكار الشيعية ومحوها، وحاجة الدولة إلى الموظفين المؤمنين بسياستها ومذهبها[١٥]. إضافة إلى ميل السلاطين للعلم ورغبتهم في إنعاش الحياة الفكرية والعلمية، ومحاولة كسب ثقة العامة والخاصة[١٦]، وتهرب وتخوف بعض الأمراء أو الأعيان من وضع يد السلطان على أموالهم بعد مماتهم وحرمان أبنائهم منها [١٧]، وأيضاً تخليد الذكر ونيل الثواب[١٨].

اشترك مشيدو المدارس أو واقفوها بشروط تقتضي الحرص على مصالح المدرسة وضمان استراتيجيتها وتأديتها للوظيفة التي من أجلها بنيت. ومن تلك الشروط تحديد أنواع المدارس وموادها التي ستدرس بها. فظهر لدينا ما يمكن تسميته المدارس التخصصية، فاختصت بعض المدارس بتدريس مادة دراسية واحدة ومدارس أخرى بتدريس مادتين... الخ. ونتيجة لكثرة المدارس الأيوبية سيتم التطرق لعدد منها فلا مجال للتوسع بها كثيراً. وبذلك نستطيع تصنيف المدارس في دمشق في العهد الأيوبي كما يلي:

* **المدارس الشافعية**: من أهم مدارس الشافعية، المدرسة العادلية وممن تولى التدريس بها القاضي رفيع الدين عبد العزيز بن عبد الواحد بن اسماعيل الجيلي (٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م) [١٩]، وممن ولي مشيختها القاضي كمال الدين عمر بن بندار بن عمر التفليس (٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م)[٢٠]. وهي من المدارس التي خصص منها قسم لتدريس القراءات واللغة العربية إلى جانب الفقه [٢١]. ومن الجدير بالذكر أن أبا شامة جمع كتابة الروضتين في أخبار الدولتين داخل هذه المدرسة[٢٢]. وهناك المدرسة الأمينية[٢٣] وممن تولى التدريس فيها في العصر الأيوبي الشيخ شرف الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن جمال الإسلام السلمي (٦٠٢هـ/١٢٠٥م)[٢٤] وولي مشيختها القاضي عبد العزيز بن عبد الواحد بن عبد الهادي بن أبي عصرون (٤٧٥هـ/ ١٢٧٦م)[٢٥]، وهناك المدرسة المجاهدية البرانية والجوانية[٢٦]، والمدرسة

المسمارية[٢٧] أول من درس فيها كما ذكر ابن شداد الشيخ وجيه الدين أسعد بن المنجا ابن بركات بن المؤمل التنوخي (٦٠٦هـ/١٢٠٩م)[٢٨]. وفي هذه المدرسة وقف التدريس على أسرة المنجا. ومن دأب واقفي بعض المدارس في دمشق حصر المدرسة على عالم واحد وجعلها في ذريته. ومن المدارس التي كان لها الدور الكبير في نشر المذهب الشافعي، المدرسة العصرونية[٢٩]، وأول من ولي التدريس فيها واقفها، ثم من بعده ولده القاضي محمد بن عبدالله محمد، ثم نجم الدين بن عبد السلام بن المطهر (٦٣٢هـ/١٢٣٤م)[٣٠].

* **المدارس الحنفية:** من أهم المدارس التي درست المذهب الحنفي، المدرسة الطرخانية[٣١]، ومن أول من ولي التدريس بها في العصر الأيوبي شرف الدين اسماعيل بن ابراهيم بن غازي محمد النميري الماردينى المعروف بابن فلوس (٦٣٠هـ/١٢٣٢)[٣٢]. وقد تولى التدريس جملة من العلماء الأحناف في مدرسة القضاعين[٣٣] ومنهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن يوسف بن الخضر بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحيم الحلبي الحنفي (٦١٤هـ/١٢١٧م)[٣٤]. وتعد المدرسة الركنية البرانية[٣٥] من المدارس التي لعبت دورا علمياً كبيراً، وتذكر المصادر ممن ولي مشيختها ملكشاه بن عبد الملك بن يوسف المقدسي (٦٦٥هـ/١٢٦٦م)[٣٦] وتاج الدين محمد بن وثاب بن رافع الحنفي (٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م)[٣٧].

* **المدارس الحنبلية:** من أهم مدارس الحنابلة المدرسة الحنبلية الشريفة[٣٨] وممن وليها من المشايخ الحنابلة الفقيه بن عبد الكريم بن نجم الدين بن عبد الوهاب الشيرازي الحنبلي (٦١٩هـ/١٢٢٢م)[٣٩]، ثم خلفه أخوه أبو الفرج عبد الرحمن (٦٣٤هـ/١٢٤٥م)[٤٠].

والمدرسة العمرية الكبرى[٤١] من أكبر مدارس الحنابلة، وبدراسة ما بها من حركة علمية تم التعرف على النشاط العلمي في العهد الأيوبي، فقد كثر فيها المشتغلون بالعلم

واجتمع بها طلبة العلم من كل مكان، وقد كان بها نظام تدريس ممتع، فقد قسمت أيام الأسبوع بين مشايخ المذهب، وهكذا لكل واحد درس مستقل[٤٢]. ومن الذين درسوا فيها نجم الدين الخطيب[٤٣].

* **المدارس المشتركة بين الشافعية والأحناف:** منها المدرسة الأسدية[٤٤]، ومن أبرز من تصدر فيها الفقية العلامة مسعود بن محمد بن مسعود بن محمد النيسابوري (٥٧٨هـ/١١٨٢)[٤٥]، وجلس للتدريس بها الشيخ عمر بن عبد العزيز بن حسن بن علي القرشي الدمشقي الفقيه (٦١٥هـ/١٢١٨م)[٤٦]. ومن المتصدرين للتدريس من الأحناف الفقيه محمد بن سعد الله الحلبي المعروف تاج الدين ابن الوزان (٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م)[٤٧].

* **المدارس الطبية:** شهد هذا العهد تطوراً كبيراً في مجال الطب. وشهدت دمشق عدداً كبيراً من الأطباء المشاهير، فكان لهم أثر بارز في تطور وتقدم علم الطب ومباحثه ومناهجه وطرق وأساليب تعليمه. من أهم المدارس الطبية المدرسة الدخوارية[٤٨]، وهي دار لملك واقفها أوقفها عندما عزم السفر من دمشق، وأوقف لها عدداً من الضياع وجعل بها خزانة لكتبة، وهو أول من ألقى الدروس بها[٤٩]، وكان قد أوصى أن يكون التدريس فيها من بعده لشرف الدين علي بن يوسف بن حيدرة الرحبي (٦٦٧هـ/١٢٦٨م)، وذلك لما كان عليه من مكانة علمية كبيرة وفهم واسع[٥٠].

وبهذا تكون المذاهب الأربعة قد درست دراسة مختصة ويدل هذا على التعليم المذهبي الذي انتشر انتشاراً واسعاً. كما تدل أنواع هذه المدارس على قيام ما يسمى بالدراسات الفقهية المقارنة لاجتماع تدريس عدة مذاهب. هذا يعني من جهة ثانية استيعاب المدارس لشتى علوم الدين الإسلامي لأن الفقه الإسلامي، يشمل على أبواب وعلوم دينية كثيرة.

وظائف التدريس: شهد العصر الأيوبي في دمشق تخصصاً دقيقاً في وظائف التدريس، بحيث أصبح من الصعوبة التمييز بين بعض الوظائف التدريسية كوظيفة المعيد والمفيد والمنتهي. ولاشك أن هذا التخصص الدقيق، كان يخفي في طياته فوائد جمة للمدرسين الذين يستطيعون أن يجمعوا بين عدة وظائف. ومن أهم هذه الوظائف: المحدث- شيخ الرواية - الحافظ- المفسر- المدرس- المعيد- المفيد- الفقيه [٥١]- كاتب الغيبة- ضابط الأسماء- معلم الكتاب: - القاص- قارئ الكراسي [٥٢]- الواعظ.

على الرغم من كثرة الأسماء التي تدل على الوظائف في المدرسة الأيوبية، لكننا نستطيع أن نميز الهيئة التعليمة في المدرسة بعدد من الوظائف التي وردت بشكل كبير في المصادر والمراجع، وهذا دليل على الدور الكبير الذي كان يميزها وهي المدرسون - المعيدون - الفقهاء(الطلاب).

فالمدرس هو من يتصدى لتدريس العلوم الشرعية، من التفسير والحديث والفقه والنحو وغيرها من العلوم[٥٣]. وقد عني منشئو المدارس وواقفوها من السلاطين والعلماء والأمراء والأعيان باختيار أشهر العلماء ليقوموا بالتدريس في مدارسهم[٥٤]. وكان أرباب الوقف يضعون شروطاً على شيخ المدرسة حسب رغبات وأهداف يريدون تحقيقها في مدارسهم. وكان بعض الواقفين يشترط في مدرسته أن يكون المدرس من أعلم زمانه. فقد شرط واقف المدرسة القضاعية[٥٥] أن يكون المدرس في مدرسته أعلم الحنفية. كما شرط واقف المدرسة الباذرائية[٥٦] ألا يجمع بين التدريس بمدرسته وبين غيرها من المدارس[٥٧]. لكن البعض مارس التدريس في مدرستين، ومنهم الفقيه القاضي بهاء الدين يوسف بن يحيى بن محمد القرشي الدمشقي (٦٥٨هـ/ ١٢٨٦م)[٥٨] الذي جمع التدريس بالمدرسة العزيزية[٥٩] والفلكية[٦٠]. وكان بعضهم يتخذ من ينوب عنه في التدريس، ومنه الشيخ عبد الكريم بن محمد بن أبي الفضل (٥٦١هـ/١١٦٥م) الذي درس نيابة عن الشيخ عبد الرحمن بن أبي عصرون (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) في المدرسة الأمينية[٦١].

ولم تحدد المصادر عمراً زمنياً ينبغي أن يتولى المدرس التدريس فيه، وكان بعض المدرسون يسكنون داخل المدرسة التي تضم أماكن لسكن الطلاب والمدرسين حيث كان العماد الأصفهاني يقيم في المدرسة العمادية(٦٢). وكان بعض العلماء لا يأخذ من رواتب المدرسة شيئاً. فقد كان الشيخ يحيى بن شرف النوري (٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) لا يأخذ شيئاً من المدرسة إنما من ماله الخاص البسيط(٦٣).

ويأتي بعد المدرس مرتبةً المعيد، الذي يعيد الدرس على الطلبة بعد انصراف المدرس(٦٤). وكان شرطهم في المعيد أن يكون من الصلحاء والفضلاء صبوراً على الطلبة. وقد ذكر ابن جماعة واجبات المعيد بقوله: ((*وينبغي للمعيد بالمدرسة أن يقوم بأشغال أهلها على غيرهم في الوقت المعتاد أو المشروط، إن كان يتناول معلوم الإعادة لأنه معين عليه مادام معيداً....وأن يعلم المدرس أو الناظر بمن يرجى فلاحه ليزداد ما يستعين به ويشرح صدره وأن يطالبهم بعرض محفوظاتهم إن لم يعين لذلك غيره، ويعيد لهم ما توقف فهمه عليهم من دروس المدرس*))(٦٥). ونظام الإعادة من النظم التي أصبحت ذات مكانة عالية في العهد الأيوبي، ونادراً ما كانت تخلو منه مدرسة في دمشق، والمعيد تصرف له رواتب(٦٦)، وباشر الإعادة بالمدرسة العادلية الفقيه شرف الدين القزويني (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) وكان يسكن داخل المدرسة(٦٧).

أما الطلاب فقد كانوا في المرتبة الثالثة، وقد لعب أصحاب الوقف دوراً كبيرً في تحديد عدد الطلاب في كل مدرسة فكانت تتباين أعداد الطلاب من مدرسة إلى أخرى، فلم يكن عدد محدد على المدرسة. فقد حدد واقف المدرسة العصرونية عدد طلابه بعشرين طالباً(٦٨)، ربما لصغر مساحة المدرسة. ومما يدل على كثرة الطلاب في بعض المدارس ما ذكره ابن طولون أن المدرسة العمرية(٦٩) كان بها ثلاثمائة وستون خلوة ضمن مرافق الطلاب بالمدرسة(٧٠).

وكانت بعض المدارس تضم مساكن خاصة للطلاب يسكن فيها الطلاب الغرباء الوافدون من مناطق بعيدة. وقال ابن جبير في ذلك: ((*أن كل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقاه كان السلطان يضع لها أوقافاً تقوم بساكنيها والمشتغلين*))[٧١]، بهدف الانقطاع للدراسة وعدم الانشغال عنها في أمور أخرى، وعدم صرف جهد الطالب إلى موضع آخر.

أما عن **طرق التدريس**، فقد ورد أن الطريقة المثلى للتدريس، كما كانوا يرونها هم آنذاك أن على الشيخ أن يعيد الشرح لمن لم يفهم. ولا ينبغي أن يقول للطالب: هل فهمت؟ إلا إذا أمن من قوله ((نعم)). وأن على المدرس ألا يظهر ميله لأحد الطلبة لأنه يوغر بذلك صدورهم. وهذه مصيبة يبتلى بها جهلة المعلمين لغباوتهم وفساد بيئتهم[٧٢]. وقد كانوا يقدمون بعض العلوم عن بعض العلوم، بحسب شرفها وقيمتها، فقد كان يقدم التفسير، ثم الحديث، ثم الفقه، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم المذاهب، ثم الخلاف، فالنحو، فالجدل. وقد جرت العادة أن أول ما يتعلمه الطلبة تلاوة القرآن الكريم وحفظه، وهم لا يسمحون للطلبة بكتابته، تنزيها لكتاب الله تعالى. وبعد أن يقطع الطالب شوطا في حفظ القرآن الكريم يأتي معلم الخط فيعلمهم بكتب الأشعار وسواها حتى يستقيم خطهم. وبعد ذلك ينتقلون إلى تعلم الحديث الشريف، وبعده علوم العقيدة، ويقول ابن بطوطة: ((*أن المعلم إن أمسك عن تعليمهم هذه العلوم فهو أحوط*))[٧٣]. ومن نبغ من الطلبة في هذه العلوم التي يمكن تسميتها بعلوم المرحلة الابتدائية، ينتقل إلى المرحلة التي تليها، وهي دراسة الكتب العامة في الفقه والتفسير والنحو وغيرها. ثم تبدأ مرحلة التعليم العليا، وفي هذه المرحلة توجد عدة طرق للتدريس مثل السماع والقراءة والإجازة والوجادة. أما السماع فهو سماع لفظ الشيخ فيجوز للسامع أن يقول في روايته حدثنا، وأخبرنا، وأنبأنا وسمعت فلاناً يقول، حتى إن كتب التراجم للعلماء لاتخلو من عبارة سمعت وسمع، وهي طريقة تلازم طالب العلم في بداية حياته العلمية[٧٤].

أما القراءة ففيها أسلوبان: الأسلوب الأول يقرأ العالم من كتاب أو من أصل حفظه وطلبة العلم يستمعون إليه، والعالم في هذه الحالة يجب أن يكون صوته مرتفعاً يسمعه كل من حضر مجلسه (٧٥). أما الأسلوب الثاني فهو أن يقرأ طالب العلم على العالم كتابه أو مسموعاته وهو يسمع بحضور طلبة العلم، وهذا يسمى العرض. والعالم أثناء قراءة الطالب يعلق عليه ويشرح ما يمكن شرحه ويحتاج إلى ذلك(٧٦). أما الإجازة تعني أن طالب العلم يستجيز العالم علمه فيجيزه(٧٧)، والإجازة ليست خاصة بالمحدثين بل اشتملت على بقية العلوم، والإجازة بمثابة الشهادات التي تمنح للطلاب فلا يستطيع أي طالب علم أن يروي أي علم من العلوم إلاَّ بإجازة من العلماء الذين أخذ منهم. فنجد ابن عساكر على سبيل المثال لما رغب في رواية ما سمعه من علم استأذن علماؤه وطاف عليهم الواحد تلو الآخر. وبما أنه كان من الطلبة المتميزين وعلى درجة عالية من الفهم والذكاء والتحصيل العلمي لقي طلبه منهم موافقة، وقالوا له فمن أحق بهذا منك(٧٨)؟ ومن طرق التدريس الوجادة وهو أن يتبنى الإنسان شيئاً في كتاب أو تعليق ولم يطلب الإجازة من كاتبه ولم يسمعه عنه، وهذا يعني أن كل علم لا يتلقى من عالم وأخذ من الكتب من دون سماع صاحبه أو ممن رواه عن صاحبه فهو ما يطلق عليه الوجادة(٧٩).

وفي هذه المدارس كان هناك اختلاف في مناهج التدريس، لأن الواقف يشترط أن تدرس كتبة بالدرجة الأولى أي أنه كان يخرج تلاميذاً يؤمنون بما يؤمن. ومن أوضح المسائل عندما ذكر شرط في وقف المدرسة العصرونية أن تدرَّس كتب الواقف، مثل كتب ((الانتصار))، ((المرشد))، ((التيسير))(٨٠).

أما بالنسبة **للهيئة الإدارية** في المدرسة فهي تتألف من ناظر الوقف، الإمام، القيِّم، المؤذِّن، البوَّاب، خازن المدرسة. فناظر الوقف يقوم بعمارة المدرسة وتأمين ما يلزمها من حاجات، وصرف معاليم المدرسين والطلاب والقيم والمؤذن. أي أنه مسؤول عن الأمور المالية، ومن أشهر من تولى أوقاف المدارس الدمشقية الشيخ تقي الدين بن

الصلاح[٨١]، تولى نظر المدرسة الرواحية[٨٢]. وتولى بشارة بن عبد الله الأرمني الكاتب (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م)[٨٣] نظر المدرسة الشبلية البرانية[٨٤] ومن بعده ذريته. نلاحظ من تعيين الناظر الأرمني أنه لم تكن وظيفة النظر حكراً على المسلمين.

الوظيفة الثانية بعد الناظر الإمام ومهمته إمامة الناس للصلاة في المدرسة، وممن تولى هذه المهمة الفقيه جمال الدين النابلسي (٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م) إمام المدرسة الحسامية[٨٥]. يليه مرتبة المؤذن وعليه معرفة الوقت، وإبلاغ الصوت[٨٦]. والقيِّم هو من يهتم بنظافة المدرسة وإغلاقها بعد انتهاء الدروس[٨٧]. بعد إنشاء خزائن الكتب وجدت وظيفة خازن المكتبة الذين يهتم بالكتب، وشرط أن يكون من أهل العلم والعفاف[٨٨]. إضافة إلى البواب الذي ورد ذكره في شرط المدرسة العادلية [٨٩].

بذلك نستطيع القول أن دمشق شهدت إبان العصر الأيوبي نهضة علمية رفيعة القدر، شملت جميع ميادين العلم، الذي ظهر واضحاً من خلال عدد المدارس التي حفلت بها دمشق، وعدد العلماء الذين أسهموا بمؤلفاتهم ودراساتهم المتنوعة في إثراء الحياة العلمية في دمشق. وقد نقل ابن جبير في رحلته أثناء زيارته دمشق سنة (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) صورة واضحة عن دمشق النشطة آنذاك، وقد دفعه ذلك لدعوة طلاب العلم في المغرب الإسلامي للهجرة إليها لطلب العلم حيث قال: ((*فمن شاء الفلاح من ناشئة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد، ويتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها، فإذا كانت الهمة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد، ولا عذر للمقصر إلا من يدين بالعجز والتسويف.....فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فادخل أيها المجتهد بسلام، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد...*)) [٩٠].

وقد كثر بناء المدارس في دمشق في العصر الأيوبي، مما يشير إلى شدة عنايتهم بها، وكان السلاطين يهدفون من وراء إنشاء المدارس، والتوسع فيها إلى نشر الفكر الديني

بالدرجة الأولى – وبخاصة فكر الجماعة –، فالسلطان صلاح الدين ركز جهده بداية على بناء المدارس في مصر لمحاربة الفاطميين، أما في دمشق فلم يكن له مدارس إلا المدارس التي بناها نور الدين زنكي، ثم نسبت إليه ربما لأنه زاد فيها، ووسع أوقافها[٩١]، ولعل السبب انشغاله في الجهاد، أو، لأن الغاية من بناء المدارس في مصر تحققت.

أخذت المدينة القديمة في دمشق حظها في العصر الأيوبي، ففي عهدهم أنشئت مدارس عديدة مازال العديد منها عامراً . فلم يعد فيها مجال للتوسع أو لقيام مشاريع عمرانية جديدة، وعندما تقرر تشييد مدرسة احتاج الأمر إلى شراء دار عامرة وهدمها وتغيير بعض ملامحها لتحقيق هذا المطلب. والسلطان الأفضل علي بنى مدرسة بدمشق لولده ولم يتممها وأتمها له أخوه السلطان العزيز عثمان[٩٢]. وأنشأ السلطان العادل أبو بكر بن أيوب، المدرسة العادلية الكبرى، وتوفي قبل أن يتم بناءها، فأتمها ابنه المعظم عيسى[٩٣]. وللسلطان المعظم مدرسة بالصالحية تعرف بالمعظمية بناها سنة (٦٢١هـ/ ١٢٢٤م)[٩٤]. وللسلطان الأشرف موسى بن العادل (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م) دار للحديث تعرف بدار الحديث الأشرفية، ورتب عليها العلماء[٩٥]، وبنى داراً أخرى في الصالحية للعلماء الحنابلة[٩٦]. كما عمر السلطان الصالح اسماعيل بن العادل (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) مدرسة الصالحية[٩٧]، وبنى السلطان صلاح الدين بن يوسف (الثاني) (٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م) المدرسة الناصرية داخل دمشق[٩٨] وأخرى بالصالحية هي دار الحديث الناصرية[٩٩]. وقد شارك بعض أبناء البيت الأيوبي في بناء المدارس، منهم الأمير أسد الدين شركوه[١٠٠].

ومن **مظاهر الاهتمام والعناية بالمدارس**، أنه إذا فُرغ من عمارتها يقام لها افتتاح رسمي، يحضره السلطان والعلماء والقضاة. جرى ذلك عندما أكمل السلطان المعظم عيسى بناء مدرسة والده(العادلية الكبرى)[١٠١] وعندما أكمل الشيخ عبد الله محمد بن

الحسن البادرائي مدرسته بدمشق، حضر الملك الناصر صلاح الدين بن يوسف (الثاني) وسائر أرباب الدولة والعلماء والقضاة[١٠٢].

وساهمت نساء البيت الأيوبي في بناء المدارس، إذ يذكر ابن جبير: ((*من النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة، وتنفق عليها الأموال الواسعة وتعين لها من مالها الأوقاف*))[١٠٣]. فمنهن عصمة خاتون بنت معين الدين آنر، زوجة السلطان صلاح الدين الأيوبي كانت من أعف النساء بنت مدرسة بدمشق للأحناف[١٠٤]، ولها المدرسة الخاتونية داخل دمشق [١٠٥]. وقامت ست الشام بنت أيوب، أخت السلطان صلاح الدين الأيوبي ببناء مدرسة داخل دمشق[١٠٦].

أدى الاهتمام الكبير من السلاطين الأيوبيين الأمراء والعلماء إلى تزايد عدد المدارس الفقهية بدمشق من ثلاثين مدرسة[١٠٧] إلى تسعين مدرسة في القرن السابع الهجري(١٠٨). ومما يلاحظ من طبيعة بعض المدارس بدمشق أنها تكون في الأصل داراً للواقف يسكنها ثم يوقفها مدرسة بعد موته أو في حياته[١٠٩]. وهذا يدل على أن بعض المدارس التي هي في الأصل دارٌ للسكن لم تكن تشتمل على عناصر المدرسة الرئيسية، ولهذا كان بعض الواقفين يقوم بتطويرها وزيادة مبانيها ومرافقها[١١٠]، وهذه المدارس كانت صغيرة وتبين ذلك من خلال تحديد عدد الطلاب بما لايتجاوز العشرين طالباً[١١١].

لكن بعض هذه المدارس وصفت بفخامة البناء وجودته وكثرة المرافق والأوقاف، حيث يصف ابن جبير المدرسة النورية: ((*وهي من أحسن مدارس الدنيا منظراً، وهي قصر من القصور الأنيقة، ينصب فيها الماء في شاذروان*[١١٢] *وسط نهر عظيم، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار....*))[١١٣].

ويذكر أبو شامه المدرسة العادلية بقوله: ((*....وبناها هذا البناء المتقن المحكم الذي لا نظير له في بنيان المدارس*))[١١٤]، وأهم مافي البناء بوابته الشرقية المرتفعة والمعقودة

بقبوتين من المقرنصات المتقشفة ذات الحنايا الضحلة، وأمام هاتين القبوتين وبينهما دلاية ضخمة، وفي أسفل المقرنصات لوحة مؤطرة ضمنها كتابات قرآنية وتأريخية، وفوق اللوحة شريط زخرفي حول البوابة، تعلوه حشوة حجرية هندسية الزخارف. وترتفع فوق البناء قبة ملساء مدببة تستند إلى رقبة مثمنة الأضلاع بطبقة واحدة، تتناوب فيها أربع نوافذ مقوسة، وأربعة أضلاع صماء ملساء.

وتعتبر المدرسة العمرية نموذجاً لتخطيط المدرسة الدمشقية، فكانت تشتمل على الحرم، والصحن المكشوف، وتدور حول هذا الصحن ثلاثة طوابق، وبيت الصلاة والمئذنة، وكان في طابقها السفلي إيوان للأحناف وخزائن للكتب[١١٥]، إضافة إلى الملحقات الأخرى الخدمية.

كما إن بعض المدارس قد تكون من طابق واحد أو طابقين كالمدرسة الشبلية[١١٦]، وقد أسهب ابن طولون في وصفها[١١٧]، والعنصر الزخرفي الوحيد الباقي في المدرسة أربعة جدران بلا سقف، وفي واجهة كل جدار ثلاثة عقود أو مداخل مقوسة، الأوسط منها هو الأكثر اتساعاً وارتفاعاً، وفي داخل البناء قبر الواقف الحجري المنقوش بالكتابات.

ومن المدارس ذات الطابقين المدرسة المرشدية[١١٨] وقد كان لهذه المدرسة مركز متميز في مختلف العصور، فقد ذكر ابن طولون أنها كانت مجمع الفضلاء والعقلاء إذا دهم دمشق أمر، كما أنه لم يتعرض أحد إلى إلحاق الأذى بها، أو هدمها متعمداً، إلا أن يصاب بالسوء والضرر[١١٩]. وقد وصف بناءها ابن طولون حيث قال: ((*وهذه المدرسة مشتملة على حرم مقبي بشباكين إلى القبلة مطلين على جنينة، وشباكين مطلين من جهة الشمال على الطريق، وفي قرنيته الغربية من جهة القبلة باب تربة الواقفة، وفي قرنيته الشرقية من جهة الشمال باب الحرم، قدامه فسحة بها صفة، وباب هذه الفسحة على القبلة يتوصل منه إلى قاعة معدة للمدرسة وجنينة على قبليتها على*

حافة نهر يزيد من جهة الشمال وفي هذه الفسحة باب المدرسة الخارج......))[١٢٠] وقد ذكر ابن شداد ممن وليها صدر الدين أحمد بن شهاب الدين علي الكاشي ثم انتزعت منه ووليها صدر الدين ابراهيم ين عقبة، ثم صدر الين علي[١٢١]. وذكر أن القاضي شمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء بن جبير بن جابر الحنفي أول من ولي مشيختها[١٢٢]. وما تبقى من المدرسة بوابة مرتفعة ذات قوس مدبب، وفوق البناء تتوضع القبة الملساء المرتكزة على رقبة مضلعة بطبقتين، السفلية منها مثمنة الأضلاع تزينها نوافذ صماء ومقوسة، والطبقة العلوية تتألف من اثني عشر ضلعاً تتخللها النوافذ. وإلى جانب القبة ترتفع المئذنة المربعة المستمدة من أبراج العمارة الرومانية، فجذعها مربع الأضلاع، متقشف وبسيط، خال من العناصر الزخرفية كالكتابات والنقوش والمقرنصات، وفي رأسها جوسق مثمن بطبقتين وأسطواني في الثالثة، ومجموع هذه التفاصيل المعمارية أيوبية أصيلة.

كان هذا الاهتمام بالدور التعليمي الكبير لهذه المدارس متزامناً مع الاهتمام بعناصرها المعمارية والزخرفية التي تميزت بسمات ميزتها عن غيرها، فمن حيث التصميم أصبح من الصعب التمييز بين المدرسة والمسجد، ومعرفة تخطيط المدرسة. فعدد من المدارس ضم مجمعاً ، يتألف من المسجد والسبيل والمكتبة والضريح[١٢٣]، في حين توزعت حجرات الطلاب والأساتذة في أركان البناء[١٢٤]. لذلك نشأت مع مرور الزمن صعوبة التمييز فيما بين المسجد والمدرسة والضريح، بعد أن أصبح الإيوان والقبة والمئذنة من العناصر البارزة في كل من الأبنية الثلاثة [١٢٥]. ومن الصعب وضع أحكام صحيحة ووضع جذور لتخطيط المدارس في دمشق لأن عدداً كبيراً من المدارس كان منزلاً أو قصراً لكبار الشخصيات حوّل إلى مدرسة.

تتمركز الأبواب بشكل عام ضمن إيوان كبير مفتوح على الخارج، يتميز بجبهته الواسعة المرتفعة التي تمتد حتى نهاية الواجهة أو يزيد عنها أحياناً، والتي تتوج بشكل عام بنصف قبة مزدانة بالمقرنصات، والمدليات المنحوتة من الحجر وينتهي في

أعلاها بما يشبه الصدفة[١٢٦] نلحظ ذلك في بوابة مدرسة الصاحبة[١٢٧] وفي جميع المدارس تقريباً.

تميزت الواجهات الأيوبية بالحجارة الكبيرة المنحوتة جيداً وبمداميك عريضة، وتميزت بالارتفاع وزخرفت بالعقود المقرنصة والمداميك المزررة والأشرطة الكتابية، هذا ما تؤكده بوابات المدرسة العادلية، والمدرسة القليجية[١٢٨] التي يظهر التناوب اللوني فيها بشكل واضح (الأبلق)، وغيرها من المشيدات الهامة في هذا العهد. لكن الجدران المحيطة بالواجهة الرئيسية بقيت دون اهتمام، خالية من الزخارف، وهذا الأمر نشهده في جميع مدارس دمشق في كل العصور.

نلاحظ أن المهندس كان يحرص كل الحرص على إبراز الواجهة وما فيها من تجاويف وحنايا، وكان يفضّل ألا يكون المدخل في وسطها، بل يكون في ركن منها، بدلاً من الوسط (المدرسة القليجية). ومنهم من حرص على أن يكون المدخل في الوسط ليشكل نوعاً من التناظر الزخرفي على جانبي المدخل (المدرسة العادلية). ومن الوسائل التي أدت إلى إبراز الواجهة تفادي تشييد المئذنة فوق المدخل، بحيث يتم تشييدها في أحد أركان البناء في حين تنتهي الواجهات في أعلاها بطنف مؤلف من سلسلة محاريب صغيرة (المدرسة المرشدية– الماردانية)، أو من حجارة مقولبة يعلوها في بعض الأحيان صف من الشرافات الزنبقية)[١٢٩].

تعد المئذنة من وجهة النظر المعمارية العنصر الرمزي الهام الذي يميز العمائر الإسلامية عن غيرها سواء من حيث الكتلة أم التشكيل أم الزخارف، غير أنه وبالرغم من أهميتها كمشيدة غنية بالعناصر التكوينية والجمالية، وبالرغم من انتشارها كظاهرة عمرانية عبر الشرق والغرب، غير أنه لم يكتب حول المدرسة الدمشقية الكثير كوحدة مستقلة إنشائياً، ولم تُذكر إلا في سياق الحديث عن الجامع و المدرسة[١٣٠]، وتميزت عمارة المآذن في تلك الفترة بخصائص هي أقرب إلى التقشف منها إلى البذخ. فالجذع

مربع أموي الطراز، بسيط البناء، خال من الزخارف والتزيينات. وسبب التقشف يعود لانشغالهم بالحروب وتشهد على ذلك (المدرسة الشامية البرانية، الماردانية، المرشدية). وإذا أردنا أن نحدد المواصفات المميزة لمآذن العهد الأيوبي فهي: ذات جذع مربع بسيط ومتقشف في عمارته، وشرفتها وحيدة ومربعة، ومظلتها مربعة، طبعاً خالية من المقرنصات وبقية العناصر التزيينية والزخرفية، ينتهي رأسها غالباً بخوذة. والمآذن المشيدة في دمشق تميزت بغنى معماري وزخرفي، واتخذت منهجية خاصة، اعتمدت على التأثيرات الأيوبية في المآذن بجذعها البسيط المفرد وشرفاتها الوحيدة غير المتكررة.

أما القبة فهي أحد أشكال التسقيف، حيث يكاد لا يخلو منها أي من المباني، سواء أكان مسجداً أم مدرسة أم تربة... الخ. والقبة مؤلفة من طاسة مشيدة غالباً من الآجر ومكلسة من الداخل والخارج، شكلها نصف كرة متطاولة قليلاً وهذه الطاسة محمولة على رقبة، وهي تتوسط طاسة القبة وقاعدتها المربعة. كما أن قباب دمشق في العصر الأيوبي مضلعة بطبقتين، السفلية منهما مثمنة الأضلاع فيها نوافذ توأم مقوسنة ضمن قوس تتناوب مع نوافذ صماء مقوسنة. أما الطبقة العلوية فلها ست عشر ضلعاً تتناوب فيها نوافذ ضيقة مقوسنة، وثماني محاريب بصدفات خماسية الحزوز(الركنية البرانية – المدرسة الأمجدية)[١٣١]. وهذه القبة المحززة تلحظها في المدرسة البدرية[١٣٢]. وقبة المدرسة العالمة[١٣٣]. تتألف من أربعة وعشرين حزاً، وهي نموذج فريد. ولم تكن القبة المحززة هي الغالبة فقد وجدت القبة الملساء المدببة المستندة إلى رقبة مضلعة بطبقتين(المدرسة الماردانية – المرشدية – العزية البرانية)[١٣٤].

لم يتوقف عطاء الفنان العربي في مجال الزخرفة عند تطوير الأشكال النباتية والهندسية، بل تعداه إلى إرساء قواعد جديدة للخط، فقد انتشر في العصر الأيوبي خط الثلث، ونقشت به سواكف أبواب المدارس كالمدرسة المرشدية.

الخاتمة: كانت المدرسة تجمع عادة بين ثلاث وظائف رئيسية وهي إقامة الصلاة والتدريس وإقامة الدارسين. في سبيل تحقيق الوظيفة الأولى للمدرسة، أي صلاحيتها لإقامة الصلوات كان من المناسب أن تشمل المدرسة على مبنى رحب مربع التخطيط ومستطيل وموجه نحو القبلة ومزود بالمحراب ومنبر كما الحال في المساجد، وقد تحقق ذلك بتزويد المدرسة بإيوان رحب موجه نحو القبلة وبه محراب ومنبر. كانت المدارس في كثير من الحالات تشتمل على مآذن أو منارات.

أما فيما يتعلق بالوظيفة الثانية للمدرسة وهي التدريس الذي كان من أهم وظائف المدرسة ومنه اشتق اسمها فقد كان من الضروري أن تشتمل على قاعة محاضرات وقد يزداد عدد قاعات الأضرحة العامة حسب تعدد التخصصات التي تدرس بالمدرسة.

الوظيفة الثالثة هي توفير أماكن التدريس للمدرسين، ومن الملاحظ أن هذه الوظيفة الثالثة هي التي تميزت بها عن المسجد باعتبار أن كلاً منهما قد استخدم للصلاة الجامعة والتدريس، في حين كانت المدرسة تصمم بحيث تشتمل على مساكن للدارسين بالإضافة إلى استيفاء الغرضين الآخرين. فهذه الوظائف مجتمعة مع بعضها كونت طابعاً معمارياً مميزاً لكل عصر من العصور.

الهوامش

(١) Leiser, G, Notes on the madrasa in mediaval Islamic society MWLXX. VI. 1986. p. 16.

(٢) فكري (أحمد): مساجد القاهرة ومدارسها, القاهرة، ١٩٦١، ص٧٢.

(٣) Makdisi, G, The rise of Goldages Institutions of learning in Islam an the west, Edinburgh, 1981, p. 27.

(٤) رؤوف (عماد عبد السلام): **مدارس بغداد في العصر العباسي**، دار البصري، بغداد، ط١، ١٩٦٦، ص٥.

(٥) ابن خلكان (أحمد بن محمد ت ٦٨١هـ ١٢٨٢م): **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، د.ت، ج٢، ص١٢١/ المقريزي (أحمد بن علي ت ٧٤٥هـ/١٤٤١م): **المواعظ والاعتبار المعروف بالخطط**، دار صادر، بيروت،، ١٩٥٠، ج٢، ص٣٦٣/ الباشا (حسن): **الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار الإسلامية**، القاهرة، ١٩٦٦، ج٢، ص١٠٤٦/ الباشا (حسن): دراسات جديدة في نشأة الطراز المعماري للمدرسة المصرية ذات التخطيط المتعامد، مجلة الحوليات الأثرية، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٦٥، م١٥، ج١، ص٤٣

(٦) السيوطي (جلال الدين ت): حسن المحاضرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٩٩٧ ص٢٢٣.

(٧) السبكي (تاج الدين أبي نصرعبد الوهاب بن علي ت ٧٧١هـ/ ١٦٣٩م): **طبقات الشافعية الكبرى**، حلب، ط١، ١٩٦٥، م٤، ص٣١٣./ المقريزي، **الخطط**، ج٤، ص١٩٢.

(٨) طلس(أسعد): **التربية والتعليم في الإسلام**، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٢، ص ١٢٦./ Lucin, Golvin, Lamadrasa médiévale, Egisud,1995, p 20.

(٩) حتي (فيليب): **تاريخ العرب**، دار غندور، بيروت، ط٩، ص٣٠٨./ زيدان (جرجي): **تاريخ التمدن الإسلامي**، مطبعة الهلال، ط٤، ١٩٣٥، م٣، ص٢٠٢.

(١٠) السبكي: **طبقات الشافعية**، ص٣١٥.

(١١) شميساني (حسن): **مدارس دمشق في العصر الأيوبي**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص١٤.

(١٢) مكان يجتمع إليه التلاميذ للدراسة وغالباً ما يكون منزل الشيخ أو المعلم.

(١٣) كارل واتسينجر: **الآثار الإسلامية في دمشق**، ترجمة قاسم طوير، برلين، ط١ ١٩٢٤، الطبعة المعربة، دمشق، ١٩٨٤، ص١٤١.

(١٤) معروف(ناجي): **نشأة المدارس المستقلة في الإسلام**، مطبعة الأزهر، بغداد، ١٩٦٦، ص٢٤.

(١٥) النعيمي (عبد القادر ت ٩٢٧هـ/١٥٢٠م): **الدارس في تاريخ المدارس**، أعدّ له ابراهيم حسن الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠ هـ، ج٢، ص٣٠٣/ رؤوف(عماد عبد السلام): **مدارس بغداد في العصر العباسي**، دار البصري، بغداد ط١ ١٩٦١، ص١٢.

(١٦) المرجع السابق، ص١٢/ عارف (عبد الغني): **نظام التعليم عند المسلمين**، دار كنان، دمشق، ط١، ١٩٩٣، ص٩١.

(١٧) ابن خلدون(عبد الرحمن ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م): **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، ط١ ١٩٨٠، ص٤٣٤.

(١٨) المصدر السابق، ص٤٣٤.

(١٩) النعيمي، الدارس، ج١، ص ٣٦٣.

(٢٠) المصدر السابق، ج١، ص ٣٦٣.

(٢١) دهمان(محمد): **المدرسة العادلية الكبرى**، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ج١، مجلد ٢٩، ١٩٥٤، ص ٥٢.

(٢٢) ابن الجزري (شمس الدين أبي الخير ت ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩/) **غاية النهاية في طبقات القراء**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣ ١٩٨٢، ص ١٨٠.

(٢٣) تنسب إلى أمين الدين كمشتكين (٥٤١هـ/١١٤٦م) النعيمي **الدارس**، ج١، ص١٧٨.

24 – ابن كثير(أبو الفداء الحافظ ت ٧٧٤هـ/ ١٣٥٠م): **طبقات الفقهاء الشافعيين**، تحقيق أحمد عمر هاشم، مكتبة الثقافة الدينية، ج٢، ص ٧٧٦.

25 – النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ١٨٨.

(٢٦) بناهما الأمير أبو الفوارس بزان بن تاجين (٥٥٥هـ/ ١١١٠م)، أبو شامة (شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن المقدسي الشافعي ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م)، **الروضتين في أخبار الدولتين**، دار الجيل، د.ت، ج١، ص ٣٠٩

(٢٧) بناها ابن عساكر الحسن بن مسمار الهلالي (٥٤٦هـ/١١٥١م) النعيمي، الدارس ج١، ص ١١٤.

(٢٨) ابن شداد (عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م): **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تحقيق سامي الدهان، ص ٢٣٧.

(٢٩) بناها عبد الله السري محمد بن هبة الله بن مطهر بن على بن أبي عصرون (٥٨٥هـ/١٢٨٩م)، المنذري (زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م): **التكملة لوفيات النقلة**، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢ ١٩٨١، ج١، ص ١١٨/ ابن قاضي شهبة (أبي بكر بن أحمد ابن محمد ت ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م): **طبقات الشافعية**، اعتناء عبد العليم خان، عالم الكتب، ط١ ١٤٠٧هـ، ج٣، ص ٢٧.

(٣٠) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص٣٩٨.

(٣١) ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ص ٢٠١.

(٣٢) ابن كثير (أبو الفداء الحافظ ت ٧٧٤هـ/ ١٣٥٠م)، **البداية والنهاية**، تحقيق أحمد أبو ملحم وعلي نجيب عطوي، دار الريان، ط١ ١٩٨٨، ج١٣، ص١٤٣.

(٣٣) أنشأتها الخاتون فاطمة بنت الامير موكجا (٥٩٣هـ/١١٩٦م) بدران (عبد القادر): **منادمة الأطلال**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢ ١٩٨٥، ص ١٩٤.

(٣٤) المنذري، **التكملة**، ج٢، ص ٤٠٨.

(٣٥) تنسب على الأمير ركن الدين منكورس الفلكي (٦٣١هـ/١٢٢٣م) ابن شداد، **الاعلاق الخطيرة**، ص ٣٤٧.

(٣٦) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٥٢٠/ اليونيني (قطب الدين موسى بن محمد ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م): **ذيل مرآة الزمان**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط ٢ ١٩٩٢، ج٢، ص ٣٧٢.

(٣٧) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٥٢٠.

(٣٨) تنسب على شرف الإسلام عبد الوهاب عبد الواحد الحنبلي (٥٣٦هـ/ ١١٤١م) النعيمي، **الدارس**، ج٢، ص٦٤.

(٣٩) النعيمي، **الدارس**، ج٢، ص ٧١.

(٤٠) ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ص ٢٥٥.

(٤١) تنسب للشيخ أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي (٦٠٧هـ/١٢١٠م) ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ص ٢٥٩/ النعيمي، **الدارس**، ج٢، ص ١٠٠.

(٤٢) ابن طولون (شمس الدين محمد بن طولون الصالحي ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م): **القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ط٨، د.ت، ج١، ص ٢٥٩.

(٤٣) ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ص ٢٥٩.

(٤٤) أنشاها الملك المنصور أسد الدين شيركوه، ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ص ٢٥٧/ النعيمي، **الدارس**، ج٢، ص ٨٨.

(٤٥) الذهبي (الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م) **العبر في خبر من عبر**، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، ط٢، ١٩٦٢، ج٣، ص ٧٧.

(٤٦) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ١٥٤.

(٤٧) ابن شداد، **الأعلاق** الخطيرة، ص ٢٦٢.

(٤٨) أنشأها الطبيب مهذب الدين، عبد الرحيم بن علي بن حامد الدخوار(٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م) وكان ذلك سنة ٦٢٢هـ. ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ص ٢٦٥/ أبو شامة، **ذيل الروضتين**، ص ١٥٩/ ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م): عيون **الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٥، ص ٧٣٣.

(٤٩) ابن شداد، **الاعلاق الخطيرة**، ص ٢٦٥/ ابن أبي أصيبعة، **عيون الأطباء**، ص ١٣٣.

(٥٠) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٧، ص ٢٧/ ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، ص ٧٣٣.

(٥١) مخطوط لابن طولون، **نقد الطالب لزغل المناصب**، الأوراق ٣٥- ٤٥.

(٥٢) نقد الطالب، الأوراق ٣٥-٤٥.

(٥٣) القلقشندي (أبي العباس أحمد بن علي ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م): **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧، ج٥، ص ٤٣٦.

(٥٤) النباهين (محمد سالم): **نظام التربية الإسلامية**، دار الفكر، ط١، ١٩٨١، ص٢٩٨.

(٥٥) أنشأتها الخاتون فاطمة بنت الأمير كوكجا (٥٩٣هـ/١١٩٦م) وتولى التدريس فيها الفقيه أبو عبد الله بن محمد بن عبد الرحيم الحلبي الحنفي (٦١٤هـ/ ١٢١٧م) النعيمي، الدارس، ج١، ص ٥٦٥/ المنذري، **التكملة**، ص ٤٠٨.

(٥٦) تنسب إلى الشيخ عبد الله بن أبي الوفاء محمد بن الحسن بن عبد الله البادرائي (٦٥٤هـ/١٢٥٦م). بدران، منادمة، ص٨٧/ البويني، **مرآة الزمان**، ج١، ص٧٠.

(٥٧) المصدر السابق، ج١، ص ٧١ وما بعد.

(٥٨) ابن قاضي شهبة، **طبقات الشافعية**، ج٢، ص ٢٠٦.

(٥٩) تنسب للملك العزيز عثمان بن العادل أبي بكر بن أيوب (٥٩٠هـ/ ١١٩٣م).

(٦٠) تنسب إلى الأمير ركن الدين منكورس الفلكي (٦٣١هـ/ ١٢٣٣م) غلام فلك الدين أخو العادل. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ١٥٢.

(٦١) السبكي، **طبقات الشافعية**، ج٧، ص ١٨٦.

(٦٢) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٤١١.

(٦٣) الذهبي، **العبر**، ج٣، ص ٣٣٤.

(٦٤) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٥، ص ٤٣٦.

(٦٥) ابن جماعة (بدر الدين ابراهيم بن عبد الله بن جماعة الكناني ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، **تذكرة السامع والمتعلم في أدب العالم والمتعلم**، د.ت، ص ٢٠٤.

(٦٦) شلبي، **تاريخ التربية الإسلامية**، ص ٢٥٧.

(٦٧) أبو شامة، **ذيل الروضتين**، ص ٣٣٩.

(٥٨) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٤٠١.

(٦٩) تنسب إلى الشيخ أبي عمر محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي (٦٠٧هـ/ ١٢١٠م) ابن شداد، **الأعلاق الخطير**، ص٢٥٩/النعيمي، **الدارس**، ج٢، ص١٠٠.

(٧٠) ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، ص ٢٤٨.

(٧١) ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م): **رحلة ابن جبير**، دار صادر، بيروت ١٩٨٠، ص ٢٤٨.

(٧٢) مخطوط لابن طولون، **المعيد في آداب المفيد**، الأوراق ٥٣- ٥٥.

(٧٣) ابن بطوطة (شمس الدين أبي عبد الله ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق محمد بن عبد المنعم، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٢، ١٩٩٢، ص٥٦.

(٧٤) ابن الصلاح (تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن): **مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الإصلاح**، تحقيق حائشة عبد الرحمن، مطبعة دار الكتاب، القاهرة، ١٩٧٤، ص٣٥٤./ السيوطي (جلال الدين ٨٤٩هـ): تدريب الراوي في شرح تقريب النوري، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار إحياء السنة النبوية، بيروت، ط٢، ١٩٧٩، ج٢، ص٨.

(٧٥) الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م): **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناؤط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٦٢، ٣٦١.

(٧٦) ابن الصلاح، المصدر السابق،ص ٢٤٨.

(٧٧) السيوطي، **تدريب الراوي**، ج٢،ص ١٢٢./محبوبة (محمد رضا): **نظام الملك**، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٩، ص٦٩٤.

(٧٨) الذهبي (محمد بن أحمد ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م): تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٤، ص ١٣٣٤./ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله): **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق محي الدين أبوسعيد، دار الفكر للطباعة بيروت، ط١و١٩٩٨ج٥٥، ص ١٩٢.

(٧٩) الشجاع (عبد الرحمن عبد الواحد): **دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة**، دار الفكر المعاصر، اليمن، ط١، ١٩٩٩، ص ١٦٢

(٨٠) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٤٠١.

(٨١) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٢٣٧.

(٨٢) تنسب إلى منشئها زكي الدين أبو القاسم هبة الله المعروف بابن رواحة (٦٢٣هـ/١٢٢٦/) أبو شامة، **ذيل الروضتين**، ص ١٤٩.

(٨٣) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٥٣١.

(٨٤) نسبها ابن خلكان إلى شبل الدولة كافور الحسامي (٦٣٢هـ/ ١٢٢٦م) **وفيات الأعيان**، ج١، ص ٣٠٦/ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ١٢٥.

(٨٥) أبو شامة، **ذيل الروضتين**، ص ٢٠٩

(٨٦) السبكي(تاج الدين أبي نصر ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م): **معيد النعم ومبيد النقم**، تحقيق محمد علي النجار، محمد أبو العيون، دار الكتاب العربي، مصر، ط١، ١٩٤٨، ص ١١٥.

(٨٧) السبكي(تاج الدين بن أبي نصرت ٧٧١هـ/١٣٦٩م) **فتاوى السبكي**، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج٢، ص ١١٩.

(٨٨) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٣٦٨.

(٨٩) النعيمي، ص١، ص ٣٦٨.

(٩٠) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص ٢٥٨.

(٩١) العلبي(أكرم): **خطط دمشق**، دار الطباع، دمشق، ط١، دمشق، ص ١٣٢.

(٩٢) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٧، ص ٢٠٧.

(٩٣) العليمي (أبي اليمن مجير الدين ت ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م): المنهج الأحمد، تحقيق محمد محي الدين، عالم الفكر، ١٩٨٤ ج٢، ص ٢٠٧.

(٩٤) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٣٥٩.

(٩٥) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ١٤٦.

(٩٦) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ١٩.

(٩٧) ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، ج١، ص ١٥٥.

(٩٨) المصدر السابق، ج١، ص ٤٥٩.

(٩٩) ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، ج١، ص ١٤٦.

(١٠٠) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٤٧.

(١٠١) الذهبي (أبو عبد الله شمس الدين محمد ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م): **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير**، حوادث (٦١١، ٦٢٠)، تحقيق بشار عواد معروف، عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٧هـ،ص ٥٨.

(١٠٢) البونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ج١، ص ٧١.

(١٠٣) ابن جبير، **الرحلة**، ص ٢٤٨.

(١٠٤) سبط بن الجوزي (شمس الدين أبي المظفر ت ٦٤٥هـ): **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، تحقيق جنان خليل، مطبعة الثقافة، بغداد، ج٨، ص ٣٨٥.

(١٠٥) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٦، ص ٣٣٩.

(١٠٦) سبط بن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج٨، ص ١٥٣.

(١٠٧) ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ص ١٩٩/ النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ١٢٩.

(١٠٨) ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ص ٢٠٣.

(١٠٩) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٧، ص ٩٢.

(١١٠) النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ١٥٩، ٢٧٨.

(١١١) السبكي(تقي الدين): **فتاوى السبكي**، ج٢، ص ١١٩.

(١١٢) الشاذروان، كلمة فارسية، آلة لفصل مياه الأنهار عن التحويل، وهي عبارة عن ألواح خشبية متينة يوضع خلفها أعمدة لتثبيتها فيرتفع مستوى المياه في النهر لتسقى الأماكن المرتفعة، دهمان(محمد): **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، دار الفكر، دمشق ١٩٩٠، ص ٩٥.

(١١٣) ابن جبير، **الرحلة**، ص ٢٥٦.

(١١٤) أبو شامة، **الروضتين**، ج١، ص ٥٤٥.

(١١٥) ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، ج١، ص ٢٧٣.

(١١٦) تنسب إلى الأمير شبل الدولة كافور الحسامي توفي ٦٣٢هـ. للمزيد ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٣، ص ١٣٥.

(١١٧) ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، ج١، ص ٢٠٣.

(١١٨) تنسب إلى واقفتها خاتون بنت الملك المعظم عيسى، توفيت سنة (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) ودفنت في تربتها داخل المدرسة، والمدرسة بنيت سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م). للمزيد ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، ج١، ص ٢٢٩/ النعيمي، **الدارس**، ج١، ص ٥٧٦.

(١١٩) ابن طولون(شمس الدين محمد بن طولون الصالحي ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م): **حارات دمشق**، نشرها حبيب الزيات، ص ٢٢.

(١٢٠) ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، ج١، ص ٥٨٨.

(١٢١) ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة**، ص ٢٢٨.

(١٢٢) النعيمي، **الدارس**، ص ٥٧٧/ ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج١، ص ٢٣٠.

(١٢٣) ريحاوي(عبد القادر): **العمارة الإسلامية**، دار البشائر، دمشق، ط٢، ٢٠٠٠، ص١٨٣

(١٢٤) خضر(عبد المعطي): **تاريخ العمارة**، حلب، ط١، ١٩٩٤، ص١٢٠.

(١٢٥) عبد الحميد(سعد زغلول): **العمارة والفنون في دولة الإسلام**، مكتبة الانتصار،مصر،١٩٩٦، ص١٠٥./

Lucien،Lmadrasa ،.p 303

(١٢٦) خماش(نجدة): **الآثار الإسلامية**، دمشق، ط٥، ٢٠٠٠، ص١٦٤.

(١٢٧) أنشأتها خاتون ربيعة بنت نجم الدين أيوب الملقبة بالصاحبة، ابن كثير، **البداية**، ج ١٣، ص ١٥/ ابن طولون، **القلائد الجوهرية**، ج١، ص ١٣٦.

(١٢٨) بناها الأمير سيف الدين علي بن قليج النوري، ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ١٩٩/ بدران، **منادمة**، ١٣ص ٨.

(١٢٩) ريحاوي: **العمارة الإسلامية**، ص١٨٥.

(١٣٠) الشهابي(قتيبة): **مآذن دمشق**، منشوران وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٣، ص١٧.

(١٣١) أنشأها الملك المظفر عمر، لأبيه الأمجد أبو المظفر. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٣، ص ١٥٣.

(١٣٢) تنسب إلى الأمير بدر الدين حسن بن الداية المعروف بلالا أو لؤلؤ. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ٩٦.

(١٣٣) نسبة للعالمة أمة اللطيف ابنة الشيخ الحنبلي توفيت ٦٥٣هـ، ابن طولون، **القلائد**، ج ١، ص ١٤٠.

(١٣٤) بناها الأمير عز الدين أيبك إستدار المعظمي، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ٢٠٣.

قائمة بأسماء المصادر

١. ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٥.

٢. ابن الجزري (شمس الدين أبي الخير ت ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩) غاية النهاية في طبقات القراء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣ ١٩٨٢.

٣. ابن الصلاح (تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن): مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الإصلاح، تحقيق حائشة عبد الرحمن، مطبعة دار الكتاب، القاهرة، ١٩٧٤،ص٣٥٤-134

٤. ابن بطوطة (شمس الدين أبي عبد الله ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد بن عبد المنعم، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٢، ١٩٩٢.

٥. ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م): رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت ١٩٨٠.

٦. ابن جماعة (بدر الدين ابراهيم بن عبد الله بن جماعة الكناني ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، تذكرة السامع والمتعلم في أدب العالم والمتعلم، د.ت.

٧. ابن خلدون (عبد الرحمن ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، ط١ ١٩٨٠.

٨. ابن خلكان (أحمد بن محمد ت ٦٨١هـ ١٢٨٢م): وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، د.ت، ج٢.

٩. ابن شداد (عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان.
١٠. ابن طولون (شمس الدين محمد بن طولون الصالحي ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م):
- القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ط٨، د.ت، ج١.
- حارات دمشق، نشرها حبيب الزيات، د. ت.
- مخطوط نقد الطالب لزغل المناصب، الأوراق ٣٥- ٤٥.
- مخطوط المعيد في آداب المفيد، الأوراق ٥٣- ٥٥.
١١. ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله): تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محي الدين أبوسعيد، دار الفكر للطباعة بيروت، ط١و١٩٩٨ج٥٥.
١٢. ابن قاضي شهبة (أبي بكر بن أحمد بن محمد ت ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م): طبقات الشافعية، اعتناء عبد العليم خان، عالم الكتب، ط١ ١٤٠٧هـ، ج٧.
١٣. ابن كثير (أبو الفداء الحافظ ت ٧٧٤هـ/ ١٣٥٠م): طبقات الفقهاء الشافعيين، تحقيق أحمد عمر هاشم، مكتبة الثقافة الدينية، ج٢.
١٤. أبو شامة (شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن المقدسي الشافعي ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل، د. ت، ج١.
١٥. بدران(عبد القادر): منادمة الأطلال، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢ ١٩٨٥.

١٦. الذهبي (أبو عبد الله شمس الدين محمد ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م):
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير، حوادث (٦١١، ٦٢٠)، تحقيق بشار عواد معروف، عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٧هـ.
- العبر في خبر من عبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، ط٢، ١٩٦٢، ج٣.
- سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٦٢.
- تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٤.

١٧. سبط بن الجوزي (شمس الدين أبي المظفر ت ٦٤٥هـ): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق جنان خليل، مطبعة الثقافة، بغداد، ج٨.

١٨. السبكي (تاج الدين أبي نصرعبد الوهاب بن علي ت ٧٧١هـ/ ١٦٣٩م):
- طبقات الشافعية الكبرى، حلب، ط١، ١٩٦٥، م٤.
- معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار، محمد أبو العيون، دار الكتاب العربي، مصر، ط١، ١٩٤٨.
- فتاوى السبكي، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج٢.

١٩. السيوطي(جلال الدين ٨٤٩هـ):
- تدريب الراوي في شرح تقريب النوري، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار إحياء السنة النبوية، بيروت، ط٢، ١٩٧٩، ج٢.
- حسن المحاضرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٩٩٧.

٢٠. العليمي (أبي اليمن مجير الدين ت ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م): المنهج الأحمد، تحقيق محمد محي الدين، عالم الفكر، ١٩٨٤ ج٢.

٢١. القلقشندي (أبي العباس أحمد بن علي ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧، ج٥.
٢٢. المقريزي (أحمد بن علي ت ٧٤٥هـ/١٤٤١م): المواعظ والاعتبار المعروف بالخطط، دار صادر، بيروت،١٩٥٠، ج٢
٢٣. المنذري (زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م): التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢ ١٩٨١، ج١.
٢٤. النعيمي (عبد القادر ت ٩٢٧هـ/١٥٢٠م): الدارس في تاريخ المدارس، أعدّ له ابراهيم حسن الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠ هـ، ج٢
٢٥. البويني (قطب الدين موسى بن محمد ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م): ذيل مرآة الزمان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط ٢ ١٩٩٢، ج٢.

قائمة بأسماء المراجع:

٢٦. الباشا (حسن):
- الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار الإسلامية، القاهرة،١٩٦٦، ج٢.
- دراسات جديدة في نشأة الطراز المعماري للمدرسة المصرية ذات التخطيط المتعامد، مجلة الحوليات الأثرية، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٦٥، م١٥، ج١.

٢٧. حتي (فيليب): تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، ط٩،.
٢٨. خضر(عبد المعطي): تاريخ العمارة، حلب، ط١، ١٩٩٤.
٢٩. خماش (نجدة): الآثار الاسلامية، دمشق، ط٥، ٢٠٠٠.

٣٠. دهمان (محمد):
- المدرسة العادلية الكبرى، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ج١، مجلد ٢٩، ١٩٥٤.
- معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق ١٩٩٠.

٣١. رؤوف (عماد عبد السلام): مدارس بغداد في العصر العباسي، دار البصري، بغداد، ط١، ١٩٦٦.
٣٢. ريحاوي (عبد القادر): العمارة الإسلامية، دار البشائر، دمشق، ط٢، ٢٠٠٠.
٣٣. زيدان (جرجي): تاريخ التمدن الإسلامي، مطبعة الهلال، ط٤، ١٩٣٥.
٣٤. الشجاع (عبد الرحمن عبد الواحد): دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، دار الفكر المعاصر، اليمن، ط١، ١٩٩٩.
٣٥. شميساني (حسن): مدارس دمشق في العصر الأيوبي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٣.
٣٦. الشهابي (قتيبة): مآذن دمشق، منشوران وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٣.
٣٧. طلس (أسعد): التربية والتعليم في الإسلام، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٢.
٣٨. عارف (عبد الغني): نظام التعليم عند المسلمين، دار كنان، دمشق، ط١، ١٩٩٣.
٣٩. عبد الحميد (سعد زغلول): العمارة والفنون في دولة الإسلام، مكتبة الانتصار، مصر،١٩٩٦.
٤٠. العلبي (أكرم): خطط دمشق، دار الطباع، دمشق، ط١، دمشق.
٤١. فكري (أحمد): مساجد القاهرة ومدارسها، القاهرة، ١٩٦١.
٤٢. محبوبة (محمد رضا): نظام الملك، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٩.

٤٣. معروف (ناجي): نشأة المدارس المستقلة في الإسلام، مطبعة الأزهر، بغداد، ١٩٦٦.

المراجع المعربة:

٤٤. كارل واتسينجر: الآثار الإسلامية في دمشق، ترجمة قاسم طوير، برلين، ط١ ١٩٢٤، الطبعة المعربة، دمشق، ١٩٨٤

المراجع الأجنبية

45. Leiser, G, Notes on the madrasa in mediaval Islamic society MWLXX. VI. 1986
46. Lucin, Golvin, Lamadrasa médiévale, Egisud,1995.
47. Makdisi, G, The rise of Goldages Institutions of learning in Islam an the west, Edinburgh, 1981

العلاقات الفرنسية التركية وأثرها على ضياع لواء اسكندرونة (١٩٢١-١٩٣٩)

الدكتور حسام جميل النايف
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

مقدمة:

إن دراسة جذور أزمة لواء إسكندرونة تبين علاقتها الواضحة بسياسة فرنسا العامة في شرقي البحر المتوسط بعد الحرب العالمية الأولى. فالحركة الوطنية العربية، واحتمال إنشاء مملكة عربية تدعمها بريطانيا، كان متناقضاً بشكل واضح مع مصالح فرنسا عميقة الجذور والتقليدية، وطموحاتها السياسية في شرقي البحر الأبيض المتوسط.

إن السلطنة العثمانية قد ضمّت مناطق الشرق الأوسط جميعها في سلسلة من التقسيمات الإدارية رسمت حدودها، دون النظر إلى اعتبارات العرق واللغة والدين. ولكن الفرنسيين بدأوا بتقسيمات في هذه المناطق بحيث أصبحت تتألف من وحدات أصغر تتمتع باستقلال محلي. وفي سياق هذه السياسة أنشأت السلطات الفرنسية بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٨لواء إسكندرونة الذي لم يكن موجوداً في السابق، قبل أن

تمنح عصبة الأمم الوصاية لفرنسا بوقت طويل، وقبل احتلالها الفعلي للأراضي السورية.

إن نظرة فاحصة لفرنسا وسياستها تجاه تركيا من البدء حتى النهاية تبيّن أن لهذه السياسة أساس ثابت، في النزاع على السلطة، جدي وقوي في المنطقة.

١- العلاقات الفرنسية- التركية (١٩٢١-١٩٣٠):

مع نهاية الحرب العالمية الأولى، عقد الحلفاء عدة معاهدات، كان من أهم أهدافها القضاء على السيادة التركية، وتحرير الشعوب التي طال عهد خضوعها لنير الأتراك. كما فرضوا على السلطان التركي الموجود في القسطنطينية تحت رحمة الحلفاء توقيع معاهدة سيفر[١]، التي نصّت على فصل الأجزاء العربية عن الدولة العثمانية، وضمّ معظم جزر بحر إيجة وتركيا الأوروبية /تراقية/ إلى اليونان، إضافة إلى منح اليونان إدارة مدينة أزمير، ومنطقة غربي الأناضول لمدة خمس سنوات. وبذلك أصبحت اليونان على بعد بضعة أميال من القسطنطينية (استانبول). كما فرضت المعاهدة تدويل المضائق بدءاً من الدردنيل إلى بحر مرمرة مع نزع السلاح منها.

كانت هذه الترتيبات كافية لتمكن أسطول الحلفاء من الوصول إلى القسطنطينية ومهاجمتها عند الضرورة[٢]. وقد أجبرت تركيا على منح أرمينية الاستقلال، وإعطاء كردستان الحكم الذاتي. ووفقاً لهذه الشروط والقيود بقي لتركيا جزء صغير من الأناضول مستقلاً استقلالاً اسمياً على رأسه السلطان العثماني[٣].

لكن هذه التسوية أثارت حماس القوميين الأتراك، فاستعدوا للمقاومة، والتفوا حول القائد التركي مصطفى كمال[٤]، واتخذوا من أنقرة مركزاً لقيادتهم. وبعد إحرازهم النصر الساحق في الانتخابات النيابية التركية وقعوا على الميثاق الذي وضعه مصطفى كمال، والذي عُرف بالميثاق الوطني التركي. وأعلن بالميثاق: أن الأتراك لن

يقبلوا أية قيود تفرض على استقلالهم، وفصل أيـة ولايـة يـسكنها الأتـراك عـن الإمبراطورية العثمانية.

كما ادعى الأتراك من خلال الميثاق ملكية جميع الأراضي الواقعـة شـمالي الخـط المستقيم بين جنوبي الموصل وميناء الإسكندرونة. أما حلـب وبقيـة أجـزاء لـواء إسكندرونة فتقع إلى جنوب هذا الخط. وهكذا فإن كلاً من منطقة اللواء وحلب مستثناة من الأراضي التي شملها الميثاق(٥).

في الوقت نفسه تنازل الأتراك بشكل صريح عن جميع ادعاءات الملكية التركية علـى أجزاء الإمبراطورية العثمانية التي تقطنها أغلبية عربية(٦).

بدأت المقاومة التركية بقيادة، مصطفى كمال، في أوائل عام ١٩٢٠، حيث نشب القتال في كيليكية بين القوات الفرنسية والمقاومة التركية،. وقد ألحقت القوات التركية هزائم متتالية بالفرنسيين. واستولت على الكثير مـن مـواقعهم، وأخـذت آلاف الأسـرى الفرنسيين.

وأمام هذا الوضع تدخل الإنكليز، واحتلوا القسطنطينية رسمياً، وأعلنوا الحكم العسكري فيها، وحلَّ مجلس النواب. ولكن احتلال القسطنطينية لم يزعزع مـصطفى كمـال. إذ قرر إنشاء برلمان جديد في أنقرة. وإنشاء حكومة الجمعية الوطنية الكبيرة التي انتخب مصطفى كمال رئيساً لها. أما السلطان العثماني وحكومته فقد عُدّوا أسـرى للحلفـاء، وعُدّت أعمالهم باطلة.

عندما أدرك الفرنسيون أنه من المستحيل الاحتفاظ بالمقاطعات في كيليكية، اقترحوا أن تعدل حدودهم في سورية للاحتفاظ بالمكاسب المادية والاقتصادية والثقافية في تركيـا. وبناء على ذلك دخلوا في مفاوضات مع الأتـراك، انتهـت بتـاريخ ٩ آذار ١٩٢١، بتوقيع رئيس وزراء فرنسا أرشيد بريان اتفاقاً مع ممثل حكومة أنقرة بكير سامي بك؛ ليضع حداً للاشتباكات في كيليكية.

وكان من أهم بنود الاتفاق: أن تشكل الحكومة إدارة خاصة في منطقة الإسكندرونة، وتقدم للسكان الأتراك كل التسهيلات لتطوير ثقافتهم، واستخدام اللغة التركية بصورة رسمية بالمساواة مع اللغة العربية والفرنسية. كما نصّ الاتفاق على رسم حدود سورية وتركيا من نقطة يجري تحديدها على خليج الإسكندرونة مباشرة جنوب باياس، تبعد خمسة عشر ميلاً شمالي الإسكندرونة، وتمر في ميدان إكبس، ومنها باتجاه الجنوب الشرقي نحو كلس، ثم شرقاً على طول الخط الحديدي حتى نصبين. وقد أُعطي الفرنسيون حق تشغيل الخط الحديدي من باياس وميدان أكبس لتأمين المواصلات بين حلب والإسكندرونة(٧).

ولكن هذا الاتفاق لم يرض الحكومة التركية في أنقرة، فقد أكدت التقارير الإنكليزية على استمرار الأعمال القتالية في كيليكية، على الرغم من توقيع الاتفاق، واستمرار الأتراك في تحضيراتهم لمهاجمة حلب، واستمرار تحريضهم للثوار السوريين في كفر تخاريم والقصير وأنطاكية(٨).

وفي أواخر أيار ١٩٢١ بلّغ الأتراك الجنرال غورو أن هذا الاتفاق ليس في صالحهم. وطالبوا بمناطق أخرى جنوبي الحدود تشمل حلب والإسكندرونة. وأتبعوا طلباتهم هذه بتحريك ثلاث فرق عسكرية يبلغ عدد أفرادها ١٢ ألف جندي عسكروا في المنطقة. وقد رافق ذلك إرسال الوفود التركية إلى الشمال الشرقي من حلب، وإلى الغرب من الخط الحديدي بين حلب وحماة لإثارة المشاكل ضد الفرنسيين(٩).

وأمام هذا الوضع كان على الحكومة الفرنسية أن تختار أحد سبيلين للعمل: إما أن تدعم جيشها في المتوسط، كي تدافع عن جميع حدودها في وقت واحد، لاسيما لوجود عدوها الملك فيصل على الحدود الشرقية لسورية، والملك عبد الله على الحدود الجنوبية؛ إضافة إلى المقاومة الوطنية داخل سورية، وإما أن تختار السبيل الثاني وهو: إرضاء الأتراك على حساب العرب، فاختارت مسالمة الأتراك والتفاهم معهم،

وذلك من أجل مصالحها المتعددة وعميقة الجذور في منطقة حوض المتوسط الشرقي، ولاسيما أن عداوة تركيا لفرنسا غير مناسبة لنجاح المخططات الفرنسية التي تسعى لوراثة مكانة ألمانيا الاقتصادية والسياسية في تركيا. إضافة إلى أن استخدام فرنسا للحركة الوطنية التركية سيُفشل الأطماع السياسية للقوى الأوروبية، وبشكل خاص الأطماع الإنكليزية في المنطقة[١٠].

لذلك عمدت الحكومة الفرنسية إلى توقيع اتفاقية شاملة مع حكومة مصطفى كمال في أنقرة بتاريخ ٢٠ تشرين الأول ١٩٢١، عُرفت باسم "**اتفاقية أنقرة**". وقعها عن الجانب الفرنسي فرانكلين بويون الوزير الفرنسي السابق، والسيد يوسف كمال بك وزير الخارجية التركي. بتوقيع هذه الاتفاقية تجاهلت فرنسا كلياً معاهدة سيفر، واعترفت فعلياً بحكومة أنقرة الكمالية[١١].

نصّت الاتفاقية في مادتها الأولى والثانية على إيقاف الأعمال القتالية بين الطرفين وإطلاق سراح الأسرى. وفي مادتها السابعة أكدت على "**وضع نظام إداري خاص لمنطقة الإسكندرونة، وتمتع سكان المنطقة الأتراك بكافة التسهيلات الضرورية، وتكون للغة التركية في هذه المنطقة صفة رسمية**"[١٢]. أما البند الثامن من الاتفاقية، فقد رسم الحدود التركية السورية بدقة وذلك على الشكل الآتي: "**يبدأ خط الحدود من نقطة تنتخب فوق خليج إسكندرونة مباشرة جنوب ناحية باياس، ويتجه قليلاً نحو ميدان إكبس، على أن تبقى سكة الحديد والناحية السورية. ومن هناك ينحني نحو الجنوب. ثم يتبع خط بغداد الحديدي الذي تبقى مساحته فوق الأراضي التركية حتى نصبين. ثم يتجه على الطريق القديمة بين نصبين وجزيرة ابن عمر، حيث يلتقي بنهر دجلة. وتبقى ناحية نصبين وجزيرة ابن عمر والطريق لتركيا، على أن يتمتع البلدان بنفس الحقوق فيما يتعلق باستخدام هذا الطريق**". كما نصّ البند السابع على: "**أن تؤلف لجنة مشتركة بين الطرفين خلال مدة شهر من توقيع الاتفاقية لتحديد الخط المبين أعلاه**"[١٣].

حصلت فرنسا بالمقابل على تصريح من الحكومة التركية، يمنح شركاتها امتيازات اقتصادية بقصد استخراج معادن الحديد والكروم والفضة الموجودة في وادي هاريست (الخرطوش) التركي لمدة تسعة وتسعين عاماً، على أن يساهم الأتراك بنسبة خمسين بالمائة من رأس المال المستثمر[١٤].

وتؤكد الوثائق البريطانية وجود ملحق سري في الاتفاقية ينص على: تخلي الانتداب الفرنسي عن كامل اللواء لتركية في موعد يحدد مستقبلاً. وتكون عملية التخلي هذه عن طريق التشديد على الاستقلال الشخصي للواء إسكندرونة عن سورية. ثم عندما يصبح الوقت أكثر ملاءمة يصبح هذا اللواء خارجاً عن إدارة السلطات الفرنسية في بيروت، وفي مرحلة لاحقة يمكن ضمه إلى تركيا[١٥].

عدّت فرنسا هذه الاتفاقية ظفراً دبلوماسياً لها، فقد استطاعت إحباط السياسة البريطانية في الشرق الأدنى بتأييدها للحركة الكمالية. كما ساعدت على إيقاف الجيوش اليونانية عند حدها. وبالتالي قلصت النفوذ البريطاني. كما ساعدت الاتفاقية على تقوية مركز فرنسا في الشرق الأدنى، وتفرغها للقضاء على المقاومة الوطنية السورية[١٦].

لكن هذه الاتفاقية لم تحظ بالقبول والرضا عند الجميع، ولاسيما عند بعض رجال السياسة الفرنسيين. فقد صرّح الجنرال روفيو، القائد العام لقوات فرنسا في الشرق الأدنى، بأن : "**الاتفاقية تنبئ بفقدان الإسكندرونة وأنطاكية**". كما قال وزير الخارجية الفرنسية السابق فراورد بأن: "**الاتفاقية تمهد لمطالب تركية جديدة وتخلي فرنسا عن منطقة الإسكندرونة**"[١٧].

كما أثار إعلان الاتفاقية احتجاجات بريطانية شديدة. فقد أرسل اللورد كيرزون وزير الخارجية البريطاني مذكرة احتجاج رسمية في ٥ تشرين الثاني ١٩٢١، قال فيها: إنه فهم أنَّ بويون سيفاوض فقط بشأن الجلاء عن كيليكية، وتبادل الأسرى، وحماية الأقليات. واحتج بأنها تبدو برأيه كأنها معاهدة سلام كاملة. إذ تشكل اعترافاً بالجمعية

الوطنية التركية[١٨]. إضافة إلى أنها تشكل نقضاً للاتفاقية الفرنسية-الإنكليزية الموقعة في ١٤ أيلول ١٩١٤، ولمعاهدة لندن ١٩١٥م اللتين نصّتا على أنه لا يحق لأي من الحلفاء عقد سلام منفرد مع تركيا[١٩]. كما أنه لا يحق لفرنسا تعديل حدود معاهدة سيفر، ولاسيما أنها تصرفت بأراضٍ أخضعتها القوات البريطانية. واعترض اللورد كيرزون أيضاً على المادة السابعة الخاصة بلواء إسكندرونة. حيث قال: **"من المفروض أن هذه المادة تعطي الأتراك حقوقاً خاصة في منطقة الإسكندرونة. كما أتاحت لهم استخدام اللغة التركية رسمياً، تستلزم بعض التعديلات، أو إضافة تمهيدات للانتداب على سورية"**[٢٠].

كان الرد الفرنسي حول موضوع اللواء: بأن النظام الإداري المتعلق بلواء إسكندرونة الوارد في المادة السابعة، لا يتعارض ونظام الانتداب الذي ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار التباين الشديد للأجناس في سورية، وأن يتوافق والنظام العام في البلدان الواقعة تحت الانتداب الفرنسي، وأن يسمح بالوقت نفسه بدرجة من الحكم الذاتي للعناصر متعددة الأجناس. وأكثر من ذلك، فإن المادة السابعة من معاهدة أنقرة لم تعط تركيا أي حق سياسي أو اقتصادي. وإنما تبحث في استخدام اللغة التركية ، ومدى تلاقيها مع اللغة العربية والفرنسية[٢١].

لكن الخلاف البريطاني الفرنسي استمر حتى ٢٠ أيلول ١٩٢٣. حيث ذهب اللورد كيرزون بنفسه للتفاهم مع السيد بونكاريه رئيس الوزراء الفرنسي، لإيقاف التقدم التركي في تراقية، وإنهاء الحرب بين تركيا واليونان[٢٢].

والجدير بالذكر أن اتفاقية أنقرة عام ١٩٢١، وإبرام الصلح بين فرنسا وتركيا لم ينجحا في تأمين أوضاع هادئة في شمالي سورية. فقد تذمر الفرنسيون من الغارات المتواصلة على القرى السورية التي تشنها عصابات من القوات التركية غير النظامية المسماة "**Cheteh**".

لقد أساءت هذه الأعمال إلى حالة الأمن بصورة متواصلة، وعلى الرغم من الاحتجاجات الرسمية الفرنسية لدى حكومة أنقرة، فإن النتيجة الوحيدة التي توصل إليها الفرنسيون هي: أن ممارسات هذه المجموعات كانت منظمة بشكل مسؤول من قبل حكومة الكماليين[٢٣].

وفي الوقت نفسه لم تستطع الحكومة التركية في أنقرة السيطرة على الغلاة من الكماليين في مناطق الحدود- لاسيما اللجان التركية المتطرفة في عينتاب وكلس وأورفه، التي كانت غير راضية عن الامتيازات التي منحتها فرنسا لتركية. لذا كانت تدعم الثوار السوريين اللاجئين إلى تركيا لاستئناف نشاطهم ضد الفرنسيين في سورية. وقد نظرت هذه اللجان إلى اتفاقية أنقرة على أنها مجرد قصاصة ورق. وأعلنت أنها تتطلع إلى اليوم الذي تسلم فيه حلب والإسكندرونة إلى تركيا[٢٤].

من جهة أخرى تمكن الأتراك بعد فشلهم في تعديل معاهدة سيفر، من مهاجمة القوات اليونانية، وطردهم من الأناضول. وقد نتج عن ذلك انشقاق في صفوف الحلفاء حول موقفهم من الحرب التركية-اليونانية.

وفي ١٠ آب ١٩٢١ أعلن المجلس الأعلى للحلفاء أن الحرب التركية اليونانية هي حرب خاصة بينهما. كما أعلنت بريطانية وفرنسا وإيطاليا واليابان الحياد. وفي ٢١ تشرين الأول ١٩٢٢ طلبت بريطانية وفرنسا وإيطاليا توقيع الهدنة بين الطرفين، وعقد مؤتمر في مودانيه.

وفي المؤتمر أصر مصطفى كمال على اعتبار الميثاق الوطني التركي الحد الأقصى من التضحيات التركية، والحد الأدنى من لائحة الحقوق التركية. كما طالب باسترجاع بعض الأراضي، وإلغاء الامتيازات الأجنبية، والاعتراف بسيادة تركية التامة[٢٥].

وفي ١٧ تشرين الأول ١٩٢٢ دعت بريطانية وفرنسا وإيطالية إلى عقد مؤتمر لوزان الذي يضمهم، ويضم حكومات الولايات المتحدة، واليابان، ورومانية، ويوغسلافية،

وحكومة القسطنطينية العثمانية، وحكومة المجلس الوطني في أنقرة، لإنهاء الحرب التركية اليونانية، كما دعيت روسيا وبلغاريا للاشتراك في مناقشات المضائق.

ولكن في أول تشرين الثاني ١٩٢٢ أعلن المجلس الوطني الكبير في أنقرة إلغاء السلطنة. وعدَّ نفسه السلطة العليا الوحيدة، بعدما ضمن موافقة مندوبي الحلفاء في القسطنطينية.

وفي ١٧ تشرين الثاني هرب السلطان العثماني محمد السادس إلى مالطة. وبهروبه أصبحت حكومة المجلس الوطني الكبير الحكومة الشرعية الوحيدة في تركيا. ومثلت الأتراك في مؤتمر لوزان.

افتتح المؤتمر أعماله في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٢٢. واستمرت اجتماعاته حتى ٤ شباط ١٩٢٣. ثم توقفت بعد ذلك بسبب رفض الحكومة التركية قبول مشروع الصلح، لمخالفته للميثاق الوطني التركي.

استأنف المؤتمر أعماله بعد عدة مفاوضات، في ٢٣ نيسان. حيث استطاع المشاركون في النهاية توقيع معاهدة لوزان في ٢٤ تموز ١٩٢٣[٢٦].

يعود الانتصار الساحق الذي حققته في المؤتمر إلى التمزق الذي حصل في صفوف الحلفاء حيال سياستهم مع تركيا، لاسيما فرنسا وبريطانية. ففي رسم حدود تركيا: أكدت المادة الثالثة من المعاهدة على رسم الحدود مع سورية وفقاً للمادة الثامنة من معاهدة أنقرة، الموقعة في ٢٠ تشرين الأول ١٩٢١، تاركة لواء إسكندرونة لسورية[٢٧].

وقد تخلت تركية بموجب المادة (١٦) عن كل الحقوق والصفات، مهما كانت طبيعتها، المتعلقة بالأراضي الواقعة خلف الحدود التي نصت عليها المعاهدة الحالية[٢٨]. وأكدت المادة (٢٧) من المعاهدة: أنه لن تستعمل أية سلطة أو حق شرعي في الأمور

السياسية والتشريعية والإدارية خارج الإقليم التركي –من قبل الحكومة التركيـة– لأي سبب ومهما كان، على مواطني إقليم فُصل عن تركيا[٢٩].

ولم تنص معاهدة لوزان على اتفاقية أنقرة، ولا على السلطة الإدارية الخاصـة التـي شكلتها. وعندما جرى التوقيع على المعاهدة سلم المندوب الفرنسي بيليه تصريحاً إلـى رئيس وفد تركيا عصمت باشا نصّ على : "**أن معاهدة السلام التي تحمل تاريخ اليوم لا تحمل أي إساءة لشروط الاتفاق التركي-الفرنسي الموقع في أنقرة بتـاريخ ٢٠ تشرين الأول ١٩٢١**"[٣٠].

إن تأكيدات معاهدة لوزان وشمولها للمادة الثامنة من اتفاقية أنقـرة أضـفت الـصفة الدولية على الحدود التركية السورية، كما نزعت من تركيا كل سيادة أو حقوق سياسية أو مصالح أو ادعاءات بالملكية لأراضٍ مفصولة عنها، بما في ذلك لواء إسـكندرونة. كما أن المعاهدة التي تنص على شروط أو تدابير معينة تحدد مصير الإسكندرونة عند نهاية الانتداب الفرنسي على سورية.

يتبين مما سبق: أن الحكومة الفرنسية أوفت بتعهداتها تجاه الأتراك فيما يتعلق بتنفيـذ اتفاقية أنقرة. ولكن العلاقات بين تركيا وفرنسا لم تشهد تحسناً ملحوظاً. فقـد وجهـت الحكومة التركية بتاريخ ٥ تشرين الأول ١٩٢٣ مذكرة إلى الحكومة الفرنسية، تتـذمر فيها من عدم تطبيق النظام الخاص المتفق عليه في اتفاق أنقـرة. فأجابـت الحكومـة الفرنسية في العشرينيات من الشهر نفسه: إن لواء إسكندرونة قد حدد كي يضم كافـة المقاطعات التي فيها أقلية تركية؛ لأنها في الواقع أقلية تركيـة، ولا تمتلـك مقاطعـة واحدة أكثرية تركية[٣١].

وبالوقت نفسه لم تتوقف الحركات العسكرية التي كانت تقوم بها العـصابات التركيـة "**الجيتا**" عن الإغارة على الحدود السورية. بل راحت تزداد بدءاً مـن صـيف عـام ١٩٢٤.

أما الحكومة التركية فقد أنكرت مسؤوليتها عن هذه الهجمات، وأكدت أنها تتألف من سكان المناطق الفرنسية المتذمرة، ومن الذين نزحوا إلى تركيا.

ولكن في حقيقة الأمر لم تكن تصريحات النفي هذه إلا قناعاً. إذ تمكن الفرنسيون من إثبات التورط التركي الرسمي في هذه الغارات على الحدود. ومن أجل ذلك فقد تألفت لجنة لتعيّن الحدود المختلطة التي نصت عليها اتفاقية أنقرة في المادة الثامنة.

اجتمعت اللجنة للعمل في أيلول ١٩٢٥. طالب الأتراك ببضعة مراكز جنوبي خط فرانكلين بويون، كمحطة سكة حديد باياس، وبعض القرى العربية التابعة لمدينة كلس، وبعض الأقسام في البقعة الواقعة على الحدود الشرقية. ولكن تمَّ إيقاف هذه اللجنة وعُرقلت أعمالها حتى وصول المفوض السامي الجديد لسورية المسيو **دي جوفنيل** الذي أدرك خطورة الوضع، ولاسيما في أثناء قيام الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥-١٩٢٧). وخشي من انضمام الشمال إلى الثورة. فرأى ضرورة حسم القضية. لذلك ذهب بنفسه إلى أنقرة في شباط ١٩٢٦[٣٢]. حيث تمَّ التوقيع في ٣٠ أيار ١٩٢٦، على اتفاقية الصداقة وحسن الجوار بين تركيا وسورية التي عُرفت باتفاقية دي جوفنيل. وقعها عن الجانب الفرنسي السفير الفرنسي في تركيا **أ. سارو** ، وعن الجانب التركي **توفيق رشدي** وزير الخارجية.

عَدَّلت الاتفاقية بعض أحكام اتفاقية أنقرة تلبية لمطالب الأتراك في باياس وقرى كلس. وأضيفت مادة خاصة (المادة ١٤) التي توجب الالتجاء إلى التحكيم في أي نزاع ينشأ بين فرنسا وتركيا. واتفق الطرفان على موقف حياد ودي تجاه أي اعتداء من دولة ثالثة على أحد الجانبين المتعاقدين. كما تمَّ الاتفاق على التعاون بين الحكومتين لمكافحة العصابات في المنطقة الحدودية التي تقع على مسافة ٥٠ كم من كل جانب من الحدود المشتركة السورية والتركية[٣٣].

والجدير بالذكر أن اتفاقية دي جوفنيل تأخر التوقيع عليها من ١٨ شباط ١٩٢٦ إلى أيار ١٩٢٦، لعدّة أسباب من أهمها: الاعتراضات القانونية التي قدّمتها لجنة الانتدابات الدائمة في عصبة الأمم، والتي لفتت نظر فرنسا إلى أن تعديل الحدود والتنازل عن محطة باياس وبعض قرى كلس لتركيا، يناقض المادة الرابعة من صك الانتداب، والتي تنص: "**على أن الدولة المنتدبة مسؤولة عن التنازل عن أي شيء من الأراضي السورية واللبنانية أو تأجير ليوضع تحت تصرف دولة أجنبية**". ثم وافقت اللجنة بعد أن صرّح المسيو روبير دوكاييه ممثل فرنسا أمام لجنة الانتداب الدائمة، بأن الاتفاقية ستعرض على العصبة للموافقة على ما يتعلق بالقسم الخاص بتعديل الحدود قبل تنفيذ الاتفاقية.

ولكن المندوب الفرنسي نفى ما جاء في تقرير لجنة الانتدابات الدائمة الذي رُفع إلى مجلس العصبة، فيما يتعلق بتصريحه لتقديم الاتفاقية إلى المجلس، والحصول على موافقته عليها، مدّعياً أن ذلك غير مطلوب من الدولة المنتدبة بموجب المادة الثالثة من صك الانتداب لسورية ولبنان. وأضاف أن فرنسا سترسلها إلى العصبة للتسجيل فقط عملاً بالمادة (١٨) من ميثاق العصبة[٣٤].

مرة أخرى عادت العلاقات الفرنسية-التركية إلى التوتر بسبب الخط الواجب تحديده بين نصيبين وجزيرة ابن عمر على الفرات. ونتج عن هذا التوتر غارات تركية على الحدود[٣٥]، أسفرت عن عودة المفاوضات بين أنقرة وباريس. وتمَّ الاتفاق أخيراً بين السفير الفرنسي في أنقرة والحكومة التركية. ووقِّع على بروتوكول الحدود في ٢٢ حزيران ١٩٢٩، وسوِّيت الحدود بتقسيم المنطقة المتنازع عليها. فأخذت تركية خُمس المنطقة، واستبقت فرنسا لسورية الأخماس الأربعة الباقية[٣٦]، وانتهت لجنة الحدود من عملها بإنجاز تعيين الحدود حتى نهر دجلة، ووضع الملحق النهائي لوضع الحدود التركية السورية، في ٣ أيار ١٩٣٠[٣٧].

٢- بدايات الأزمة في لواء اسكندرونة:

بدأت الصحافة التركية منذ مطلع عام ١٩٣٢، تهتمّ بلواء إسكندرونة، فقد عبّر يونس نادي المحرر في جريدة الجمهورية التركية في العدد الصادر بتاريخ ٢٢ آب ١٩٣٢، عن التميّز الواضح بين الشخصية التركية في أنطاكية والإسكندرونة، وبين السوريين الآخرين عامة تحت الانتداب الفرنسي. كما أكد السيد شيريل المفوض الأمريكي في إستانبول: بأنه خلال حديثه مع السيد حكمت بك سكرتير عام رئاسة الجمهورية التركية، اعترف له السيد حكمت بأن مصطفى كمال: "**كان يكرس كل قدراته لتتريك تركية. ومهما يكن سنكون مسرورين لكي نمتلك أنطاكية والإسكندرونة. فكلاهما تسكنها أغلبية كبيرة من السكان. كما أننا نشعر بأن زملاءنا الوطنيين الأتراك هناك لا يتمتعون بحق الاحتفاظ بثقافتهم التركية ومدنيتهم اللتين ضمتهما فرنسا بموجب معاهدة فرانكلين-بويون**"[٣٨].

بدءاً من عام ١٩٣٤ أخذت مسألة الإسكندرونة تسترعي اهتماماً أكثر جديةً في تركية. فقد لوحظ أن الأتراك قد وقفوا أعمال البناء في مرسين. وفي الوقت نفسه بدأت فرنسا بتطوير ميناء طرابلس بدلاً من تطوير ميناء الإسكندرونة. مما يدل على احتمال استيلاء الأتراك على لواء إسكندرونة[٣٩].

وأعطت زيارة والي عينتاب في ٢٧ نيسان **١٩٣٤** أول إشارات أزمة اللواء. فقد صدرت التعليمات في ٢٦ نيسان،. إلى القادة الكماليين في أنطاكية، بتنظيم استقبال باهر للوالي، وتنظيم مظاهرات شعبية تدعو إلى ضم اللواء إلى تركية، كما أعطت السلطات الفرنسية للأتراك الإذن بالقيام بهذا الاستقبال[٤٠].

وهكذا شهدت زيارة والي عينتاب في ٢٧ نيسان استقبالاً ومظاهرات تأييدية كبيرة من الأتراك المقيمين في اللواء. كما نُشرت صور أتاتورك على المحلات. وصاح

المتظاهرون "**يعيش مصطفى كمال، أنقذونا، وليسقط العرب**"[٤١]. كما نَشرت شائعات تدعي أن الجيش التركي سوف يدخل المدينة في ١٣ أيار.

إن زيارة والي عينتاب كانت قد رُتبت بشكل يجعلها فرصة نادرة لإظهار قوة الأتراك في اللواء أمام السلطات الفرنسية وعرب اللواء[٤٢].

ولكن عرب اللواء الذين صدمتهم هذه المظاهرات التركية للوهلة الأولى، استطاعوا ضبط أنفسهم واستجمعوا قواهم وردوا الصاع للأتراك بمظاهرات مماثلة -عند زيارة الجنرال هنتزكر القائد الأعلى لجيش شرقي المتوسط الفرنسي- إلى مدينة أنطاكية في ٥ أيار ١٩٣٤، في جولة تفتيشية. وقد حمل العرب الأعلام السورية، وساروا عبر شوارع أنطاكية يهتفون: عاشت سورية، عاشت فرنسا.

كما نُظمت مظاهرات مماثلة في ٥-٦ أيار ١٩٣٤، في منطقة حاجيلر، ومنطقة إسكندرونة، عندما زارها الجنرال هنتزكر.

أمام تدهور الوضع في اللواء صرّح المفوض السامي الكونت دي مارتل، رداً على الشائعات التي راجت إثر مرور والي عينتاب في الإسكندرونة وأنطاكية، بأنه لم ولن يدخل في مفاوضات مع الحكومة التركية، فيما يتعلق بأية تعديلات في حدود السنجق، التي رُسمت في ٣ أيار ١٩٣٠. وأكد أن مفاوضات كهذه لا تخالف فقط السياسة الفرنسية، بل هي أيضاً مخالفة لميثاق الانتداب[٤٣].

كما أكد الرئيس السوري محمد العابد، وتاج الدين الحسني وزير خارجيته خلال زيارتهما إلى اللواء في ٢٨-٢٩ أيار: على رفض الشائعات وتأكيد ارتباط اللواء بسورية[٤٤].

ولكن من ناحية أخرى، بدت نوايا تركيا حيال لواء إسكندرونة أكثر وضوحاً في عام ١٩٣٥. فقد أكدت صحيفة "**الطان**" التركية والتي تصدر في استانبول في عددها

الصادر في ١٨ أيلول ١٩٣٥: "**أن أتراك السنجق يأملون في وقت قصير أن تتحد لؤلؤة البحر المتوسط مع الدولة الأم**"، وفي أول تشرين الثاني ١٩٣٥، أعلن أتاتورك في خطابه الافتتاحي أمام المجلس الوطني: بأن إسكندرونة وأنطاكية من أبوين تركيين(٤٥).

كان لزيارة والي عينتاب الناجحة عام ١٩٣٥، وتصريحات كمال أتاتورك دورٌ كبيرٌ في دفع الأتراك المتطرفين، وبعث حركة التحرر التركية. فبدأ الأتراك في اللواء يحتفلون بالأعياد الوطنية التركية بكثير من الأبهة والتظاهر، حتى أنهم كانوا يرسلون برقيات التهاني لأتاتورك وللمسؤولين الأتراك في أنقرة(٤٦).

٣- إثارة القضية من قِبل الأتراك:

بعد أن تمَّ الاتفاق بين الحكومة الفرنسية وسورية على عقد معاهدة عام ١٩٣٦ أعلنت بعض الصحف التركية موقف تركيا تجاه ذلك. وأيدت وصول سورية إلى الاستقلال والوحدة، مع تأكيدها على ضرورة بقاء اللواء محافظاً على وضعه الإداري الخاص الذي أنشئ لصالح الأتراك. فقالت جريدة "**الوقت**" الصادرة في أنطاكية: "**ليس لتركيا القومية أية غاية أو أمل في سورية إلا ما نتج من تأمين في اتفاقاتنا مع الفرنسيين في الشكل الإداري لمدينتي الإسكندرونة وأنطاكية. فالمحافظة على الإدارة الحاضرة فيها، معناه في نظرنا المحافظة على الكثرة التركية في تلك المنطقة، وبقاء حدودنا في سلامة دائمة، ففي الوقت الذي يبحثون فيه قضية تبديل شكل الإدارة في سورية لا يسعنا إلا أن نذكر هذه المنطقة بمرارة**". كما أكدت جريدة "**يني كون**": "**نحن الأتراك الوطنيون يسرنا تماماً أن نرى البلاد السورية تسير بمثل هذه الخطوات واستقلالها**"(٤٧).

والجدير بالذكر أن المباحثات الفرنسية السورية في باريس بشأن المعاهدة، لم يسبقها أية مباحثات فرنسية تركية حول اللواء. مما يعني أن اللواء عُدَّ خلال المباحثات

الفرنسية السورية، من ناحية سياسية جزءاً من سورية. وستطبق عليه أية اتفاقية يتمّ التوصل إليها بين الطرفين السوري والفرنسي[٤٨].

ولكن عندما كان الوفد السوري منهمكاً بالمفاوضات، قدم أتراك اللواء عرائض إلى المفوض السامي في بيروت، طالبوا فيها فصل اللواء عن سورية[٤٩]. وبالوقت نفسه ردَّ عرب اللواء على العريضة التركية بعريضة أخرى إلى المفوض السامي بتاريخ ٤ آذار ١٩٣٦، نشرتها جريدة ألف باء. وقال مراسلها إنها ردٌّ على دعاة الانفصال. ومن أهم ما جاء فيها: تأكيد عرب اللواء أن العريضة التي أرسلها أتراك اللواء لا تمثل سوى عددٍ قليلٍ من الموظفين والجماعة المأجورين الذين لا يمثلون إلا شخصياتهم وأنانيتهم، وأن عرب اللواء يرفضون التجزئة رفضاً قاطعاً، ويعلنون أن مطالبهم هي تحقيق الوحدة السورية بلا قيد أو شرط، وإعادة الحياة الطبيعية إلى البلاد السورية[٥٠].

وبالرغم من ذلك، فإن الحكومة التركية لم تحرك ساكناً في أثناء المفاوضات بين الوفد السوري والحكومة الفرنسية. ولم يكن لمطالبة أتراك اللواء أي أثر مباشر في المفاوضين فيما يخص مستقبل لواء إسكندرونة. فكان من المفهوم ضمنياً أن يحتفظ اللواء بوضعه الداخلي ضمن الدولة السورية، وبالشروط التي قطعتها فرنسا على نفسها في اتفاقياتها التي عقدتها مع تركيا فيما يتعلق بوضع اللواء[٥١].

وعندما تمَّ عقد المعاهدة الفرنسية-السورية في ٩ أيلول ١٩٣٦، لم تكن هناك أية إشارة إلى وضع اللواء في بنود المعاهدة أو في ملحقاتها. لأن وضعه سيكون مضموناً في المادة الثالثة من المعاهدة المذكورة، التي تنص على: "**أن يتخذ الطرفان الساميان كل التدابير بقصد أن تنقل إلى الحكومة السورية يوم انتهاء الانتداب كل الحقوق والواجبات الناتجة عن جميع المعاهدات والاتفاقات وسائر العقود الدولية التي عقدتها الحكومة الفرنسية فيما يخص سورية أو باسمها**"[٥٢].

وبإعلان عقد المعاهدة بدأ الأتراك يظهرون الرغبة في فتح قضية الإسكندرونة. فاستغلوا مرور نوري السعيد، وزير خارجية العراق، بالأستانة في طريقه إلى جينيف أوائل أيلول ١٩٣٦. فدعاه عصمت اينونو وأخبره بما ما ملخصه: "**سرّنا أن الحكومتين الفرنسية والسورية قد وصلتا أخيراً إلى حل القضية السورية، ويسرنا جداً أن تنال سورية استقلالها كما نال العراق استقلاله. ولكني أود لفت نظركم إلى قضية الإسكندرونة. فإننا نرى أن من مصلحتنا ومصلحة سورية حلّها بصورة تؤمن حقوق الطرفين. وإننا لم نثر هذه القضية في أثناء المفاوضات لعقد المعاهدة الفرنسية–السورية، لئلا نخلق مشكلة تؤثر في سير المفاوضات. ونحن نرتأي حلّ المسألة بيننا وبين سورية مباشرة** ".

ثم طلب عصمت اينونو من السيد نوري السعيد أن يبين وجهة نظره للوفد السوري. وتبلغ الوفد دعوة منه للأستانة– في طريق عودته من جنيف إلى سورية(٥٣).

لكن السيد نوري السعيد لم يستطع الاجتماع بالوفد السوري؛ لأنه عند وصوله إلى جنيف كان الوفد قد وصل إلى الأستانة، راجعاً من باريس في طريقه إلى سورية. وهكذا تمَّ مرور الوفد في الأستانة من غير دعوة الأتراك.

عند وصول الوفد إلى تركيا اتصل بهم ممثلو الصحافة التركية، وسألوهم عن الموقف السوري من تركية وقضية اللواء،. فأجاب أعضاء الوفد: بأن هذا من اختصاص الحكومة السورية. وأكدوا أن مهمتهم محصورة في عقد المعاهدة مع فرنسا. وأنهم قد أدّوا مهمته وعادوا(٥٤).

وبالوقت نفسه أعد السيد ناجي شوكة الوزير العراقي المفوض الموجود في تركية حفلة غداء على شرف الوفد، دعا إليها سراج أوغلو وزير العدلية، ووكيل وزارة الخارجية التركي. ودار كلام عام في أثناء الحفل، أكد الوفد من خلاله حسن نوايا سورية تجاه تركيا. كما أعرب السيد سعد الله الجابري، رئيس الوفد السوري أثناء

الحفل للسيد أوغلو أن سورية تقف موقف صداقة ودية مع تركية، وأن الحكومة السورية ستحافظ على مصلحة الأتراك في لواء إسكندرونة.

إلا أن هذا التصريح لم يرضِ الأتراك. وظهر لهم أن الوفد السوري كان يتجنب الدخول في أية مفاوضات من أجل اللواء(٥٥).

ومنذ ذلك الحين بدأت الصحافة التركية تهاجم سورية في مقالات لا تنم عن حُسن الجوار، والميل لإزالة الجفاء. كما بدأوا يهددون سورية باللجوء إلى عصبة الأمم للحصول على اللواء(٥٦).

وفي الوقت نفسه، ازدادت تحركات الدعاية التركية في اللواء، وتحركات العناصر المعادية لإبقاء اللواء جزءاً من سورية، بعد نشر المعاهدة، وإثارة المواضيع المتعلقة بوضع اللواء في المعاهدة. ونتيجة لهذا النشاط الدعائي بدأت في اللواء سلسلة من الفتن(٥٧). وستظهر بشكل واضح في أثناء الانتخابات النيابية السورية.

٤ – المحادثات التركية الفرنسية حول لواء إسكندرونة:

على أثر مغادرة الوفد السوري تركيا آخر أيلول، حملت الصحافة التركية حملة شعواء على رجال الوفد السوري والسوريين. وأخذت تطالب الحكومة التركية بإنقاذ العنصر التركي في اللواء من ظلم السوريين وحكم فرنسا(٥٨).

وفي الوقت نفسه، أوعزت الحكومة التركية إلى وزير خارجيتها الدكتور رشدي آراس، أن يشير إلى قضية الإسكندرونة، واهتمام الرأي العام التركي بها، من خلال حضوره لاجتماع عصبة الأمم، في ٢٦ أيلول ١٩٣٦.

أعرب الدكتور آراس عن سرور تركيا بحصول سورية على المعاهدة. ثم ذكر صلات الصداقة الفرنسية–التركية. وأردف قائلاً: "**إن لواء إسكندرونة يحوي أكثرية تركية. لهذا فهو يسأل فرنسا أن تفسح المجال للحكومة التركية كي تدخل في مفاوضات**

ودية مع الحكومة الفرنسية لحلٍّ هذه القضية". فأجاب المسيو فينو، ممثل فرنسا في مجلس العصبة، قائلاً: "**إن الحكومة السورية ستأخذ على عاتقها، بموجب المعاهدة الفرنسية-السورية، تنفيذ ما قطعته الحكومة الفرنسية على نفسها من تعهدات فيما يخص سنجق الإسكندرونة. أما إذا أرادت الحكومة التركية أن تنتهز هذه الفرصة لتحديد وضع اللواء، أو أن تتقدم بطلب جديد، فإن الحكومة الفرنسية مستعدة للتفاوض مع الحكومة التركية، على أن تكون ضمن أحكام اتفاقية أنقرة عام ١٩٢١، وإن الحكومة الفرنسية ستشترك في هذه المفاوضات الحكومة السورية"**(٥٩).

انتهزت الحكومة التركية تصريح المسيو فينو في مجلس العصبة للدخول في مفاوضات مع الحكومة الفرنسية بخصوص لواء إسكندرونة. كانت هذه الفرصة باعثاً لفتح مراسلات دبلوماسية مهمة بين أنقرة وباريس. استمرت من ١٠ تشرين الأول ١٩٣٦، إلى ٧ كانون أول ١٩٣٧. طلبت الحكومة التركية، من خلالها، عقد معاهدة مع لواء إسكندرونة مشابهة للمعاهدة الفرنسية-السورية، تمنح فرنسا بموجبها اللواء استقلالاً تاماً.

ولكن في الوقت نفسه، أكدت الحكومة الفرنسية استعدادها للدخول في مفاوضات مع تركيا، على أن تكون المفاوضات ضمن حدود اتفاقية أنقرة، "**لأنه ليس في وسعها أن تقتطع من الأراضي السورية شيئاً مقابل منحها الاستقلال. كما أنها لا تستطيع منح السنجق استقلالاً خاصاً به. إذ إن ذلك معناه تكوين ثلاث دول بدلاً من دولتين. وهذا سيؤدي إلى تجزئة سورية. وهو أمر مخالف لصك الانتداب. بينما فرنسا مسؤولة عن وحدة سورية. هذا وإن المادة السابعة من اتفاقية أنقرة تنص على إدارة خاصة فقط باللواء لا أكثر**"(٦٠).

ولكن الحكومة التركية لم تكتف بوعد الحكومة الفرنسية، لتعديل وضع اللواء ضمن اتفاقية أنقرة. بل أرادت فصل اللواء عن سورية، ومنحه استقلالاً خاصاً. فأرسلت

مذكرة أخرى بينت فيها أن إدخال اللواء ضمن الوحدة السورية غير قانوني، وطالبت بفصل اللواء. كما شرحت المذكرة تطور الوضع القانوني الذي طرأ على اللواء، وما يجب أن يؤول إليه مصير اللواء.

وفي الوقت نفسه، أصرّت الحكومة الفرنسية على موقفها. وأكدت أن فصل اللواء عن سورية يخالف التعهدات التي قطعتها فرنسا على نفسها، بموجب ميثاق العصبة، والمادة ٢٢ منه، واتفاقية سان ريمون عام ١٩٢٠م التي تعهدت بموجبها أن تقوم بإدارة سورية كدولة منتدبة. كما رفضت فصل اللواء؛ لأنه مناقض للمادة الرابعة من صك الانتداب التي تنصّ على وجوب المحافظة على وحدة سورية، وعدم التنازل عن أية بقعة من هذه البلاد(٦١).

وفي نهاية المحادثات، أشارت الحكومة الفرنسية إلى استعدادها لقبول أي اقتراح من الحكومة التركية للوصول إلى تحديد أوضح للنظام الإداري الخاص بوضع اللواء، وحقوق سكانه، ضمن أحكام اتفاقية أنقرة. فإن لم ترض الحكومة التركية بذلك فالحكومة الفرنسية مستعدة لإحالة الأمر إلى مجلس عصبة الأمم(٦٢). وبناءً على ذلك أبرق وزير الخارجية التركي في ٨ كانون الأول، إلى السكرتير العام لعصبة الأمم، يطلب منه بموجب المادة (١١) من ميثاق العصبة، إدراج النزاع الناشب بين فرنسا وتركيا في جدول اجتماع العصبة المقبل.

وفي ١٠ كانون الأول ١٩٣٦، أرسل المسيو دلبوس وزير الخارجية الفرنسي مذكرة وافق فيها على إدخال قضية الإسكندرونة في اجتماع العصبة. مؤكداً أن هذه القضية ليست في الواقع بين فرنسا وتركيا، إنما هي خاصة بالعصبة؛ لأنها تتعلق بمبدأ الانتداب الذي وضع أسسه مجلس العصبة، ولجنة الانتداب الدائمة(٦٣).

أ- المحادثات التركية-الفرنسية:

بدأت المحادثات التركية-الفرنسية لإنهاء مشكلة لواء إسكندرونة منذ أوائل أيار ١٩٣٧، فقد تقدمت الحكومة التركية باقتراح للحكومة الفرنسية لإجراء مفاوضات بين قيادتي أركان حرب البلدين حول ضمان أمن حدود سورية وتخوم لواء إسكندرونة، ثم سألت وزارة الخارجية الفرنسية رئاسة الأركان العامة للجيش والقيادة والعسكرية عن رأيهما في إجراء مفاوضات كهذه. ورداً على ذلك بعثت القيادة العسكرية في ١٧ أيار ١٩٣٧ ببرقية أكدت فيها أن أي اتفاق عسكري محتمل بين فرنسة وتركية يجب أن يتوقف على عقد اتفاق قبل ذلك حول وضع اللواء بالذات. لأن المناقشات الجارية الآن في جنيف تدل على أن حكومة أنقرة ميالة إلى جعل اللواء منطقة نفوذ لتركية مما يؤدي للإضرار بمصالح العناصر العربية. كما أكدت القيادة العسكرية أنه: "**لا يمكن القبول في أن هذا الإقليم سيصبح عاجلاً أم آجلاً ولاية تركية، بسبب عدم الإمكانية المادية التي سوف نجد حينئذ أنفسنا قادرين، وفي ظروف كافية، لتأمين الدفاع عن حدود شمال سورية**". ومن جهة أخرى قالت القيادة العسكرية إنه: "**إذا جرى اتفاق؛ فإن فريق الحربية سيشارك إيجابياً بما طرحته القيادة العليا مع تركيا. كما أن الاتفاق مع تركيا يضمن لنا هدوء الشرق، ويمكّن إنكلترا من فرض سيطرتها التامة والأمن على قناة السويس**"

وختمت القيادة العسكرية برقيتها بأن: "**الفريق الحربي يتجاوب كثيراً مع مبدأ محادثات القيادة العليا وحكومة أنقرة إذا أقلعت عن فكرة جعل السنجق منطقة نفوذ تركي. كما تجدر الملاحظة أن هذه العملية تفيد الفريق البحري والحربي والجوي؛ لأن منطقة الإسكندرونة ربما هوجمت بالدرجة الأولى من البحر**"(٦٤).

افتتحت المفاوضات العسكرية الفرنسية التركية السرية في أنقرة في ١٦ كانون الأول ١٩٣٧ ترأسها من الجانب الفرنسي الجنرال "هونتزيجر" القائد الأعلى للقوات المسلحة

الفرنسية في سورية ولبنان، ومن الجانب التركي "عاصم قنطز" نائب رئيس أركان حرب الجيش التركي. وبعد ستة أشهر انتقلت المفاوضات الطويلة والشاقة في ١٣ حزيران ١٩٣٨، إلى أنطاكية[٦٥]. واستطاع الطرفان التوصل إلى اتفاق مبدئي حول عدة قضايا أهمها: دخول القوات التركية إلى اللواء في حالة الاضطرابات الخطيرة، والقضايا المتعلقة بالقيادة العسكرية وتشكيلاتها، ونزع سلاح السكان[٦٦].

ترافقت المفاوضات العسكرية في أنطاكية مع مفاوضات دبلوماسية أخرى تجري في باريس، وترمي إلى عقد اتفاق سياسي لتحسين العلاقات بين الدولتين على أساس منح اللواء لتركيا، وفي الوقت نفسه أذيع في إستانبول أن فرنسا وافقت على اشتراك الجيش التركي في احتلال اللواء، وأن هيئة أركان الجيش الفرنسي قد اتخذت التدابير اللازمة لتنفيذ هذا الاتفاق. وقد وزع كوليه نشرات على الأهالي، يحذرهم فيها من القيام بأي عمل سياسي. وأصدر أوامره للجيش بتفريق الاجتماعات بقوة. كما أصدر كوليه في ٣١ حزيران، بناءً على قرار المفوض السامي، قراراً بحلٍّ الأحزاب العربية في اللواء، مثل حزب عصبة العمل القومي، والاتحاد الوطني، ومنع النشاط السياسي لدى العرب أياً كان نوعه[٦٧].

توسع نطاق المباحثات العسكرية الدبلوماسية الجارية في كل من أنطاكية وباريس، وشملت العلاقات الفرنسية-التركية الثنائية. وأخيراً انتهت المباحثات العسكرية بتوقيع اتفاقية عسكرية بين هيئات الأركان الفرنسية والتركية. وقعها عن الجانب الفرنسي اللواء هونتزيجر عضو المجلس الأعلى والقائد الأعلى لجيوش الشرق، وعن الجانب التركي قائد الجيش عاصم قنطز. ومن أهم ما جاء فيها: ألا يزيد عدد القوات التركية التي ستدخل اللواء عن ٢٥٠٠ رجل بإمرة عقيد. وأن تتمركز هذه القوات في الإسكندرونة وبيلان وقرقخان وأنطاكية، وتكون تحت الإدارة الفرنسية. وأن يقع حفظ النظام والأمن على عاتق سلطات الانتداب بينما تتحمل القوة التركية حماية المناطق التي تقطنها أكثرية تركية، وأن يستمر ذلك حتى انتهاء مرحلة الطوارئ. ثم يتمّ سحب

الجنود الأتراك والفرنسيين، وتترك البلاد تحت سيطرة رجال الدرك المحليين في مدة أقصاها أسبوعين من نفاذ دستور حكومة السنجق النهائي حسبما هي مبينة دولياً وتكفلها الدولتان المسؤولتان[٦٨].

وفي الوقت نفسه، تمَّ التوقيع في أنقرة على معاهدة صداقة جديدة بين فرنسا وتركيا في ٤ تموز، وقّعها عن الجانب الفرنسي السفير هنري بونسو، وعن الجانب التركي الدكتور رشدي آراس.

اتفق الطرفان في المادة الثالثة من الاتفاقية أنه: **"لأجل تأمين الصلح والسلام في البحر المتوسط الذي يهم أمره الطرفين الساميين المتعاقدين، يتعهدان بالتشاور لتطبيق نظام ٢٤ أيار ١٩٣٧ الكامل لملكية سنجق الإسكندرونة، ويتعهدان أيضاً القيام بالواجبات المترتبة على كل منهما للمحافظة على نظام السنجق".**

كما اتفق الطرفان أن مدة المعاهدة عشر سنوات، وتكون قابلة للتجديد خمس سنوات أخرى، وألحق بالاتفاقية بيان مشترك وبروتوكول جنسية[٦٩].

والجدير بالذكر أنه قُبيل توقيع الاتفاقية، توسطت حكومة العراق بين حكومتي سورية وتركية، بناءً على طلب من الحكومة السورية، لحلِّ النزاع بين البلدين على مبدأ التقسيم. وفي ١ تموز ١٩٣٨، اجتمع ناجي شوكة الوزير المفوض العراقي بالدكتور رشدي آراس وزير الخارجية التركي بحضور عادل أرسلان ممثل الحكومة السورية. وجرت المفاوضات على أساس تقسيم اللواء بين تركيا وسورية، وإيجاد حدود طبيعية بين البلدين، على أن تكون أنطاكية في القسم التركي، وأن يتمَّ تبادل السكان العرب والأتراك، وأن تبقى الإسكندرونة ميناءً صالحاً للتجارة السورية، بمنح سورية منطقة حرة في الميناء، والدخول في مفاوضات رسمية على هذا الأساس، وتوجيه الدعوة لفرنسا للاشتراك فيها.

وبعد استطلاع رأي الحكومتين التركية والسورية، طالبت الحكومة السورية بإبقاء أنطاكية في المنطقة السورية، وحاول السيدان ناجي شوكة وعادل أرسلان إقناع الحكومة التركية بذلك. إلا أن أتاتورك أصر على وجهة نظره، ولاسيما أن تركيا حصلت من المعاهدة مع فرنسا ما لم تحصل عليه من مشروع التقسيم.

وفي ٨ تموز دعا آراس كلاً من ناجي شوكة وعادل أرسلان وأخبرهما أنه نظراً لرفض سورية التنازل عن أنطاكية، وانتقاد صحفها مشروع التقسيم. فقد عَدَلت تركيا عن مشروع التقسيم، ولاسيما أن سورية هي التي بدأت عرض فكرة المشروع[٧٠].

فتحت الاتفاقية الفرنسية التركية حدود اللواء على رحبها أمام القوات التركية التي بدأت بدخول لواء إسكندرونة منذ الساعة الخامسة صباحاً من ٥ تموز ١٩٣٨ من منطقتي باياس والقصير[٧١]. وكان دخول الجيش التركي إلى اللواء الطور الأول من إلحاق هذه الأرض العربية بتركيا، حيث حُسم أمر اغتصاب الأتراك للواء واحتلاله.

شعرت العناصر غير التركية في اللواء، وكذلك العرب في سورية أن المنطقة قُدمت أضحية للتحالف العسكري التركي-الفرنسي. فوجّه الوطنيون السوريون حملة واسعة ضد التعاون مع فرنسا. وفي ٦ تموز نشرت الجمعية السورية للدفاع عن لواء إسكندرونة بياناً فضحت فيه كلتا الدولتين، فرنسا وتركيا. ونادت العرب جميعهم للاتحاد في سبيل الدفاع عن الإسكندرونة وحقوقها[٧٢]. وعمّت الإضرابات أنحاء البلاد جميعها، وقامت المظاهرات وجرت اجتماعات حاشدة طالب المشاركون فيها الحكومة الوطنية ببذل قصارى جهدها من أجل إنقاذ اللواء.

وتلبية لنداء لجان الدفاع عن اللواء أبدى الآلاف من الشباب استعدادهم للتطوع من أجل الذود عن اللواء بقوة السلاح[٧٣]، كما أغلقت حلب بكامل أسواقها احتجاجاً على احتلال اللواء من قبل تركيا[٧٤].

وبدأت الصحف الأجنبية تتكلم عن الاتفاقيات الفرنسية التركية، فذكرت جريدة "التايمز": أن فرنسا وتركيا وصلتا إلى عدة اتفاقيات بشأن لواء إسكندرونة، وأن القوات التركية بدأت بالدخول إلى اللواء(٧٥).

وفي ٧ تموز رفض جميل مردم بك رئيس الوزراء السوري بصورة قاطعة الاتفاقية التركية، وقال عنها: "**إنها قامت ضد مصالحنا وبدون رغباتنا وبالرغم من رغبتنا بإقامة علاقات طيبة مع جيراننا من الشعب التركي.. فإننا سوف لا نتوقف عن المطالبة بوضع حلٍّ لهذه القضية الحيوية بالنسبة لنا وأن يتماشى الحل مع مصالحنا. إننا لا نعترف بالإجراءات الجارية هنا، وسوف لا نعترف بها أبداً**". كما أرسلت الحكومة السورية احتجاجاً قوياً إلى كل من الحكومتين التركية والفرنسية، ترفض فيه المباحثات التي جرت في أنقرة التي لا تحترم فيها حقوق الأغلبية العرب من السكان(٧٦).

أما فرنسا، فقد صرح جورج بونيه، مفسراً سياسة فرنسا مع تركيا، أنه:"**كنّا في ذلك الحين منهمكين في خوض غمار معركة ضارية بل دموية مع تركيا، والتي كان لموقعها الاستراتيجي في حوض المتوسط بالغ الأهمية، الأمر الذي أدركناه إبان سنوات حرب ١٩١٤-١٩١٨. كان يتعين علينا أن نتجنب مهما كلف الثمن الوقوع في الخطأ ثانية. ورداً على ذلك فإننا كنا بأمس الحاجة إلى صداقة تركيا. كذلك من أجل الحصول على دعم روسية، لأن علاقات البلدين كانت في تلك السنين من أروع ما يكون ... وعليه عرضت على السيد سعاد دافاز أن نسوي الأمور في اللواء سوية، وأن نتوج ذلك بالتعامل الودي بالاتفاقيات والمعاهدات**".

ومن ناحية أخرى، كانت تركيا وسلطات الانتداب تتحكم في مصير اللواء والمنطقة على هواها لأنها أصبحت في حلٍّ من رقابة اللجنة الدولية الانتخابية. فقد عينت أنقرة جواد إيجيقالين مفوضاً عنها كامل الصلاحية في اللواء، ويتمتع بالحقوق نفسها التي

يتمتع بها المندوب السامي الفرنسي، كما أصبحت الوثائق تذيل بتوقيع كلا المفوضين، ولكن في الواقع كان زمام الحكم عملياً بيد الأتراك[٧٧].

أخذ مئات الأتراك يجتازون يومياً ودون أي عائق حدود تركيا إلى اللواء للإقامة الدائمة فيه. بينما أخذ العرب والأرمن يشدون الرحال من اللواء. كما بدأت السلطات بطرد الموظفين العرب والأرمن الذين كانوا يعملون في وظائفهم، واستبدالهم بالأتراك[٧٨].

وفي ٢٢ تموز، أصدر المندوب السامي الفرنسي والمفوض التركي تصريحاً مشتركاً يعلنان فيه قرار حكومتيهما بضمان تطبيق القانون الدولي في اللواء. وأنهما سيشتركان معاً في الإشراف على إجراء أول انتخابات عامة، وأن قانون الانتخابات الذي توقف في ٢٦ حزيران، سيستأنف العمل به من جديد. وشكلت بعثة للإشراف على الانتخابات من أعضاء جدد وهم: ثلاثة من الأتراك وعضو فرنسي[٧٩] الذين أخذوا على عاتقهم مهمة إتمام تسجيل الناخبين، وعملوا على ملء مكاتب تسجيل الناخبين بالمندوبين الأتراك.

قامت الاحتجاجات من قبل العناصر غير التركية ضد احتلال الموظفين الأتراك لدوائر التسجيل وعضوية لجنة الانتخابات الجديدة[٨٠]. كما امتنعت الغالبية العظمى من العرب والأرمن عن الانتخابات. ولكن بالرغم من امتناع الغالبية الساحقة عن التصويت فقد جرت الانتخابات في جو من التهديد بالحراب التركية[٨١]. وكان من الطبيعي في ظل هذا الجو من التعاون الوثيق بين الحكومتين الفرنسية والتركية أن تظهر زيادة ملحوظة في نسب الناخبين الأتراك. فقد قفزت هذه النسبة لصالحهم من ٤٦ % إلى ٦٣ % من مجموع الناخبين[٨٢]. وتمت عملية التسجيل. وفي ١ آب نشرت النتائج عن أحوال الناخبين من الدرجة الأولى، وحصل الأتراك على غالبية

مقاعد الجمعيات الوطنية النهائي. فحصلوا على ٢٢ مقعداً من أصل ٤٠، وحصلت باقي الطوائف على ١٨ مقعداً[٨٣].

ويؤكد أغلب الباحثين الملمين بقضية لواء إسكندرونة أن الانتخابات التي جرت في اللواء تحت أسنة الحراب التركية–الفرنسية مزورة، وأن مهزلتها أُخرجت إخراجاً فاحشاً. حيث جرت في الواقع على الورق فقط؛ لأن دخول الجيش التركي إلى اللواء كان قد قرر مصير الانتخابات سلفاً[٨٤].

ب- ردود الفعل العربية والدولية تجاه ضم لواء إسكندرونة:

أكد المعارضون للحكومة الفرنسية أن التنازل عن لواء إسكندرونة كان استسلاماً للإرادات والضغوط التركية التي استغلت ضعف فرنسا السياسي والعسكري والوضع الدولي القلق. كما أكدوا أن فرنسا ليس لها أي حق من الناحية القانونية بأن تتخلى عن أية منطقة وضعت تحت انتدابها، لأنها بذلك تخون الأمانة، وتخاطر بمستقبل السلام في المناطق السورية الأخرى. وذكّر هؤلاء فرنسا بمسؤوليتها المزدوجة كحامية لدولة مسلمة وللأقليات المسيحية الأخرى. وكانوا يرون أن خيانة هذه الأقليات التي كانت تعتمد على حماية فرنسا لها، قد تؤدي إلى نتائج خطيرة تهدد سورية بأكملها، وأكدوا: "**أنه لمن التناقض بمكان أن تُقحم دولة سورية شابة، دون إرادتها، في تعقيدات القوى السياسية الأوربية، وبذلك تتعرض سيادتها لخطر ناتج عن الضرورات السياسية لنفس القوى التي بقيت أعضاء في عصبة الأمم، والتي كانت تحاول تنسيق سياساتها في محاولة جماعية لمقاومة العدوان**"[٨٥].

وأشارت الصحف الفرنسية إلى أن الثمن الذي تريد فرنسا أن تدفعه من أجل صداقة تركية وتحت الضغط البريطاني لم يكن مبرراً، كما أنه يجلب العار لفرنسا[٨٦].

ومن جهة أخرى، احتجت الحكومة الإيطالية على الحكومة الفرنسية، وأخذت عليها تنازلها عن اللواء لتركيا؛ كونها إحدى الدول العظمى المتحالفة والمشتركة التي انتدبت

فرنسا على سورية، وذكرت أن هذا الاتفاق عقد دون اطلاعها وموافقتها. كما أنه يعارض معارضة صريحة غايات الانتداب ورغبات السكان أصحاب العلاقة[٨٧].

وقد لفت هذا الأمر انتباه لجنة الانتدابات الدائمة لدى عصبة الأمم التي أخذت تناقش مسألة تنازل فرنسا عن اللواء لتركيا. حيث أشار عضو لجنة الانتدابات السويسري المسيو بار: "**ألا يتناقض تنازل الدولة المنتدبة عن اللواء تناقضاً صارخاً مع المادة الرابعة من صك الانتداب؟ كيف تستطيع دولة منتدبة وصية أن تتخلى، مدفوعة بمصالحها الأنانية الخاصة، عن جزء من ملكية دولة ثالثة هي تحت انتدابها ووصايتها وعهد إليها أمر الدفاع عنها؟**". فاضطر الممثل الفرنسي روبير دوكه للاعتراف بأن: "**التنازل عن اللواء تمَّ تحت ضغط اعتبارات سياسية**". ثم أصر على وقف بحث المسألة في اللجنة؛ لأن القضية قد خرجت الآن من مجال البحث في اللجنة، بل إنها خرجت عن نطاق الانتداب أصلاً. أصبحت من مواضيع السياسة الدولية، فانصاعت اللجنة لطلب ممثل فرنسا، وبقيت قضية اللواء من الناحية الدولية معلقة دون حل[٨٨].

أما في تركيا، فقد أقيمت الأفراح بتوقيع الاتفاقية مع فرنسا، وصرحت الصحافة التركية أنها طالبت بصراحة التخلي الفوري عن "هاتاي" إلى تركيا منذ ربيع ١٩٣٩. وقالت هذه الصحف بأن "**هاتاي كانت من الناحية العملية جزءاً من تركيا**"، وأضافت: "**أنه على الرغم من أن الحكومة التركية كانت تملك كل الوسائل لإكمال ضم هاتاي من طرف واحد فقد فضلت أن يتمَّ ذلك بموافقة فرنسا لكي تعطي ذلك وجهاً قانونياً**"[٨٩].

عبّر الشعب في اللواء عن احتجاجه على اتفاقية أنقرة بالرحيل عن أرضه ودياره بشكل منفرد وجماعي. وأخذت الهجرة، منذ ربيع ١٩٣٩، تأخذ طابعاً جماهيرياً أكبر.

حيث بدأ بالرحيل أرمن جبل موسى. أما إسكندرونة فأصبحت شبه خالية من السكان تقريباً في نيسان ١٩٣٩[٩٠].

كما ذهب وفد من عرب اللواء إلى دمشق سنعبير عن معارضتهم لتلك السياسة التي أفقدتهم بلدهم، وللطلب من رئيس مجلس الوزراء نصحي البخاري أن يتدخل لمصلحتهم لوقف أعمال الظلم والعنف التي كانت تركيا تمارسها ضدهم. كما أرسل الزعماء الدينيون للأقليات غير التركية برقية احتجاج أخيرة للمندوب السامي ضد تخلي فرنسا عن المنطقة[٩١].

أما في سورية، فقد قابلت سورية حكومة وشعباً قضية التنازل عن اللواء بكل مشاعر السخط والغضب. وقد خصص المجلس النيابي السوري اجتماعه المنعقد في ٣١ حزيران عام ١٩٣٩، لمناقشة مسألة سلب اللواء. وقد صبَّ النواب جام غضبهم على المستعمرين الفرنسيين والإنكليز، واتهموهم بأنهم باعوا اللواء العربي لتركيا من أجل مصالحهم الخاصة،. وصوّت مجلس النواب بالإجماع على قرار يعلن: أن التخلي عن اللواء دون علم سورية وموافقتها، المالك الشرعي للواء، عمل غير قانوني. واحتج المجلس على فرنسا؛ لأنها لم تكن تملك حق التنازل عن إقليم لم يكن ملكاً لها[٩٢].

واتخذ النواب قرار احتجاج، وأرسلوه إلى كل من باريس وجنيف، جاء فيه: "**إن فرض سيادة تركية على محافظة الإسكندرونة أمر غير قانوني، وخالٍ من أي أساس قانوني. ولذا فإن الجمهورية العربية السورية تحتفظ لنفسها بحقوق السيادة على تلك الأراضي**"[٩٣].

وأرسل فارس الخوري رئيس مجلس النواب برقية احتجاج إلى المندوب السامي لتحويلها إلى باريس وجنيف سائلاً إياهم منع تطبيق الاتفاقية.

وكررت حكومة الخوري احتجاجات الحكومة السورية في مذكرة أرسلتها في نهاية حزيران إلى وزارة الخارجية الفرنسية وإلى عصبة الأمم مركزة فيها على الأهمية

الاستراتيجية والاقتصادية التي تعلقها سورية على المنطقة المتنازل عنها. وقد أدانت المذكرة التنازل عن اللواء؛ لأنه تمَّ ضد رغبات أكثرية السكان، وخلافاً لالتزامات فرنسا الدولية وميثاقي عصبة الأمم والانتداب، وفي ختام المذكرة أبدت الحكومة أسفها؛ لأن يكون النزاع حدث وانتهى إلى حل كانت فيه سورية تفتقر إلى سلطات سيادية تحمي بها نفسها. كما أبدت الحكومة مخاوفها من نتائج أخرى خطيرة للوضع الراهن[٩٤].

وبعد بضعة أيام استقال الرئيس هاشم الأتاسي رئيس الجمهورية السورية من منصبه احتجاجاً على جريمة سلب اللواء من سورية. كما أرسل بالوقت نفسه ببرقيتي احتجاج إلى كل من رئيس الجمهورية الفرنسية، ورئيس حكومتها، مشيراً فيها مجدداً أن "**فرنسا خانت كدولة منتدبة تعهداتها ووعودها ومبادئها المحبة للحرية**"[٩٥].

عبّر الشعب السوري عن احتجاجه على ضم اللواء بمظاهرات جماهيرية حاشدة، وإضراب عام، وحملات صحفية عنيفة استهجاناً وتنديداً بفرنسا التي استهانت واستهترت بحقوق سورية[٩٦].

أما الصحف السورية، فقد ظهرت وقد أحاط بها إطار من السواد حزناً على اغتصاب هذا الجزء الغالي من الوطن العربي العزيز[٩٧]. كتبت هذه الصحف: "**فليعلموا في باريس أن عمق شعور المرارة الذي ملك نفوس العرب أجمعين من جراء التخلي عن اللواء لتركيا لا يمكن إدراكه إلا بمقارنته بشعور المرارة الذي هز نفوس الفرنسيين عند ضياع الألزاس واللورين عام ١٨٧٠**"[٩٨].

وهكذا أدرك الأتراك غايتهم رويداً رويداً في أقل من ثلاث سنوات؛ نتيجة لسلسلة التنازلات الفرنسية المخالفة لأبسط مبادئ الحق والعدالة.

أما الصرخات العربية السورية فقد ضاعت؛ لأن العالم حينئذ كان يعيش في ظل المخاوف من حرب أوروبية قريبة سرعان ما اشتعلت وانغمست أوروبا فيها.

الحواشي

(١) رمزي ميور: **النتائج السياسية للحرب العظمى**، ترجمة محمد بدران، مصر ١٩٣٦، ص ١٢٠-١٢١.

(٢) أ.ج. جرانت، هارولد تمبرلي: **أوروبة في القرن التاسع عشر والعشرين** /١٧٨٩-١٩٥٠/، جزأين، ترجمة محمد علي أبو درة ولويس اسكندر، القاهرة ١٩٦٧، ج ٢، ص ٣٠٠-٣٠١. وانظر:

لانجر: وليام لانجر: **موسوعة تاريخ العالم**، ٨ أجزاء، ترجمة محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٩، ص ٢٤٩١.

(٣) دافيد فرومكين: **سلام ما بعد سلام /ولادة الشرق الأوسط** ١٩١٤-١٩٢٢/، ترجمة أسعد كامل الياس، قبرص ١٩٩٢/ ط١، ص ٤٥٨.

(٤) مصطفى كمال (١٨٨١-١٩٣٨): هو مؤسس الجمهورية التركية وأول رئيس لها، ولد في سالونيك والتحق بمدرسة دينية، إلا انه لم يبد اهتماماً بالدراسة، ولم يكد ينهي عامه الأول حتى رفض العودة إلى المدرسة، وانتقل إلى مدرسة للعلوم الحديثة. تلقى علومه العسكرية في سالونيك، ثم موناستير في مقدونيا. ثم انخرط في الجمعيات السرية، وتخرج ضابطاً في الجيش التركي برتبة يوزباشي عام ١٩٠٥. كوّن جمعية الوطن السرية، وفي عام ١٩٠٨ انضم إلى جمعية الاتحاد والترقي، وأصبح واحداً من رجالها. رقي إلى رتبة لواء، واشتهر بدوره في هزيمة الحلفاء في جزيرة جاليري، كما نظم الحركة الوطنية التركية، وقاوم خطة الحلفاء لتقسيم آسيا الصغرى. وأجبر الحلفاء على توقيع معاهدة لوزان، والاعتراف باستقلال تركيا عام ١٩٢٣، وأصبح رئيساً لتركيا منذ عام ١٩٢٣ حتى وفاته. تبنت تركية تحت قيادته نهجاً علمانياً غربياً، وأحدث تغيرات جذرية في أوضاع تركيا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقام بتبديل نظام الكتابة

التركية من الأحرف العربية إلى اللاتينية، ومنع الاحتفالات الدينية. تـوفي عـام ١٩٣٨. انظر:

Ali KAZANCIGL: Ataturk Founder of A modern State, London 1981.

(5) Avedis k. SANJIAN, The Sanjak of Alexandretta (Hatay)- study in France Turco-Syrian relations, Michigan 1856, p 40-41.

(٦) للاطلاع على نص الميثاق الوطني انظر: جمال أركبي: **مشكلة السنجق**، تركيـة ١٩٤٧، ص ٢٠٣.

(7) D.F.AFF.ETR,LEVENT, 33, 1 MARS 921, p 185-187.

(8) C.O. 371/2 A/268/ 117189 NO 51 BEROUT 14 APRIL 1921.

(9) F.O. 371/6455 A / 2013 NO 1516 /6001/ 45, 7 JUNE 1921.

(10)Avedis k. SANJIAN, *Op.Cit.*, p 20.

(11) Walter c. BANDAZIAN: The crisis of Alexandaretta, Michigan 1985, p 36.

(١٢) ذوقان قرقوط: **تطور الحركة الوطنية في سورية /١٩٢٠-١٩٣٩/**، بيـروت، ملحق نص الاتفاقية رقم ٢٤، نقلاً عن وزارة الخارجية السورية، ص ٢٩٨.

(١٣) المرجع نفسه.

(١٤) مجيد خدوري: **قضية الإسكندرونة**، دمـشق ١٩٩٢، ط٢، ص ١٣. وانظـر: ذوقان قرقوط: مرجع سابق، ملحق ٢٥، ص ٣٠٠.

(15) F.O. 371/ 1060 A/ 2174 NO 30, ALEPPO 17 FEB 1924.

(١٦) مجيد خدوري: مرجع سابق، ص ١٤.

(17) Avedis k. SANJIAN, *Op.Cit.*, p 23.

(18) Walter c. BANDAZIAN, *Op.Cit.,* p 39-40.

(19) Avedis k. SANJIAN, *Op.Cit.,* p 27.

(20) Walter c. BANDAZIAN, *Op.Cit.*, p 42.

(21) *Ibid.*, p 42.

(٢٢) مجيد خدوري: مرجع سابق، ص ١٤.

(23) F.O. 371/7847 A/ 2714 C.R 3866/III CAIRO 6Th June 1922, p 1.

(24) F.O. 371/7847 A/ 2714 C.R 3866/III CAIRO 6Th June 1922, p 2.

(٢٥) فاضل حسين: **محاضرات فى مؤتمر لوزان وآثاره في البلاد العربيــة**، بغـداد ١٩٦٧، ط٢، ص١٤.

(٢٦) المرجع نفسه، ص ١٤-١٥.

(27) Avedis k. SANJIAN, *Op.Cit.*, p 23.

(٢٨) جمال أركبي: **مشكلة السنجق**، تركية ١٩٤٧، ملحق رقم ٧، ص ٢١٨.

(29) Avedis k. SANJIAN, *Op.Cit.*, p 23.

(٣٠) جمال أركبي: مرجع سابق، ملحق رقم ٧، ص ٢١٩، لوزان ٢٤ تموز ١٩٢٣.

وانظر: Avedis k. SANJIAN, *Op.Cit.*, p 52.

(31) Stefaanos YEARSIMOS: Milliyetter Va sinirlar, Istanbul 1994, p 187.

(٣٢) مجيد خدوري: مرجع سابق، ص ١٧.

(٣٣) للاطلاع على نص الاتفاقية والملاحق: انظر: جمال أركبــي: مرجــع ســابق، ملحق رقم ٨، ص ٢٢٠-٢٣٠. وانظر:

F.O. 371/ 11519 E 3898 NO 118/89 PARIS 25 JUNE 1926.

(٣٤) مجيد خدوري: مرجع سابق، ص ١٨-١٩.

(35) Avedis k. SANJIAN, *Op.Cit.*, p 59.

(٣٦) مجيد خدوري: مرجع سابق، ص ٢١.

(٣٧) للاطلاع على ملحق المعاهدة والبروتوكولات: انظر: جمــال أركبــي: مرجــع سابق، ملحق رقم ٩، ص ٢٣٦-٢٣٧.

(38) Walter c. BANDAZIAN, *Op.Cit.*, p 62-63.

(39) F.O. 371/16996/ Vol. 16976 Angora, 11 Nov 1933.

وانظر أيضاً: F.O. 37113272/ vol. 17946 Angora, 12 May 1934.

(40)Avedis k. SANJIAN, *Op.Cit.*, p 61.

(41) Paul du VEOU; Le Désastre d'Alexandrette /1934-1938/, Paris 1938, p 50.

(42) Avedis k. SANJIAN, *Op.Cit.*, p 61.

(43) Paul du VEOU, *Op.Cit.*, p 50.

وانظر: محمد علي زرقة: مرجع سابق، ج٢، ملحق ١١، ص ٣١١-٣١٢، عن جريدة اللواء، العدد ٦.

(٤٤) للاطلاع على نصّ خطاب رئيس الوزراء السوري انظر:

محمد علي زرقة: **قضية لواء إسكندرونة (وثائق وشروح)**، ٣ أجزاء، بيروت ١٩٩٣، ج٢، ملحق ١١، ص ٣١١-٣١٢، عن جريدة اللواء، العدد ٦.

(45) Avedis k. SANJIAN, *Op.Cit.*, p 61

(46) *Ibid.*, p 68.

(٤٧) عبد الرحمن الكيالي: المراحل في الانتداب الفرنسي وفي نضالنا الوطني من عام ١٩٢٦-١٩٣٦، ٤ أجزاء، حلب ١٩٦٠، ج ٤، ص ١٩٨-١٩٩.

(٤٨) عبد الرحمن بيطار: **المعاهدة الفرنسية السورية والحكم الوطني في سورية ١٩٣٦-١٩٣٩**/، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، ١٩٩٣، ص ١٣٨.

(٤٩) مجيد خدوري: مرجع سابق، ص ٢٦.

(٥٠) للاطلاع على نص العريضة: عبد الرحمن الكيالي: مرجع سابق، ج ٤، ص ١٣٨-١٣٩.

(٥١) مجيد خدوري: مرجع سابق، ص ٢٥.

(٥٢) حسن حكيم: **الوثائق التاريخية**، بيروت ١٩٧٢، ص ٣٣٠.

(٥٣) مجيد خدوري: مرجع سابق، ص ٢٧.

(٥٤) عبد الرحمن الكيالي: مرجع سابق، ج٤، ص ٣١٣.

(٥٥) مجيد خدوري: مرجع سابق، ص ٢٧-٢٨.

(٥٦) عبد الرحمن الكيالي: مرجع سابق، ج٤، ص ٣١٣.

(٥٧) عبد الرحمن بيطار: مرجع سابق، ص ١٨٤.

(٥٨) مجيد خدوري: مرجع سابق، ص ٣٠.

(٥٩) المرجع نفسه. وانظر: غالب العياشي: **الإيضاحات السياسية وأسرار الانتداب الفرنسي في سورية**، بيروت ١٩٥٥، ص ٤٤٠.

(٦٠) غالب العياشي، مرجع سابق، ص ٤٤٢–٤٤٣. وانظر: مجيد خدوري: مرجع سابق، ص ٣٤.

(٦١) للإطلاع على المذكرات المتبادلة بين الطرفين الفرنسي والتركي، انظر: غالب العياشي، مرجع سابق، ص ٤٤٠–٤٤٥. وانظر: مجيد خدوري: مرجع سابق، ص ٣٣–٣٧.

(٦٢) مجيد خدوري: مرجع سابق، ص ٣٧.

(٦٣) المرجع نفسه، ص ٤٠. وانظر أيضاً:

Avedis k. SANJIAN, *Op.Cit.*, p 98.

(٦٤) للإطلاع على نص البرقية، انظر: وزارة الحرب الفرنسية: برقية رقم ٩/١٧٢٧، سرية جداً، بتاريخ ٧ أيار ١٩٣٨.

(٦٥) أليشان باريميان: **قضية لواء إسكندرونة والدبلوماسية الدولية /١٩٣٦–١٩٣٩/**، ترجمة هرانت حبشيان، دمشق ١٩٩٣، ص ١٢٤.

(٦٦) وزارة الحرب الفرنسية: برقية رقم ٦٠١، من اللواء هونتزيجر إلى وزير الدفاع الوطني والحرب في هيئة أركان حرب، تاريخ ٢١ حزيران ١٩٣٨.

(٦٧) محمد على زرقا: مرجع سابق، ص ٤٦.

(٦٨) للإطلاع على نص الاتفاقية العسكرية بين تركيا وفرنسا، وبروتوكولات التوقيع، انظر:

وزارة الحرب الفرنسية: رقم ١٠٣٨٤/ ٣، بتاريخ ٣ تموز ١٩٣٨.

(٦٩) للإطلاع على نص المعاهدة والبيان المشترك وبروتوكول الجنسية، انظر:

F.O. 371/21912/ XC/ A/ 3414. NO. 338/168/10/381 Istanbul. 11July 1938.

(٧٠) مجيد خدوري: مرجع سابق، ص ١٠٥-١٠٦، وانظر:
F.O. 371/21912/E/ 4219, No. 36 Istanbul 16 July 1938.
وانظر أيضاً: F.O. 371/21912/E/ 4218, No. 35 Istanbul 16 July 1938.
(71) F.O. 371/21912/E/ 4152, No.1 Aleppo 5 July 1938.
(72) Avedis k. SANJIAN, *Op.Cit.*, p 149.
(٧٣) أليشان باريميان: مرجع سابق، ص ١٢٨، نقلاً عن جريدة صوت الشعب الأعداد ٢١-٢٦ /٧/ ١٩٣٨.
(74) F.O. 371/21912/E/ 4211 No. 2 Alleppo 7July 1938.
(75) F.O. 371/21912/XC/A/ 3414 Istanbul, 5 July 1938.
(76) Avedis k. SANJIAN, *Op.Cit.*, p 177-178.
(77) Adnan AITA,*Op.Cit.*, p 58.
(٧٨) أليشان باريميان: مرجع سابق، ص ١٣٠.
(٧٩) تألفت اللجنة الجديدة من: الدكتور عبد الغني تركماني، والسيد جواد إجيقالين، والعقيد كوليه. انظر:
Avedis k. SANJIAN, *Op.Cit.*, p 180.
(80) Avedis k. SANJIAN, *Op.Cit.*, p 180.
(81) Philip s. KHOURY, Syria and The French mandate, London, p 511.
(82) Nizar KAYALI, Syria, p 52.
(٨٣) قُسمت المقاعد الـ ١٨ الباقية إلى تسعة مقاعد للعرب العلويين، وخمسة للأرمن، وكرسيان للروم الأرثوذكس مثلهما للعرب السنة. انظر: Walter c. BANDAZIAN, *Op.Cit.*, p 122.
وانظر أيضاً: Avedis k. SANJIAN, *Op.Cit.*, p 182.
(٨٤) أليشان باريميان: مرجع سابق، ص ١٣١.
(85) Avedis k. SANJIAN, *Op.Cit.*, p 205.
(86) *Ibid,*. p 204.
(٨٧) نجيب الأرمنازي: سورية، ص ٩٧-٩٨.

(٨٨) مجيد خدوري: مرجع سابق، ص ١١١-١١٢. وانظر: أليشان باريميان: مرجع سابق، ص١٧٩.

(89) Avedis k. SANJIAN, *Op.Cit.*, p 206.

(٩٠) أليشان باريميان: مرجع سابق، ص ١٩٣-١٩٤.

(91) Avedis k. SANJIAN, *Op.Cit.*, p 208.

(92) *Ibid,*. p 209.

(٩٣) جريدة العاصمة: تموز ١٩٣٩.

(94)Avedis k. SANJIAN, *Op.Cit.*, p 210.

(٩٥) نجيب الأرمنازي: مرجع سابق، ص ٩٧.

(٩٦) ستيفن هامسلي لونغريغ: **سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي**، ترجمة بيار عقل، بيروت ١٩٧٨، ط١، ص ٣٠٥.

(٩٧) عبد الرحمن الكيالي: مرجع سابق، ج٤، ص ٤١٧.

(٩٨) جريدة النذير: حلب ١/٧/١٩٣٩.

المصادر والمراجع

أولاً- الوثائق

أ_الوثائق العربية:

صالح السعدون: المذكرات، غير منشورة، دار الوثائق الإسلامية، القسم الخاص، رقم الملف ٢١.

إبراهيم الشغوري: المذكرات، دار الوثائق التاريخية بدمشق، القسم الخاص، رقم ٢٢.

مذكرات المجلس النيابي السوري لعام ١٩٣٧.

وثائق عن لواء إسكندرونة: إصدار حزب البعث العربي الاشتراكي، مكتب الثقافة والدراسات الحزبية، نقلاً عن الجريدة الرسمية لعصبة الأمم، أيار – حزيران ١٩٣٧.

ب- الوثائق الأجنبية

وثائق وزارة الخارجية الفرنسية: ويرمز لها بالرمز: "D.F.AFF"

Documents Francis des Affaires Etrangères Concernant le Levant: Syrie – Liban durant les Années 1918-1940.

Documents Francis des Affaires Etrangères Concernant le Levant: le Turquie de 1918 -1926.

تقارير المفوضية العليا للانتداب الفرنسي عن الأوضاع العامة في سورية ولبنان لأعوام "١٩٢٦–١٩٣٧": ويرمز لها بالرمز: "Rapport"

Rapport a la société des Nations sur la Situation de la Syrie et du Liban: Année 1923-1837.

وثائق وزارة الحرب الفرنسية "مترجمة".

وثائق وزارة الحرب البريطانية ويرمز لها بالرمز: "C.O".

Documents of the British Colonial Office: About Syria from 1921-1944.

وثائق وزارة الخارجية البريطانية ويرمز لها بالرمز: "F.O".

Documents of the British Foreign Office: About Syria from 1921-1947.

تقرير لجنة الانتخابات العامة المرفوع إلى عصبة الأمم "النسخة العربية"

ثانياً- المصادر والمراجع العربية:

١. جمال أركبي: مشكلة السنجق، تركية ١٩٤٧.

٢. نجيب الأرمنازي: سورية.

٣. أليشان باريميان: قضية لواء إسكندرونة والدبلوماسية الدولية /١٩٣٦-١٩٣٩/، ترجمة هرانت حبشيان، دمشق ١٩٩٣.

٤. عبد الرحمن بيطار: المعاهدة الفرنسية السورية والحكم الوطني في سورية /١٩٣٦-١٩٣٩/، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، ١٩٩٣.

٥. عبد الرحمن بيطار: قضية لواء إسكندرونة والوحدة السورية /١٩١٨-١٩٣٩/، دمشق ١٩٩٧.

٦. أ.ج. جرانت، هارولد تمبرلي: أوروبة في القرن التاسع عشر والعشرين /١٧٨٩-١٩٥٠/، جزأين، ترجمه محمد علي أبو درة ولويس اسكندر، القاهرة ١٩٦٧.

٧. فاضل حسين: محاضرات في مؤتمر لوزان وآثاره في البلاد العربية، بغداد ١٩٦٧، ط٢.

٨. حسن حكيم: الوثائق التاريخية، بيروت ١٩٧٢.

٩. مجيد خدوري: قضية الإسكندرونة، دمشق ١٩٩٢، ط٢.

١٠. محمد علي زرقة: قضية لواء إسكندرونة (وثائق وشروح)، ٣ أجزاء، بيروت ١٩٩٣.

١١. غالب العياشي: الإيضاحات السياسية وأسرار الانتداب الفرنسي في سورية، بيروت ١٩٥٥.

١٢. دافيد فرومكين: سلام ما بعد سلام /ولادة الشرق الأوسط ١٩١٤-١٩٢٢/، ترجمة أسعد كامل الياس، قبرص ١٩٩٢/ ط١.

١٣. ذوقان قرقوط: تطور الحركة الوطنية في سورية /١٩٢٠-١٩٣٩/، بيروت.
١٤. عبد الرحمن الكيالي: المراحل في الانتداب الفرنسي وفي نضالنا الوطني من عام ١٩٢٦-١٩٣٦، ٤ أجزاء، حلب ١٩٦٠.
١٥. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٨ أجزاء، ترجمة محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٩.
١٦. ستيفن هامسلي لونغريغ: سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ترجمة بيار عقل، بيروت ١٩٧٨، ط١.

ثالثاً- المصادر الأجنبية:

1. Walter c. BANDAZIAN: The crisis of Alexandaretta, Michigan 1985.
2. Ali KAZANCIGL: Ataturk Founder of A modern State, London 1981.
3. Philip s. KHOURY, Syria and The French mandate, London.
4. Roger OWEN, The Middle East in the world Economy, Landon 1981.
5. Avedis k. SANJIAN, The Sanjak of Alexandretta (Hatay)- study in France Turco-Syrian relations, Michigan 1856.
6. Paul du VEOU; Le Désastre d'Alexandrette /1934-1938/, Paris 1938.
7. Stefaanos YEARSIMOS: Milliyetter Va sinirlar, Istanbul 1994.

رابعاً- الدوريات:

اللواء – النذير.

الصين والشرق الأوسط بين عامي ١٩٥٥–٢٠٠٠
قراءة لمراحل تغيير وتطور العلاقة بينهما

الدكتور حكمات العبد الرحمن

قسم التاريخ

كلية الآداب

جامعة دمشق

مقدمة:

على الرغم من الأهمية الكبيرة التي تتمتع بها منطقة الشرق الأوسط(١) على المسرح السياسي ودورها في رسم شكل العلاقات الدولية، فإنها لم تكن في يوم من الأيام في صلب الاهتمامات الجوهرية المباشرة للسياسة الصينية. ويمكن تفسير ذلك بعاملين اثنين: الأول يعود بالدرجة الأولى إلى أقلمة السياسة الصينية الخارجية. فجل اهتمام هذه الأخيرة تركز بالدرجة الأولى على منطقة آسيا، أو بمعنى آخر على الجوار الأسيوي للصين وما يتعلق بها من مشاكل ومسائل قد تؤثر على أمن الصين الشعبية(٢). أما العامل الثاني فيكمن في أن الصين كانت تُعطي الأولوية لعلاقاتها مع الدول الكبرى وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية.

مع ذلك، وعلى الرغم من التركيز على الجوار الأسيوي الذي يبقى المحور الأساسي والبوصلة الموجهة للسياسة الخارجية الصينية، فإن ما يحدث اليوم على الساحة الشرق أوسطية وازدياد أهميته على الساحة الدولية، يضاف إليه الرغبة المتنامية للصين في

أن يكون لها مكانٌ ووضعٌ محترمٌ ومميزٌ ومؤثرٌ على المسرح الدولي، دفع الزعماء الصينيين إلى إعادة التفكير في مبدأ أقلمة السياسة الخارجية وضرورة الانتقال إلى مرحلة تدويل السياسة الخارجية، وذلك من خلال تبني رؤية شاملة للقضايا والمسائل الدولية التي مسرحها الشرق الأوسط.

ولعل الإشكالية الأساسية التي يحاول البحث الإجابة عليها، هي المراحل التي مرت بها سياسة الصين في الشرق الأوسط والظروف التي حكمت وتحكمت بسياسة الصين وعلاقتها بمنطقة الشرق الأوسط، إضافة إلى العوامل التي أثرت بيانياً في هذه السياسة، نتج عنها عدم انتهاج الصين سياسة ثابتة تغيرت من فترة إلى أخرى: العوامل الإقليمية (علاقة الصين مع جوارها الآسيوي)، والعوامل الدولية (علاقة الصين مع القوتين العظميين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي السابق على المسرح الشرق أوسطي).

يشكّل البحث محاولة لقراءة التحولات والتغيرات التي أصابت السياسة الصينية في منطقة الشرق الأوسط والعوامل التي أفضت إلى هذه التغيرات والتطورات. إضافة إلى محاولة توضيح تداخل وتعقيدات السياسة الدولية وخاصة الأمريكية والسوفيتية وتأثيراتها على السياسة الصينية في المنطقة. يهدف البحث أيضا إلى تقديم دراسة تساعد على فهم الاستراتيجية والسياسة الصينية تجاه الشرق الأوسط، دون الدخول في التفاصيل التي ستكون هدفاً لبحث آخر مستقبلي، وشرح المراحل التي مرت بها هذه السياسة. تاريخياً، يبدأ البحث في عام ١٩٥٥، عام انعقاد مؤتمر باندونغ الذي شكل الانطلاقة الحقيقية لتلك العلاقات، مروراً بمرحلة العزلة ثم الانفتاح وانتقالاً إلى مرحلة انتهاج الصين سياسة أكثر استقلالية، وتوطيد وتعزيز هذه العلاقات وانتهاءً بانتهاج الصين سياسة براغماتية تعتمد على المصالح الاقتصادية بالدرجة الأولى.

المرحلة الأولى: الانتقال من الانفتاح إلى العزلة الدبلوماسية

شهدت هذه المرحلة، التي توافق زمنياً خمسينيات وستينيات القرن العشرين، بداية الاعتراف السياسي لدول منطقة الشرق الأوسط بالصين. لقد اختارت الدول العربية، بخلاف "إسرائيل" التي كانت أول دولة شرق أوسطية تعترف بجمهورية الصين الشعبية في كانون ثاني عام ١٩٥٠، أن تُبقي على علاقاتها السياسية مع الصين الوطنية في تايوان. فبعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية في عام ١٩٤٩، لم تعترف الدول العربية التي نالت استقلالها حتى ذلك التاريخ بها، بل بتايوان متبعة بذلك خطى الولايات المتحدة الأمريكية التي ترفض الاعتراف بالصين وتمارس الضغوط على الدول الأخرى لإجبارها على عدم الاعتراف بها(٣). وقد شكلت كل من الحرب الكورية ١٩٥٠ – ١٩٥٣، وبداية الانحياز "الإسرائيلي" للسياسة الأمريكية في المنطقة عاملين على غاية من الأهمية والتأثير في كبح التقارب "الإسرائيلي" – الصيني من جهة وبداية التقارب الصيني – العربي من جهة ثانية. حيث شكل عام ١٩٥٥ التاريخ المفصلي في العلاقات بين بكين والعواصم العربية وبداية تبلور سياسة الصين الشرق أوسطية(٤).

ولأن الصين، على عكس الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية، ليس لها مصالح خاصة مع الدول العربية تعمل على حمايتها أو قضايا ومسائل تحمل خلفيات أو إشكاليات تاريخية يمكن أن تشكل عائقاً أمام تأسيس العلاقات السياسية، فليس هناك ما يمنع من إقامة تقارب صيني-عربي، ووضعه على المسار الذي يجب أن يكون عليه. فسارت هذه العلاقات في خط بياني تخللته الكثير من المحطات(٥).

فالجهود التي بذلها شو إن لاي في مؤتمر باندونغ 1955 حملت أخباراً جيدة على مستوى الدبلوماسية الصينية، حيث أثمرت اعترافاً من عدد من الدول العربية بالصين الشعبية وإقامة علاقات دبلوماسية معها. فمصر، التي كانت أول دولة عربية اعترفت

بالصين[٦] في عام ١٩٥٦، كانت أيضاً أول دولة عربية تتلقى مساعدات خارجية صينية في نفس العام. ومن ثم تبعتها سوريا في كانون أول من نفس السنة، ثم العراق والمغرب والسودان في عام ١٩٥٨، والجزائر ١٩٦٢[٧] وتونس في عام ١٩٦٤[٨]. وكان آخرها قطر ١٩٨٨ والسعودية ١٩٩٠[٩].

إلا أن العلاقات بين الصين ومصر، التي شهدت ازدهاراً ونمواً سريعين، عادت وانتكست بسبب قيام جمال عبد الناصر بدعم حركة الشواف في العراق في عام ١٩٥٩ ضد حكومة عبد الكريم قاسم. ثم عادت هذه العلاقات إلى التحسن بعد عام ١٩٦٠، بعد اعتذار الصين لعبد الناصر عن دعوة خالد بكداش إلى احتفالات الذكرى العاشرة لقيام جمهورية الصين الشعبية[١٠].

لعب الاتحاد السوفييتي دوراً مزدوجاً ومتناقضاً فيما يتعلق بعلاقات الصين مع دول الشرق الأوسط. ففي الوقت الذي كان فيه الاتحاد السوفيتي عاملاً مساعداً سمح للصين في تأسيس أول اتصالاتها مع منطقة الشرق الأوسط من دون أي مشاكل أو منغصات، عاد ليشكل هو بنفسه أكبر العقبات التي تعترض الدبلوماسية الصينية في المنطقة. فالتقارب بين مصر والاتحاد السوفييتي، حيث وافق على تمويل سد أسوان وكذلك تقديم الدعم العسكري للجيش المصري، أثرا بشكل كبير ودائم على العلاقات الصينية - المصرية. وقد حاولت الصين الاستفادة من وجود النظام الجديد في العراق من أجل أن تعيد إطلاق سياستها في المنطقة[١١].

إلا أن النتائج، سواء في مصر أو العراق، جاءت مخيبة لأمال الساسة الصينيين. ففيما يتعلق بمصر رفض جمال عبد الناصر اتخاذ موقف ضد نظريات الاتحاد السوفييتي واستبعاده من مؤتمر التضامن الأفرو- أسيوي. ولعل الأسوأ من ذلك كله، أن التقارب بين كل من سوريا وموسكو ابتداءً من عام ١٩٦٦ أوقع الصين في قطيعة سياسية مع كل بلدان الشرق الأوسط. ومع ذلك، فإن الإنجاز الوحيد الذي حققته السياسة الصينية

في المنطقة في هذه المرحلة هو الحصول على دعم من الجمهورية العربية المتحدة لترشيحها للحصول على مقعد دائم في مجلس الأمن الدولي في منظمة الأمم المتحدة وإعادة التأكيد على أن تايوان جزء من الصين[١٢].

وكنتيجة مباشرة للسياسة التي اتبعها الاتحاد السوفييتي، حيث كانت نظرياته وأطروحاته تلقى آذاناً صاغية في مختلف بلدان الشرق الأوسط وداخل الحركات الأفرو-أسيوية، ازدادت العزلة التي كانت تعيشها الصين في منطقة الشرق الأوسط وعلى الساحة الدولية على حد سواء[١٣]. ومع تطور الثورة الثقافية في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات[١٤]، التي لعبت دوراً مؤثراً وقوياً في مسار السياسة الصينية تجاه البلدان العربية، أخذت الصين تتجه لدعم الحركات الراديكالية أو الثورية كما هو الحال في حركة ظفار[١٥]. وقد ساهمت بعض الممارسات التي قامت بها الصين في زيادة عزلتها وتحديد موقف الدول العربية منها. فقد أعربت هذه الأخيرة عن رفضها وسخطها وتنديدها بالممارسات التي قام بها عناصر الحرس الأحمر[١٦] ضد الأقلية المسلمة وقيامه بتدمير المساجد والمدارس القرآنية. يضاف إلى ذلك أن الأحزاب الشيوعية في كل من سورية والعراق والأردن وتركيا أكدت على ارتباطها والتزامها بالاتحاد السوفييتي، في الوقت الذي تم فيه رفض كل الأطروحات والنظريات التي تأتي من طرف الحزب الشيوعي الصيني[١٧].

وفيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، فإن تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية والجيش الفلسطيني في عام ١٩٦٤ قد لاقى ترحيباً ودعماً صينياً سياسياً وعسكرياً ومالياً. ففي عام ١٩٦٥، تم افتتاح مكتب لمنظمة التحرير في العاصمة الصينية بكين. وقد ترافقت حملات الصين المعادية "لإسرائيل" مع زيادة اتصالاتها مع مختلف الفصائل الفلسطينية بما فيها منظمة فتح[١٨].

وعند الحديث عن العلاقات الصينية – "الإسرائيلية" في هذه المرحلة، يظهر أنها كانت تتم من خلال قناتين متميزتين من الاتصالات: الأولى اتصالات رسمية سياسية، والأخرى حزبية شيوعية حظيت بتأييد ودعم سياسي صيني عام للحزب الشيوعي "الإسرائيلي". وقد بقيت تلك العلاقات محصورة في الإطار الحزبي دون أن تتطور باتجاه إقامة علاقات سياسية تُتوج بتوقيع اتفاقيات سياسية أو اقتصادية. ففي ١٨ شباط عام ١٩٥٤، وُقع بروتوكول الخمس نقاط، بحيث صيغ بشكل يُخلي أياً من الطرفين من مسؤولية أي التزام اقتصادي أو قانوني أو سياسي[١٩].

ومع الأوضاع الصعبة التي عانتها الصين: من سياسة خارجية متخلفة ومعزولة وكثافة سكانية كبيرة واضطرابات ومشاكل مستمرة، عادت الصين ابتداءً من السبعينيات إلى اتباع سياسة أكثر تقليدية.

المرحلة الثانية: العودة التدريجية إلى الشرق الأوسط

إن الحاجة إلى ضرورة إعادة التوازن لموقفها على الساحة الدولية، والبحث لإيجاد تحالف مع المعسكر الغربي ضد الاتحاد السوفييتي، حمل الصين على إعادة النظر في مجمل سياساتها الخارجية. فالمسؤوليات الجديدة التي أُلقيت على عاتقها كونها عضواً دائماً في مجلس الأمن الدولي[٢٠]، دفعت الصين إلى إعادة تقييم سياساتها وبشكل خاص مع الولايات المتحدة، مما سمح لها بتحقيق بعض النجاحات على الساحة الشرق أوسطية[٢١].

ومنذ عام ١٩٧١، اعترفت الصين بشكل أحادي الجانب بالبحرين وعمان وقطر ودولة الإمارات العربية المتحدة. وفي نفس العام، طبَّعت الصين علاقاتها الدبلوماسية مع الكويت ولبنان وتركيا. كما احتفظت منذ عام ١٩٤٩ بعلاقات طيبة مع شاه إيران رضا بهلوي، ومن ثم مع إيران آية الله الخميني في عام ١٩٨٠ بعد نجاح الثورة الإسلامية الإيرانية. وقد فوجئت الصين بسقوط شاه إيران الذي دعمته حتى آخر

لحظة[٢٢]. إلا أن تطبيع العلاقات مع آية الله خميني تحقق بسهولة نسبية، خاصة أن بكين كانت قد عارضت العقوبات الأمريكية ضد إيران. وقد استغلت الصين التوترات التي سادت العلاقات السوفيتية - المصرية بهدف تحقيق تقارب مع القاهرة توج بتوقيع اتفاق عسكري معها في عام ١٩٧٧. كما قدمت الصين أيضاً الدعم للرئيس المصري أنور السادات في سعيه لتطوير علاقات سلام مع إسرائيل[٢٣].

وعلى الرغم من بعض النجاحات التي حققتها السياسة الخارجية الصينية، فإن النتائج المترتبة على هذه السياسة في شبه الجزيرة العربية بدت متواضعة. فمن بين الدول الأربعة التي اعترفت الصين بها في عام ١٩٧١، كانت عُمان الدولة الوحيدة التي طبعت علاقاتها الدبلوماسية مع الصين. وعلى الرغم من شغلها مقعداً دائماً في مجلس الأمن الدولي، فإن الصين لم تكن قادرة على التأثير على التوازن في المنطقة. وكان عملها ونشاطها محدودين. والسبب في ذلك يعود، بشكل خاص، إلى ضعف إمكانياتها الاقتصادية والمالية[٢٤].

المرحلة الثالثة: نحو سياسة أكثر استقلالية

بدأت تظهر هذه المرحلة في فترة الثمانينيات من القرن العشرين مع ظهور توجه جديد يدعو الصين إلى تبني مواقف سياسية أكثر استقلالية فيما يتعلق بمنطقة الشرق الأوسط. إن انطلاق سياسة التحديث والانفتاح الاقتصادي ابتداءً من عام ١٩٧٨، أعطى السياسة الصينية قوة دفع جديدة في العالم الصناعي. فمشروع الإصلاحات الاقتصادية والسياسة الانفتاحية التي اتبعها دينغ تسياوبينغ سمح بارتفاع الناتج المحلي الصيني إلى ١٠% بشكل وسطي في تسعينيات القرن الماضي، تبعه ازدياد الطلب على الطاقة بنسبة بلغت ٥% بين عامي ١٩٨٠ و٢٠٠٠ ووصلت إلى ما يقارب ١٠% منذ عام ٢٠٠٠[٢٥].

فالتعاون بين جمهورية الصين الشعبية ودول منطقة الشرق الأوسط – خاصة الدول المنتجة للنفط – حقق الكثير من التنوع والتوسع. وبذلك طورت الصين سياسة موجهة للحفاظ على التوازن بين شركائها الشرق أوسطيين، والحد قدر الإمكان من تأثير واشنطن وموسكو القوتين العظميين. وكان ينبغي على بكين أن تستمر في الوقت ذاته في الضغط على واشنطن إذا ما أرادت الحد من تأثير الاتحاد السوفيتي. فالسياسة التي اتبعتها جمهورية الصين الشعبية في منطقة الشرق الأوسط كانت سياسة محايدة وفي أحيان أخرى متناقضة. وقد ظهر ذلك بشكل ملموس خاصة فيما يتعلق بإسرائيل والسلطة الفلسطينية، وكذلك خلال الحرب العراقية – الإيرانية[٢٦].

ومنذ الثمانينات، أدانت الصين قصف الولايات المتحدة والتدخلات "الإسرائيلية" في لبنان. إلا أن هذه السياسة أخذت ترتبط شيئاً فشيئاً بالإجماع الدولي. وفيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، ومع التأكيد على دعمها لمنظمة التحرير الفلسطينية وامتناعها عن إدانة الكفاح المسلح، فإن بكين انضمت للمرة الأولى في عام ١٩٨٤ لفكرة عقد مؤتمر دولي حول الشرق الأوسط مع الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي. كما أعربت الصين عن رغبتها في التوصل إلى تسوية للصراع الفلسطيني – "الإسرائيلي"، والتي اُعتبرت منذ وقت طويل القضية المفتاح للمنطقة، عن طريق المفاوضات[٢٧]، وتكريس الجهود الدبلوماسية لتسوية هذا الصراع على أساس قرارات الأمم المتحدة ٢٤٢ و ٣٣٨[٢٨]، مع التأكيد في الوقت ذاته على ضرورة الحفاظ على حقوق الشعب الفلسطيني. وقد سمح هذا الموقف للصين في أن توفق بين جميع الدول العربية سواء تلك الدول التي تتخذ الخط المعتدل أو تلك التي تتبنى النهج المقاوم، مع الحفاظ في الوقت عينه على علاقاتها الناشئة مع "إسرائيل". وقد دفعت هذه المرونة السياسية التي تميزت بها السياسة الصينية والتي رافقها اعترافها بالدولة الفلسطينية، منظمة التحرير الفلسطينية إلى إعلانها عن تحويل مكتبها في بكين إلى سفارة في تشرين الثاني ١٩٨٨[٢٩].

ركزت الصين أيضاً جهودها الدبلوماسية في هذه المرحلة على دول الخليج العربي – بشكل خاص المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة – حيث لا زالت مواقف هذه الدول من الصين الوطنية في تايوان قوية إلى حد كبير. ومنذ عام ١٩٨٤ طبعت الصين علاقاتها الدبلوماسية مع الإمارات العربية المتحدة، وكثفت كذلك علاقاتها غير الرسمية مع العاصمة السعودية الرياض التي مولت إعادة بناء العديد من المساجد وطورت النشاطات الإسلامية في العاصمة الصينية بكين(٣٠).

هذه السياسة المحايدة التي اتبعتها الصين، على الرغم مما وجه لها من انتقادات من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، عبرت عن نفسها بشكل جلي خلال الحرب العراقية – الإيرانية حيث اعتمدت بكين خلالها سياسة متساوية الإبعاد حاولت الصين خلالها الحفاظ على مسافة واحدة من الطرفين. تجسد ذلك منذ عام ١٩٨١ من خلال تسليم المعدات العسكرية لكلا البلدين المتحاربين حيث شكلت الصين أحد الموردين الأساسيين للسلاح لكل من نظام الخميني وصدام حسين(٣١). وبالاستفادة من الصراع من أجل البيع السري للأسلحة لكلا البلدين من دون أن تنحاز إلى جانب بلد دون الآخر، فإن الصين، التي كانت قد اعترفت لبغداد بالحق في تطوير قدراتها النووية مع الرغبة في الحفاظ على علاقاتها الجيدة مع النظام الإيراني، أعلنت عن موقفها الذي يفضل اللجوء إلى الخيار التفاوضي لحل الصراع. وقد شهدت العلاقات بين الصين وإيران نمواً متسارعاً مع نشوب الحرب العراقية – الإيرانية حيث شكلت الصين مصدراً مهماً وأساسياً لتسليح طهران في حربها مع بغداد طوال فترة الحرب التي استمرت ثماني سنوات(٣٢).

المرحلة الرابعة: توطيد وتعزيز الوجود الصيني في الشرق الأوسط

كانت المرحلة الممتدة بين عامي ١٩٨٩ – ١٩٩٢ صعبة نسبياً للسياسة الصينية. فقد شهدت توتراً ناتجاً عن قمع السلطات الصينية لحركة ساحة تيان أن مين في عام ١٩٨٩(٣٣)، إضافة إلى قمعها لحركات التبت والأقلية المسلمة. وقد ظهرت عوامل

أخرى، كسقوط جدار برلين والاختفاء التدريجي للأنظمة الشيوعية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي، زادت من صعوبة وضع الصين وفاقمت من عزلتها السياسية على المسرح الدولي(٣٤).

إن تأثير هذه الأحداث على علاقات الصين بالشرق الأوسط كان، مع ذلك، لا يكاد يذكر. فبعد أن فرضت نفسها كواحد من الموردين الأساسيين للسلاح إلى المنطقة، وشريكاً حيوياً لبعض البلدان الخاضعة للحظر مثل إيران والعراق، نجحت الصين في أن تجلب لنفسها صداقات عواصم رئيسة في منطقة الشرق الأوسط. فالحكومات العربية الشرق أوسطية لم تطبق على الإطلاق أي عقوبات ضد العاصمة الصينية بكين ولم يقم أي زعيم خليجي بإدانة علنية لأي من الإجراءات التي تقوم بها السلطات الصينية. وفي هذا الصدد، فإن التطبيع الدبلوماسي بين الرياض وبكين، الذي أُنجز في حزيران من عام ١٩٩٠، وبداية المفاوضات بين "إسرائيل" وبكين بهدف تطبيع محتمل لعلاقاتهما أكدتا تعزيز مكانة الصين في الشرق الأوسط(٣٥).

وفي معرض إجابته على سؤال حول تأثير العلاقات الدبلوماسية "الإسرائيلية" – الصينية على العلاقات بين الصين والدول العربية، أجاب وزير الخارجية الصيني لي تشاوشينغ بأن استعادة الحقوق المشروعة لجميع البلدان العربية بما فيها فلسطين عن طريق المفاوضات السياسية على أساس قرارات الأمم المتحدة، ومبدأ الأرض مقابل السلام، والتعايش السلمي والتنمية المشتركة لدول المنطقة هي السبيل الصحيح. مُضيفاً أن خارطة الطريق للسلام في الشرق الأوسط هي خطة فعالة لتحقيق السلام بين "إسرائيل" وفلسطين، وأن مفاوضات السلام على المسارين السوري واللبناني تُعد جزءاً هاماً في حل قضية الشرق الأوسط. وأشار إلى أن الصين (كونها عضواً دائماً في مجلس الأمن الدولي) تسعى بشكل دائم إلى القيام بمساع لدى الطرفين العربي و"الإسرائيلي" لحثهما على الجلوس على طاولة مفاوضات السلام(٣٦).

تعززت الاتصالات وتكثفت بين كل من الصين و"إسرائيل" مع بداية التسعينيات من القرن الماضي حيث شكل افتتاح الممثلية "الإسرائيلية" في بكين عام ١٩٩٠ انطلاقة جديدة وانقلاباً حقيقياً في مستقبل العلاقات بين البلدين. وقد توجت هذه الاتصالات في عام ١٩٩١ بإعلانهما إقامة العلاقات الدبلوماسية رسمياً بينهما وتبادل الزيارات على أعلى المستويات الرسمية[٣٧].

إلا أن الغزو العراقي للكويت في آب عام ١٩٩٠ شكل تحدياً للسياسة الصينية لأنه خلق لها حالة خاصة معقدة ومتناقضة. وهي كعضو دائم في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، وجب عليها اتخاذ موقف يتماهى مع علاقاتها مع الدول العربية في المنطقة من جهة ولا يُخالف رغبة الدول الكبرى خاصة الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن الدولي من جهة أُخرى[٣٨]. لذلك، فإن إدانة العمل العراقي الذي يمكن أن يعكس صورة الصين في المجتمع الدولي على أنها قوة مسؤولة ومحترمة، يشكل في الوقت نفسه وسيلة لكسر العزلة التي غرقت بها منذ أحداث تيان آن مين ١٩٨٩، ولرفع العقوبات الاقتصادية التي شكلت الهدف الأساسي لجهود الدبلوماسية الصينية منذ عام ١٩٨٩. إلا أن أي موقف من الصين الشعبية تجاه الشرق الأوسط يجب أن يحسب بشكل دقيق بسبب الحساسية العالية التي ينطوي عليها هذا الموقف والنتائج التي يُمكن أن تتمخض عنه. فالصين باتخاذها موقفاً ضد بلدان الشرق الأوسط قد تؤدي إلى توجيه انتقادات تُفضي إلى فقدانها ثمار سياستها. فيجب عليها إذاً أن تحافظ على صداقتها السعودية الجديدة دون أن تُسيء في الوقت نفسه لمحادثاتها مع "إسرائيل" والتي ستؤدي في نهاية الأمر إلى إقامة علاقات دبلوماسية معها في كانون الثاني من عام ١٩٩٢[٣٩].

لقد سمح الموقف المعتدل نسبياً للصين في الأمم المتحدة من الحفاظ على جميع أصدقائها الشرق أوسطيين، دون أن تُعيق جهود وعمل الدول الغربية. فموافقة بكين على قراري الأمم المتحدة ٦٦٠ و ٦٦١ اللذين أدانا الهجوم العراقي على الكويت وأديا

إلى إصدار عقوبات على بغداد، وامتناعها عن التصويت على القرار ٦٧٨ الذي يسمح للدول الأعضاء في المنظمة الدولية باللجوء إلى استخدام القوة العسكرية عند الضرورة إضافة إلى رفضها المشاركة في التحالف الدولي ومطالبتها بانسحاب القوات الأجنبية من المنطقة فور انتهاء الحرب، يدلل على السياسة الحذرة والمعتدلة التي اتبعتها الصين خلال هذه الفترة في محاولة لإرضاء جميع الأطراف(٤٠).

بفضل تعزيز علاقاتها الاقتصادية والسياسية، حافظت الصين في منتصف التسعينيات على علاقات دبلوماسية مع كل عواصم الشرق الأوسط. وبعيداً عن كونها تشكل من الآن فصاعداً تهديداً للاستقرار الداخلي لهذه البلدان، فإن الصين ظهرت بخلاف ذلك، بفضل حقها في النقض، داعماً وشريكاً يتمتع بامتيازات تُمكن من إقامة حوار معها حول قضايا تتعلق بالأمن الإقليمي. وقد شاركت الصين في عام ١٩٩٢ في مؤتمر للسلام حول الشرق الأوسط في موسكو. وبفضل مبيعاتها الضخمة بشكل خاص، فإن الصين أعادت تموضعها كفاعل هام وأساسي على الساحة الشرق أوسطية(٤١).

في الوقت الذي كان وجودها واقعاً فعلياً على رقعة الشطرنج الشرق أوسطية المعقدة، وأن مصالحها –الطاقة بشكل خاص(٤٢)، في تطور وازدهار مستمرين، ظهرت الصين حذرة جداً في مواقفها خلال الحرب الثانية ضد العراق. وبعكس عام ١٩٩١، فان المجموعة الدولية لم تكن في مواجهة بلد يقوم بغزو بلد آخر، والصين بدورها لم تجد نفسها في حالة من العزلة السياسية. فموقفها أكثر بساطة: إعادة التأكيد على عدم شرعية الحرب دون موافقة الأمم المتحدة، وهو موقف يتمحور حول الاستماع لشركائها بدون تجاوز أفكارها الخاصة بها، وتوجيه انتقادات لينة للولايات المتحدة بهدف عدم الإساءة لعلاقاتها مع إدارة بوش والدفاع عن اتفاقياتها الاقتصادية السابقة الموقعة بين بغداد والصين(٤٣).

لقد طغت، خلال العقود الثلاث الأخيرة، البراغماتية الاقتصادية على الإيديولوجية الشيوعية والسياسية في سياسة الصين وعلاقاتها الخارجية. فهمها الأساسي هو تحقيق

التنمية الاقتصادية دون أن تلتفت إلى المصدر أو الوسيلة أو المنهج المتبع. همها الأساسي هو تحقيق وبناء صين قوية اقتصادياً منتهجة في ذلك مبدأ الفيلسوف الصيني دنج شياوبنغ: «لا يهم لون القطة طالما تصطاد الفئران(٤٤)».

المرحلة الخامسة: الصين والشرق الأوسط في بداية القرن الواحد والعشرين

تعتمد الصين في هذه المرحلة في علاقاتها مع الشرق الأوسط على الحضور السياسي والدبلوماسي لكن دون أن يكون لها دور الوسيط في حل المشاكل. فقد ظهرت الصين كشريك اقتصادي وسياسي مهم، وكقوة كبرى لتعزيز التأثير الذي لا يزال ضعيفاً على المسائل الإقليمية. بالمقابل، فإن الصين، التي يكاد يختفي دورها أمام دور الولايات المتحدة الأمريكية، أعلنت عن استعدادها للانتقال للعب دور أكثر تأثيراً بشرط أن يُطلب منها ذلك. فاستمرت في توجيه الاتهام للأمريكان بعرقلة العلاقات الاقتصادية الصينية مع منطقة الشرق الأوسط. كما أنها استمرت في الدعوة إلى استئناف المفاوضات العربية – "الإسرائيلية". وعلى الرغم من عدم كونها عضواً في اللجنة الرباعية الدولية قامت الصين بإرسال مبعوثٍ خاصٍ للشرق الأوسط (وانغ شي جيه) في عام ٢٠٠٢. فالغاية الصينية من وراء هذه الخطوة السياسة هي إثبات وجودها على الساحة الدولية، على الرغم من عدم تمكنه من القيام بأي دور مؤثر خلال زياراته المتكررة إلى الإقليم(٤٥).

وأعلنت الصين تأييدها لإعلان برلين في ٢٥ آذار لعام ١٩٩٩ الذي يعترف بحق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم، وخارطة الطريق التي وضعتها اللجنة الرباعية للشرق الأوسط (الاتحاد الأوربي وروسيا والأمم المتحدة والولايات المتحدة). إلا أن دعم الصين لكل من لبنان وسورية وفلسطين ولحقها في استعادة أراضيها مرهون باستمرار هذه الأطراف بدعم توحيد تايوان مع الصين أو أن تقوم هذه الأطراف

بإيجاد مصالح إستراتيجية وإقامة علاقات اقتصادية أكثر تطوراً. وقد برز تغير واضح في المواقف السياسية الصينية فيما يخص الصراع العربي – "الإسرائيلي" وتعاطيها مع هذه القضية، حيث برز ذلك بشكل جلي خلال العدوان "الإسرائيلي" على كل من لبنان وغزة. فبعد أن كانت تُطالب بانسحاب "إسرائيل" من كافة الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧ أصبحت تؤيد أي اتفاق يحظى بموافقة الأطراف المعنية بالصراع[٤٦].

إن المحاور الأساسية التي تدور حولها علاقات الصين مع بلدان الشرق الأوسط المختلفة في هذه المرحلة هي: المحور الأول يتمثل بالتعاون العسكري (مبيعات الأسلحة) باعتبار سوق الشرق الأوسط سوقاً واعدةً ومهمة للسلاح والصناعات العسكرية والمدنية الصينية. أما المحور الثاني فهو محور النفط والطاقة اللذين يشكلان مصدرين أساسيين للصناعات الصينية. واستمرت المشاورات الصينية مع دول مجلس التعاون الخليجي لإنشاء منطقة تجارة حرة صينية خليجية[٤٧].

وجاء إنشاء منتدى الحوار العربي – الصيني في ٢٠٠٤، تقليداً للمنتدى الصيني الإفريقي[٤٨]، ليشكل خطوة هامة باتجاه تعزيز التعاون الاستراتيجي الصيني العربي في المجالات الاقتصادية والتجارية والسياسية والثقافية. وينظر العرب إلى هذا المنتدى على أنه عامل مساعد في تشجيع كافة أشكال التعاون ومحفز لإطلاق الآليات التي تغطي مجالات هذا التعاون ووضع هذه العلاقات في إطار مؤسساتي جماعي ينظم العلاقات الثنائية ويطورها[٤٩].

لقد نجحت الصين في تقليص الهوة التقنية بينها وبين الدول المتقدمة الصناعية. وعلى مستوى علاقاتها مع الجوار الأسيوي القريب نجحت الصين إلى حد كبير في تطبيع علاقاتها وإزالة مصادر التوتر مع اليابان وروسيا وفيتنام، وإنهاء النزاع الحدودي مع الهند. لقد وصف الخبير الأمريكي ديفيد شامياو الدبلوماسية الصينية في آسيا المجاورة بأنها «أحادية الجانب ومتعددة الأطراف ومهذبة، كسبت مديحاً في المنطقة ونظرت

إليها بلدان المنطقة على أنها جار جيد وشريك بناء ومستمع شديد الحرص، وقوة إقليمية لا تهدد أحداً[٥٠]».

تنطلق العلاقات الصينية بدول الجنوب في القرن الواحد والعشرين - ومنها بالطبع بلدان الشرق الأوسط - لتتوسع أكثر فأكثر. وتُعطى الأولوية في هذه العلاقات للمناطق الغنية بمنتجات الطاقة والمواد الخام. إن الإستراتيجية الصينية فيما يتعلق بالطاقة ركزت على أولويتين أساسيتين: الأولى هي تأمين الطاقة بشكل دائم، ذلك أن الصين شأنها شأن كوريا الجنوبية واليابان وتايوان تستهلك ٢٧% من المنتجات البترولية في الوقت الذي لا تنتج فيه سوى ٩% ولا تمتلك منظمة على شاكلة منظمة أبك. أما الأولوية الثانية فهي ضمان خطوط نقل ما تحتاج إليه من المواد الأولية[٥١].

وفي الوقت الذي تواجه فيها تعقيدات المسائل السياسية التي تتميز بها المنطقة، تحاول الصين أن تتخذ موقفاً توفق فيه بين موقفها الداعم للقضايا العادلة للشعوب وعلاقتها مع الدول الأخرى الفاعلة والمؤثرة في هذه القضايا. وبتعبير آخر، كانت الصين تتجنب بشكل دائم أن تدخل في صدامات مباشرة مع هذه الدول[٥٢].

وبدأت الصين ترى نفسها أكثر قرباً من الدول المتقدمة بعد أن اعترفت بها هذه الأخيرة كقوة عظمى تملك حق النقض في أقوى هيئة دولية وهي مجلس الأمن الدولي. فكان لذلك نتائج على نهج الدبلوماسية الصينية التي لم تعد ترى هناك حاجة ماسة، كما كان في السابق، لبناء علاقات دبلوماسية مع دول صغيرة غير مؤثرة من أجل كسب صوتها على الساحة الدولية. من ناحية أُخرى، فإن نظام السوق الرأسمالي الذي اتبعته الصين يتطلب منها أن تكون علاقاتها مع العالم الرأسمالي أهم وأجدى من تلك العلاقات مع العالم الثالث. لقد تغيرت المصالح الإستراتيجية للصين، تبعها من دون شك تغير في سياستها مع دول العالم الثالث ومن بينها منطقة الشرق الأوسط[٥٣].

وهناك جهود ومساعٍ كبيرة ومتبادلة بهدف تطوير وتنمية العلاقات السياسية والاقتصادية بين الصين ودول الشرق الأوسط. إلا أن العقبة الجوهرية في بلوغ

العلاقات الصينية الشرق أوسطية هو أن الشرق الأوسط منطقة تضارب وتناقض في المصالح الدولية من جهة، ووجود عوامل عدم استقرار كثيرة إضافة إلى تعقيد الأوضاع وتغيرها[٥٤].

وتدور العلاقات العربية الصينية في القرن الواحد والعشرين حول شبكة مصالح واسعة تدور حول القضية الفلسطينية، وقضية أمن الخليج، وقضية التوازن الاستراتيجي في الشرق الأوسط، وقضية الوحدة الصينية، وقضية الإرهاب الدولي والتعاون الاقتصادي، وقضايا العولمة وحوار الحضارات[٥٥].

وتسعى الصين إلى مزيد من توسيع التعاون ذي المنفعة المتبادلة في مجالات الطاقة والاقتصاد والتجارة والتكنولوجيا بينها وبين الدول العربية بما فيها دول الخليج المنتجة للبترول لدفع علاقات التعاون الصيني – العربي إلى مستوى جديد في هذا القرن[٥٦]. إن حاجة الصين إلى الطاقة في ازدياد مطرد، حيث شكلت مصادر الطاقة النسبة الأكبر في قيمة التبادل التجاري بين العالمين الصيني والعربي الذي بلغ ٧٠ مليار دولار في عام ٢٠٠٧. وسوف ترتفع مستوردات الصين من الطاقة التي تستهلكها إلى أكثر من ٧٥% في عام ٢٠٣٠[٥٧].

ويشكل توسيع التبادل الثقافي وزيادة وتطوير التبادل الاقتصادي وإنشاء مناطق تجارة حرة وإعطاء مزيدٍ من الحرية للمسلمين في الصين ومساعدة الدول العربية في الحصول على مقعد دائم في مجلس الأمن والتعاون مع العرب لتصحيح الميزان الاستراتيجي في الشرق الأوسط وتطوير دور الصين في القضية الفلسطينية والضغط على "إسرائيل" وضرورة الحد من طغيان العلاقات مع "إسرائيل" على حساب العلاقات مع العرب وتفعيل المنتدى العربي – الصيني والتعاون في القضايا الدولية ذات الاهتمام المشترك أهم الخطوات من أجل تمتين وتطوير العلاقات – العربية الصينية في القرن الواحد والعشرين الحالي[٥٨].

خاتمة:

إن طموحات الصين السياسية بقيت متواضعة من جهة وخاضعة لاعتبارات سياسية من جهة أخرى. فالهدف الأساسي لسياسة الصين في الشرق الأوسط لم يكن يوماً يلعب دوراً أساسياً ومحورياً في حل القضايا الإقليمية حيث تركت هذه المهمة للولايات المتحدة، وهو ما يجنبها الدخول في مواجهة مباشرة مع هذه الأخيرة. فالتواجد الصيني في المنطقة يتمثل بشكل أساسي من خلال عمليات بيع الأسلحة ونقل التكنولوجيا ذات الطابع الحساس لبعض دول الشرق الأوسط وهو ما يُطلق عليه سياسة الدعم الخفي لبعض البلدان والرغبة في تقليص هامش المناورة الذي تتمتع به الولايات المتحدة في المنطقة. ولهذا السبب كانت الصين تشترط في محادثاتها مع أمريكا بشأن مبيعات الأسلحة بأن تتوقف هذه الأخيرة عن تقديم الدعم العسكري لتايوان. وتنطوي عمليات بيع الأسلحة الصينية، خاصة المتطورة، على مخاطر حساسة فيما يتعلق بالسياسة الأمريكية التي تتمثل بانخفاض مبيعاتها من الأسلحة وتهديد أمن "إسرائيل" وتخلخل مبدأ التفوق العسكري "الإسرائيلي" والخشية من سعي بعض الدول والحكومات الشرق أوسطية للخروج من عباءة الهيمنة الأمريكية وبالتالي تهديد مصالح وأمن أمريكا للخطر.

ومع كل الجهود التي بذلتها الصين في منطقة الشرق الأوسط، فإنها لم تُظهر إلا «مقاومة معتدلة للقوة العظمى الأمريكية بهدف الحفاظ على الحوار والتعاون الاقتصادي والتكنولوجي مع واشنطن شريكها التجاري الأساسي[٥٩]». فالرؤية الصينية للمنطقة تُركز على استراتيجية التعاون وليس التصادم مع الولايات المتحدة لأن الصين ليس لها النية ولا المصلحة ولا القدرة على الدخول في صراع مع الولايات المتحدة الأمريكية في منطقة تعتبرها الصين منطقة نفوذ أمريكية بامتياز[٦٠].

فالعلاقات السياسية الصينية الشرق أوسطية تخضع لرغبة الصين في الحفاظ على مصالحها مع القوى الرئيسية في المنطقة مثل مصر وإيران وتركيا وإتباع سياسة حذرة ومتوازنة فيما يتعلق بالصراع الفلسطيني - "الإسرائيلي".

وكان وجود الصين في المنطقة قد خضع لعلاقاتها مع الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، وتطور وضعها وتأثيرها في المنطقة مع قبولها عضواً دائماً في مجلس الأمن الدولي، ومن ثم مع صعودها الاقتصادي. لم تبنِ الصين سياسة إستراتيجية ثابتة في سياستها تجاه المنطقة. فكانت تابعة للاتحاد السوفيتي في البداية ومراعية لعلاقاتها مع الولايات المتحدة فيما بعد.

وفي النهاية، فإن النمو السريع للقوة الاقتصادية والإستراتيجية الصينية الخاضعة لاعتبارات براغماتية اقتصادية تتركز على العلاقات والاتفاقيات الاقتصادية وزيادة المبيعات التكنولوجية وخاصة مبيعات الأسلحة، عدلت وبشكل عميق المشهد العالمي والعلاقة بين الفاعلين الأساسيين على المسرح الشرق أوسطي.

لا شك أن العوامل النفطية والاقتصادية التجارية والجيو- استراتيجية كانت من أهم العوامل التي شجعت الساسة الصينيين لاتباع سياسة خارجية جديدة تتخطى الحدود الإقليمية والشعارات الإيديولوجية.

وأخيرا، خلافاً لما هو سائد بين النخب العربية من القول بان السياسة الصينية منسجمة مع القضايا والهموم العربية، يرى بعض المحللين والمهتمين بهذا الشأن بأن هذه العلاقة منسجمة مع مصالحها أكثر من انسجامها مع القضايا العربية. ومما يدلل على ذلك أن الصين لم تتبع سياسة مناقضة لسياسة الولايات المتحدة تجاه دول الشرق الأوسط العربية[٦١].

الهوامش

(١) مصطلح غربي، استخدم بشكل كبير خلال الحرب العالمية الثانية، وهو يشمل كلاً من سوريا ولبنان وفلسطين والأردن والعراق والخليج العربي ومصر وتركيا وإيران. والهدف الأساسي من هذه التسمية، ومن إدخال دول غير عربية عليه، هو تجنب استخدام مصطلحات المنطقة العربية والوطن العربي، ونزع صفة الوحدة العربية عنه. واقترنت مع مصطلح الشرق الأوسط تعابير، كأزمة الشرق الأوسط وقضية الشرق الأوسط لتشير إلى الحروب العربية - الإسرائيلية والتوترات الناتجة عن الصراع العربي- الصهيوني، والمقاومة، إضافة إلى الجهود والمباحثات والمؤتمرات الدولية، والحلول المطروحة فيما يخص الصراع العربي - الصهيوني والقضية الفلسطينية. حول ذلك، انظر الكيالي، عبد الوهاب، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الجزء الثالث، ١٩٨٥، ص ٤٥٦.

(٢) أهم المشاكل الإقليمية الأسيوية التي لها تأثير على الأمن القومي الصيني هي: قضية تايوان، والوضع في شبه الجزيرة الكورية، والهند الصينية، واليابان وصعود دورها في المنطقة إضافة إلى تنامي دور الولايات المتحدة وتأثيره على مجمل الوضع في آسيا. حول علاقات الصين مع جيرانها الأسيويين، ننصح بالعودة إلى كتاب، MAUREL Chloé, La Chine et le monde, Groupe Vocatis, France, 2008.

(٣) بهبهاني، هاشم، سياسة الصين الخارجية في العالم العربي ١٩٥٥ – ١٩٧٥، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨٤، ص ١٠، ١١ .

(٤) NELOPI Maria, «La Chine et le Moyen-Orient», *Monde chinois*, n°4, Printemps 2005، p.35-51 . حضر المؤتمر ٢٦ دولة من بينها ١٨ دولة لا تعترف بالصين، والأغلبية منها ترتبط بالولايات المتحدة الأمريكية باتفاقيات ومعاهدات عسكرية مباشرة وغير مباشرة تُجبرها على تبني نفس موقف الولايات المتحدة الأمريكية. بهبهاني، مرجع سابق، ص.١٢

(5) NELOPI, op, cit., p. 35-51

(٦) كانت مصر في تلك الفترة قد دخلت في صراع مع القوى الغربية حول مسائل تمويل سد أسوان وتأميم قناة السويس.

(٧) اعترفت الصين بحكومة الجزائر المؤقتة في أيلول من عام ١٩٥٨، وهي أول دولة غير عربية تعترف بها. ثم أُقيمت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين. وتطورت العلاقات الثنائية بين البلدين بشكل ملفت بعد استقلال الجزائر في عام ١٩٦٢ حيث ساهمت الجزائر بشكل فاعل في استعادة الصين لمقعدها الشرعي في الأمم المتحدة. LAFARGUE François, «La Chine et l'Algérie entre amitié et realpolitik», monde chinois, n°10, Printemps-été 2007, p.45-54

(٨) بهبهاني، مرجع سابق، ص ١٢، ٣٨

(٩) الصيفي، شكري: **العلاقة – العربية الصينية بين براغماتية الاقتصاد ولعبة السياسة**، الطليعة، العدد ١٨٤٧، ٢٠١٠

(١٠) الحمش، منير: **الصين عملاق قادم من الشرق**، مجلة دراسات إستراتيجية، العدد الرابع، ٢٠٠٢، ص ٤٣ – ٩١

(11) NELOPI, op, cit., p. 35-51

(12) *Idem*, p. 35-51

(13) *Idem*, p. 35،51

(١٤) للمزيد حول الثورة الثقافية في الصين، يمكن الرجوع إلى المقال التفصيلي لـ عبد الرحمن، أحمد حسين: **الثورة الثقافية في تاريخ الصين**، عالم الفكر، المجلد التاسع عشر، العدد الأول ، نيسان – أيار – حزيران، ١٩٨٨، ص ١٠١ – ١٥٢.
وباللغة الفرنسية، يمكن العودة إلى كتاب:

ROUX Alain: La Chine au XXe siècle, Armand Colin، 4e éditions, Paris, 2006, pp. 108 – 113.

(١٥) جاءت حركة ظفار من اندماج جمعية ظفار الخيرية ومنظمة الجنود الظفاريين في قوة واحدة سميت جبهة تحرير ظفار في عام ١٩٦٤. وقد أُعلن رسمياً في التاسع من حزيران عام ١٩٦٥ بدء النضال المسلح. كان الهدف الأساسي هو الإطاحة بحكم السلطان سعيد بن تيمور في عُمان. ويعود السبب في اختيار ظفار للنضال المسلح في عُمان هو نضوج الأوضاع الجماهيرية والسياسية لحركة مسلحة ضد البريطانيين والسخط والنقمة الشعبية. أما السبب الأخر فيعود إلى البعد النسبي للمنطقة عن المراكز العسكرية ومراكز الإمداد وملاءمة المنطقة لحرب العصابات بالنظر للطبيعة الجبلية التي تتمتع بها المنطقة. حول هذه المعلومات وللمزيد حول معلومات أخرى حول هذه الحركة: نشأتها وتطورها ونشاطاتها انظر: شهداد، إبراهيم محمد إبراهيم: **الصراع الداخلي في عُمان خلال القرن العشرين ١٩١٣ – ١٩٧٥**، دار الأوزاعي، ط ١، ١٩٨٩، ص ١٤٣ – ٢٧١

(١٦) أُنشئت منظمة الحرس الأحمر في عام ١٩٦٦ من قبل ماوتسي تونغ. تكون أعضاؤها من طلاب يتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٢٥ سنة بشرط أن يكونوا من أبناء جنود أو عمال أو فلاحين أو أبناء لشهداء الثورة. وقد أُقيمت مراكز تدريب لهم ونظموا على شكل فرق عسكرية لها شرطتها الخاصة. عُقدت أول اجتماعات

المنظمة في ميدان بوابة السلام الدائم في بكين، وحضر الاجتماع ماوتسي تونغ ولين بياو. عن الحرس الأحمر، انظر: شبل، فؤاد محمد، حكمة الصين: **دراسة تحليلية لمعالم الفكر الصيني منذ أقد العصور**، جزءان، الجزء الثاني، دار المعارف، مصر ١٩٦٨، ص ٣٦٩ – ٣٧٣. وباللغة الفرنسية، يمكن العودة لكتاب:

Goldman Merle: Histoire de la Chine des origines à nos jours, Éditions Tallandier, Paris, FAIRBANK John K et 2010, pp. 557 – 559

(17) NEPOLI, op, cit., p. 35-51

(١٨) بهبهاني، مرجع سابق، ص ٣٤، ٣٥

(١٩) المرجع نفسه، ص ٥٣-٥٧

(٢٠) حلت محل الصين الوطنية (تايوان) في عام ١٩٧١.

(21) NEPOLI, op, cit., p. 35-51

(٢٢) شحرور، عزت: **الصين والشرق الأوسط:** ملامح مقاربة جديدة، مركز الجزيرة للدراسات.

(23) NEPOLI, op, cit., p. 35-51

(24) *Idem*, p. 35-51

(25) JAKOBSON L. et DAOJIONG Zha, «China and the worldwide search for oil security», *Asia-Pacific Review*, vol, 13, n°2, 2006, p. 60-74

(26) NEPOLI, op, cit., p. 35-51

(27) *Idem*, p.35-51

(٢٨) الحمش، مرجع سابق، ص ٤٣ – ٩١

(29) NEPOLI, op, cit., o.35-51

(30) *Idem*, p. 35-51

(31) CABESTAN Jean-Pierre, La politique internationale de la Chine, Presses de Science Po, Paris 2010, p.371

(٣٢) شحرور، مرجع سابق

(33) ROUX, op, cit., p. 132-136 :حول هذا الموضوع انظر

(34) NEPOLI, op, cit.، p. 35-53

(35) *Idem*, p. 35-51

(٣٦) حديث وزير الخارجية الصيني لي تشاوشينغ مع مراسلة وكالة أنباء الشرق الأوسط في بيجينغ، وزارة خارجية جمهورية الصين الشعبية

(٣٧) الحمراوى، محمد عبد الفتاح: **السياسة الخارجية الصينية**،

http:/elhamrawy.blogspot.com/2008/09/blog-post_7938.htlm

للمزيد حول العلاقات الصينية-الإسرائيلية وتطورها، انظر:

SADAA Julien, «Chine-Israël, vers un partenariat à long terme?», *monde chinois*, Automne، n° 23, 2010, p. 19-26

(٣٨) على العكس من ذلك، فقد أدانت الصين الاعتداء الفيتنامي على كمبوديا وكذلك السوفيتي على أفغانستان.

(39) NEPOLI, op, cit., p. 35-51

(40) *Idem*, p. 35-51

(41) *Idem*, p. 35-51

(٤٢) انتقلت الصين منذ عام ١٩٩٣ من بلد مكتفٍ ذاتياً من البترول إلى بلد مستورد له. الصين اليوم، العدد ٢، شباط ٢٠٠٣

(43) NEPOLI, op, cit., p. 35-51

(٤٤) الحمد، جواد: **اتجاهات ومحددات تطوير العلاقات الصينية – العربية** ٢٠٠٥ – ٢٠١٠، مركز دراسات الشرق الأوسط، عمان

(٤٥) الصيفي، مرجع سابق

(٤٦) المرجع نفسه

(٤٧) نظراً للمخاطر التي تنطوي عليها علاقات الصين مع دول تصنف من الدول المارقة من قبل واشنطن كإيران التي تُشكل شريك مهم للصين في المجال النفطي، فإن الصين لم تعد تتردد في لعب دور المصدر للسلاح لبعض دول الشرق الأوسط من أجل تأمين السيطرة على السوق البترولية. انظر :

LOROT Pascal, Le siècle de la Chine, essai sur la nouvelle puissance chinoise, Choiseul, Paris 2007, p. 223-224

(48) DRULHE Christile, «Chine : retour en Afrique», *les nouvelles de Chine,* n° 10-11, novembre – décembre 2003

(٤٩) الصين اليوم، العدد ٤، نيسان ٢٠٠٣

(٥٠) بولارد، مارتن: **دبلوماسية الوضع الراهن الصين: مملكة وسطى**، مركز للعالم، ترجمة رلى صالح أبو ناصر، الثقافة العالمية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ١٣٩، تشرين أول – كانون أول، ٢٠٠٦، ص ٥٢ – ٦١

(51) COHEN Philippe, RICHARD Luc, Le Vampire du Milieu, comment la Chine nous dicte sa loi, Mille et nuits، Paris 2010, p. 52

ظهرت الإستراتيجية البترولية، والتي تتعلق بالدرجة الأولى بالأمن الوطني، بعد ازدياد التطور الاقتصادي وازدياد حاجة الصين إلى مصادر الطاقة اللازمة لصناعاتها. حول ذلك انظر: LOROT، op. cit، p. 219

(٥٢) أنور، عبد الملك: **نهضة الصين "الصعود السلمي" في عالم متعدد الأقطاب**، السياسة الدولية، العدد الواحد والستون بعد المائة، يوليو ٢٠٠٥، ص ٢٢ - ٢٩

(٥٣) بريزات، فايز: **هل الصين تتجه إلى إتباع سياسة مناقضة لسياسات الولايات المتحدة في المنطقة العربية؟** مركز الدراسات الدولية والإستراتيجية، واشنطن

(٥٤) جيان، لي وى، **تحليل ودراسة العلاقات بين الصين ودول الشرق الأوسط**، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٤٥، يوليو ٢٠٠١

(٥٥) الصين اليوم، العدد ١٢، كانون أول ٢٠٠٢

(٥٦) الصين اليوم، العدد ٢، شباط ٢٠٠٣

(57) COURMONT Barthélémy, Chine, la Grande séduction, essai sur le soft power chinois, Choiseul, Paris 2009, pp. 102-103

(٥٨) الحمد، مرجع سابق

(59) NEPOLI, op, cit., p. 35-51

(٦٠) الحمراوى، مرجع سابق

(٦١) بريزات، مرجع سابق

المراجع

- **المراجـــع العربية**

١- أنور، عبد الملك، نهضة الصين "الصعود السلمي" في عالم متعدد الأقطاب، السياسة الدولية، العدد الواحد والستون بعد المائة، يوليو ٢٠٠٥

٢- الحمد، جواد، اتجاهات ومحددات تطوير العلاقات الصينية – العربية ٢٠٠٥ – ٢٠١٠، مركز دراسات الشرق الأوسط، عمان

٣- الحمراوى، محمد عبد الفتاح، السياسة الخارجية الصينية، http:/elhamrawy.blogspot.com/2008/09/blog-post_7938.htlm

٤- الحمش، منير، الصين عملاق قادم من الشرق، مجلة دراسات إستراتيجية، العدد الرابع، ٢٠٠٢

٥- الصيفي، شكري، العلاقة – العربية الصينية بين براغماتية الاقتصاد ولعبة السياسة، الطليعة، العدد ١٨٤٧، ٢٠١٠

٦- الصين اليوم، العدد ٤، نيسان ٢٠٠٣

٧- الصين اليوم، العدد ١٢، كانون أول ٢٠٠٢

٨- الصين اليوم، العدد ٢، شباط ٢٠٠٣

٩- الكيالي، عبد الوهاب، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الجزء الثالث، ١٩٨٥

١٠- بريزات، فايز، هل الصين تتجه إلى إتباع سياسة مناقضة لسياسات الولايات المتحدة في المنطقة العربية؟ مركز الدراسات الدولية والإستراتيجية، واشنطن

١١- بهبهاني، هاشم، سياسة الصين الخارجية في العالم العربي ١٩٥٥ - ١٩٧٥، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت

١٢- بولارد، مارتن، دبلوماسية الوضع الراهن الصين: مملكة وسطى، مركز للعالم، ترجمة رلى صالح أبو ناصر، الثقافة العالمية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ١٣٩، تشرين أول - كانون أول، ٢٠٠٦

١٣- جيان، لى وى، تحليل ودراسة العلاقات بين الصين ودول الشرق الأوسط، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٤٥، يوليو ٢٠٠١

١٤- شبل، فؤاد محمد، حكمة الصين: دراسة تحليلية لمعالم الفكر الصيني منذ أقدم العصور، جزءان، الجزء الثاني، دار المعارف، مصر ١٩٦٨

١٥- شحرور، عزت، الصين والشرق الأوسط: ملامح مقاربة جديدة، مركز الجزيرة للدراسات

١٦- شهداد، إبراهيم محمد إبراهيم، الصراع الداخلي في عُمان خلال القرن العشرين ١٩١٣ - ١٩٧٥، دار الأوزاعي، ط ١ ١٩٨٩

١٧- عبد الرحمن، أحمد حسين، الثورة الثقافية في تاريخ الصين، عالم الفكر، المجلد التاسع عشر، العدد الأول، نيسان - أيار - حزيران، ١٩٨٨

١٨- حديث وزير الخارجية الصيني لي تشاوشينغ مع مراسلة وكالة أنباء الشرق الأوسط في بيجينغ، وزارة خارجية جمهورية الصين الشعبية

• المراجع الأجنبية

1- CABESTAN Jean-Pierre, La politique internationale de la Chine, Presses de Science Po, Paris 2010

2- COHEN Philippe, RICHARD Luc, Le Vampire du Milieu, comment la Chine nous dicte sa loi, Mille et nuits, Paris 2010

3- COURMONT Barthélémy, Chine, la Grande séduction, essai sur le soft power chinois, Choiseul, Paris 2009

4- DRULHE Christile, «Chine : retour en Afrique», *les nouvelles de Chine,* n° 10-11, novembre – décembre 2003

5- FAIRBANK John K et Goldman Merle, Histoire de la Chine des origines à nos jours, éditions Tallandier, Paris, 2010

6- JAKOBSON L. et DAOJIONG Zha, «China and the worldwide search for oil security», *Asia-Pacific Review*, vol, 13, n°2, 2006

7- LAFARGUE François, «La Chine et l'Algérie entre amitié et realpolitik», *monde chinois*, n°10, Printemps-été 2007,

8- LOROT Pascal, Le siècle de la Chine, essai sur la nouvelle puissance chinoise, Choiseul, Paris 2007

9- MAUREL Chloé, La Chine et le monde, Groupe Vocatis, France, 2008

10- NELOPI Maria, «La Chine et le Moyen-Orient», *Monde chinois*, n°4, Printemps 2005

11- ROUX Alain: La Chine au XXe siècle, Armand Colin, 4e éditions, Paris, 2006

12- SADAA Julien, «Chine-Israël, vers un partenariat à long terme?», *monde chinois*, Automne, n° 23, 2010